

فوائد القرآن

دقائق تفسيرية متقنة



مكتبة



إعداد

دكتور/ هادي جبريل الطولوني زهري

obeikandi.com

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلّم تسليماً كثيراً.

ثمّ أمّا بعد: فهذه فوائد قرآنية منتقاة من كتب التفسير المختلفة، وفيه جمعت الفوائد اللغوية والإيمانية من الكتب الآتية:

- «الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي».
- «التحرير والتنوير لابن عاشور».
- «أضواء البيان للشنقيطي».
- «في ظلال القرآن لسيد قطب».
- «بلاغة الكلمة في التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي».
- «لمسات بيانية في نصوص التنزيل للدكتور فاضل السامرائي».
- «معاني الأبنية في العربية للدكتور فاضل السامرائي».
- «كتاب تدبر» - المجموعة الأولى.

وربما انتقيت بعض الفوائد من الكشف للزمخشري، ومفاتيح الغيب للرازي، والبحر المحيط لأبي حيان، وروح المعاني للألوسي، والبيان في الأقسام القرآنية لابن القيم، والله المسئول أن ينفعني بهذا الكتاب أنا وجميع المسلمين والمسلمات في الدنيا والآخرة.

وكتبه

د/ هشام عبد الجواد الزهيري

obeikandi.com



سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾﴾ (الْفَاتِحَةُ: ١-٧).

قال د. فاضل: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

معنى ﴿الْحَمْدُ﴾: الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها مع المحبة والإجلال. فالحمد: أن تذكر محاسن الغير، سواء كان ذلك الثناء على صفة من صفاته الذاتية كالعلم والصبر والرحمة والشجاعة، أم على عطائه وتفضله على الآخرين. ولا يكون ﴿الْحَمْدُ﴾ إلا للحي العاقل. وهذا من أشهر ما فُرق بينه وبين المدح. فإنك قد تمدح جماداً، وقد تمدح حيواناً ولكن لا تحمده، فقد تقول كلاماً في مدح الديك، وفي مدح البقر، وفي مدح الكلب، وفي مدح الذهب، وفي مدح اللؤلؤ وغير ذلك، ولكن لا تحمده. ومما ذكر في الفرق بينهما أيضاً:

«إنَّ المدح قد يكون قبل الإحسان، وقد يكون بعده، أما الحمد فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان». فإن الحمد يكون لما هو حاصل من المحاسن في الصفات، أو الفعل، فلا يُحمد مَنْ ليس في صفاته ما يستحق الحمد، ولا يُحمد مَنْ لم يفعل جيداً. أما المدح، فقد يكون قبل ذلك، فقد تمدح إنساناً ولم يفعل شيئاً من المحاسن والجميل ولذا كان المدح منهياً عنه، بخلاف الحمد، فإنه مأمور به، فقد قال ﷺ: «احشوا التراب في وجوه المذّاحين». في حين قال: «مَنْ لم يحمِدِ النَّاسَ لم يحمِدِ الله».

وهناك فرق آخر بين الحمد والمدح، وهو أن في الحمد تعظيماً وإجلالاً ومحبة، ما ليس في المدح. فكان اختيار «الحمد» في قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أولى من اختيار «المدح».

وفُرقوا بين الحمد والشكر، فقالوا: «إنَّ الحمد يعُمُّ ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك، وأما الشكر، فهو مختص بالإنعام الواصل إليك».

فَأَنْتَ تشكر الشخص إذا أوصلَ إليك نعمةً، وأما الحمدُ فإنه لا يختص بذاك، فإنك تحمدهُ على إنعامه لك، أو لغيرك.

ومن جهة أخرى، إن الشكرَ لا يكون إلا على النعمة، ولا يكون على صفاته الذاتية، فإنك لا تشكرُ الشخصَ على علمه، أو على قدرته وقد تحمده على ذاك. جاء في «لسان العرب»: «والحمد والشكر متقاربان والحمد أعمُّهما، لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية، وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته».

فكان اختيار الحمد أولى أيضاً من الشكر، لأنه أعمُّ، فإنك تُثني عليه بنعمه الواصلة إليك، وإلى الخلق أجمعين، وتثني عليه بصفاته الحسنى الذاتية، وإن لم يتعلق شيء منها بك. فكان اختيار «الحمد» أولى من المدح والشكر.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أنه قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولم يقل: «أحمد الله»، أو: «نحمد الله»، وما قاله أولى من وجوه:

منها: أن قولنا «أحمد الله» أو «نحمد الله» مختصُّ بفاعل معين. ففاعل «أحمد» هو المتكلم، وفاعل: «نحمد» هم المتكلمون، في حين أن عبارة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مطلقة لا تختصُّ بفاعل معين وهذا أولى. فإنك إذا قلت: «أحمد الله» أخبرت عن حمدك أنت وحدك، ولم تُفد أن غيرك حمده، وإذا قلت: نحمد الله، أخبرت عن المتكلمين ولم تفد أن غيركم حمده، في حين أن عبارة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لا تختص بفاعل معين فهو المحمود على وجه الإطلاق، منك ومن غيرك.

ومنها: أنك إذا قلت: أحمد فلاناً، لا يعني أنه يستحقُّ الحمد فقد تُثني على شخص لا يستحقُّ الثناء، وقد يهجو شخصٌ شخصاً، وهو لا يستحق الهجو، ذلك أن الشخص قد يضع المدح في غير موضعه، ويضع الهجو في غير موضعه، ويفعل أفعالاً لا ينبغي أن يفعلها، فأنت إذا قلت: أحمد الله، أخبرت عن فعلك، ولا يعني ذلك أن مَنْ تحمده يستحقُّ الحمد في حين أنك إذا قلت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أفاد ذلك استحقاق الله للحمد وليس ذلك مرتبطاً بفاعل معين.

ومنها: أن قولك: «أحمد الله»، أو: «نحمد الله»، مرتبطٌ بزمان معين، لأن الفعل له دلالة زمنية معينة، فالفعل المضارع يدل على الحال، أو الاستقبال، ومعنى ذلك أن الحمد لا يحدث في غير هذا الزمان الذي تحمده فيه ولا شك أن الزمن الذي يستطيع الشخص أو الأشخاص الحمد فيه محدود، وهكذا كلُّ فعلٍ يقوم به الشخص محدود الزمن، فإن أقصى ما يستطيع أن يفعله، أن يكون مؤتباً بعمره، ولا يكون قبل ذاك وبعده فعلٌ فيكون الحمد أقل مما ينبغي، فإنَّ حمد الله لا ينبغي أن ينقطع ولا يُحدَّ بفاعل، أو بزمان في حين أن عبارة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مُطلقة غير مقيدة بزمان معين، ولا بفاعل معين، فالحمد فيها مستمرٌ غير منقطع.

ومن ذلك أن: «أحمد الله»، جملة فعلية، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جملة اسمية، والجملة الفعلية دالة على الحدوث والتجدد، في حين أن الجملة الاسمية دالة على الثبوت، كما هو معلوم، وهي أقوى وأدوم من الفعلية، فقولك: «متبصر»، أقوى وأثبت من: «يتبصر»، و: «مثقّف»، أقوى وأثبت من: «يتثقف»، و: «متدرب» أقوى وأثبت من: «يتدرب»، فاختيار الجملة الاسمية أولى من اختيار الجملة الفعلية ههنا، إذ هو أدلُّ على ثبات الحمد واستمراره.

ومنها: «أن الحمد عبارة عن صفة القلب، وهي اعتقاد كون ذلك المحمود مُتفضلاً منعماً مستحقاً للتعظيم والإجلال. فإذا تَلَفَّظَ الإنسانُ بقوله: «أحمد الله»، مع أنه كان قلبه غافلاً عن معنى التعظيم اللائق بجلال الله، كان كاذباً لأنه أخبر عن نفسه بكونه حامداً مع أنه ليس كذلك. أما إذا قال: الحمد لله، سواء كان غافلاً أو مستحضراً المعنى التعظيم، فإنه يكون صادقاً لأن معناه: أن الحمد حقٌّ لله، وملكه، وهذا المعنى حاصل سواء كان العبد مشتغلاً بمعنى التعظيم والإجلال، أو لم يكن. فثبت أن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أولى من قوله: أحمد الله. ونظيره قولنا: «لا إله إلا الله»، فإنه لا يدخله التكذيب بخلاف قولنا: «أشهد أن لا إله إلا الله»، لأنه قد يكون كاذباً في قوله: «أشهد». ولهذا قال تعالى

في تكذيب المنافقين: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون: ١). فثبت أن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أولى من: «أحمد الله» أو: «نحمد الله».

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن عبارة الحمد هذه يمكن أن تُقال بالرفع، أي: «الحمد لله»، ويمكن أن يقال بالنصب، أي: «الحمد لله»، فأَيُّ العبارتين أولى بالاختيار؟
والجواب: أن قراءة الرفع، أولى من قراءة النصب، ذلك أن قراءة الرفع تدل على أن الجملة اسمية، في حين أن قراءة النصب، تدل على أن الجملة فعلية بتقدير: نحمد، أو أحمد، أو احمدوا، بالأمر. والجملة الاسمية أقوى وأثبت من الفعلية، لأنها دالة على الثبوت كما مر إيضاحه.

جاء في (الكشاف): «والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء، للدلالة على ثبات المعنى واستقراره ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم، عليه السلام، حيَّاهُم بتحيةٍ أحسن من تحيتهم، لأن الرفع دالٌّ على معنى ثبات السلام لهم، دون تجددده وحدوثه».

قال د. فاضل: «الحمد لله»، أولى من: «حمد الله».

ذلك أن: «الحمد لله»، جملة اسمية، كما ذكرنا، و: «حمد الله»، فعلية، والجملة الاسمية، أقوى وأثبت من الفعلية، كما ذكرنا قبل قليل.

وإن «الحمد» مُعرَّفةٌ بـأل في حين أن «حمدًا» نكرة، والتعريف ههنا يفيد ما لا يفيدُه التنكير، ذلك أن «ال» قد تكون لتعريف العهد، فيكون المعنى: أن الحمد المعروف بينكم هو لله. وقد تكون لتعريف الجنس على سبيل الاستغراق، فيدل على استغراق الأحمدة كلها. وَرَجَّحَ بعضهم المعنى الأول، ورجح بعضهم المعنى الثاني، بدليل قوله ﷺ: «اللهم لك الحمد كله». فدل على استغراق الحمد كله.

والراجحُ فيما يبدو لي، أن المعنيين مرادان، ذلك أن التعبيرَ يحتملها معاً، فعلى هذا يكون المعنى: أن الحمد المعروف بينكم، هو لله على سبيل الاستغراق والإحاطة، فلا يخرج عنه شيء من أفراد الحمد ولا أجناسه.

جاء في (روح المعاني): «إن الحمد إخبار عن محاسن الغير، مع المحبة والإجلال. والمدح إخبار عن المحاسن ولذا كان الحمد إخباراً يتضمن إنشاء، والمدح خبراً محضاً». وهذا هو الراجح في رأيي، فإنها تحتل الخبر وإنشاء التعظيم، فتجمع المعنيين معاً. وعبرة الحمد الواردة في السورة أعني: «الحمد لله» أولى من: «إن الحمد لله»، من أكثر من وجه، ذلك لأنه ليس المقام مقام شك أو إنكار، فيحتاج إلى التوكيد، فإنها توجيه للمؤمنين الذين يُقَرُّونَ ذلك ولا ينكرونه. وهذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، إن عبارة: «الحمد لله»، تحتل الخبر وإنشاء التعظيم كما ذكرنا فتجمع المعنيين معاً، ولو قلت: «إن الحمد لله» لأصبحت خبراً محضاً لا تحتل الإنشاء. ونظير ذلك الدعاء فإنه إنشاء فإذا أدخلت عليه «إن» خرج من الدعاء إلى الخبر فإن قولك: «رحمة الله عليه»، و: «الله يغفر له»، دعاء فإذا أدخلت «إن» عليه، فقلت: «إن رحمة الله عليه» و«إن الله يغفر له»، كان الكلام خبراً لا دعاء.

ف «الحمد لله» أولى من «إن الحمد لله» لما فيها من جمع معنيي الخبر والإنشاء.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾﴾ (الْقَائِمَةُ: ٢).

قال د. فاضل: و﴿الْعَالَمِينَ﴾: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى واختلف في دلالة الجمع هذه فرجح بعضهم أنها تفيد ذوي العلم خاصة أو المكلفين من الخلق بدليل قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الْقَائِمَةُ: ١) وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الْأَنْعَامُ: ٢٢) ولا يكون نذيراً للبهائم والجمادات وقال بعضهم: إن العالمين هم الإنس بدليل قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الشُّعَرَاءُ: ١٦٥) وقوله: ﴿وَأَتَيْنَكُم مَّا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (الْمَائِدَةُ: ٢٠)، وقيل: جمع العالم يشمل كل جنس مما سمّي به، فإن للعالمين آحاداً كل منها يسمى عالماً، فهناك عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم الحشرات وكل صنف وكل جنس يسمى عالماً أيضاً.

وقال د. فاضل أيضاً: إنّ «العالم» يُجمَعُ على العوالم وعلى العالمين، والذي يبدو لي أن العوالم يطلق على جميع العوالم من المكلفين وغيرهم من جمادات وحيوانات وغير ذلك وإن «العالمين» لا تطلق إلا على ذوي العلم خاصة أو على ما اجتمع فيه العقلاء وغيرهم فيغلب العقلاء ولا يطلق «العالمون» على غير العقلاء وحدهم فلا يقال للحشرات والطيور «عالمين» بل عالم أو عوالم ولكن يقال للبشر أو لجماعة من البشر أو لجيل من البشر أو للمكلفين من خلق الله من الإنس والجن على مر العصور «عالمين» كما ورد ذلك في القرآن الكريم؛ ذلك أن الجمع بالياء والنون خاص بالعقلاء فعلى هذا يكون قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إما أن يعني: رب البشر أو المكلفين أو رب الخلق كلهم وغلب العقلاء منهم ولهذا التخصيص أو التغليب سببه؛ ذلك أن الكلام في سورة الفاتحة خاص بالعقلاء فالعبادة والاستعانة وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم وتصنيف الخلق إلى مُنعم عليهم ومغضوب عليهم وضالين هو خاص بالمكلفين فكان هذا الاختيار أنسب شيء ولو قال رب العالم أو رب العوالم لم يحسن هذا الحُسْنَ لأنه يشمل غير المكلفين.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الفاتحة: ٣).﴾

قال د. فاضل: قوله ﴿الرَّحْمَنُ﴾ إعلان من الرحمة و﴿الرَّحِيمُ﴾: فعيل منها وصيغة «فعلان» تفيد الدلالة على الحدوث والتجدد وذلك نحو عطشان وجوعان وغضبان ولا تفيد الدلالة على الثبوت وتفيد أيضاً الامتلاء بالوصف جاء في «التفسير القيم» «ألا ترى أنهم يقولون غضبان للمتلئ غضباً وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملئ بذلك. وصيغة «فعليل» تدل على الثبوت في الصفة نحو طويل وجميل وقبيح أو التحول في الوصف إلى ما يقرب من الثبوت نحو: خطيب وبليغ وكريم فجاء بالوصفين للدلالة على أن صفته الثابتة والمتجددة هي الرحمة للاحتياط في الوصف، فإنه لو وصف نفسه بأنّه «رحيم» فقط لوقع في النفس أن هذا وصفه الثابت ولكن قد يأتي وقت لا

يرحم فيه كالكريم والخطيب ولو قال «رحمن» فقط لظنَّ أن هذا وصف غير ثابت كالغضبان والعطشان وهذا الوصف يتحول فيذهب الغضب ويزول العطش وكذلك الرحمة فجمع بينهما ليدل على أن وصفه الثابت والمتجدد هو الرحمة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴾ (الْفَاتِحَةُ: ٥).

قال د. فاضل: فإن قلت: كان قياس الكلام أن يقول: «إياه نعبد وإياه نستعين»

فَلِمَ قَالَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بالخطاب؟

والجواب: أن هذا يُسمَّى التفاتاً في علم البلاغة والالتفات قد يكون عدولاً من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى الخطاب ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي أَفْئَالِكُمْ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ (يُونُسُ: ٢٢) فعدل من الخطاب إلى الغيبة. وللافتات فائدة عامة وفوائد يقتضيها المقام. أما الفائدة العامة فهي «أن الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطريةً لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد، ومن فوائده التي اقتضاها المقام «أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلمُ بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة به في المهمات فخطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، ف قيل: إياك يا من هذا صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ليكون الخطاب أدل عن أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحقق العبادة إلا به. ومنها أن الكلام من أول السورة إلى هنا ثناء والثناء في الغيبة أولى، ومن هنا إلى الآخر دعاء وهو في الحضور أولى والله تعالى حيٌّ كريم.

قال في (فتح القدير): والمجيء بالنون في الفعلين «نعبد، نستعين» لقصد الإخبار من

الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد. وقيل: إن المقام لما كان عظيماً لم يستقل به الواحد استقصاراً لنفسه واستصغاراً لها فالمجيء بالنون لقصد التواضع لا لتعظيم النفس.

قال د. فاضل: ثم لننظر من ناحية أخرى، كيف أطلق فعل الاستعانة ولم يقيده بشيء فإنه قال ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولم يقل نستعين على كذا أو على كذا فلم يقل مثلاً «نستعين على العبادة» أو نستعين على الطاعة أو ما إلى ذلك، وذلك أنه أراد إطلاق الاستعانة لتشمل كل شيء يريده الإنسان ولا يخصها بشيء، فهو يستعين بالله على العبادة وعلى طلب الرزق وعلى النصر على الأعداء وعلى أن ييسر له أموره وعلى أن يقضي له حوائجه فتشمل كل أمور الدنيا والآخرة.

جاء في «روح المعاني» في سر إطلاق الاستعانة فقل ليتناول كل مُستعان فيه. فالحذف هنا مثله في قولهم «فلان يعطيني» في الدلالة على العموم. وأيضاً لو كان المراد الاستعانة به وبتوقيفه على أداء العبادة لبقى حكم الاستعانة في غيرها غير معلوم في أم الكتاب.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾﴾ (الْفَاتِحَةُ: ٦).

قال د. فاضل: جاء في تفسير ابن كثير «وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البَقَرَةُ: ١٠) أي بينا له الخير والشر وقد تعدى إلى كقوله تعالى: ﴿أَجَبَّهْ وَهَدْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الْحَاقَّةُ: ١٢١)، ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (الصَّافَّاتُ: ٢٣) وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشُّورَى: ٥٢) وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ (الْاِنْشِرَاقُ: ٤٣) أي: وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً اهـ.

قال ابن بري: يقال هديته إلى الطريق بمعنى عرفته فيعدي إلى مفعولين ويقال: هديته إلى الطريق وللطريق على معنى أرشدته إليها، فيعدي بحرف الجر كأرشدت. قال: ويقال: هديت له الطريق على معنى بينت له الطريق ويبدو أن الهداية على مراتب، فالبعيد الضال عن الطريق يحتاج إلى هاد يده له على الطريق ويوصله إليه فهنا نستعمل «يهدي إلى» أي: يوصل إلى ويرشد إلى. والذي يصل إلى الطريق يحتاج إلى هاد يعرفه

بأحوال الطريق ومراحلها، وما فيها من مخاوف وأماكن الهلكة والأمن ويعرفه بما يحتاجه السالك في هذه الطريق، وهنا نستعمل «هذه الطريق».

أما اللام فإنها تستعمل في اللغة للتعليل، أي: لبيان الغاية من الحدث، وقد تستعمل لانتهاى الغاية أيضاً كأن تقول «جئت لطلب العلم» أي إن طلب العلم غاية المجيء وعِلته، و «جئت للدار» بمعنى: جئت إليها. وقد تستعمل اللام مع الهداية لبيان الغاية من الحدث، فسالك السبيل يريد الوصول إلى غاية وليس الطريق غاية في نفسه، فيؤتى باللام عند هذه الغاية فيقال: «هذه لكذا» أي: أبلغه لها، فكانت غاية سلوكه وسيره. والإنسان محتاج إلى هذه الهدايات كلها، فإن ضلّ احتاج من يهديه إلى الطريق، وإن وصل احتاج من يعرفه بالطريق، وإن سلك احتاج الوصول إلى الهدف، وألا ينقطع في الطريق، وإن قطع الطريق، احتاج إلى من يبلغه غايته، وأن ينيله مرامه ويهديه له.

وعند ذلك يقول كما قال أصحاب الجنة، بعد أن قطعوا الطريق وبلغوا مرادهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ (الأنعام: ٤٣). أي: وفقنا لهذا في خاتمة المطاف، وهي خاتمة الهدايات. ولذا لم نجد استعمال «هدى» معدّى باللام في القرآن الكريم مع السبيل أو الصراط فلا تجد مثل «هذه لصراط مستقيم» أو «هذه لسبيل مستبين» لأن الصراط ليس هو الغاية؛ بل هو طريق يوصل إلى الغاية فهو مطلوب لغيره فيقال: هذه إلى الصراط وهذه الصراط. قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ (المجادلة: ١٧). فجعل الإيمان غاية، ذلك أن الإيمان من الأمن، وهو استقرار النفس وطمأنينتها، وأكثر ما يرهق الإنسان فقد أمنه النفسي فبلوغه غاية من أعظم الغايات.

وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ (يونس: ٣٥). وقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الأنعام: ٩). وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ (الأنعام: ٤٣). وقال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (التوبة: ٣٥). ولم يرد ذكر للسبيل أو نحوه مع اللام كما ترى بل هذه كلها غايات، فالإيمان والحق والتي هي أقوم والنور والجنة، كلها غايات مُرادّة مطلوبة، وقد استعملت اللام معها.

والملاحظ أيضاً أن هذه الهداية، وهي الهداية للغاية والانتهاى إليها اختصّها الله لنفسه أو لقرآنه، فلم يستعمل «هدى لكذا» إلا له سبحانه أو لكتابه فهو المبلغ للغايات بخلاف هو اه كذا أو هداه إلى كذا، فقد استعمله له ولغيره، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢). وقال: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ٤٣).

وقد تقول: لكن القرآن استعمل تعبيرين أحياناً في سياق واحد، مما يدل على أنها بمعنى واحد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥-١٦)، فقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

ثم قال: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فعدها بالحرف «إلى» مما يدل على أنهما بمعنى واحد.

ونحو قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدَى﴾ (يونس: ٣٥)، فعدها مرة بالي ومرة باللام فقال: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾، فعدها بالي ثم قال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ فعدها باللام، ثم قال: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ فجعلها بمعنى واحد.

والحق أنها ليست بمعنى واحد، وأن هناك ما يقتضي هذا الاختلاف، فبالنسبة إلى الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فإن الذي اتَّبَعَ رضوان الله ليس ضالاً ولا مبتعداً عن الصراط بل هو فيه، فهو محتاج إذن إلى مَنْ يهديه الطريق ويعرفه إياه، وليس محتاجاً إلى مَنْ يوصله إليه، وأما الذي في الظلمات فيحتاج إلى مَنْ يخرج منه ويبدله على الطريق ويوصله إليه فهو

ليس في الطريق الصحيح؛ ولذا قال: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: يوصلهم إليه.

فاقتضى كل موضع التعبير الذي ورد فيه. وهكذا الأمر بالنسبة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ (يُونُسَ: ٣٥). فإن الشركاء لا يستطيعون الدلالة على الحق والإرشاد إليه أصلاً. ولكن الله يهدي إلى الحق وللحق، فالله يرشد إليه ثم يوصلك إلى المنتهى ويبلغك المراد فهو لا يكتفي بأن يقول لك إن الطريق من هنا بل يعرفك به ويوصلك إلى طلبتك، إنك قد تسأل شخصاً عن الطريق فيرشدك إليه ويقول لك: الطريق من هنا، أو ذلك هو الطريق، ولكنه لا يعرف مراحل الطريق ولا يدري ما فيه بلّه إيصالك إلى المنتهى وتنويلك المبتغى، فآلتهم لا تهدي إلى الحق، أي: لا ترشد إليه لأنها لا تعرف أين هو بلّه التعريف به والإيصال إلى خاتمته حين تنويل المراد.

إن الله سبحانه وتعالى لا يهدي إلى الحق فقط، بل يعرفك إياه ويبيّنه لك، ويبلغك إياه، وأما شركاؤهم فلا يدرون الحق أين هو؟ وفرق بعيد بين الحالين فشركاؤهم لا يعرفون مبتدأ الطريق، والله يوصلك إلى الخاتمة ويبلغك المراد. فالفرق واضح بين التعبيرين.

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فقد عدّى فعل الهداية بنفسه، ولم يعدّه بالحرف وذلك ليجمع عدة معانٍ في آن واحد، ذلك أن التعديّة من دون حرف تُقال لمن يكون فيه ولمن لا يكون فيه، فهنا نطلب الهداية لمن كان في الطريق فيعرفه به ويصّره بشأنه، ولمن ضل وانحرف من المؤمنين عن الجادة فيرده إلى الجادة فشمّل القسمين. ولما كان هؤلاء من الموحدين الحامدين لله كان المعنى علاوة على ما مرّ طلب استمرار الهداية على الطريق المستقيم، والتشيت على الهدى والزيادة فيه كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (مُحَمَّدًا: ١٧). «فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تشيته على الهدى ورسوخه فيها، وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها».

فيكون معنى ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ عَرَّفْنَا الطَّرِيقَ الْحَقَّ وَرَدَّنَا إِلَيْهِ رَدًّا جَمِيلًا
إِذَا مَا ضَلَلْنَا أَوْ انْحَرَفْنَا، وَثَبَّتْنَا عَلَى الْهَدْيِ وَزِدَّنَا هَدًى.

جاء في (البحر المحيط): «ومضمون هذه الجملة طلب استمرار الهداية إلى طريق
مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ مَنْ صَدَرَ مِنْهُ حَمْدُ اللَّهِ وَأُخْبِرَ بِأَنَّهُ يَعْبُدُهُ وَيُسْتَعِينُهُ، فَقَدْ حَصَلَتْ
لَهُ الْهَدَايَةُ، لَكِنْ يَسْأَلُ دَوَامَهَا وَاسْتِمْرَارَهَا».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ٦٠ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٦١ ﴾ (الْفَاتِحَةُ: ٦-٧).

قال د. فاضل: قد تقول: وَلَمْ لَمْ يَقْدَمْ الْمَفْعُولُ مَعَ الْهَدَايَةِ كَمَا فَعَلَ مَعَ الْعِبَادَةِ
وَالِاسْتِعَانَةِ؟ لَمْ لَمْ يَقُلْ: «إِيَّانَا هِدْ» كَمَا قَالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ؟

والجواب: أَنَّهُ لَا يَصِحُّ التَّقْدِيمُ لِأَنَّهُ لَا يَصْلَحُ طَلَبُ التَّخْصِصِ بِالْهَدَايَةِ دُونَ سَائِرِ
النَّاسِ فَلَا يَصِحُّ أَنْ تَقُولَ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَلَا تَهْدِ أَحَدًا سِوَايَ» أَوْ: «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَلَا
تَرْحَمْ أَحَدًا غَيْرِي» بَلْ لَكَ أَنْ تَسْأَلَ الْهَدَايَةَ لِنَفْسِكَ وَلَا تَقْصُرَ عَنْهَا عَلَيْكَ، فَلَوْ قُلْتَ:
«إِيَّانَا هِدْ» لَكَانَ الْمَعْنَى: اهْدِنَا وَلَا تَهْدِ أَحَدًا سِوَانَا، وَهَذَا لَا يَصِحُّ.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قال: «اهدنا» ولم يقل: «اهدني»؟

وذلك لأكثر من سبب:

منها: أَنَّهُ مُنَاسِبٌ لِلْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، «لأنه لما
أخبر المتكلم أنه هو ومن معه يعبدون الله ويستعينونه سأل له ولهم الهداية إلى الطريق
الواضح، لأنهم بالهداية إليه تَصَحُّ عنهم العبادة. ألا ترى أن من لم يهتد إلى السبيل
الموصلة لمقصوده لا يصح له بلوغ مقصوده».

وجاء في (تفسير الرازي): «كَأَنَّ الْعَبْدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَكَ يَقُولُ: «الْجَمَاعَةُ
رَحْمَةٌ وَالْفِرْقَةُ عَذَابٌ» فَلَمَّا أُرِدَتْ تَحْمِيدُكَ ذَكَرْتَ حَمْدَ الْجَمِيعِ فَقُلْتَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ»، وَلَمَّا

ذكرت العبادة ذكرت عبادة الجميع فقلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولما ذكرت الاستعانة ذكرت استعانة الجميع فقلت: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فلا جرم لما طلبت الهداية طلبتها للجميع فقلت: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ولما طلبت الاقتداء بالصالحين طلبت الاقتداء بالجميع فقلت: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ولما طلبت الفرار من المردودين فررت من الكل فقلت: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

ومنها: «أن الدعاء كلما كان أعم كان إلى الإجابة أقرب». ومنها: أن فيه أن تحب للآخرين ما تحب لنفسك فيغسل ما في النفس من درن الأثرة ونوازع الانفراد بالخير، ويشيع عند المسلم حب التعاون. ومنها: إشاعة الروح الجماعية بين الأفراد. ومنها: أن الاجتماع على الهدى، تثبيت وقوة، وأن كثرة السائرين على الطريق تورث الأُنس وتهوّن مشقة السير بخلاف الانفراد في السير فإنه يورث الوحشة ويستجلب الملل، إن الإنسان إذا كان معه سالكون لم يستوحش، وكلما كثر السالكون شاع الأمن ورسخت الطمأنينة، أما السالك وحده فإنه قد يستوحش وقد يضعف وقد يسقط، وقد تأكله الذئاب، ويد الله مع الجماعة وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

وهذا الأمر حاصل لمن سلك سبل الدنيا ولمن سلك سبل المبادئ والقيم سواء بسواء، وهو في الثانية أظهر وأخطر.

ثم انظر من ناحية أخرى، كيف ارتبط قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بأول السورة ووسطها وآخرها. فارتبط بقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في أول السورة، لأن من معاني الرب المربي، وأول مهام المربي هي الهداية كما ذكرنا.

وارتبط بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ لأن من هداه الله فقد رحمه، فإنك تطلب من الرحمن الرحيم أن لا يتركك ضالاً لا تهتدي إلى الطريق، فإن الحق لذاته والخير لأجل العمل به، فهؤلاء هم المرادون بقول: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فإن اختل قيد العمل فهم الفسقة،

وهم المغضوب عليهم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَذِبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ (النِّسَاءُ: ٩٣).

وإن اختلَّ قيدُ العلم، فهم الضالون لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (يُونُسَ: ٣٢). ثم لننظر من ناحية أخرى كيف قال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فعبّر عن المنعم عليهم بالفعل الماضي، ثم قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فعبّر عنهم بالصورة الاسمية. أما جعل فعل الإنعام فعلاً ماضياً فذلك ليتعين زمانه، وليبين أن المقصود صراط الذين نُبِتَ إنعامُ الله عليهم وتَحَقَّقَ وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون كما قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (النِّسَاءُ: ٦٩).

ولو قال: «صراط الذين تُنعمُ عليهم» لأغفلَ كُلَّ مَنْ مضى من رسل الله والصالحين، لأن الفعل المضارع أكثر ما يدل على الحال. بل لم يدل على أنه أنعم على أحدٍ فيما مضى، ونحو ذلك أن تقول: «أعطني ما أعطيت أمثالي» أو تقول: «أعطني ما تُعطي أمثالي» فإن العبارة الأولى تفيد أنه أعطى قبله من أعطى، وأما الثانية، فلا تفيد أنه أعطى أحداً من قبل، بل قد يكون ذلك العطاء ابتداءً، ولاحتتمل أن يكون صراط الأولين غير صراط الآخرين ولم يُفد التواصل بين زمر المؤمنين من لدن آدم، إلى قرب الساعة، ولم يفهم أن هذا الطريق، إنما هو طريقٌ مسلوكةٌ سلكه من قبلنا الرسل وأتباعهم، ولكان صراط الذين ينعم عليهم، أقل شأناً من صراط الذين أنعم عليهم، لأن الذين أنعم عليهم، فيهم أولو العزم من الرسل، وفيهم الأنبياء وأتباعهم، وأما من ينعم عليهم بعد ذلك، فليس فيهم نبيٌّ ولا رسول.

ثم إن الإتيان بالفعل الماضي، يدل على أنه كلما مر الزمن كثر عدد الذين أنعم الله عليهم، لأن الحاضر يلتحق بالماضي، وهكذا تتسع دائرة المنعم عليهم بمرور الزمن بخلاف قولنا: «صراط الذين ينعم الله عليهم»، فقد ينحص الوقت الذي طلب فيه

الداعي الهداية، ولربما كان عدد المهديين آنذاك قليلاً. فانظر الفرق بين قوله: «أنعمت عليهم» والقول: «تنعم عليهم».

وأما قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بالاسم، فليشمل سائر الأزمنة. فإن قلت: ولم لم يقل: «صراط المنعم عليهم» ليشمل سائر الأزمنة أيضاً؟

فالجواب: أن كل تعبير في مكانه أمثل وأحسن. فلو قال: «المنعم عليهم» لم يبين المنعم الذي أنعم عليه، والنعمة إنما تقدر بقدر المنعم، فإن كان المنعم صديقاً يختلف عما إذا كان أميراً أو سلطاناً، وذلك من حيث مقدار النعمة، ومن حيث التكريم لمن نالها. فإن كان المنعم عظيماً عظمت نعمته، وإن كان أدنى من ذلك كانت على قدر صاحبها، وكذلك من حيث التكريم، فالذي ينعم عليه السلطان غير الذي ينعم عليه أحد أفراد الرعية، فإن قولك: «فلان أنعم عليه الخليفة» فيه من التعظيم والتكريم ما ليس في قولك: فلان أنعم عليه رئيس البلدية أو المحافظ. ففي قوله: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من التكريم وعظم النعمة ما ليس في «المنعم عليهم».

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الله سبحانه ينسب الخير أو الفضل إلى نفسه، ولا ينسب إلى نفسه الشر والسوء، قال تعالى: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن: ١٠). فبنى الشر للمجهول ونسب الخير إلى ذاته الكريمة. كما قال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ (الأنفال: ٨٣). فنسب النعمة إلى نفسه ولم ينسب إلى نفسه الشر، فلم يقل: «وإننا مسسناه بالشر» وكما قال ﷺ: «والخير كله في يديك، والشر ليس إليك».

والنعمة تفضل وخير، فهو ينسبها إلى نفسه وليس أحد مؤلي نعمة على الحقيقة إلا الله كما قال: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ تَعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (الحج: ٥٣). ولذلك ينسب النعم كلها إلى نفسه، ولم يرد فعل النعمة مسنداً إلى غير الله في القرآن الكريم قال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (النساء: ٧٢). وقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا

لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿ (النَّصْر: ١٧). وقال: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ (الزَّحْرَف: ٥٩). ولم يسند فعل النعمة إلى غير الله، إلا في قوله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ (الْأَنْعَام: ٣٧). فقد أسنده إلى الرسول بعد أن أسنده إلى الله أولاً، وهي نعمة خاصة أنعم بها رسول الله على زيد بن حارثة الذي رباه، وجعله بمنزلة ابنه. فنسبة النعمة والفضل إلى الله أمثل وأكمل.

وأما المغضوب عليهم، فقد بناه للمفعول ليعم الغضب عليه: غضب الله وغضب الغاضبين لله ولا يتخصص بغاضب معين، فهم مغضوبون عليهم من كل الجهات. بل إن هؤلاء سيغضب عليهم أخلص أصدقائهم وأقرب المقربين إليهم، يوم ينقطع حبل كل مودة في الآخرة غير حبل المودة في الله. ثم انظر من ناحية أخرى كيف جعل كلاً من المغضوب عليهم دائماً ثابتاً لا يزول واتصافهم بالضلال على وجه الثبوت أيضاً فلا يرجى لهم خير ولا هدى فلم يقل: «صراط الذين غضب عليهم وضلوا» فيجعل الغضب أو الضلال في زمن دون زمن. بل إن هذا الوصف لازم لهم إلى يوم القيامة ثابت لا يزول فهم مغضوب عليهم في الدنيا والآخرة وضالون في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الْأَنْعَام: ٧٢).

وقال د. فاضل أيضاً: وقد تقول: ولم قدم الغضب على الضلال، فقال: ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ولم لم يقدم الضالين على المغضوب عليهم؟

والجواب: إن المقام يقتضي تقديم المغضوب عليهم من أوجه: منها: أن المغضوب عليه أشد ضلالاً وجرمًا وعقوبة لأنه علم وجحد، وليس من علم كمن لا يعلم. فهو أولى بالسؤال بالمباعدة عنه، فإنَّ الضالَّ إذا علم الحق، فربما اتبعه وربما خالفه فيكون من المغضوب عليهم.

ومنها: أنه جاء في الحديث الصحيح أن المغضوب عليهم اليهود والضالين النصارى. واليهود أسبق من النصارى فناسب أن يبدأ بهم.

ومنها: أن صفة المغضوب عليهم هي أول معصية ظهرت في الوجود وأقدمها على الإطلاق، وهي معصية إبليس، ذلك أنه كان عالماً بالحق عارفاً له، فعصى ربه وخالف أمره، فغضب الله عليه ولعنه، ثم قطع إبليس عهداً على نفسه أن يُضِلَّ بني آدم فقال: ﴿وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ﴾ (النساء: ۱۱۹) فناسب أن يبدأ بذكر أولى المعاصي على الإطلاق وأن يتبعها بما قطع إبليس على نفسه أن يفعله وهو الإضلال.

ومنها: أن هذه الصفة، أعني صفة المغضوب عليهم، هي أول معصية ظهرت على الأرض، وهي قتل ابن آدم أخاه، بعد أن قرباً قرباناً، فتُقبَّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر، فقتله متعمداً ظالماً له. وبذا تبين أن صفة المغضوب عليهم، هي أقدم صفة من صفات المعاصي، ظهرت في الوجود في الملائ الأعلى، وبعدها على الأرض، فناسب أن يبدأ بها.

ومنها: أن المغضوب عليه، يقابل المُنعم عليه، ولا يقابل الضال، فإنك تقول: «فلان أنعم عليه الخليفة، وفلان غضب عليه» ولا تقول: «فلان أنعم عليه الخليفة وفلان ضل». فناسب أن يضع بجانب الذين أنعم الله عليهم، المغضوب عليهم.

ومنها: أن تقديم المغضوب عليهم، هو المناسب لمُفتِّحِ السورة وما بعده، ذلك أن الحامد لله العارف بصفاته الخاص إياه بالعبادة والاستعانة إذا زاغ كان من المغضوب عليهم، لأنه علم وخالف، فكان من المناسب أن يسأل الله المباحدة عن ذلك أولاً بخلاف مَنْ لا يعلم، وكان ضالاً، وأما سؤال الهداية بعد ذلك وهو قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فهو المناسب للسؤال بالمباحدة عن الضلال. فلما قَدَّمَ الحمد وما إليه ناسب السؤال بالمباحدة عن الغضب، ولما طلب بعد ذلك الهداية، ناسب أن يذكر بعد ذلك، المباحدة عن الضلال.

تنبيه: قال د. فاضل: اختيار كلمة ﴿صِرَطٌ﴾ دون كلمة «طريق» أو «سبيل» له سببه، ذلك أن ﴿صِرَطٌ﴾ على وزن «فعال» من صرط وهو من الأوزان الدالة على

الاشتغال كالرباط والشداد فيشتمل على كل السالكين ولا يضيق بهم فهو واسع رحب بخلاف كلمة «طريق» فإنها «فعليل» بمعنى «مفعول» من «طرق» بمعنى «مطروق» وهذا لا يدل في صيغته على الاشتغال، فقد يضيق بالسالكين ولا يستوعبهم. وكذلك كلمة «السبيل» فهي كأنها «فعليل» بمعنى «مفعول» من أسبلت الطريق إذا كثرت سابلتها كالحكيم بمعنى المحكم.

فوائد إيمانية :

١- قال مزاحم بن زفر: صلى بنا سفيان الثوري المغرب فقراً حتى بلغ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الْفَاتِحَةُ : ٥) بكى حتى انقطعت قراءته ثم عاد فقراً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. وقال محمد بن عوف الحمصي: رأيت أحمد بن أبي الحواري قام يصلي العشاء فاستفتح بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فطفت الحائط كله ثم رجعت فإذا هو لا يجاوزها ثم نمت ومررت في السحر وهو يقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فلم يزل يرددّها إلى الصبح. وقال د. عبد العزيز العويد: صليت خلف الشيخ عبد الرحيم الدوسري رحمه الله كثيراً فما أذكر أنه استقامت له قراءة الفاتحة بدون بكاء خصوصاً عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وقال الطحاوي: أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الْفَاتِحَةُ : ٦) فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته فلم يصبه شيء لا في الدنيا ولا في الآخرة. «انظر كتاب تدبر المجموعة (١)»

٢- سر اختيار كلمة «آمين» بعد دعاء الفاتحة ولم يقل مثلاً «استجب»، أن «آمين» مشتقة من الأمن، ومدلولها أن المدعو سبحانه مأمون منه أن يردّ من دعاه بلا سبب، فهو لا يعجزه شيء ولا يمنعه، نقله البقاعي عن الحرالي.



سُورَةُ الْبَقَّةِ

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البَقَّة: ٨).

فقال ﴿مَن يَقُولُ﴾ بالمفرد ولم يقل «يقولون» لأنَّ الإيمان يلزم منه إقرار كل واحدٍ على حدته بالشهادة وأحكام الإسلام، وأمَّا «يقولون» فقد تطلق على قول الأكثر دون قول الجميع.

﴿قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا حَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾ (البَقَّة: ١٤) فتأمل كيف قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بالتأكيد مع أن مقتضى الظاهر أن يكون كلامهم بعكس ذلك لأنَّ المؤمنين يشكون في إيمان المنافقين وقومهم لا يشكون في بقائهم على دينهم، لأنه لما بدا من إبداعهم في النفاق عند لقاء المسلمين ما يوجب شك كبرائهم في البقاء على الكفر وتتطرق به التهمة إلى قلوبهم احتاجوا إلى تأكيد ما يدل على أنهم باقون على دينهم! (أفاده ابن عاشور).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا﴾ (البَقَّة: ٢٢)، أتى في الثمر بجمع القلة، ونكر الرزق مع المشاهدة بأنهما بالغان في الكثرة إلى حدٍ لا يُحصى تحقيراً لهما في جنب قدرته إجلالاً له سبحانه، أفاده البقاعي.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (البَقَّة: ٢٥).

قال ابن عاشور: فإن قلت لماذا لم يقل «وعملوا الصالحة» بالإفراد فقد قالوا إن استغراق المفرد أشمل من استغراق المجموع؟ قلت: تلك عبارة سرت إليهم من كلام صاحب الكشف في هذا الموضوع من تفسيره؛ إذ قال: إذا دخلت لام الجنس على المفرد كان صالحاً لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه وإذا دخلت على المجموع صلح أن يراد به جميع الجنس وأن يراد به بعضه لا إلى الواحد منه.

قال ابن عاشور: ولعل سائلاً يسأل عن وجه إتيان العرب بالجموع بعد أل الاستغراقية إذا كان المفرد مغنياً عنها فاقول: إن أل المعرفة تأتي للعهد وتأتي للجنس مراداً به الماهية وللجنس مراداً به جميع أفرادها التي لا قرار له في غيرها فإذا أرادوا منها الاستغراق نظروا فإن وجدوا قرينة الاستغراق ظاهرة من لفظ أو سياق نحو ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ ، ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ۖ﴾ ، ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ اقتنعوا بصيغة المفرد لأنه الأصل الأخف وإن رأوا قرينة الاستغراق خفية أو مفقودة عدلوا إلى صيغة الجمع للدلالة الصيغة على عدة أفراد لا على فرد واحد ولما كان تعريف العهد لا يتوجه إلى عدد من الأفراد غالباً تعين أن تعريفها للاستغراق نحو ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لئلا يتوهم أن الحديث على محسن خاص نحو قولها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْغَافِلِينَ﴾ لئلا يتوهم أن الحديث عن خائن معين تعني نفسها فيصير الجمع في هذه المواطن قرينة على قصد الاستغراق.

قلت: ويصح أن يقال هاهنا: قوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يدل على أن النجاة التامة تكون بفعل عدد من الأعمال الصالحة مع الإيمان ولا يكفي فعل عمل صالح واحد، ولم تأت «الصالحة» لتدل على عدم اشتراط فعل جميع الصالحات.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٣٤).

قال ابن عاشور: والذي أراه أحسن الوجوه في معنى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أن مقتضى الظاهر أن يقول «وكفر» كما قال: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ فعدل عن مقتضى الظاهر إلى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ لدلالة كان في مثل هذا الاستعمال على رسوخ معنى الخبر في اسمها والمعنى أبى واستكبر وكفر كفراً عميقاً في نفسه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (الأنعام: ٨٣) وكقوله تعالى: ﴿نَظَرُ أَنْهَدَى أَمَرُ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٤١) دون أن يقول أن لا تهتدي لأنها إذا رأت آية تنكير

عرشها ولم تهتد كانت راسخة في الاتصاف بعدم الاهتداء، وأما الإتيان بخبر كان ﴿ مِنْ الْكَافِرِينَ ﴾ دون أن يقول وكان كافراً، فلأن إثبات الوصف لموصوف بعنوان كون الموصوف واحداً من جماعة تثبت لهم ذلك الوصف أدل على شدة تمكن الوصف منه لو أثبت له الوصف وحده بناء على أن الواحد يزداد تمسكاً بفعله إذا كان قد شاركه فيه جماعة لأنه بمقدار ما يرى من كثرة المتلبسين بمثل فعله تبعد نفسه عن التردد في سداد عملها، وعليه جاء قوله تعالى: ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (النمل: ٢٧) وقوله الذي ذكرناه آنفاً ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ وهو دليل كنائي واستعمال بلاغي جرى عليه نظم الآية وإن لم يكن يومئذ جمع من الكافرين بل كان إبليس وحيداً في الكفر، وهذا منزع انتزعه من تتبع موارد مثل هذا التركيب في هاتين الخصوصيتين خصوصية زيادة «كان» وخصوصية إثبات الوصف لموصوف بعنوان أنه واحد من جماعة موصوفين به.

وقال ابن عاشور أيضاً: وغير أسلوب إسناد القول إلى الله فأتى به مسنداً إلى ضمير العظمة ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ وأتى به في الآية السابقة مسنداً إلى رب النبي ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ (البقرة: ٣٠) للفتن ولأن القول هنا تضمن أمراً بفعل فيه غضاضة على المأمورين فناسبه إظهار عظمة الأمر وأما القول السابق فمجرد إعلام من الله بمراده ليظهر رأيهم. ولأن الكلام عن خلق آدم، وفي ظهره نبوة، فناسب الإسناد إلى الموصوف بالربوبية المؤذنة بتدبير شأن الربوبين، وأسند إلى ضمير النبي لكونه أشرف المربوبين.

﴿ قَالَ تَعَالَى ﴾ ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٣٨).

قال ابن عاشور: والإتيان في قوله تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ بحرف الشرط الدال على عدم الجزم بوقوع الشرط إيذان ببقية من عتاب على عدم امتثال الهدى الأول

وتعريض بأن محاولة هديكم في المستقبل لا جدوى لها، كما يقول السيد لعبده إذا لم يعمل بما أوصاه به فغضب عليه ثم اعتذر له فرضي عنه: إن أوصيتك يوماً آخر بشيء فلا تعد لمثل فعلتك يعرض له بأن تعلق الغرض بوصيته في المستقبل أمر مشكوك فيه؛ إذ لعله قليل الجدوى، وهذا وجه بليغ فات صاحب الكشاف.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٣٨)، فأعاد قوله ﴿أَهْبِطُوا﴾ بعد قوله ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا﴾ (البقرة: ٣٦). قال ابن عاشور مبيناً وجه ذلك: ويحتمل أن تكون لحكاية أمر ثان لآدم بالهبوط كيلا يظن أن توبة الله عليه ورضاه عنه عند مبادرته بالتوبة عقب الأمر بالهبوط قد أوجبت العفو عنه من الهبوط من الجنة، فأعاد له الأمر بالهبوط بعد قبول توبته ليعلم أن ذلك كائن لا محالة لأنه مراد الله تعالى وطور من الأطوار التي أرادها الله تعالى من جعله خليفة في الأرض وهو ما أخبر به الملائكة، وفيه إشارة أخرى وهي أن العفو يكون من التائب في الزواجر والعقوبات، وأما تحقيق آثار المخالفة وهو العقوبة التأديبية فإن العفو عنها فساد في العالم لأن الفاعل للمخالفة إذا لم ير أثر فعله لم يتأدب في المستقبل، فالتسامح معه في ذلك تفويت لمقتضى الحكمة، فإن الصبي إذا لوث موضعاً وغضب عليه مربيّه ثم تاب فعفا عنه فالعفو يتعلق بالعقاب، وأما تكليفه بأن يزيل بيده التلوّث الذي لوث به الموضع فذلك لا يحسن التسامح فيه؛ ولذا لما تاب الله على آدم رضي عنه ولم يؤاخذه بعقوبة ولا بزاجر في الدنيا ولكنه لم يصفح عنه في تحقق أثر مخالفته وهو الهبوط من الجنة ليرى أثر حرصه وسوء ظنه. هكذا ينبغي أن يكون التوجيه إذا كان المراد من اهبطوا الثاني حكاية أمر ثان بالهبوط خوطب به آدم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَبُكُمْ﴾ (البقرة: ٤٠).

قال ابن عاشور: ومن لطائف القرآن في اختيار لفظ العهد للاستعارة هنا لتكليف الله تعالى إياهم أن ذلك خطاب لهم باللفظ المعروف عندهم في كتبهم فإن التوراة المنزلة

على موسى تلقب عندهم بالعهد لأنها وصايات الله تعالى لهم، ولذا عبر عنه في مواضع من القرآن بالميثاق وهذا من طرق الإعجاز العلمي الذي لا يعرفه إلا علماءهم وهم أشح به منهم في كل شيء بحيث لا يعرف ذلك إلا خاصة أهل الدين، فمجيئه على لسان النبي العربي الأمي دليل على أنه وحي من العلام بالغيوب. والعهد قد أخذ على أسلافهم بواسطة رسلهم وأنبيائهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ (التغابن: ٨١) الآية، وإذ قد كان المخاطبون بالآية قد تلقوا الشريعة من أسلافهم بما فيها من عهد فقد كان العهد لازماً لهم وكان الوفاء متعيناً عليهم لأنهم الذين جاء فيهم الرسول الموعود به.

وبيّن سرّ قوله ﴿فَارْهَبُونِ﴾ بالفاء، فقال: والتقديم إذا اقترن بالفاء كان فيه مبالغة لأن الفاء كما في هذه الآية مؤذنة بشرط مقدر، ولما كان هذا الشرط لا دليل عليه إلا الفاء تعين تقديره عاماً نحو إن يكن شيء أو مهما يكن شيء كما أشار له صاحب الكشف في قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المؤذّن: ٣) حيث قال: «ودخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل مهما كان فلا تدع تكبيره»، فالمعنى هنا: وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ومهما يكن شيء فإياي ارهّبوني.

فائدة: قال ابن عاشور: نقل عن صاحب الكشف أنه قال: إن في قوله تعالى ﴿وَأَيُّنِي فَارْهَبُونِ﴾ وجوهاً من التأكيد: تقديم الضمير المنفصل وتأخير المتصل والفاء الموجبة معطوفاً عليه ومعطوفاً تقديره إياي ارهّبوا فارهّبون أحدهما مقدر والثاني مظهر وما في ذلك من تكرار الرهبة وما فيه من معنى الشرط بدلالة الفاء كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئاً فارهّبون أ. هـ. يريد أن في تقديم الضمير إفادة الاختصاص والاختصاص تأكيد. قال صاحب المفتاح: ليس الحصر والتخصيص إلا تأكيداً على تأكيد. وأما تأخير الضمير المتصل فلما في إعادة الإسناد من التقوي. ومراد الزمخشري بقوله معطوفاً عليه

ومعطوفاً العطف اللغوي أي معقباً ومعقباً به لا العطف النحوي إذ لا يستقيم هنا، فتحصل أن في التعبير عن مثل هذا الاختصاص في كلام البلغاء مراتب أربع: مجرد التقديم للمفعول نحو إياك نعبد، وتقديمه على فعله العامل في ضميره نحو زيد ارهبته، وتقديمه على فعله مع اقتران الفعل بالفاء نحو ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، وتقديمه على فعله العامل في ضميره مع اقتران الفعل بالفاء نحو ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾، فالثانية والثالثة والرابعة أوكد منهما.

✽ قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ (البقرة: ٤١).

قال ابن عاشور: والمراد بما معهم كتب التوراة الأربعة وما ألحق بها من كتب الأنبياء من بني إسرائيل كالزبور وكتاب أشعياء وأرمياء وحزقيال ودانيال وغيرها، ولذا اختير التعبير بما معكم دون التوراة مع أنها عبر بها في مواضع غير هذا، لأن في كتب الأنبياء من بعد موسى بشارات ببعثة محمد أصرح مما في التوراة فكان التنبيه إليها أوقع.

✽ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٤٤)

قال في (الدر المنثور): وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي قلابة في الآية قال: قال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً.

وأخرج وكيع وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري وابن أبي داود في البعث وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أُسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت، فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك، كانوا يأمرُونَ الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون».

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلْقَى في النار، فتندلق به أقتابه، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان مالك، ما أصابك، ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر....؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية».

وأخرج الخطيب في اقتضاء العلم بالعمل وابن النجار في تاريخ بغداد عن جابر عن النبي ﷺ قال: «اطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فقالوا: بم دخلتم النار، وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم؟! قالوا: إنا كنا نأمركم ولا نفعل».

وأخرج الطبراني والخطيب في اقتضاء العلم بالعمل وابن عساكر بسند ضعيف عن الوليد بن عقبة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَنَاساً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَطَّلِعُونَ إِلَى أَنَاسٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فيَقُولُونَ: بِمَ دَخَلْتُمُ النَّارَ، فَوَاللَّهِ مَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ إِلَّا بِتَعْلِيمِكُمْ؟! فيَقُولُونَ: إِنَّا كُنَّا نَقُولُ وَلَا نَفْعَلُ».

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الوليد بن عقبة أنه خطب الناس، فقال في خطبته: ليدخلن أمراء النار ويدخلن من أطاعهم الجنة، فيقولون لهم وهم في النار: كيف دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بطاعتكم؟ فيقولون لهم: إنا كنا نأمركم بأشياء نخالف إلى غيرها.

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال: يشرف قوم في الجنة على قوم في النار فيقولون: ما لكم في النار، وإنما كنا نعمل بما تعملون....؟! قالوا: كنا نعلمكم ولا نعمل به.

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن الشعبي قال: يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار، فيقولون: ما أدخلكم النار وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم؟ قالوا: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله.

وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء والأصبهاني في الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه».

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن جندب البجلي قال: إنَّ مثل الذي يعظ الناس وينسى نفسه كمثل المصباح يضيء لغيره ويحرق نفسه.

وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يعلم الناس وينسى نفسه كمثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها».

وأخرج ابن قانع في معجمه والخطيب في الاقتضاء عن سليك قال: سمعت النبي يقول: «إذا علَّم العالم ولم يعمل كان كالمصباح يضيء للناس ويحرق نفسه».

وأخرج الأصبهاني في الترغيب بسند ضعيف عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالعالم السوء يوم القيامة فيقذف في جهنم فيدور بقصبه - قلت: وما قصبه؟ قال: أمعاؤه - كما يدور الحمار بالرحى، فيقال: يا ويله، بم لقيت هذا وإنما اهتدينا بك؟! قال: كنت أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه».

وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل بما قال ودعا إليه».

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال: يا ابن عباس اني أريد أن آمر بالمعروف وأنهاي عن المنكر. قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو. قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل. قال: قوله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فالحرف الثاني قال قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿﴾ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث قال قول العبد الصالح شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابدأ بنفسك.

وأخرج ابن المبارك في الزهد والبيهقي في شعب الإيثار عن الشعبي قال: ما خطب خطيب في الدنيا إلا سيعرض الله عليه خطبته ما أراد بها.

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبه وأحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال: ويل للذي لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه، وويل للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات.

وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الله بن مسعود قال: ويل للذي لا يعلم ولو شاء الله لعلمه، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل سبع مرات.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾﴾ (البقرة: ٤٥).

قال محمد الخضر حسين في أسرار التنزيل: قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥) المعنى: أن الصلاة صعبة إلا على الخاضعين الذين أسلموا وجوههم لله. والصلاة من حيث إنها قيام وركوع وسجود وجلوس ليس فيها صعوبة. والصعوبة من جهة أن الصلاة بحق هي التي يدخلها المصلي بقلب حاضر فيؤديها مبتغياً رضا الله تالياً القرآن بتدبر ناطقاً بالدعوات والأذكار التي تشتمل عليها عن قصد إلى كل معنى دون أن تجري على لسانه وهو في غفلة عن معانيها التي هي روح العبادة.

فائدة: قال البقاعي مبيناً سر قوله ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ عقب قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُوَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ (البقرة: ٤٢): ولما أنكر عليهم اتباع الهوى أرشدهم إلى دوائه بأعظم أخلاق النفس وأجل أعمال البدن فقال عاطفاً على ما مضى من الأوامر ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾﴾ (البقرة: ٤٩).

قال ابن عاشور: والأهل والآل يراد به الأقارب والعشيرة والموالي وخاصة الإنسان وأتباعه. والمراد من آل فرعون وزعته ووكلاؤه. ويختص الآل بالإضافة إلى ذي شأن وشرف دنيوي ممن يعقل فلا يقال آل الجاني ولا آل مكة. ولما كان فرعون في

الدنيا عظيماً وكان الخطاب متعلقاً بنجاة دنيوية من عظيم في الدنيا أطلق على أتباعه آل فلان، فلا توقف في ذلك حتى يحتاج لتأويله بقصد التهكم كما أوّل قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ، لأنّ ذلك حكاية لكلام يقال يوم القيامة وفرعون يومئذ محقر هلك عنه سلطانه. فإن قلت إنّ كلمة أهل تطلق أيضاً على قرابة ذي الشرف لأنها الاسم المطلق فلماذا لم يؤت بها هنا حتى لا يطلق على آل فرعون ما فيه تنويه بهم؟ قلت: خصوصية لفظ آل هنا أن المقام لتعظيم النعمة وتوفير حق الشكر والنعمة تعظم بما يُحْفُّ بها، فالنجاة من العذاب وإن كانت نعمة مطلقاً إلا أن كون النجاة من عذاب ذي قدرة ومكانة أعظم لأنه لا يكاد ينفلت منه أحد. وإنما جعلت النجاة من آل فرعون ولم تجعل من فرعون مع أنه الأمر بتعذيب بني إسرائيل تعليقاً للفعل بمن هو من متعلقاته على طريقة الحقيقة العقلية، وتنبيهاً على أن هؤلاء الوزعة والمكلفين ببني إسرائيل كانوا يتجاوزون الحد المأمور به في الإعانات على عادة المنفذين فإنهم أقل رحمة وأضيق نفوساً من ولادة الأمور كما قال الراعي يخاطب عبد الملك بن مروان:

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا ... لم يفعلوا مما أمرت فتيلا

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾﴾ (البقرة: ٥٠).

لما كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدة جعله الله تعالى نكالا لمن ادّعى الربوبية وعلى قدر الذنب يكون العقاب ويناسب دعوى الربوبية والاعتلاء انحطاط المدّعي وتغييبه في قعر الماء. أفاده الألويسي.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾﴾ (البقرة: ٥١).

قال ابن عاشور: فائدة ذكر ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ ﴿لِزِيَادَةِ التَّشْنِيعِ بِأَنَّهُمْ كَانُوا جَدِيرِينَ بِاتِّظَارِهِمُ الشَّرِيعَةَ الَّتِي تَزِيدُهُمْ كَمَا لَا بَدَلَ مِنَ النُّكُوصِ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ

التوحيد والانغماس في نعم الله تعالى وبأنهم كانوا جديرين بالوفاء لموسى فلا يحدثوا ما أحدثوا في مغيبه بعد أن رأوا معجزته وبعد أن نهاهم عن هاته العبادة لما قالوا له: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٨) الآية. وفائدة ذكر ﴿مِنْ﴾ للإشارة إلى أن الاتخاذ ابتداءً من أول أزمان بعدية مغيب موسى وهذه أيضاً حالة غريبة لأن شأن التغير عن العهد أن يكون بعد طول المغيب على أنه ضعف في العهد ففي قوله ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ تعريض بقلة وفائهم في حفظ عهد موسى.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ (البقرة: ٥٥).﴾

قال ابن عاشور: ووجه العدول عن أن يقول «عياناً» إلى قوله ﴿جَهْرَةً﴾ لأن جهرة أفصح لفظاً لخفته فإنه غير مبدوء بحرف حلق. والابتداء بحرف الحلق أتعب للحلق من وقوعه في وسط الكلام ولسلامته من حرف العلة، وكذلك يجتبي البلغاء بعض الألفاظ على بعض لحسن وقعها في الكلام وخفتها على السمع وللقرآن السهم المعلن في ذلك وهو في غاية الفصاحة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) ﴿فَبَدَّلَ الَّذِي ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ (البقرة: ٥٨، ٥٩).﴾

قال ابن عاشور: فائدة إظهار لفظ القول فقال ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ دون أن يقال: فبدلوه، لدفع توهم أنهم بدلوا لفظ ﴿حِطَّةٌ﴾ خاصة وامثلوا ما عدا ذلك لأنه لو كان كذلك لكان الأمر أهون.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ (البقرة: ٦٠).﴾

قال ابن عاشور: وقوله ﴿لِقَوْمِهِ﴾ مؤذن بأن موسى لم يصبه العطش وذلك لأنه خرج في تلك الرحلة موقناً أن الله حافظهم ومبلغهم إلى الأرض المقدسة؛ فلذلك

وقاه الله أن يصيبه جوع أو عطش وكلل. وكذلك شأن الأنبياء فقد قال النبي ﷺ في حديث وصال الصوم: «إني لست كهيتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَوُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة: ٦٠) بينما قال في الأعراف: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ۖ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ ۖ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ ۖ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٠). فقال في البقرة: ﴿ فَانفَجَرَتْ ﴾ وقال في الأعراف: ﴿ فَانْبَجَسَتْ ﴾.

قال د. فاضل: إنه عبّر بالانفجار في سورة البقرة والانبجاس في سورة الأعراف لجملة أسباب منها - والله أعلم -:

١- أن موسى هو الذي استسقى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ فناسب إجابته بانفجار الماء في حين ذكر في سورة الأعراف أن قومه هم الذين استسقوا موسى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ﴾ والحالة الأولى أكمل، فناسب إجابته بانفجار الماء دون الثانية.

٢- قال في سورة البقرة: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ أي: أن الله قال ذلك لموسى قولاً، في حين ذكر في الأعراف أن الله أوحى إلى موسى بذلك وحيًا ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ۖ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ والحالة الأولى أكمل وأنتم فإن القول الصريح من الله أكمل وأقوى من الوحي، فناسب ذلك ذكر الانفجار في البقرة والانبجاس في الأعراف.

٣- قال في سورة البقرة: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ ﴾ فجمع لهم بين الأكل والشرب، ولم يرد في الأعراف ذكر الشرب، فناسب ذلك أن يُبالغ بذكر الانفجار بالماء في البقرة.

۴- أن الله أسند القول إلى نفسه في سورة البقرة فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴿فِي حِينَ بَنَى الْقَوْلَ لِلْمَجْهُولِ فِي الْأَعْرَافِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ .

وإسناد القول إلى نفسه يكون في مقام التكریم والتشريف، بخلاف البناء للمجهول، فناسب في مقام التكریم ذكر الانفجار بالماء دون الانبجاس.

۵- إن القصة في البقرة وردت في مقام تعداد النعم على بني إسرائيل، وفي مقام تكریمهم ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .

في حين أن المقام في سورة الأعراف، مقام تقريع وتأنيب على ما فعلوه وارتكبوه من مآثم، فَنَاسَبَ في مقام تعداد النعم والتكریم ذكر حالة الانفجار دون الحالة الأخرى، والله أعلم.

قال تعالى في البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . وقال في النساء: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْأَبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ . في حين قال في الأعراف: ﴿وَإِذْ نَنقَضْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

قال د. فاضل: فاستعمل ﴿الطُّورَ﴾ في آيتي البقرة والنساء، واستعمل ﴿الْجِبَلَ﴾ في آية الأعراف، ذلك أن التهديد في آية الأعراف أشد فاستعمل لفظ ﴿الْجِبَلَ﴾ لذلك فإن ﴿الْجِبَلَ﴾ اسم لما طال وعَظُمَ من أوتاد الأرض. ولا يشترط في الطور ذلك.

«فالجبل أعظم من الطور، ولذلك يجيء في مقام الشدة والهول وبيان المقدرة العظيمة اسم (الجبل) وذلك نحو قوله تعالى في قول موسى: ﴿رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا بَحَلَّى رَبُّهُ،

لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴿ (الْأَنْعَامُ : ١٤٣) . فانظر كيف اختار لفظ الجبل على الطور للدلالة على عظم التجلي وأثره .

ولذلك أيضاً ذكر لفظ الجبال دون الأطوار في مقام التهويل والتعظيم والدلالة على القدرة التي لا تحد، فقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿ (النَّبَأُ : ٦ ، ٧) ، وقال: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعِمَ كُمْ ﴿ (الْقَارِعَاتُ : ٣٢ ، ٣٣) ، وقال في يوم القيامة: ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿ (التَّكْوِينُ : ٣) ، وقال: ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿ (الْعَاشِيَةِ : ١٩) . ففيها من الدلالة على العظم ما ليس في اسم الطور) .

ولذلك استعمل ﴿ نَنقُتَا ﴾ مع ﴿ الْجَبَلِ ﴾ ولم يستعمل «رَفَعْنَا»، لما في النَّقَّ من التهديد الشديد والتخويف «فإن النَّقَّ أشدُّ وأقوى من الرَّفْعُ، ذلك أن معنى النَّقَّ: هو الجَذْبُ والزَّعَزَعَةُ والاقْتِلَاعُ، ومعناه أيضاً: هو أن يَقْلَعَ الشيء، فيرفعه من مكانه لِيُرْمِيَ به، هذا هو الأصل في حين أن الرفع ضدُّ الوضع». كما في لسان العرب .

فأنت ترى أن في نَتَقَ الجبل من الغرابة والقوة والإخافة والتهديد ما ليس في رَفَعَ الطور. فَأَنْ يُزَعَزَعَ الْجَبَلُ وَيُقْلَعَ مِنْ مَكَانِهِ وَيُرْفَعَ لِيُرْمَى بِهِ كَأَن هُنَاكَ قَازِفًا يَقْذِفُ بِهِ عَلَيْهِمْ، أَمْرٌ مَرَعِبٌ وَمُخِيفٌ وَفِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ مَا لَيْسَ فِي رَفْعِهِ .

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ﴿ (الْبَقْعَةُ : ٦١) ، فقالوا ﴿ يُخْرِجْ لَنَا ﴿ دون ﴿ يُخْرِجْ ﴾ ليدل على طلبهم لشيء يختصون به دون غيرهم، فهم يطلبون رزقاً من هذه الأشياء يختصون به دون غيرهم، فما أشدهم أنانيتهم!!

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴿ (الْبَقْعَةُ : ٦١) .

قال ابن عاشور: والضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة يقال: ضرب بعصا وبيده وبالسيف وضرب بيده الأرض إذا

ألصقها بها. وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق، فمنه ضرب في الأرض وسار طويلاً وضرب قبة وبيتاً في موضع كذا بمعنى شدها ووثقها من الأرض. وضرب الطين على الحائط ألصقه فقله ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ استعارة مكنية إذ شبهت الذلة والمسكنة في الإحاطة بهم واللزوم بالبيت أو القبة يضربها الساكن ليلزمها، ويجوز أن يكون ضربت استعارة تبعية وليس ثمة مكنية بأن شبه لزوم الذلة لهم ولصوقها بلصوق الطين بالحائط.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَيْنَا ثُمَّ فِيهَا وَلِلَّهِ مَخْرَجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْنُحُونَ ﴾ ﴾ (البقرة: ٧٢).

قال في (الدر المنثور): أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن المسيب بن رافع قال: ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك كتاب الله ﴿ وَلِلَّهِ مَخْرَجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْنُحُونَ ﴾. وأخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة صماء لا باب فيها ولا كوة خرج عمله إلى الناس كائناً ما كان».

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبيهقي عن عثمان بن عفان قال: من عمل عملاً كساه الله رداءه، وإن خيراً فخييراً وإن شراً فشر.

وأخرج البيهقي من وجه آخر عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به». قال البيهقي: «الموقوف أصح».

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي وضعفه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «مَنْ الْمُؤْمِنُ؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «المؤمن الذي لا يموت حتى يملأ الله مسامعه مما يحب، ولو أن عبداً اتقى الله في جوف بيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد لألبسه الله رداء عمله حتى يتحدث به الناس

ويزidon». قالوا: وكيف يزidon يا رسول الله؟ قال: «لأنّ التقي لو يستطيع أن يزid في بره لزاد». ثم قال رسول الله: «مَن الكافر؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الكافر الذي لا يموت حتى يملأ الله مسامعه مما يكره، ولو أن فاجراً فجر في جوف البيت إلى سبعين بيتاً على كل بيت باب من حديد لألبسه الله رداء عمله حتى يتحدث به الناس ويزidon». قالوا: وكيف يزidon يا رسول الله؟ قال: «لأنّ الفاجر لو يستطيع أن يزid في فجوره لزاد».

وأخرج ابن عدي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله مُرد كل امرئ رداء عمله». وأخرج البيهقي عن ثابت قال: كان يقال لو أن ابن آدم عمل بالخير في سبعين بيتاً لكساه الله تعالى رداء عمله حتى يعرف به.

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن سعيد بن المسيب قال: الناس يعملون أعمالهم من تحت كنف الله، فإذا أراد الله بعبدٍ فضيحةً أخرجه من تحت كنفه فبدت عورته. وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أبي إدريس الخولاني رفعه قال: لا يهتك الله عبداً وفيه مثقال حبة من خير. وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم قال: لو أن عبداً اكتم بالعبادة كما يكتتم بالفجور لأظهر الله ذلك منه.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البَقَّة: ٧٤).

فائدة: تشبيه قسوة القلب بالحجارة مع أن في الموجودات ما هو أشد صلابة منها هي أن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الحجارة. أفاده ابن سعدي في تفسيره.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿بِسْمَا أَشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن

يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ (البَقَّة: ٩٠).

قال ابن عاشور: وجيء بصيغة المضارع في قوله ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ ولم يؤت به على ما يناسب قوله ﴿بِسْمَا أَشْتَرُوا﴾ المقتضي أن الاشتراء قد مضى للدلالة على أنهم صرحوا بالكفر بالقرآن من قبل نزول الآية فقد تبين أن اشتراء أنفسهم بالكفر عمل استقر ومضى ثم لما أريد بيان ما اشتروا به أنفسهم نبه على أنهم لم يزالوا يكفرون ويعلم أنهم كفروا فيما مضى أيضاً إذ كان المبين بأن يكفروا معبر عنه بالماضي بقوله ﴿بِسْمَا أَشْتَرُوا﴾.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٢٤).

قال ابن عاشور: قوله ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ جيء فيه بالفاء للدلالة على الفور في الامتثال، وذلك من شدة العزم. والإتمام في الأصل الإتيان بنهاية الفعل أو إكمال آخر أجزاء المصنوع.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤).

قال ابن عاشور: ومن دقة القرآن اختيار هذا اللفظ هنا لأن اليهود زعموا أن الله عهد لإبراهيم عهداً بأنه مع ذريته، ففي ذكر لفظ العهد تعريض بهم وإن كان صريح الكلام لتوبيخ المشركين. والمراد بالظالمين ابتداءً المشركون أي الذين ظلموا أنفسهم إذ أشركوا بالله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ والظلم يشمل أيضاً عمل المعاصي الكبائر كما وقع في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ وقد وصف القرآن اليهود بوصف الظالمين في قوله ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فالمراد بالظلم المعاصي الكبيرة وأعلاها الشرك بالله تعالى. وفي الآية تنبيه على أن أهل الكتاب والمشركين يومئذ ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بأنواع من الظلم كالشرك وتحريف الكتاب وتأويله على حسب شهواتهم والانهاك في المعاصي حتى إذا عرضوا أنفسهم على هذا الوصف علموا انطباقه عليهم. وإناطة الحكم بوصف الظالمين إيحاء إلى علة نفي أن ينالهم عهد الله فيفهم من العلة أنه إذا زال وصف الظلم نالهم العهد.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (البقرة: ١٢٥) فقال ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾، بينما قال في سورة الحج: ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (الحج: ٢٦)، فقال ﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾، ووجه ذلك - والله أعلم - أنَّ سورة البقرة مدنية وسورة الحج مكية، فلما قال في البقرة ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة: ١٢٦)، وهي متأخرة في النزول، ناسب أن يقول الله ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ لأنَّ العكوف إقامة، فكأنَّه بذلك ثانية، وأما سورة الحج فهي مكية، وقد نزلت قبل البقرة فناسب عدم ذكر العكوف، فكأنَّه أمر بذلك أولاً، والله أعلم.

فائدة: قال الألوسي: لعل التعبير عن الصلاة بأركانها من القيام والركوع والسجود في قوله ﴿ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (الحج: ٢٦)، للدلالة على أنَّ كل واحدٍ منها مستقل باقتضاء التطهير أو التبرئة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة: ١٢٦).

قال ابن عاشور: ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوة، فإنَّ أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة. وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام.

والتعريف في الثمرات تعريف الاستغراق وهو استغراق عرفي أي من جميع الثمرات المعروفة للناس. ودليل كونه تعريف الاستغراق مجيء من التي للتبغيض. وفي هذا دعاء لهم بالرفاهية حتى لا تطمح نفوسهم للارتحال عنه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴾ (البقرة: ١٢٧، ١٢٨).

قال ابن عاشور: فائدة تكرير النداء بقوله ﴿ رَبَّنَا ﴾ إظهار الضراعة إلى الله تعالى وإظهار أن كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى، فإن الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل والثانية لطلب الاهتداء، فجملة النداء معترضة بين المعطوف هنا والمعطوف عليه في قوله الآتي ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا ﴾ .

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٨). فسمّى الدين صبغة استعارة ومجازاً حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر أثر الصبغ في الثوب. أفاده القرطبي.

وقال ابن عاشور: والصبغة هنا اسم للماء الذي يغتسل به اليهود عنواناً على التوبة لمغفرة الذنوب. والأصل فيها عندهم الاغتسال الذي جاء فرضه في التوراة على الكاهن إذا أراد تقديم قربان كفارة عن الخطيئة عن نفسه أو عن أهل بيته. والاغتسال الذي يغتسله الكاهن أيضاً في عيد الكفارة عن خطايا بني إسرائيل في كل عام. وعند النصارى الصبغة أصلها التطهر في نهر الأردن وهو اغتسال سنة النبي يحيى بن زكريا لمن يتوب من الذنوب فكان يحيى يعظ الناس بالتوبة فإذا تابوا أتوه فيأمرهم بأن يغتسلوا في نهر الأردن رمزاً للتطهر الروحاني وكانوا يسمون ذلك معموديت بذال معجمة وبتاء فوقية في آخره ويقولون أيضاً معموديتا بألف بعد التاء، وهي كلمة من اللغة الآرامية معناها الطهارة وقد عربه العرب فقالوا معمودية بالبدال المهملة وهاء تأنيث في آخره وياؤه التحتية مخففة، وكان عيسى بن مريم حين تعمد بماء المعمودية أنزل الله عليه الوحي بالرسالة ودعا اليهود إلى ما أوحى الله به إليه وحدث كفر اليهود بها جاء به عيسى، وقد آمن به يحيى فنشأ الشقاق بين اليهود وبين يحيى وعيسى ففرض اليهود التعميد وكان عيسى قد عمّد

الحواريين الذين آمنوا به فتقرر في سنة النصارى تعميد من يدخل في دين النصرانية كبيراً، وقد تعمد قسطنطين قيصر الروم حين دخل في دين النصرانية أما من يولد للنصارى فيعمدونه في اليوم السابع من ولادته. وإطلاق اسم الصبغة على المعمودية يحتمل أن يكون من مبتكرات القرآن ويحتمل أن يكون نصارى العرب سموا ذلك الغسل صبغة ولم أقف على ما يثبت ذلك من كلامهم في الجاهلية. وظاهر كلام الراغب أنه إطلاق قديم عند النصارى إذ قال: «وكانت النصارى إذا ولد لهم ولد غمسوه بعد السابع في ماء معمودية يزعمون أن ذلك صبغة لهم». أما وجه تسمية المعمودية «صبغة» فهو خفي إذ ليس ماء المعمودية لون فيطلق على التلطيخ به مادة ص ب غ. وفي دائرة المعارف الإسلامية أن أصل الكلمة من العبرية ص ب ع أي غطس فيقتضى أنه لما عرب أبدلوا العين المهملة غيناً معجمة لعله لندرة مادة صبع بالعين المهملة في المشتقات. وأياً ما كان فإن إطلاق الصبغة على ماء المعمودية أو على الاغتسال به استعارة مبنية على تشبيه وجهه تخيلي إذ تخيلوا أن التعميد يكسب المعمد به صفة النصرانية ويلونه بلونها كما يلون الصبغ ثوباً مصبوغاً وقريب منه إطلاق الصبغ على عادة القوم وخلقهم وأنشدوا:

وكل أناس لهم صبغة ... وصبغة همدان خير الصبغ
صبغنا على ذلك أبناءنا ... فأكرم بصبغتنا في الصبغ

وقد جعل النصارى في كنائسهم أحواضاً صغيرة فيها ماء يزعمون أنه مخلوط ببقايا الماء الذي أهرق على عيسى حين عمده يحيى وأن ما تقاطر منه جمع وصب في ماء كثير ومن ذلك الماء تؤخذ مقادير تعتبر مباركة لأنها لا تخلو عن جزء من الماء الذي تقاطر من اغتسال عيسى حين تعميده كما قال في أوائل الأناجيل الأربعة.

فقوله ﴿ صَبْغَةَ اللَّهِ ﴾ رد على اليهود والنصارى معاً أما اليهود فلأن الصبغة نشأت فيهم وأما النصارى فلأنها سنة مستمرة فيهم ولما كانت المعمودية مشروعة لهم لغلبة تأثير المحسوسات على عقائدهم رد عليهم بأن صبغة الإسلام الاعتقاد

والعمل المشار إليهما بقوله ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أي إن كان إيمانكم حاصلًا بصبغة القسيس فإيماننا بصبغ الله وتلوينه. اهـ.

قلت: هذا الذي نقله إنما هو ما أخذه عن كتب أهل الكتاب، والله أعلم هل هذا التعميد من أصل دينهم أم هو من ابتداعهم؟!!

قال تعالى لنبيه: ﴿ فَلَنُؤْيِيَنَّكَ قَبْلَةَ تَرْضَاهَا ﴾ (البقرة: ١٤٤) دون قول: تحبها أو تهواها فيه دلالة على أن ميل الرسول إلى الكعبة ميل لقصد الخير لا لهوى النفس؛ وذلك أن الكعبة أجدر بيوت الله بأن يكون قبلة فهو أول بيت وضع للناس بالتوحيد. وفي استقبال بيت المقدس أولاً ثم التحول إلى الكعبة إشارة إلى استقلال هذا الدين عن دين أهل الكتاب. أفاده ابن عاشور.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴾ وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ١٤٥) بينما قال: ﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَلَيْنَ آتَبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة: ١٢٠)، فقال في الأولى ﴿ مَا ﴾ وفي الثانية ﴿ الَّذِي ﴾، وقال في الأولى ﴿ مِنْ بَعْدِ ﴾ وفي الثانية ﴿ بَعْدَ ﴾ دون ﴿ مِنْ ﴾، قال ابن عاشور: ﴿ الَّذِي ﴾ و ﴿ مَا ﴾ وإن كانا مشتركين في أنها اسماً موصول إلا أنها الأصل في الأسماء الموصولة. ولما كان العلم الذي جاء النبي في معرض الآية الأولى هو العلم المتعلق بأصل ملة الإسلام وببطلان ملة اليهود وملة النصارى بعد النسخ وإثبات عناد الفريقين في صحة رسالة محمد، وذلك ابتداءً من قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ﴾ إلى قوله ﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى ﴾، فلا جرم كان العلم الذي جاء في ذلك هو أصرح العلم وأقدمه وكان حقيقياً بأن يعبر عنه باسم الموصول الصريح في التعريف. وأما الآية الثانية التي نحن بصدددها فهي متعلقة بإبطال قبلة اليهود والنصارى لأنها مسبوقة ببيان ذلك ابتداءً

من قوله ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾ ، وذلك تشريع فرعي فالتحذير الواقع بعده تحذير من اتباع الفريقين في أمر القبلة وذلك ليس له أهمية مثل ما للتحذير من اتباع ملتهم بأسرها فلم يكن للعلم الذي جاء النبي في أمر قبلتهم من الأهمية ما للعلم الذي جاء في بطلان أصول ملتهم؛ فلذلك جيء في تعريفه باسم الموصل المملح بالمعارف وهو «ما» لأنها في الأصل نكرة موصوفة نقلت للموصولية وإنما أدخلت «من» في هذه الآية الثانية على «بعد» بقوله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ لأن هذه الآية وقعت بعد الآية الأولى في سورة واحدة وليس بينهما بعيد فصل، فكان العلم الذي جاءه فيها من قوله ﴿مَا تَبِعُوا قِبَلَتَكَ﴾ وهو جزئي من عموم العلم الذي جاء في إبطال جميع ملتهم فكان جديراً بأن يشار إلى كونه جزئياً له بإيراد من الابتدائية.

فائدة: ذكر البقاعي وجه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤) وَلَتَبْلُوَنَكُمْ بَشْيَاءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٤ - ١٥٦) بعد الكلام على تحويل القبلة والطاعنين فيها، فقال: والتفتاً إلى ما أشار به إلى صيرورة الأمر إلى الحرب حيث عاب المانعين للمسجد وأخبر بأنه سيحصل لهم خزي في الدنيا بالفعل والأسر وعذاب عظيم في الآخرة بالنار والسخط، وإيماء إلى أنه سيأذن لهم في مقارعة من أمرهم بالصبر على أذاهم من أهل الكتاب حتى يمحقهم السيف ويسكنهم الذل والخوف، فالمعنى: اصبروا على كل ما يقوله أهل الكتاب وغيرهم في أمر القبلة وغيره وعلى كل ما يغير به الشيطان في وجه الإيذان وصلوا إلى البيت الذي وجهتمكم إليه وجاهدوا كل من خالفكم حتى يكون الدين لله صابرين على كل ما ينوب في ذلك من القتل والنهب وغيره، ولا تقولوا إذا قاتلتم الكفار المناصبين لكم من العرب وغيرهم من أهل الكتاب وغيرهم ﴿لِمَنْ يُقْتَلُ﴾ منكم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال بأن يقاتلوا لتكون

كلمة الله هي العليا لا شيء غير ذلك من دنيا أو عصبية، فإننا سنكتب عليكم الجهاد ونستشهد منكم شهداء: إنهم ﴿أَمْوَاتٌ﴾ بل قولوا إنهم شهداء فإنهم ليسوا بأموات ﴿بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَاءُ﴾ .

وفي هذا إشارة إلى أن كون الله معهم لا يمنع أن يستشهد منهم شهداء بل ذلك من ثمرات كون الله معهم حيث يظفر من استشهد منهم بسعادة الآخرة ومن بقي بسعادة الدارين. وتلخيص ذلك أن يقال: إنه لما كان حاصل ما تقدم في هذه السورة أن أهل الأرض كلهم قريبيهم وبعيدهم وثنيهم وكتابيهم مطبقون على عداوة أهل هذا الدين وكان كثيراً ما يأمرهم بالصبر على أذاهم اشتد تشوق النفوس إلى أنه هل بعد هذا الكف من فعل، فأشار إلى أنه سيأمر بعد الصبر على أذى اللسان بالصبر على جلاد السيف والسنان أمراً عاماً فقال عاطفاً هذا النهي على الأمر بالصبر: أي اصبروا الآن على هذا الأذى ثم اصبروا إذا أمرتكم بالجهاد على وقع السيوف واقتحام الحتوف وفقد من يقتل منكم ولا تصفوهم بالموت.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾﴾ (البقرة: ١٥٥). قال البقاعي: لما كان «الجوع» ربما يكون رياضة لا عن حاجة، قال ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ ليفيد حاجتهم، ولما كان نقص المال عن الحاجة ربما يكون لفرط الكثرة العددية لا لقلّة في نفسه، فقال ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ ، لأنه ربما يُظنّ أن نقص عدد الأفراد سيترتب عليه كفاية الثمرات، فقال ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ ، والله أعلم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَصْفَاءَ وَالْمُرَّةَ مِن شَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾﴾ (البقرة: ١٥٨)، فقال ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ﴾ ولم يقل «ألا يطوف»، أخرج البخاري ومسلم عن عروة أنه قال لعائشة «أرأيت قول الله عز وجل ﴿إِنَّ الْأَصْفَاءَ وَالْمُرَّةَ مِن شَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾»، فما أرى على أحد شيئاً ألا يطوف بهما»، فقالت عائشة: بئس ما قلت يا ابن

أختي إنها لو كانت على أولتها عليه كانت: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما. ثم بينت له سبب نزولها من أن الأنصار كانوا يهلون لمناة بين الصفا والمروة فخرجوا في الإسلام من ذلك.

قلت: ولكن يشكل على كلامها قراءة من قرأ «فلا جناح عليه ألا يطوف بهما»، والجواب عن ذلك - إذا قلنا بصحة سند هذه القراءة - أن الفاء في قوله تعالى ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ تربط هذه الجملة بما قبلها ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ولو كان المعنى من الآية رفع الجناح عمن لم يطف بالصفا والمروة لقال «إن الصفا والمروة من شعائر الله. ومن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه .. إلخ»، وأما الربط بالفاء مع كون المراد من الجملة بعدها نفي الجناح عمن لم يطف فلا يصح معنى، وعليه فالربط بالفاء يدل على أن قوله بعد الفاء ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ سيق لبيان نفي الحرج النفسي عند من تخرج - في الإسلام - من السعي، وعليه فقراءة «فلا جناح عليه ألا يطوف»، تحمل على أن «لا» زائدة، وتكون هذه القراءة بنفس معنى قراءة ﴿أَنْ يَطُوفَ﴾، وهذا نظير ما قيل في قوله تعالى ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ ومعناها «أن تسجد»، وقوله ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ ومعناها «أقسم بيوم القيامة».

فائدة: قال البقاعي مبيناً مناسبة ذكر الحج والعمرة ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ (البقرة: ١٥٨) بعد قوله ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ شَيْئًا مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥)، فقال: ومن أعظم المناسبات أيضاً كون سبيل الحج إذ ذاك كان ممنوعاً بأهل الحرب فكأنها علة لما قبلها، وكأنه قيل: ولنبلونكم بما ذكر لأن الحج من أعظم شعائر هذا البيت الذي أمرتم باستقباله وهو مما يفرض عليكم وسبيله ممنوع بمن تعلمون فلنبلونكم بقتالهم لزوال مانع الحج وقتال غيرهم من أهل الكتاب وغيرهم لإتمام النعمة بتمام الدين وظهوره على كل دين، ومن أحسنها أيضاً أنه تعالى لما ذكر البلايا بنقص الأموال بسبب الذنوب

﴿ وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (الشُّورَى : ٣٠) أتبعها الدواء الجابر لذلك النقص ديناً ودنيا.. فإن الحج والعمرة ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الذهب والفضة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ (البَقَّة : ١٦٤).

قال ابن عاشور: والاختلاف افتعال من الخلف وهو أن يجيء شيء عوضاً عن شيء آخر يخلفه في مكانه والخلفة بكسر الخاء الخلف. وقد أضيف الاختلاف لكل من الليل والنهار لأن كل واحد منهما يخلف الآخر فتحصل منه فوائد تعاكس فوائد الآخر بحيث لو دام أحدهما لانتقل النفع ضرراً ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾. وللاختلاف معنى آخر هو مراد أيضاً وهو تفاوتها في الطول والقصر فمرة يعتدلان ومرة يزيد أحدهما على الآخر وذلك بحسب أزمنة الفصول وبحسب أمكنة الأرض في أطوال البلاد وأعراضها كما هو مقرر في علم الهيئة وهذا أيضاً من مواضع العبرة لأنه آثار الصنع البديع في شكل الأرض ومسامتها للشمس قريباً وبعداً، ففي اختيار التعبير بالاختلاف هنا سر بديع لتكون العبارة صالحة للعبرتين.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

(البَقَّة : ١٦٧)

قال ابن عاشور: وقوله ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ حال أو اعتراض في آخر الكلام لقصد التذييل لمضمون ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ لأنهم إذا كانوا لا يخرجون من النار تعين أن تمنهم الرجوع إلى الدنيا وحدث الخيبة لهم من صنع رؤسائهم لا فائدة فيه إلا إدخال ألم الحسرات عليهم وإلا فهم يلقون في النار على كل حال. وعدل عن الجملة الفعلية بأن يقال «وما يخرجون» إلى الاسمية للدلالة على

أن هذا الحكم ثابت أنه من صفاتهم. وليس لتقديم المسند إليه هنا نكتة إلا أنه الأصل في التعبير بالجملة الاسمية في مثل هذا إذ لا تتأتى بسوى هذا التقديم فليس في التقديم دلالة على اختصاص على اختصاص لما علمت. ولأن التقديم على المسند المشتق لا يفيد الاختصاص عند جمهور أئمة المعاني بل الاختصاص مفروض في تقديمه على المسند الفعلي خاصة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ﴾ (النِّقَاطُ: ١٦٨). فسمية استدراج الشيطان ﴿ خُطُوَاتِ ﴾ فيه إشارتان:

١- الخطوة مسافة يسيرة وهكذا الشيطان يبدأ بالشيء اليسير من البدعة أو للمعصية حتى تألفها النفس.

٢- قوله ﴿ خُطُوَاتِ ﴾ دليل على أن الشيطان لن يقف عند أول خطوة في المعصية.

أفاده فهد العبيان «انظر كتاب تدبر المجموعة (١)».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ﴾ ﴾

(النِّقَاطُ: ١٧٨)

قال د. فاضل السامرائي: وجاء في «معاني القرآن» للفراء: «وأما قوله تعالى ﴿ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ﴾ فإنه رفع وهو بمنزلة الأمر في الظاهر كما تقول: (من لقي العدو فصبراً واحتساباً)، فهذا نصبه ورفع جاز. وإنما كان الرفع وجه الكلام، لأنه عامة فيمن فعل، ويراد بها من لم يفعل، فكأنه قال: فالأمر فيها على هذا فيرفع. وينصب الفعل إذا كان أمراً عند الشيء يقع ليس بدائم، مثل قولك للرجل: إذا أخذت في عملك فجداً جداً وسيراً سيراً. نصبت لأنك لم تنو به العموم فيصير كالشيء الواجب على مَنْ أتاه وفعله... وأما قوله ﴿ فَضْرَبَ الرِّقَابِ ﴾ (مُحَمَّدٌ: ٤) فإنه حَثُّهم على القتل إذا لقوا العدو، ولم يكن الحث كالشيء الذي يجب بفعل قبله، فلذلك نصب، وهو بمنزلة قولك: إذا لقيتم العدو فتهليلاً تهليلاً وتكبيراً وصدقاً عند تلك الواقعة .. كأنه حث لهم».

وجاء في «شرح ابن يعيش» أن: «الفرق بين النصب والرفع، أنك إذا رفعتها فكأنك ابتدأت شيئاً قد ثبت عندك واستقر وفيها ذلك المعنى.. وإذا نصبت كنت ترجاه في حال حديثك وتعمل في إثباته».

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ. وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٨٤)، فقال ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ وفي ذلك دقة بالغة؛ لأن كلمة ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ يصح حملها لغة على معنى القدرة، فيكون في الآية بيان جواز الفطر لمن سهل عليه الصيام ولكن يطعم عن كل يوم مسكيناً - وهكذا كان الحكم في أول الإسلام - كما أن كلمة ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ يصح حملها لغة على معنى المشقة، فيكون في الآية بيان لرحمة الله بمن شق عليه الصيام كالشيخ الكبير والمرأة العجوز وصاحب المرض المزمن، فرخص لهم بالفطر مع إطعام مسكين عن كل يوم، فعلى القول الأصح في هذه الآية وأنها نزلت ابتداءً - في أول تشريع الصيام - بإباحة الفطر لكل من أراد ولكن مع الإطعام، كما في الصحيحين «لما نزلت ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها» وأن حكمها ثبت للشيخ الكبير والمرأة العجوز اللذين يشق عليهما الصيام، كما روى البيهقي وابن الجارود ورواه أبو داود مختصراً - وصححه الألباني - عن ابن عباس «وثبت للشيخ الكبير والعجوز الكبيرة إذا كانا لا يطيقان الصوم والحبل والمرضع إذا خافتا أفطرتا وأطعمتا كل يوم مسكيناً»، فوجه الدقة هنا أن الله قال ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ لتشمل بظاهر لفظها قبل نسخها الجميع ولتشمل بلفظها أيضاً بعد النسخ الشيخ الكبير وأصحاب الأعذار الدائمة، ولو قال «يسهل عليهم الصيام» لكان لفظها صالحاً لما كان عليه الأمر قبل النسخ فقط، فأكرم بدقة القرآن!!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ

الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى

عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١١٦﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٧﴾ (البقرة: ١٩٣ - ١٩٥)، فذكر فيها آيات الجهاد ثم أعقبها بآيات الحج ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ (البقرة: ١٩٦)، وما بعدها، ووجه ذلك - والله أعلم - كون الحج نوعاً من أنواع الجهاد، ففي الحديث أن الحج والعمرة جهاد الضعيف والمرأة والكبير، كما أن فيه ترك الوطن وبذل المال وفراق الأهل، فأشبهه الجهاد، وبدأ بالجهاد لأنه هو الأصل وهو أعظم أجراً، ففي الحديث أي العمل أفضل؟ فقال ﷺ: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قيل: ثم أي؟ فقال: «حجة مبرورة»، ولأن المرء إذا أذعنت نفسه للجهاد بإخلاص وصدق، هان عليها البذل في أي عمل صالح آخر.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾﴾ (البقرة: ١٩٦).

جاء لفظ القرآن في بيان الرخصة بالأسهل فالأسهل ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾ ولما أمر النبي كعب بن عجرة بذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال: «انسك شاة أو أطعم ستة مساكين أو صم ثلاثة أيام». متفق عليه، فكل شيء حسن في مقامه. أفاده ابن كثير.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنْ تَمَنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾﴾ (البقرة: ١٩٦). من بلاغة القرآن في قوله تعالى عن الهدي ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أنه لم يحدد ما الذي لم يوجد ليشمل من لم يجد الهدي ومن لم يجد ثمنه فاستفدنا زيادة المعنى مع اختصار اللفظ. أفاده الشيخ ابن عثيمين.

فائدة: قال البقاعي مبيناً وجه قوله في آيات الحج ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (البقرة: ٢٠٣)، فقال: قال الحرالي: وكلية الحج ومناسكه مطابق في الاعتبار لأمر يوم الحشر ومواقفه من خروج الحاج من وطنه متزوداً كخروج الميت من الدنيا

متزوداً بزد العمل. ووصولہ إلى الميقات وإهلاله متجرباً كانباعثه من القبر متعرياً. وتلبيته في حجه كتلبيته في حشره ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ (الْقَسَصُ: ۸) كذلك اعتباره موطناً إلى غاية الإفاضة والحلول بحرم الله في الآخرة التي هي الجنة. والشرب من ماء زمزم التي هي آية نزل الله لأهل الجنة على وجوه من الاعتبار يطالعها أهل الفهم واليقين؛ فلاجل ذلك كان أتم ختم لأحكام الحج ذكر الحشر - انتهى.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾﴾ (البَقَّة: ۲۱۲).

قال ابن عاشور: وجيء في فعل التزيين بصيغة الماضي وفي فعل السخرية بصيغة المضارع قضاءً لحقي الدلالة على أن معنى فعل التزيين أمر مستقر فيهم لأن الماضي يدل على التحقق، وأن معنى يسخرون متكرر متجدد منهم لأن المضارع يفيد التجدد ويُعلم السامع أن ما هو محقق من الفعلين هو أيضاً مستمر لأن الشيء الراسخ في النفس لا تفتر عن تكريره ويعلم أن ما كان مستمراً هو أيضاً محقق لأن الفعل لا يستمر إلا وقد تمكن من نفس فاعله وسكنت إليه، فيكون المعنى في الآية: زين للذين كفروا وتزين الحياة الدنيا وسخروا ويسخرون من الذين آمنوا. على هذا فإنما اختير لفعل التزيين خصوص المضي ولفعل السخرية خصوص المضارعة إيثاراً لكل من الصفتين بالفعل التي هي به أجدر لأن التزيين لما كان هو الأسبق في الوجود وهو منشأ السخرية أوثر بما يدل على التحقق ليدل على ملكة واعتمد في دلالة على الاستمرار بالاستتباع. والسخرية لما كانت مرتبة على التزيين وكان تكررها يزيد في الذم إذ لا يليق بذی المروءة السخرية بغيره أوثرت بما يدل على الاستمرار. واعتمد في دلالتها على التحقق دلالة الالتزام لأن الشيء المستمر لا يكون إلا متحققاً.

وأما وجه التخصيص ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، فهو لأن يوم القيامة هو مبدأ أيام الجزاء، وغير المتقين لا يظهر لهم التفوق يومئذٍ، ولا يدركه الكفار بالحس، ولكن تظهر مزيتهم بعد انقضاء ما قُدر لهم من العذاب على الذنوب، وأما الذين اتقوا فتظهر مزيتهم

بالإيمان والتقوى في ذلك اليوم، كما أنَّ تقييدها بيوم القيامة فيه التنصيص على دوامها، لأنَّ ذلك اليوم هو مبدأ الحياة الأبدية، أفاده ابن عاشور.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴾ (البقرة: ٢١٧)، فجعل العقوبة معلقة على شرطين: الردة والموت على الكفر بخلاف غيرها من الآيات كقوله: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ (التوبة: ٥)، وقوله لرسوله: ﴿ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ (النبي: ٦٥)، وقوله عن الأنبياء: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: ٨٨). قال ابن عاشور: فإن قلت ما السر في اقتران هذين الشرطين في هذه الآية مع خلو بقية نظائرها عن ثاني الشرطين؟

قلت: تلك الآي الأخر جاءت لتحويل أمر الشرك على فرض وقوعه من غير معين كما في آية ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ ﴾ أو ووقوعه ممن يستحيل وقوعه منه كما في آية ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وآية ﴿ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ فاقصر فيها على ما ينشأ عن الشرك بعد الإيمان من حبط الأعمال ومن الخسارة بإجمال. أما هذه الآية فقد وردت عقب ذكر محاولة المشركين ومعالجتهم ارتداد المسلمين المخاطبين بالآية فكان فرض وقوع الشرك والارتداد منهم أقرب لمحاولة المشركين ذلك بقتال المسلمين، فذكر فيها هذا الشرط الزائد مع زيادة تهويل وهو الخلود في النار.

فائدة: قوله ﴿ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ﴾ بالفاء المفيدة للتعقيب فيه إشارة إلى أنَّ الموت يعقب الارتداد، وقد علم كل أحد أنَّ معظم المرتدين لا تحضر آجالهم عقب الارتداد فيعلم السامع حينئذ أنَّ المرتد يعاقب بالموت عقوبة شرعية، فتكون الآية بهذه الإشارة دليلاً على وجوب قتل المرتد. أفاده ابن عاشور.

قلت: بل فيها دلالة على جواز قتله عقب الردة مباشرة وأنَّ الاستتابة ثلاثة أيام مستحبٌ فقط وليس بواجب، فما أجلها من فائدة!!!

فائدة: قال البقاعي في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (النِّقَاطُ: ٢١٧): فهو من وادي الاحتباك. وسر ما صنع في هذا الموضع من الاحتباك أنه لما كان القتال في الشهر الحرام قد وقع من المسلمين حين هذا السؤال في سرية عبد الله بن جحش أبرز السؤال عنه والجواب ولما كان القتال في المسجد الحرام لم يقع بعد وسيقع من المسلمين أيضاً عام الفتح طواه وأضمّره. ولما كان الصد عن سبيل الله الذي هو البيت والكفر الواقع بسببه لم يقع وسيقع من الكفار عام الحديبية أخفى خبره وقدره، ولما كان الإخراج قد وقع منهم ذكر خبره وأظهره.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾﴾ (النِّقَاطُ: ٢١٩، ٢٢٠).

قال في (الدر المنثور): أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس في قوله ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، يعني في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها. وأخرج عبد الرزاق عن قتادة في قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة. قال: لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن حزن التميمي قال: شهدت الحسن وقرأ هذه الآية من البقرة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة. قال: هي والله لمن تفكرها، ليعلمن أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وليعلمن أن الآخرة دار جزاء، ثم دار بقاء. وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في الآية قال: من تفكر في الدنيا عرف فضل إحداها على الأخرى، عرف أن الدنيا دار بلاء، ثم دار فناء، وأن الآخرة دار بقاء، ثم دار جزاء، فكونوا ممن يصرم حاجة الدنيا لحاجة الآخرة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعِزُّوا نَفْسَكُمْ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّبِينَ وَيُحِبُّ

الْمُطَهَّرِينَ ﴿ (البَقَّة: ٢٢٢)، فقال ﴿الْمُطَهَّرِينَ﴾ ﴿بينما قال ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧) لَا نَقَمُ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (البَقَّة: ١٠٧، ١٠٨)، فقال ﴿الْمُطَهَّرِينَ﴾، ووجه ذلك أَنَّ الأولى في الطهارة بدليل قوله قبله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّينَ﴾، فالأظهر التأسيس لا التأكيد، فيكون التطهر هنا هو الحسي، فقال ﴿الْمُطَهَّرِينَ﴾ من «تَطَهَّرَ» بوزن «تَفَعَّلَ» التي تدل على التكرار والتطاول، وأمَّا الثانية فهي في الطهارة الحسية والقلبية معاً فإنها نزلت في أهل قباء الذين جمعوا بين الطهارتين، فناسب أن يأتي بهذا اللفظ ﴿الْمُطَهَّرِينَ﴾ من «طَهَّرَ» بوزن «فَعَّلَ» التي تدل على المبالغة، قال د. فاضل: إن الآية الأولى في عموم المؤمنين والمؤمنات إلى يوم الدين وأن الثانية في صحابة رسول الله فاستعمل الأبلغ للصحابة لأنهم أكمل الناس طهارة في الظاهر والباطن واستعمل الصيغة الطويلة في المدة المتطاوله.

فائدة: قلت في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ (البَقَّة: ٢٢٢)، دقة بالغة إذ قال أولاً ﴿فَاعْتَزِلُوا﴾ لبيان ضرورة الهجر التام ثم قال ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ لبيان النهي عن الاقتراب نفسه مبالغة في الهجر ثم قال ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ ولم يقل «فاقربوهن» لبيان أن المراد باعتزاله وعدم قربانه إنما هو الفرج، ولو قال أولاً «فلا تأتوهن في المحيض» لفهم النهي عن الإتيان فقط مع أن محل الختان «أعلى فرج المرأة» والشفرين «جانبى الفرج» يحرم قربانهما من غير حائل، فما أحلاه وأجمله من كلام!!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ رَبْصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

(البَقَّة: ٢٢٦)

قال البقاعي: قال الحرالي: وفي مورد هذا الخطاب بإسناده للأزواج ما يظافر معنى إجراء أمر النكاح على ستره ولم يتعرض لذكر حكم الحكام بل جعل التربص للزوج والفيء منه فكأن الحكم من الحاكم إنما يقع على من هتك حرمة ستر أحكام الأزواج التي يجب أن تجري بين الزوجين من وراء ستر كما هو سر النكاح الذي هو سبب جمعهما ليكون حكم السر سراً وحكم الجهر جهراً. انتهى.

قلت: يعني طالما كانا متفقين، ولم يكن في اتفاقهما ما يخالف أحكام الشرع.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ اُطْلُقْ مَرَّتَيْنِ فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنِ ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

قال ابن عاشور: قدم الإمساك على التسريح إيماءً إلى أنه الأهم، المرغب فيه في نظر الشرع.

فائدة: قال البقاعي: وقال تعالى: ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ دون «طلقتان» تنبيهاً على أنه ينبغي أن تكون مرة بعد مرة؛ كل طلاقة في مرة لا أن يجمعهما في مرة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، قال البقاعي: فأنبأ سبحانه أن أمر ما بين الزوجين مؤخر حكمه إلى لقاء الله عز وجل حفيظةً على ما بين الزوجين ليبقى سراً لا يظهر أمره إلا الله تعالى. وفي إشعاره بإبقاء للمروة في أن لا يتحاكم الزوجان عند حاكم في الدنيا، وأن يرجعه كل واحد منهما إلى تقوى الله وعلمه ببصر الله. انتهى.

قلت: وكذا ليحذر الظالم منهما لصاحبه، فإنه وإن حكم له الحاكم في الدنيا بمقتضى الظاهر، فإن الله يعلم الحقيقة، وهم ملاقوه وسيفصل بينهما الحق.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ .

(البقرة: ٢٣٨)

أعقب آيات النساء في البقرة آية الصلاة ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾؛ للدلالة على أن الذي يعين العبد على القيام بحقوق النساء التي شرعها الله إنما هو محافظته على الصلاة، وفي ذلك أيضاً دلالة على أن هذا الدين متكامل، فكما يجب الالتزام

بالصلاة والمحافظة عليها، كذلك يجب التزام أحكام الشريعة في حسن معاشره النساء وإعطاءهنّ حقوقهنّ. وذكر البقاعي: أنّ وجه ذلك أنّ الاشتجار المذكور في الآيات السابقة بين الأزواج فيما يقع من تكره في الأنفس وتشاح في الأموال إنما وقع من تضييع المحافظة على الصلوات لأنّ الصلاة بركة في الرزق وسلاح على الأعداء وفيها توهين لسلطان الشيطان؛ فهي دافعةٌ للأموال التي منها تتضايق الأنفس وتقبل الوسواس ويطرقتها الشح.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٣ - ٢٤٦).

قال البقاعي مبيناً سر ترتيب الآيات: أراه في الأولى حال أهل الحذر من الموت بما في الأنفس من الهلع الذي حذرت منه هذه الأمة، ثم أراه في الآية الأخيرة مقابل ذلك من الترامي إلى طلب الحرب وهما طرفا انحراف في الأنفس.

قال عليه السلام: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموه فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ أَعْرَفَ عُرْفَهُ يَدِهِ﴾﴾ (البقرة: ٢٤٩).

قال البقاعي: وفي أفراد اليد إيدان بأنها غرفة اليد اليمنى لأنها اليد الخاصة للتعريف، ففي اعتباره أن الأخذ من الدنيا إنما يكون بيد لا يدين لاشتغال اليدين على جانبي الخير والشر.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥٤).

قال البقاعي مبيناً سر محي هذه الآية بعد قوله ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ أَحْتَفِلُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَقَعْل مَا يُرِيدُ ﴾ (البقرة: ٢٥٣): ولما كان الاختلاف على الأنبياء سبباً للجهاد الذي هو حظيرة الدين وكان عماد الجهاد النفقة أتبع ذلك قوله رجوعاً إلى أول السورة من هنا إلى آخرها وإلى التأكيد بلفظ الأمر لما تقدم الحث عليه من أمر النفقة: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي أقروا بالسستهم بالإيمان ﴿ أَنْفِقُوا ﴾ تصديقاً لدعواكم في جميع أبواب الجهاد الأصغر والأكبر لا تبخلوا فأَي داء أدوأ من البخل ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩).

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

قال البقاعي مبيناً سر تقديم قوله ﴿ سِنَّةٌ ﴾ على ﴿ نَوْمٌ ﴾: ثم بين قيوامته وكمال حياته بقوله ﴿ لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ ﴾ قال الحرالي: هي مجال النعاس في العينين قبل أن يستغرق الحواس ويخامر القلب ﴿ وَلَا نَوْمٌ ﴾ وهو ما وصل من النعاس إلى القلب فغشيه في حق من ينام قلبه وما استغرق الحواس في حق من لا ينام قلبه. انتهى.

ولما قال ﴿ لَا تَأْخُذْهُ ﴾، والأخذ بمعنى القهر والغلبة وجب تقديم السنة كما لو قيل فلان لا يغلبه أمير ولا سلطان.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنْ بُدِّئُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتَوْتُوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهَوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ﴾ (البقرة: ٢٧١).

قال في (الدر المنثور): وأخرج أحمد في الزهد عن سالم بن أبي الجعد قال: كان رجل في قوم صالح قد آذاهم، فقالوا: يا نبي الله ادع الله عليه. فقال: اذهبوا فقد كفيتموه،

وكان يخرج كل يوم فيحطب، فخرج يومئذ ومعه رغيفان فأكل أحدهما وتصدق بالآخر، فاحتطب ثم جاء بحطبه سالماً، فجاؤوا إلى صالح فقالوا: قد جاء بحطبه سالماً لم يصبه شيء، فدعاه صالح فقال: أي شيء صنعت اليوم؟ فقال: خرجت ومعني قرصان تصدقت بأحدهما وأكلت الآخر. فقال صالح: حل حطبك. فحله فإذا فيه أسود مثل الجذع عاض على جذل من الحطب، فقال: بها دفع عنه. يعني بالصدقة.

وأخرج أحمد عن سالم بن أبي الجعد قال: خرجت امرأة وكان معها صبي لها، فجاء الذئب فاختلسه منها، فخرجت في أثره وكان معها رغيف، فعرض لها سائل فأعطته الرغيف، فجاء الذئب بصبيها فرده عليها.

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله، فأما الذين يحبهم الله فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة فتخلف رجل في أعقابهم فأعطاه سرّاً لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم من كذا وكذا نزلوا فوضعوا رؤوسهم فقام رجل يتملقني ويتلو آياتي، ورجل كان في سرية فلقي العدو فهزموا فأقبل بصدرة حتى يُقتل أو يُفتح له. وثلاثة يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم».

وأخرج أبو يعلى عن جابر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لكعب بن عجرة: «يا كعب بن عجرة الصلاة قربان، والصيام جنة، والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار. يا كعب بن عجرة الناس غاديان فبائع نفسه فموبق رقبته، ومبتاع نفسه في عتق رقبته».

وأخرج أحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس».

وأخرج ابن خزيمة والحاكم وصححه عن عمر قال: ذكر لي أن الأعمال تباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم.

وأخرج أحمد والبزار وابن خزيمة والطبراني والحاكم وصححه البيهقي عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يخرج رجل بشيء من الصدقة حتى يفك عنها لحيي سبعين شيطاناً». وأخرج البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «باكروا بالصدقة فإنّ البلاء لا يتخطى الصدقة». وأخرج الطبراني عن ميمونة بنت سعد أنها قالت: يا رسول الله أفتنا عن الصدقة؟ قال ﷺ: «إنّها فكاك من النار لمن احتسبها يبتغي بها وجه الله».

وأخرج الترمذي وحسنه وابن حبان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الصدقة لتطفيء غضب الرب وتدفع ميتة السوء».

وأخرج الطبراني عن رافع بن خديج قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة تسد سبعين باباً من السوء». وأخرج الطبراني عن عمرو بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ صدقة المسلم تزيد في العمر وتمنع ميتة السوء، ويذهب الله بها الكبر والفخر».

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن أبي ذر قال: ما خرجت صدقة حتى يفك عنها لحيي سبعين شيطاناً كلهم ينهى عنها.

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم عن عدي بن حاتم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة».

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن ابن مسعود: أن راهباً عبد الله في صومعة ستين سنة، فجاءت امرأة فنزلت إلى جنبه، فنزل إليها فواقعها ست ليال، ثم سقط في

يده فهرب، فأتى مسجداً فأوى فيه ثلاثاً لا يطعم شيئاً، فأتى برغيف فكسره فاعطى رجلاً عن يمينه نصفه، وأعطى آخر عن يساره نصفه، فبعث الله إليه ملك الموت فقبض روحه، فوضعت الستون في كفة ووضعت الستة في كفة فرجحت الستة، ثم وضع الرغيف فرجح. وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى الأشعري. نحوه.

وأخرج البيهقي عن رجل من أصحاب النبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هل تدرون ما الشديد؟». قلنا: الرجل يصرع الرجل! قال: «إنَّ الشديد كل الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب، تدرون ما الرقوب؟». قلنا: الرجل لا يولد له! قال: «إنَّ الرقوب الرجل الذي له الولد ولم يقدم منهم شيئاً، ثم قال: تدرون ما الصعلوك؟». قلنا: الرجل لا مال له! قال: «الصعلوك كل الصعلوك الذي له المال لم يقدم منه شيئاً».

وأخرج مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «يصبح على كل سُلامي من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهيلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى».

وأخرج البزار والطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ تبسمك في وجه أخيك يكتب لك به صدقة، وإنَّ إفراغك من دلوك في دلو أخيك يكتب لك به صدقة، وإماطتك الأذى عن الطريق يكتب لك به صدقة، وإرشادك للضال يكتب لك به صدقة».

وأخرج البزار عن أبي جحيفة قال: دهم رسول الله ﷺ ناس من قيس مجتابي النمار متقلدي السيوف، فساء ما رأى من حالهم، فصلى ثم دخل بيته، ثم خرج فصلى وجلس في مجلسه، فأمر بالصدقة أو حض عليها فقال ﷺ: «تصدق رجل من دينار، تصدق رجل من درهم، تصدق رجل من صاع بره، تصدق رجل من صاع

تمره». فجاء رجل من الأنصار بصرة من ذهب فوضعها في يده، ثم تتابع الناس حتى رأى كومين من ثياب وطعام، فرأيت وجه رسول الله تهلل كأنه مذهبة.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن حارثة بن وهب الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإنه يوشك أن يخرج الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها».

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سلمة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال قط فتصدقوا».

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة قالت: أهديت لنا شاة مشوية فقسمتها كلها إلا كتفها، فدخل علي رسول الله فذكرت ذلك له فقال ﷺ: «كلها لكم إلا كتفها».

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٧) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البَقَّة: ٢٧٥ - ٢٨١)، وفيها المنهج الرباني في تبين أحكام وشرائع هذا الدين، ألا وهو ربط قلوب المأمورين بشرع الله بالتقوى وتذكيرهم بالجنة ليطمعوا في الأجر فيتمثلوا، وترهيبهم من النار لئلا يخالفوا، فذكر سبحانه في معرض سياق تحريم الربا ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَلِدُونَ ﴿ (النِّفَقَةُ : ٢٧٥)، وقال أيضاً: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (النِّفَقَةُ : ٢٧٩)، ورغبهم في الامتثال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (النِّفَقَةُ : ٢٧٧)، وأمرهم بالتقوى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (النِّفَقَةُ : ٢٧٨)، وقال: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (النِّفَقَةُ : ٢٨١)، فذكرهم بيوم الحساب، وفي هذا أعظم السبب لامتناع الناس لشرائع الله، ولعل كثرة هذه المواضع في مسألة الربا لكونها تتعلق بالمال المحبوب إلى النفس، مما يشق على النفس بذله، وكذا لتبيين عظيم إثم وجرم من تعامل بالربا. فعلى الفقهاء والمعلمين للفقهاء أن يسلكوا هذا المنهج في تدريسهم لمسائل وأحكام الشرع، خاصة في زمننا هذا الذي ربما أتقن فيه طلاب العلم المسائل وهم أبعد ما يكون عن تقوى الله وخشيته، وذكر الجنة والنار.

﴿ قَالَ نَعَالِي: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (النِّفَقَةُ : ٢٧٥، ٢٧٦).

قال البقاعي مبيناً سر تعقيب آيات الصدقة بآيات الربا: ولما كان سبحانه وتعالى قد ذكر النفقة مما أفاض عليهم من الرزق من أول السورة إلى هنا في غير آية ورغب فيها بأنواع من الترغيب في فنون من الأساليب، وكان الرزق يشمل الحلال والحرام وكان مما يسترزقون به قبل الإسلام الربا وهو أخذ مجاناً وهو في الصورة زيادة وفي الحقيقة نقص وعيب، ضد ما تقدم الحث عليه من الإعطاء مجاناً وهو في الظاهر نقص وفي الباطن زيادة وخير، نهاهم عن تعاطيه ونفرتهم منه وبين لهم حكمه وأنه خبيث لا يصلح لأكل ولا صدقة وجعل ذلك في أسلوب الجواب لمن قال هل يكون النفقة المحبوبة المحثوث عليها من كل مال؟ فأجاب بهذه الآيات وقال الحرالي: ولما كان حال المنفق لا

سبھا المبتغی وجه الله سبحانه وتعالی افضل الأحوال وهو الحال الذي دُعوا إليه نظم به أدنى الأحوال وهو التوسل إلى الأموال بالربا فأفضل الناس المنفق وشر الناس المربا فنظم به خطاب الربا فقال ﴿الَّذِينَ﴾ ولما كان من الصحابة من أكل الربا عبر بالمضارع إشارة إلى أن هذا الجزاء يخص المصير فقال: ﴿يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ وعبر بالأكل عن التناول لأنه أكبر المقاصد وأخوها ويجري من الإنسان مجرى الدم كالشيطان.

﴿قَالَ تَعَالَى:﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ۲۷۸)

قال البقاعي مبيناً سر محيى هذه الآية بعد الكلام على الربا: ولما كانت نتيجة الآية الماضية في الاعتماد على ما عند الله سبحانه وتعالی من الأجر وعدم الحزن على ما فات من ربا وغيره والخوف من شيء آت من فقر أو غيره هو ترك كل شيء ينسب إلى الربا. وكان بين أهل الإسلام وأهل الجاهلية وبين بعضهم وبعض معاملات في الجاهلية ربوية لم تتم بعد بين أمرها نفياً لما قد يتوهم من قوله سابقاً ﴿فَلَهُ، مَا سَلَفَ﴾ من تحليل بقايا الربا وأن النهي خاص بما تجدد منه فقال مخاطباً لأقرب من ذكره ممن تلبس بالإيمان ولم يلتفت إلى غيرهم تشريفاً لهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي أقروا بالتصديق بألستهم. ولما كان الربا قد يكون مؤجلاً فيكون صاحبه قد مضت عليه مدد وهو موطن نفسه على أخذه فيصير الكف عنه يعدل الموت عنده أبلغ سبحانه وتعالی في التشديد في هذه المواضع فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي الذي له جميع العظمة تصديقاً لإقراركم ﴿وَذَرُوا﴾ أي اتركوا أي ترك كان ﴿مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أي الذي كنتم تتعاملون به فلا تستحلوه ولا تأكلوه.

﴿قَالَ تَعَالَى:﴾ ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ۲۸۰)، فقال: ﴿تَصَدَّقُوا﴾ ولم يقل «تصدقوا»؛ ليدل على أن الصدقة بأي مقدار - ولو قل - خير، فقال: ﴿تَصَدَّقُوا﴾ بحذف التاء.

﴿قَالَ تَعَالَى:﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ۲۸۲).

قال في (الدر المنثور): وأخرج أبو يعقوب البغدادي في كتاب رواية الكبار عن الصغار عن سفيان قال: من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

وأخرج الترمذي عن يزيد بن سلمة الجعفي إنه قال: يا رسول الله إني سمعت منك حديثاً كثيراً أخاف أن ينسيني أوله آخره، فحدثني بكلمة تكون جماعاً قال ﷺ: «اتق الله فيما تعلم» (يزيد الجعفي ضعيف).

وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من معادن التقوى تعلمك إلى ما علمت ما لم تعلم. والنقص والتقصير فيما علمت قلة الزيادة فيه، وإنما يزهد الرجل في علم ما لم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم».

وأخرج الدرامي عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون بما يعلمون. قال: فما ينفي العلم من صدور الرجال؟ قال: الطمع.

وأخرج البيهقي عن جابر قال: تعلموا الصمت ثم تعلموا الحلم ثم تعلموا العلم ثم تعلموا العمل به ثم انشروا.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن زياد: ما فقه قوم لم يبلغوا التقى.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُكُمْ بَيْنِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكُتُبُوهُ وَلِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلِيُمِلَّ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكُتُبُوهُ

صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۚ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾.

قال البقاعي مبيناً وجه تعقيب آيات الربا بآية الدين: ولما نهى سبحانه وتعالى عن الربا وكان أحد مديانتهم وكان غيره من الدين مأذوناً فيه وهو من أنواع الإنفاق مع دخوله في المطالبة برؤوس الأموال عقب ذلك بآية الدين. وأيضاً فإنه سبحانه وتعالى لما ذكر في المال أمرين ينقصانه ظاهراً ويزكيانه باطناً: الصدقة وترك الربا وأذن في رؤوس الأموال وأمر بالإنظار في الإعسار وختم بالتهديد فكان ذلك ربما أطمع المدين في شيء من الدين ولو بدعوى الإعسار لما كان كذلك اقتضى حال الإنسان لما به من النقصان الإرشاد إلى حفظ المال الحلال وصونه عن الفساد والتنبيه على كيفية التوثق فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْنَ ءَامِنُونَ﴾ كالذي تقدمه ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾ من التداين تفاعل بين اثنين من الدين.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾﴾ (البقرة: ٢٨٦).

قال ابن عاشور: وقوله ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا﴾ لم يأت مع هذه الدعوات بقوله ﴿رَبَّنَا﴾، إما لأنه تكرر ثلاث مرات، والعرب تكره تكرير اللفظ أكثر من ثلاث مرات إلا في مقام التهويل، وإما لأن تلك الدعوات المقترنة بقوله ﴿رَبَّنَا﴾ فروع لهذه الدعوات الثلاث، فإذا استجيب تلك حصلت إجابة هذه بالأولى، فإن العفو أصل لعدم المؤاخذه، والمغفرة أصل لرفع المشقة، والرحمة أصل لعدم العقوبة الدنيوية والأخروية، فلما كان تعميماً بعد تخصيص، كان كأنه دعاء واحد.

سُورَةُ الْغَمْرِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾

(الغَمْرُ: ٨)

قال في الدر المنثور: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». ثم قرأ ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء! فقال: «ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه، أما تسمعين قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾». ولفظ ابن أبي شيبة: «إذا شاء أن يقلبه إلى هدى قلبه، وإذا شاء أن يقلبه إلى ضلال قلبه».

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد والبخاري في الأدب المفرد والترمذي وحسنه وابن جرير عن أنس قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قالوا: يا رسول الله آمنا بك وبها جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم. إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها».

وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيثار عن أبي عبيدة بن الجراح أن رسول الله ﷺ قال: «إن قلب ابن آدم مثل قلب العصفور يتقلب في اليوم سبع مرات».

وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص عن أبي موسى قال: إنما سمي القلب قلباً لتقلبه، وإنما مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض.

وأخرج أحمد وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القلب كريشة بفلاة من الأرض تقيمها الرياح ظهراً لبطن».

وأخرج مالك والشافعي وابن أبي شيبة وأبو داود والبيهقي في سننه عن أبي عبد الله الصنابحي. أنه قدم المدينة في خلافة أبي بكر الصديق، فصلى وراء أبي بكر المغرب، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأمر القرآن، وسورة من قصار المفصل. ثم قام في الركعة الثالثة، فقرأ بأمر القرآن، وهذه الآية ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

وأخرج ابن جرير والطبراني في السنة والحاكم وصححه عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قلنا: يا رسول الله تخاف علينا وقد آمنا بك؟ فقال: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يقول به هكذا». ولفظ الطبراني: «إن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه».

وأخرج أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن النّوّاس بن سمعان سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الميزان بيد الرحمن. يرفع أقواماً ويضع آخرين إلى يوم القيامة، وقلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن. إذا شاء أقامه، وإذا شاء أزاعه». وكان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك».

وأخرج الحاكم وصححه عن المقداد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمع غلياناً».

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي لا تمّل قلوبنا وإن ملنا بأجسادنا.

وأخرج ابن سعد في طبقاته أن أبا هريرة كان يقول: أي رب لا أزين، أي رب لا أسرقن، أي رب لا أكفرن. قيل له: أو تخاف؟ قال: آمنت بمحرّف القلوب ثلاثاً.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي الدرداء قال: كان عبد الله ابن رواحة إذا لقيني قال: اجلس يا عويمر فلنؤمّن ساعة، فنجلس فنذكر الله على ما يشاء. ثم قال: يا عويمر هذه مجالس الإيمان، إن مثل الإيمان ومثلك كمثّل قميصك بينا أنت قد نزعته إذ لبسته، وبينّا أنت قد لبسته إذ نزعته. يا عويمر للقلب أسرع تقلباً من القدر، إذا استجمعت غلياناً.

وأخرج الحكيم الترمذي من طريق عتبة بن عبد الله بن خالد بن معدان عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّما الإيمان بمنزلة القميص، مرة تقمصه ومرة تنزعه». وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي أيوب الأنصاري قال: ليأتين على الرجل أحيان وما في جلده موضع إبرة من النفاق، وليأتين عليه أحيان وما في جلده موضع إبرة من إيمان.

وأخرج أبو داود والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت سبحانك اللهم إني أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً ولا تنزع قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».

وأخرج مسلم والنسائي وابن جرير والبيهقي عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء». ثم قال رسول الله: «اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك».

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَاْمِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (التَّغْوِيَّةُ : ٩)، فقال ﴿جَاْمِعُ﴾ ولم يقل «تجمع الناس»، قال د. فاضل: أحياناً يُعَبَّرُ عن الحدث بالاسم بدلاً من الفعل

للدلالة على الثبوت، كأن تقول لصاحبك: أنتجح هذا العام؟ فيقول: أنا ناجح، فهو لشدة وثوقه بنفسه يجيب وكأن الأمر قد تمّ واتصف صاحبه به وإن لم يكن ذاك، فقال ها هنا ﴿جَامِعُ النَّاسِ﴾ والأصل «تجمع الناس» لأنه في الاستقبال، ولكن لأن الأمر متحقق ثابت أخبر عنه باسم الفاعل الدال على الثبوت. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ (الزَّلَازِلَ: ٦) أي الحساب، ولم يقل «يقع». وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن حَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (هُود: ١٠٣)، فقال ﴿تَجْمُوعٌ﴾ باسم المفعول. وكان الأصل أن يقول «يجمع» لما في الاسم من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه الموصوف بهذه الصفة، ولذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ (النَّجْم: ٩).

❁ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ (الْأَنْعَام: ٢٠)، فقال ﴿اتَّبَعَنِ﴾ بحذف الياء، بينما قال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يُونُس: ١٠٨)، فقال ﴿اتَّبَعَنِي﴾ بزيادة الياء، وفي ذلك دقة بالغة لأن الآية الأولى في محاجة النصارى، ومفارقة أهل الكفر من لوازم الإسلام وأسسها التي لا يصح إسلام بدونها، فناسب أن يقول ﴿اتَّبَعَنِ﴾ أي الحد الأدنى من المتابعة الذي لا يُقبل غيره، بينما الآية الثانية في الدعوة إلى الله، وهو - وإن كان عظيم الشأن في الإسلام - ليس من شرائط الإسلام، فقال ﴿اتَّبَعَنِي﴾ بزيادة الياء؛ لأن الدعوة إلى الله زيادة واجبة في متابعة النبي ﷺ، فأكرم بدقة القرآن!!

❁ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ (الْأَنْعَام: ٥٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾ تنبيه على أنه ظهر منهم الكفر ظهوراً بان للحس فضلاً عن التفهم. أفاده الفيروز أبادي في بصائر ذوي التمييز.

❁ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (الْبَقَرَة: ٩٧). وهذا من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب وإنما ذكر الله

سبحانه الحج بأبلغ ألفاظ الوجوب تأكيداً لحقه وتعظيماً لحرمة وتقوية لفرضه. أفاده ابن العربي في أحكام القرآن.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴾ (التغْوِيَّة: ١٠١).

قال في (الدر المنثور): وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج في قوله ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ ﴾ قال: يؤمن بالله. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: الاعتصام بالله: الثقة به.

وأخرج عبد بن حميد من طريق الربيع عن أبي العالية قال: إن الله قضى على نفسه. أنه من آمن به هداه، ومن توكل عليه كفاه، ومن أقرضه جزاه، ومن وثق به أنجاه، ومن دعاه استجاب له بعد أن يستجيب لله. قال الربيع: وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ﴾ ، ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ ﴾ ، ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ .

وأخرج تمام في فوائده عن كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أوحى الله إلى داود: يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيد السموات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء من بين يديه، وأسخت الهواء من تحت قدميه».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴾ (١٠٢، ١٠٣)، وقال أيضاً: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (التَّبَوُّك: ١٣)، قال د. فاضل: فقال في آية آل عمران: ﴿ وَلَا

تَفَرَّقُوا ﴿﴾ بحذف إحدى التائين، وقال في آية الشورى: ﴿وَلَا تَنفَرَقُوا﴾ وذلك لأكثر من سبب منها:

- ١- أن آية آل عمران خطاب للأمة الإسلامية وأما آية الشورى فالكلام فيها على أمم مختلفة وشرائع متعددة ذكر منها شريعة نوح وشريعة سيدنا محمد وإبراهيم وموسى وعيسى فلما كانت هذه في أمم متطاوله على مدى التاريخ جاء بالصيغة التي هي أطول.
- ٢- أنه نهى الأمة الإسلامية عن أي شيء من التفرق مهما كان قليلاً أو جزئياً وحذر من ذلك فقال ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ فاقتطع من الفعل للدلالة على النهي عن أي شيء من التفرق مهما قل وضؤل.

٣- ومن الملاحظ أنه جاء بـ ﴿أَنْ﴾ التفسير في آية الشورى ولم يخاطبهم مخاطبة صريحة فقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ في حين نهاهم نهياً مباشراً في آل عمران فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ والكلام المباشر الصريح أهم وأكد من المفسر فقولك: «قلت له: يا فلان افعل» أهم وأكد من قولك: «أوصيته أن افعل». وهناك ملاحظة أخرى في التعبير أنه جاء بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في شرائع الأمم الأخرى وجاء بـ ﴿وَالَّذِي﴾ في شريعة سيدنا محمد ﷺ فقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ في حين قال: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ ذلك أن ﴿وَالَّذِي﴾ أعرف من ﴿مَا﴾ كما هو معلوم. فلما كانت شريعة سيدنا محمد ﷺ أعرف من شرائع الأمم الأخرى لنا لأننا نعرفها كلها جاء بـ ﴿وَالَّذِي﴾ ولما كانت شرائع الأمم الأخرى ليست بمنزلة شريعة سيدنا محمد من حيث معرفتنا بها فإننا نعلم ما أعلمنا به ربنا في القرآن الكريم جاء بـ ﴿مَا﴾، والله أعلم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾﴾ (التغاب: ١٠٦)، ولم يقل «فيقال لهم أكفرتم

بعد إيمانكم» وذلك لأنَّ حال ملائكة العذاب ومناظرهم تدل على إرادة تعذيب هؤلاء المجرمين وليس قولهم فقط هو الذي يوحى بالعذاب، فناسب ألا يقول «فيقال لهم» للدلالة على ذلك.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ (الأنعام: ١١٩). قال ابن عاشور: ﴿ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ ﴿ مِنْ ﴾ للتعليل، و﴿ الْغَيْظِ ﴾: غضب شديد يلزمه إرادة الانتقام.

وقوله ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ﴾ كلام لم يقصد به مخاطبون معينون لأنه دعاء على الذين يعضون الأنامل من الغيظ، وهم يفعلون ذلك إذا خلوا، فلا يتصور مشافهتهم بالدعاء على التعيين ولكنه كلام قصد إسماعه لكل من يعلم من نفسه الاتصاف بالغيظ على المسلمين، وهو قريب من الخطاب الذي يقصد به عموم كل مخاطب، نحو ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴾. والدعاء عليهم بالموت بالغيظ صريحه طلب موتهم بسبب غيظهم، وهو كناية عن ملازمة الغيظ لهم طول حياتهم إن طالت أو قصرت، وذلك كناية عن دوام سبب غيظهم، وهو حسن حال المسلمين، وانتظام أمرهم، وازدياد خيرهم، وفي هذا الدعاء عليهم لزوم ألم الغيظ لهم، وتعجيل موتهم به، وكل من المعنيين المكني بهما مراد هنا، والتكني بالغيظ وبالحسد عن كمال المغيظ منه للحسود مشهور، والعرب تقول: فلان محسد، أي هو في حالة نعمة وكمال.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ نَسُّوهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ (الأنعام: ١٢٠).

قال د. فاضل: قرأ الكوفيون وابن عامر: ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ ﴾ بضم الضاد والراء المشددة من ضَرَّ يضر ... وقرأ عاصم فيما روى أبو زيد عن المفضل عنه بضم الضاد وفتح الراء المشددة وزعم أبو حيان أن فتح الراء أحسن من قراءة ضم الراء، وفيه

نظر، نعم إنه أشهر وأكثر ولكن ليس أحسن. وكيف تكون أحسن وهي ليست قراءة متواترة فهي ليست من القراءات السبع ولا العشر بخلاف قراءة الضم فإنه قرأ بها أربعة من السبعة وهم عاصم وحمزة بن حبيب الزيات والكسائي وابن عامر إضافة إلى ابن جعفر من العشرة. والقراءة بالفتح في هذا الموضع تشير إلى أنه ليس ثمة شيء من الضرر يصيبهم وأما القراءة بالضم فكذلك إلا أن فيها إشارة إلى ثقل الحالة التي هم فيها وأنه وإن لم يضرهم الكيد إلا أنهم قد ينالهم الأذى كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ (التغزلات: ١١١) ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي تصبروا على أذاهم ومضايقتهم وتصبروا على طاعة الله وتتقوا المحرمات وأسباب الوهن ومنافذ أعداء الله مما يدل على أن ثمة أذى قد يصيبهم. فالقراءة بالفتح تشير إلى أن ليس ثمة شيء من ذلك يصيبهم وإلى تهوين أمرهم. أما القراءة بالضم فتشير إلى أن هذه الحالة أثقل وأشق من الأولى فهي تحتاج إلى مراقبة وصبر وتقوى وأنهم مع ذلك قد ينالهم الأذى والمكارة فالقراءة بالفتح تُخَفِّفُ الأمر وتهونه وذلك لخفة الفتحة والقراءة بالضم تشدده وفيها إشارة وتوجيه إلى ضرورة الحزم والصبر ليستعدوا لما قد ينالهم من الأذى والمكروه وإن كان أحبر أن الكيد لا يضرهم فكان للضمة وجه حسن، والله أعلم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ (التغزلات: ١٢٤)، وقال: ﴿يَخْسِئُ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ (التغزلات: ١٢٥)، فقال: ﴿آلَافٍ﴾ وهو جمع قلة بينما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ (البقرة: ٢٤٣)، فقال: ﴿أُلُوفٌ﴾ وهو جمع كثرة؛ وذلك لأن عددهم - كما نقل - زاد على العشرة الآلاف بخلاف الآية الأولى والثانية، أفاده د. فاضل السامرائي.

﴿قَالَ تَعَالَى عَنْ الْحَمْرِ الْأَهْلِيَّةِ: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْإِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِيَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ (الحمل: ٨)، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (التغزلات: ١٩)، فجمع

الحمار على «حمير» بينما قال عن الحمر الوحشية: ﴿كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿(المائدة: ٥٠، ٥١)، وسر ذلك - والله أعلم - أنَّ حركة الضم فيها ثقل، والآية تتكلم عن الحمر الوحشية التي هي أقوى من الحمر الأهلية وبعيدة عن الاستئناس، ناسب أن تذكر بصيغة الجمع ﴿حُمُرٌ﴾ التي فيها ثقل في حروفها بخلاف الحمر الأهلية المستأنسة، فناسب أن تذكر بصيغة ﴿الْحَمِيرِ﴾ التي فيها الحاء المفتوحة والميم المكسورة، وهما أخف من الحاء والميم المضمومتين، وهذا من لطائف الكتاب العزيز.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ (طه: ٨٦)، فقال: ﴿غَضْبَنَ﴾ ولم يقل «غضب»، وقال ﴿أَسْفًا﴾ ولم يقل «أسف»، وفي ذلك دقة بالغة؛ لأنَّ ﴿غَضْبَنَ﴾ فعلان تدل على الامتلاء بالوصف إلى الحد الأقصى، فالغضببان هو الممتلئ غضباً، وأما صيغة «فعل» فتدل على العرض وعدم الثبوت، فلما كان الأسف قد عرض له دون أن يكون وصفاً ملازماً له قال: ﴿أَسْفًا﴾ ولم يقل «أسف» التي تدل على الثبوت، ومنه قول عائشة: «إن أبا بكر رجلٌ أسيف» أي: حزين، هذه صفتة، أفاده د. فاضل بمعناه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١٣٩). قال في (الظلال): ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ من الوهن والضعف ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ لما أصابكم ولما فاتكم ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ ... عقيدتكم أعلى فأنتم تسجدون لله وحده، وهم يسجدون لشيء من خلقه أو لبعض من خلقه! ومنهجكم أعلى. فأنتم تسرون على منهج من صنع الله، وهم يسرون على منهج من صنع خلق الله! ودوركم أعلى. فأنتم الأوصياء على هذه البشرية كلها، الهداة لهذه البشرية كلها، وهم شاردون عن النهج، ضالون عن الطريق. ومكانكم في الأرض أعلى، فلکم وراثۃ الأرض التي وعدكم الله بها، وهم إلى الفناء والنسيان صائرون .. فإن كنتم مؤمنين حقاً فأنت الأعلون. وإن كنتم مؤمنين حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا. فإنما هي سنة الله أن تصابوا وتصيبوا، على أن تكون لكم العقبى بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذَاوِلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الغنيمة: ١٤٠، ١٤١).

قال في (الظلال): وذكر القرع الذي أصابهم وأصاب المكذبين قرع مثله، وقد يكون إشارة إلى غزوة بدر. وقد مس القرع فيها المشركين وسلم المسلمون. وقد يكون إشارة إلى غزوة أحد. وقد انتصر فيها المسلمون في أول الأمر. حتى هزم المشركون وقتل منهم سبعون، وتابعهم المسلمون يضربون أفقيتهم حتى لقد سقط علم المشركين في ثانيا المعركة فلم يتقدم إليه منهم أحد. حتى رفعته لهم امرأة فلاثوا بها وتجمعوا عليها... ثم كانت الدولة للمشركين، حينما خرج الرماة عن أمر رسول الله ﷺ واختلفوا فيما بينهم. فأصاب المسلمين ما أصابهم في نهاية المعركة. جزاء وفاقاً لهذا الاختلاف وذلك الخروج. وتحقيقاً لسنة من سنن الله التي لا تتخلف، إذا كان اختلاف الرماة وخروجهم ناشئين من الطمع في الغنيمة. والله قد كتب النصر في معارك الجهاد لمن يجاهدون في سبيله، لا ينظرون إلى شيء من عرض هذه الدنيا الزهيد. وتحقيقاً كذلك لسنة أخرى من سنن الله في الأرض، وهي مداولة الأيام بين الناس - وفقاً لما يبدو من عمل الناس ونيتهم - فتكون لهؤلاء يوماً ولأولئك يوماً. ومن ثم يتبين المؤمنون ويتبين المنافقون. كما تتكشف الأخطاء. وينجلي الغبش. ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاوِلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ إن الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، وطبائع القلوب، ودرجة الغبش فيها والصفاء، ودرجة الهلع فيها والصبر، ودرجة الثقة فيها بالله أو القنوط، ودرجة الاستسلام فيها لقدر الله أو البرم به والجموح! عندئذ يتميز الصف ويتكشف عن: مؤمنين ومنافقين، ويظهر هؤلاء وهؤلاء على حقيقتهم، وتتكشف في دنيا الناس دخائل نفوسهم. ويزول عن الصف ذلك الدخل وتلك الخلخلة التي تنشأ من قلة التناسق بين أعضائه وأفراده، وهم مختلطون مبهمون!

والله سبحانه يعلم المؤمنين والمنافقين. والله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه الصدور. ولكن الأحداث ومداولة الأيام بين الناس تكشف المخبوء، وتجعله واقعاً في حياة الناس، وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر، وتحول النفاق كذلك إلى تصرف ظاهر، ومن ثمَّ يتعلق به الحساب والجزاء. فالله سبحانه لا يحاسب الناس على ما يعلمه من أمرهم ولكن يحاسبهم على وقوعه منهم. ومداولة الأيام، وتعاقب الشدة والرخاء، محك لا يخطئ، وميزان لا يظلم. والرخاء في هذا كالشدة. وكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك، ولكنها تراخي بالرخاء وتنحل. والنفوس المؤمنة هي التي تصبر للضراء ولا تستخفها السراء، وتتجه إلى الله في الحالين، وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر فيأذن الله.

وقد كان الله يربي هذه الجماعة - وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية - فرباها بهذا الابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بالهزيمة المريعة بعد الابتلاء بالنصر العجيب - وإن يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابهما ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة. لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة. ولتزيد طاعة الله، وتوكلًا عليه، والتصاقاً بركنه. ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين. ويمضي السياق يكشف للأمة المسلمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث المعركة، وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس، وفيما بعد تمييز الصفوف، وعلم الله للمؤمنين.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾﴾ (الْعَنْكَرَانِ: ١٤٠).

قال في (الظلال): وهو تعبير عجيب عن معنى عميق - إن الشهداء لمختارون. يختارهم الله من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه - سبحانه - فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد. إنما هو اختيار وانتقاء، وتكريم واختصاص... إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة، ليستخلصهم لنفسه - سبحانه - ويخصهم بقربه. ثمَّ هم شهداء يتخذهم الله، ويستشهدهم على هذا الحق

الذي بعث به للناس. يستشهدهم فيؤدون الشهادة. يؤدونها أداء لا شبهة فيه، ولا مطعن عليه، ولا جدال حوله. يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق، وتقريره في دنيا الناس. يطلب الله - سبحانه - منهم أداء هذه الشهادة، على أن ما جاءهم من عنده الحق؛ وعلى أنهم آمنوا به، وتجردوا له، وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه؛ وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق؛ وعلى أنهم هم استيقنوا هذا، فلم يألوا جهداً في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس، وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس.. يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون. وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت. وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾﴾
(الْعَنْكَرَانِ : ١٤٤)

قال في (الظلال): إن محمداً ﷺ ليس إلا رسولاً. سبقت الرسل. وقد مات الرسل. ومحمد سيموت كما مات الرسل قبله.. هذه حقيقة أولية بسيطة. فما بالكم غفلتم عنها حينما واجهتكم في المعركة؟! إن محمداً رسول من عند الله، جاء ليلغ كلمة الله. والله باق لا يموت، وكلمته باقية لا تموت.. وما ينبغي أن يرتد المؤمنون على أعقابهم إذا مات النبي الذي جاء ليلغهم هذه الكلمة أو قتل.. وهذه كذلك حقيقة أولية بسيطة غفلوا عنها في زحمة الهول. وما ينبغي للمؤمنين أن يغفلوا عن هذه الحقيقة الأولية البسيطة! إن البشر إلى فناء، والعقيدة إلى بقاء، ومنهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤيدونه إلى الناس، من الرسل والدعاة على مدار التاريخ.. والمسلم الذي يحب رسول الله ﷺ وقد كان أصحابه يحبونه الحب الذي لم تعرف له النفس البشرية في تاريخها كله نظيراً. الحب الذي يفدونه معه بحياتهم أن تشوكة شوكة. وقد رأينا أبا دجاجة يترس عليه بظهره والنبل يقع فيه ولا يتحرك! ورأينا التسعة الذين

أفرد فيهم ينافحون عنه ويستشهدون واحداً إثر واحد.. وما يزال الكثيرون في كل زمان وفي كل مكان يحبونه ذلك الحب العجيب بكل كيانهم، وبكل مشاعرهم، حتى ليأخذهم الوجد من مجرد ذكره ﷺ .. هذا المسلم الذي يحب محمداً ذلك الحب، مطلوب منه أن يفرق بين شخص محمد ﷺ والعقيدة التي أبلغها وتركها للناس من بعده، فهي باقية ممتدة موصولة بالله الذي لا يموت. إن الدعوة أقدم من الداعية. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. قد خلت من قبله الرسل يحملون هذه الدعوة الضاربة في جذور الزمن، العميقة في منابت التاريخ، المبتدئة مع البشرية، تحدوها بالهدى والسلام من مطالع الطريق. وهي أكبر من الداعية، وأبقى من الداعية. فدعاتها يحيئون ويذهبون، وتبقى هي على الأجيال والقرون، ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأول، الذي أرسل بها الرسل، وهو باق - سبحانه - يتوجه إليه المؤمنون.. وما يجوز أن ينقلب أحد منهم على عقبه، ويرتد عن هدي الله. والله حي لا يموت.

فائدة: قلت: يلاحظ أنه سبحانه قال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، فقال ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ ولم يقل «الثابتين» ليدل على أن حقيقة شكر نعمة الإسلام والإيمان هي الثبات عليهما والتمسك بهما كانت الفتن.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾.

(الأنعام: ١٥٤)

قال ابن عاشور: والأمنة بفتح الميم: الأمن، والنعاس: النوم الخفيف أو أول النوم، وهو يزيل التعب ولا يغيب صاحبه، فلذلك كان أمنة إذ لو ناموا ثقيلاً لأخذوا، قال أبو طلحة الأنصاري، والزبير، وأنس بن مالك: غشنا نعاساً حتى أن السيف ليسقط من يد أحدنا. وقد استجدوا بذلك نشاطهم، ونسوا حزنهم، لأن الحزن تبتدئ خفته بعد أول نومة تعفيه، كما هو مشاهد في أحزان الموت وغيرها. و﴿نُعَاسًا﴾ بدل على

﴿ أَمَنَةً ﴾ بدل مطابق. وكان مقتضى الظاهر أن يقدم النعاس ويؤخر أمنة: لأن أمنة بمنزلة الصفة أو المفعول لأجله ولخفة التقديم على المفعول كما جاء في آية الأنفال: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾، ولكنه قدم الأمنة هنا تشريفاً لشأنها لأنها جعلت كالمنزلة من الله لنصرهم، فهو كالسكينة، فناسب أن يجعل هو مفعول أنزل، ويجعل النعاس بدلاً منه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٣١﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣٢﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ ۚ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ ﴾ (التوبة: ١٦٩ - ١٧٢).

قال في (الظلال): لقد شاء الله بعد أن جلى في قلوب المؤمنين حقيقة العذر والأجل، وتحدى ما يبشاه المنافقون من شكوك وبلبله وحسرات بقولهم عن القتل: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ فقال يتحداهم: ﴿ قُلْ فَأَدْرَأُ عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلْمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

شاء الله بعد أن أراح القلوب المؤمنة على صدر هذه الحقيقة الثابتة. أن يزيد هذه القلوب طمأنينة وراحة. فكشف لها عن مصير الشهداء: الذين قتلوا في سبيل الله. وليس هنالك شهداء إلا الذين يقتلون في سبيل الله خالصة قلوبهم لهذا المعنى، تجرده من كل ملابسة أخرى - فإذا هؤلاء الشهداء أحياء، لهم كل خصائص الأحياء. فهم ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾ عند ربهم. وهم فرحون بما آتاهم الله من فضله. وهم يبشرون بكل صائر من وراءهم من المؤمنين. وهم يحفلون بالأحداث التي تمر بمن خلفهم من إخوانهم.. فهذه خصائص الأحياء: من متاع واستبشار واهتمام وتأثر وتأثير.. فما الحسرة على فراقهم؟ وهم أحياء موصولون بالأحياء وبالأحداث فوق ما ناهم من فضل الله،

وفوق ما لقوا عنده من الرزق والمكانة؟ وما هذه الفواصل التي يقيمها الناس في تصوراتهم بين الشهيد الحي ومن خلفه من إخوانه والتي يقيمونها بين عالم الحياة وعالم ما بعد الحياة؟ ولا فواصل ولا حواجز بالقياس إلى المؤمنين، الذين يتعاملون هنا وهناك مع الله...؟ إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة في تصور الأمور. إنها تعدل بل تنشئ إنشاء - تصور المسلم للحركة الكونية التي تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها، وهي موصولة لا تنقطع، فليس الموت خاتمة المطاف؟ بل ليس حاجزاً بين ما قبله وما بعده على الإطلاق!

إنها نظرة جديدة لهذا الأمر. ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين واستقبالهم للحياة والموت، وتصورهم لما هنا وما هنالك.



سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتًى وَتِلْكَ وَرُبِعٌ﴾ (النِّسَاءُ: ٣).

قال ابن عاشور: ﴿مَا طَابَ﴾ كان الشأن أن يؤتى بـ«من» الموصولة لكن جيء بـ﴿مَا﴾ المغلبة في غير العقلاء، لأنها نُحِيَّ بها منحى الصفة وهو الطيب بلا تعيين ذات، ولو قال «من» لتبادر الذهن إلى إرادة نسوة طيبات معروفات بينهم، وكذلك حال «ما» في الاستفهام، كما قال صاحب الكشف وصاحب المفتاح، فإذا قلت: ما تزوجت؟ فأنت تريد صفتها أبكراً أم ثيباً مثلاً، وإذا قلت: من تزوجت؟ فأنت تريد تعيين اسمها ونسبها. قلت: وهذه فائدة جليلة، وقد كنتُ قدمتُ لها توجيهاً آخر في الجزء الثالث من هذا الكتاب.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النِّسَاءُ: ١٠)، فقال: ﴿الْيَتَامَى﴾ ولم يقل «الأيتام»، قال د. فاضل: هذا البناء «فعلى» إنما يدل على المكاره والآفات والبلايا، فأنت تجمع أحق على حُمق، فإن أردت أن فيهم مقداراً من الحق أصبح عليهم بلية وآفة جمعته على حمقى، وتقول: عطشان وعطاش، فإن أردت أن العطش استحکم فيهم حتى أصبح بلية عليهم وآفة نازلة قلت: عطاشى، وتقول: يتيم وأيتام، فإن أردت الإشارة إلى أن اليتيم أصبح على أصحابه آفة وبلية قلت: يتامى، فجمع على «يتامى» لتشنيع فعلة الآكل، فهو لاء يتامى مهضومون أثر عليهم اليتيم حتى أصبح بلية نازلة عليهم، فكيف يسوغ أكل ما لهم ظلماً؟ وكيف تطيب نفس الآكل بأكل أموال هؤلاء اليتامى؟!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الْحَجَّةُ: ٢٢)، فجمع خازن على ﴿بِخَازِنِينَ﴾ بينما قال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ (الْبُرُجُ: ٧١)، وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ (التَّحْفَةُ: ٤٩)،

فجمع «خازن» على ﴿لِخَزَنَةٍ﴾، قال د. فاضل: سر ذلك أنَّ الجمع السالم يدل على إرادة الحدث «الفعل»، وجمع التكسير يبعدها عن إرادة الحدث ويقربها إلى الاسمية، ففي الآية الأولى قال ﴿يَخْزِنِينَ﴾ للدلالة على الفعلية، وقال في الآيتين الأخريين ﴿لِخَزَنَةٍ﴾ التي تدل على الاسم إذ هو اسم لصنفٍ من الملائكة الموكلين بالنار. ومثله قوله تعالى: ﴿وَلِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكُفْرُونَ﴾ (البقرة: ٨)، ولم يقل «لكفرة» ولا «لكفار» لأنَّ في «كافرين» معنى الحدث.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسًى﴾ (النمل: ٣)، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوْسًى﴾ (المسئلة: ٢٧) للدلالة على إرادة الفعل، بينما قال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَمِثَالٍ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ﴾ (الشعرا: ١٣)، لإرادة الاسمية.

ومما يوضح هذا الأمر أنك تقول: إنا كاتبون لك هذا الأمر ولا يحسن أن تقول: إنا كُتِّبَ لك هذا ولا كُتِّبَ لك هذا الأمر. وتقول: نحن حافظون لكم ثروتكم، ولا يحسن أن تقول: نحن حَفَظَ لكم ثروتكم أو حُفَظَ، ولذا قال سبحانه: ﴿وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٢)، وقال: ﴿وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ﴾ (الأجناس: ٣٥) لأنَّ المراد: الذين يحفظون حدود الله، والذين يحفظون فروجهم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

قال ابن عاشور: واقتصر هنا على مقارنة حصول الكراهية لشيء فيه خير كثير، دون مقابله، كما في آية البقرة ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ لأنَّ المقام في سورة البقرة مقام بيان الحقيقة بطرفيها إذ المخاطبون فيها كرهوا القتال، وأحبوا السلم، فكان حالهم مقتضياً بيان أن القتال قد يكون هو الخير لما يحصل بعده من أمن دائم، وقطع شوكة العدو، وأن السلم قد يكون شراً لما يحصل معها من استخفاف الأعداء بهم،

وطمعهم فيهم، وذهاب عزهم المفضي إلى استعبادهم، أما المقام في هذه السورة فهو لبيان حكم من حدث بينه وبين زوجته ما كرهه فيها، دوام فراقها، وليس له مع ذلك ميل إلى غيرها، فكان حاله مقتضياً بيان ما في كثير من المكروهات من الخيرات، ولا يناسب أن يبين له أن في بعض الأمور المحبوبة شروراً لكونه فتحاً لباب التعلل لهم بما يأخذون من الطرف الذي يميل إليه هواهم.

وأسند جعل الخير في المكروه هنا لله بقوله: ﴿وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ المقتضي أنه جعل عارضاً لمكروه خاص، وفي سورة البقرة قال: ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأن تلك بيان لما يقارن بعض الحقائق من الخلف في ذات الحقيقة، ليكون رجاء الخير من القتال مطرداً في جميع الأحوال غير حاصل بجعل عارض بخلاف هذه الآية، فإن الصبر على الزوجة المؤذية أو المكروهه إذا كان لأجل امتثال أمر الله بحسن معاشرتهم، يكون جعل الخير في ذلك جزاءً من الله على الامتثال.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النِّسَاءُ: ٣١)، فقال: ﴿كِبَائِرَ﴾ ولم يقل «كُتَبَر»، وفي ذلك دقة قرآنية عظيمة لأن حركة الضم أقوى من الفتح، فلو قال: «كُتَبَر» بضم الكاف لكانت مغفرة الصغائر منوطة بترك كبار الكبائر فقط، فإن الكبائر متفاوتة، ولذلك وردت أحاديث فيها لفظ «أكبر الكبائر»، فلما قال: ﴿كِبَائِرَ﴾ بفتح الكاف دلّ على أن تكفير الصغائر يشترط له ترك الكبائر كلها سواءً أكبر الكبائر أو غيرها، وهذا ما يفيدته فتحة الكاف، فما أعظم القرآن!! وما أجمله!! وما أروع!!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيوْهُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ (الْحَجَّ: ٤٨)، فقال: ﴿سُجَّدًا﴾ بينما قال: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الْبَقَرَة: ٢٦)، فقال: ﴿السُّجُودِ﴾، وذلك لأن المصادر

كالسجود تأتي للدلالة على وجود الفعل الحقيقي، فلما كان ما يرى من الظلال هو السجود الظاهر قال: ﴿سُجَّدًا﴾، ولذا أيضاً قال: ﴿تَرَبُّهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا﴾ (البَقَرَةُ: ٢٩) لأنَّ خضوع الباطن لا يراه الناظر، ولذا أيضاً قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ (يُوسُفُ: ١٠٠) لأنهم لم يخضعوا لـيوسف وإنما كان سجود تحية لا خضوع عبادة، وأما قوله تعالى: ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٠٧)، وقوله: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ (طٰه: ٧٠)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ (الزُّمَرُ: ٦٤)، وقوله: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ (السَّجْدَةُ: ١٥)، فإنَّ المراد منه بيان وقوع عبادة السجود بهيئتها المشروعة، فقال ﴿سُجَّدًا﴾ التي تدل على حصول الهيئة الظاهرة، ولو قال «سجود» لربما فهم منها الخضوع الباطني فقط دون وجود هيئة السجود الظاهرة، وأما آية الحج: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ومثلها ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البَقَرَةُ: ١٢٥)، فإنَّ قوله ﴿وَالرُّكَّعِ﴾ يفيد وجود هيئة السجود الظاهرة معه لأنَّ الركوع لا يشرع إلَّا في صلاة، فقال: ﴿السُّجُودِ﴾ ليدل على وجود خضوع الباطن مع هذه السجود الظاهري، ولو قال «السجد» لما أفاد ذلك، كما أنَّ قوله ﴿السُّجُودِ﴾ لم يرد إلَّا فيما يتعلق بالبيت الحرام، ففي ذلك إشارة إلى حلاوة السجود الخاصة هنالك، وعلى كمال الخضوع الذي يعتري القلب إذا سجد في رحاب تلك البقاع المقدسة، والمتأمل لسير الصالحين يجد اجتهداهم في الصلاة عموماً والسجود خصوصاً هنالك. فإن قيل: لم قال في آية الفتح: ﴿تَرَبُّهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا﴾ مع أنَّ كلمة ﴿رُكْعًا﴾ تدل أيضاً على وجود هيئة السجود الظاهرة؟ قلت: لما قال ﴿تَرَبُّهُمْ﴾ والخضوع القلبى لا يرى ناسب أن يقول ﴿سُجَّدًا﴾، والله أعلم.

﴿قَالَ تَعَالَى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ»﴾ (النِّسَاءُ: ٣٤).

قال ابن عاشور: ومن بديع الإعجاز صوغ قوله ﴿يَمَا فَضَلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ في قالب صالح للمصدرية والموصولية، فالمصدرية مشعرة بأن العناية سببها تفضيل من الله وإنفاق، والموصولية مشعرة بأن سببها ما يعلمه الناس من فضل الرجال ومن إنفاقهم ليصلح الخطاب للفريقين: عالمهم وجاهلهم.

ولأن في الإتيان بـ «ما» مع الفعل على تقدير احتمال المصدرية جزالة لا توجد في قولنا: بتفضيل الله وبالإنفاق، لأن العرب يرجحون الأفعال على الأسماء في طرق التعبير.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنَبُّيًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَنَبَّهُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (النِّسَاء: ٦٦ - ٦٨).

قال في (الدر المشور): وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال: افتخر ثابت بن قيس بن شماس ورجل من اليهود فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا، أن اقتلوا أنفسكم، فقتلنا أنفسنا. فقال ثابت: والله لو كتب الله علينا أن اقتلوا أنفسكم، لقتلنا أنفسنا. فأنزل الله في هذا ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنَبُّيًا﴾.

وأخرج ابن جرير عن أبي إسحاق السبيعي قال: لما نزلت ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية. قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لِرَجَالًا إِيْمَانُ أَتَبَتْ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرُّوَاسِي».

وأخرج ابن المنذر من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن زيد بن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال ناس من الأنصار: والله لو كتبه الله علينا لقبلنا، الحمد لله الذي عافانا، ثم الحمد لله الذي عافانا. فقال رسول الله ﷺ: «إِيْمَانُ أَتَبَتْ فِي قُلُوبِ رَجَالٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنَ الْجِبَالِ الرُّوَاسِي».

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق هشام عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال أناس من الصحابة: لو فعل ربنا ... فبلغ النبي ﷺ فقال: «للإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي».

وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: نزلت ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ قال أبو بكر: يا رسول الله - والله - لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت. قال: «صدقت يا أبا بكر».

وأخرج ابن أبي حاتم عن شريح بن عبيد قال: لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال: لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل. وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في الآية قال: قال النبي ﷺ: «لو نزلت كان ابن أم عبد منهم» أ. هـ. قلت: ترى من فينا يقول ذلك صادقاً!!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧٨) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ (النِّسَاءُ: ٧٧، ٧٨).

قال في (الظلال): إنهم يخشون الموت، ويريدون الحياة. ويتمنون في حسرة مسكينة! لو كان قد أمهلهم بعض الوقت؛ ومد لهم - شيئاً - في المتاع بالحياة!

والقرآن يعالج هذه المشاعر في منابها؛ ويجلو غبش التصور لحقيقة الموت والأجل.. ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾. متاع الدنيا كله. والدنيا كلها. فما بال أيام، أو أسابيع، أو شهور، أو سنين؟ ما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير. إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها في جملة قليلاً؟! ما الذي يملكون تحقيقه من المتاع في أيام، أو أسابيع، أو شهور، أو سنين.. ومتاع الدنيا كله والدنيا بطولها قليل؟! ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾. فالدنيا - أولاً - ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة.. إنها مرحلة ... ووراءها الآخرة والمتاع فيها هو المتاع

- فضلاً على أن المتاع فيها طويل كثير - فهي ﴿ حَيْرٌ ﴾ .. ﴿ حَيْرٌ لِّمَنِ انْقَى ﴾ ... وتذكر التقوى هنا والخشية والخوف في موضعها. التقوى لله. فهو الذي يُتَقَى، وهو الذي يُخْشَى. وليس الناس.. الناس الذين سبق أن قال: إنهم يخشونهم كخشية الله - أو أشد خشية! - والذي يتقي الله لا يتقي الناس. والذي يعمر قلبه الخوف من الله لا يخاف أحداً. فماذا يملك له إذا كان الله لا يريد؟

﴿ وَلَا تَظْلَمُونَ قِيلاً ﴾. فلا غبن ولا ضير ولا بخس؛ إذا فاتهم شيء من متاع الدنيا. فهناك الآخرة. وهناك الجزاء الأوفى؛ الذي لا يبقى معه ظلم ولا بخس في الحساب الختامي للدنيا والآخرة جميعاً! ولكن بعض الناس قد تهفو نفسه - مع هذا كله - إلى أيام تطول به في هذه الأرض! حتى وهو يؤمن بالآخرة، وهو ينتظر جزاءها الخير.. وبخاصة حين يكون في المرحلة الإيمانية التي كانت فيها هذه الطائفة! هنا تجيء اللمسة الأخرى. اللمسة التي تصحح التصور عن حقيقة الموت والحياة، والأجل والقدر؛ وعلاقة هذا كله بتكليف القتال، الذي جزعوا له هذا الجزع، وخشوا الناس فيه هذه الخشية! ﴿ آيِنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾. فالموت حتم في مواعده المقدر. ولا علاقة له بالحرب والسلام. ولا علاقة له بحصانة المكان الذي يحتمي به الفرد أو قلة حصانته. ولا يؤخره أن يؤخر عنهم تكليف القتال إذن؛ ولا هذا التكليف والتعرض للناس في الجهاد يعجله عن مواعده..

هذا أمر وذاك أمر؛ ولا علاقة بينهما.. إنما العلاقة هناك بين الموت والأجل. بين الموعد الذي قدره الله وحلول ذلك الموعد.. وليست هناك علاقة أخرى.. ولا معنى إذن لتمني تأجيل القتال. ولا معنى إذن لخشية الناس في قتال أو في غير قتال!

وبهذه اللمسة الثانية يعالج المنهج القرآني كل ما يهيج في الخاطر عن هذا الأمر؛ وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف ومن دعر..

إنه ليس معنى هذا ألا يأخذ الإنسان حذره وحيطته وكل ما يدخل في طوقه من استعداد وأهبة ووقاية.. فقد سبق أن أمرهم الله بأخذ الحذر. وفي مواضع أخرى أمرهم بالاحتياط في صلاة الخوف. وفي سور أخرى أمرهم باستكمال العدة والأهبة.. ولكن هذا كله شيء، وتعليق الموت والأجل به شيء آخر.. إن أخذ الحذر واستكمال العدة أمر يجب أن يطاع، وله حكمته الظاهرة والخفية، ووراءه تدبير الله.. وإن التصور الصحيح لحقيقة العلاقة بين الموت والأجل المضروب - رغم كل استعداد واحتياط - أمر آخر يجب أن يطاع؛ وله حكمته الظاهرة والخفية، ووراءه تدبير الله..

توازن واعتدال. وإمام بجميع الأطراف. وتناسق بين جميع الأطراف..

هذا هو الإسلام. وهذا هو منهج التربية الإسلامي، للأفراد والجماعات..

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ (النِّسَاءُ: ٨١)، فقال ﴿ طَاعَةٌ ﴾ بالرفع، ولم يقل «طاعة»؛ للدلالة على كذبهم ونفاقهم وشدة مبالغتهم في بيان صدقهم لأن ﴿ طَاعَةٌ ﴾ بالرفع أدل على الطاعة من النصب؛ فجملة الرفع اسمية، وجملة النصب فعلية، قال الزمخشري: قوله ﴿ طَاعَةٌ ﴾ أي: أمرنا وشأننا طاعة، ويجوز النصب بمعنى: أطعناك طاعةً، والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النِّسَاءُ: ٨٢)، وقال أيضاً: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (مُحَمَّدٌ: ٢٤)، فقال في الآيتين ﴿ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ بينما قال: ﴿ أَفَلَمْ يَذَكِّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (الْمُؤْتَفِكِينَ: ٦٨)، فقال ﴿ يَذَكِّرُوا ﴾، وسر ذلك أن صيغة «تفعل» - كما ذكر د. فاضل - تأتي لما يحتاج إلى تكرار وتطول زمن، وصيغة «يفعل» تأتي لما يحتاج إلى مبالغة في الفعل، فلما كان تدبر القرآن مما يؤمر به على التناول والتكرار

ناسب أن يقول ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ من «تفعل» وأما تدبر ما أمرهم به الرسول من إسلام الوجه لله ونبد الأصنام التي كان يعبدها آبائهم، فهو مما يحتاج إلى عمق ومبالغة في التفكير لمشفقة مفارقة الإلف ومخالفة العادات والتقاليد.

قلت: ومثله قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۖ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۚ﴾ (الليلك: ١٧، ١٨)، فقال: ﴿يَتَزَكَّى﴾ بينما قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ﴾ (١) ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۖ﴾ (٢) ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ۚ﴾ (عبس: ١ - ٣)، فقال ﴿يَتَزَكَّى﴾ بوزن «يتفعل» الدالة على التطاول والتكرار، وهكذا الصدقة كما لها في الإكثار منها والمداومة عليها، بينما قال ﴿يَزَكَّى﴾ بوزن «يفعل» الدال على العمق والمبالغة، وهكذا زكاة القلب كما لها في وصول معاني الإيمان وحقائق الإحسان إلى أعماق القلوب ورسوخها فيها.

ولذا - والله أعلم - قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ (الذين عهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا ينقون ٥٦) ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ (الأنفال: ٥٥ - ٥٧). فقال: ﴿يَدْكُرُونَ﴾ من «فعل» التي تدل على العمق والمبالغة، فإن تأديب هؤلاء الكفار بالجهاد يحدث فيهم أثراً قوياً بالغا، وكذا فتنة المنافقين في كل مرة أو مرتين سواء قلنا: الفتنة هي أمرهم بالجهاد أو غيرها، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝﴾ (١٢٤) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ۝﴾ (١٢٥) ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٢٤ - ١٢٦)، فقال: ﴿يَذْكُرُونَ﴾ أيضاً، وكذا قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ۚ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ (الأنفال: ٧)،

فقال: ﴿يَذْكُرُ﴾ على وزن «يَفْعَلُ»، وذلك لما يحتاجه تمييز المتشابه والإيمان به من قوة إيمان ورسوخ قدم في العقيدة، وكذا قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يُرِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (الأنفال: ٤١)، فقال ﴿يَذْكُرُوا﴾، لأن ما في القرآن يُرْسَخُ المعاني في القلب، بينما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢٤) ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٤، ٢٥)، فقال ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ لأن ضرب المثل أمرٌ متكرر متطول، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٢٧)، وكذا قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرْ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فصل: ٣٧)، فقال: ﴿تَذَكَّرَ﴾ ليدل على تكرار وتطول سنين عمرهم بما يكفي للاتعاظ والإنابة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (١٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾ (النساء: ٩٧ - ٩٩). وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٢٧) الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَوْلَا السَّلَامَةُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الحج: ٢٧، ٢٨).

فقال في آية النساء: ﴿تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾ بحذف إحدى التائين وقال في سورة النحل: ﴿تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾ من دون حذف؛ قال د. فاضل: سرّ ذلك أن المتوفين في سورة النساء هم جزء من الذين هم في سورة النحل فالذين في سورة النحل هم الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين على وجه العموم وأما الذين في سورة النساء فهم المستضعفون منهم فهم قسم منهم فلما كان هؤلاء أقل حذف من الفعل إشارة إلى الاقتران من الحدث وإلى قلته.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (النِّسَاءُ: ١٠٠)، فقال ﴿ بَيْتِهِ ﴾ ولم يقل «بلده» ليدل على أن له بيتاً يأوي إليه، وأهلاً يسكن إليهم ومع ذلك ترك ذلك كله لله ورسوله ﷺ، وقال ﴿ يَخْرُجْ ﴾، ﴿ يُدْرِكُهُ ﴾ بالمضارع لتصوير حالة الخروج وما فيها من مشقة وكذا حال الموت الذي يطلب العباد كما يطلبون رزقهم أو أشد، بينما قال ﴿ وَقَعَ ﴾ بالماضي ليدل على تحقق ذلك وثبوته لهم. ويحتمل كذلك أن يكون سر مجيء الفعل المضارع ﴿ يَخْرُجْ ﴾ هو بيان أن ذلك الأجر ثابت لكل من خرج ولكل من سيقع منهم ذلك في المستقبل فهذا أمرٌ سيتكرر، ولو قال «خرج» لربما فهم أن ذلك الفضل ثابت لمن هاجر قبل فقط.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ (النِّسَاءُ: ١٠٢).

قال ﴿ لَهُمْ ﴾ مما يدل على أن الإمام ينبغي أن يعتني في صلاته أكثر ما يعتني بحال المأمومين لأنه لا يصلي لنفسه بل يصلي لمن خلفه من المأمومين أيضاً. أفاده د. عبد الرحمن المدهش «تدبر - المجموعة (١)».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (النِّسَاءُ: ١١٤).

قال في (الدر المنثور): وأخرج مسلم والبيهقي عن أبي شريح قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت». وأخرج البخاري عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجله أضمن له الجنة».

وأخرج البخاري في الأدب والبيهقي عن سهل بن سعد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان، الفم والفرج».

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله مرني بأمر أعتصم به في الإسلام؟ قال ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم». قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ قال ﷺ: «هذا»، وأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه.

وأخرج الترمذي والبيهقي عن عقبة بن عامر قال: قلت يا نبي الله ما النجاة؟ قال ﷺ: «املك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك».

وأخرج البيهقي عن ابن مسعود. أنه أتى على الصفا فقال: يا لسان قل خيراً تغنم أو اصمت تسلم من قبل أن تندم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذا شيء تقوله أو سمعته؟ قال: لا، بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه».

وأخرج أحمد في الزهد والبيهقي عن سعيد بن جبير قال: رأيت ابن عباس أخذاً بثمرة لسانه وهو يقول: يا لساناه قل خيراً تغنم أو اسكت عن شر تسلم قبل أن تندم. فقال له رجل: مالي أراك أخذاً بثمرة لسانك تقول كذا وكذا؟! قال: إنه بلغني أن العبد يوم القيامة ليس هو عن شيء أحق منه على لسانه.

وأخرج البيهقي عن أنس أن رسول الله ﷺ لقي أبا ذر فقال: «ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟». قال: بلى يا رسول الله. قال: «عليك بحسن الخلق وطول الصمت، والذي نفس محمد بيده ما عمل الخلائق بمثلهما».

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رفعه إلى النبي ﷺ قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن كل شيء من الجسد يكفر اللسان يقول: نشدك الله فينا فإنك ان استقمتم استقمنا وإن اعوججت أعوججنا».

وأخرج أحمد في الزهد والنسائي والبيهقي عن زيد بن أسلم عن أبيه. أن عمر بن الخطاب اطلع على أبي بكر وهو يمد لسانه قال: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ قال: إن هذا الذي أوردني الموارد، إن رسول الله ﷺ قال: «ليس شيء من الجسد إلا يشكو ذرب اللسان على حدته».

وأخرج البيهقي عن معاذ بن جبل قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، فأصاب الناس ريح فتقطعوا، فضربت ببصري فإذا أنا أقرب الناس من رسول الله ﷺ، فقلت: لأعتنمن خلوته اليوم، فدنوت منه فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يقربني - أو قال - يدخلني الجنة، ويباعدني من النار؟ قال ﷺ: «لقد سألت عن عظيم، وأنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، وإن شئت أنبأتك بآبواب الخير». قلت: أجل يا رسول الله. قال ﷺ: «الصوم جنة، والصدقة تكفر الخطيئة، وقيام العبد في جوف الليل يبتغي به وجه الله»، ثم قرأ الآية ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ ثم قال: «إن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه». قلت: أجل يا رسول الله. قال ﷺ: «أما رأس الأمر فالإسلام، وأما عموده فالصلاة، وأما ذروة سنامه فالجهاد، وإن شئت أنبأتك بأملك الناس من ذلك كله». قلت: ما هو يا رسول الله؟ فأشار بأصبعه إلى فيه. فقلت: وإنا لنؤاخذ بكل ما نتكلم به؟! قال ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم، وهل تتكلم إلا ما عليك أو لك؟!».

وأخرج البيهقي عن عطاء بن أبي رباح قال: إن من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد لك منها، أذكرون أن عليكم حافظين ﴿كِرَامًا كَتِيبِينَ﴾. ﴿عَنِ

الْيَمِينِ وَعَنِ السَّمَلِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته.

وأخرج ابن سعد عن أنس بن مالك قال: لا يتقي الله عبد حتى يخزن من لسانه. وأخرج أحمد عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة حتى يأمن جاره بوائقه».

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي الدرداء قال: ما في المؤمن بضعة أحب إلى الله من لسانه، به يدخله الجنة. وما في الكافر بضعة أبغض إلى الله من لسانه، به يدخله النار.

وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لا تنطق فيما لا يعينك، واخزن لسانك كما تخزن درهمك.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن سلمان الفارسي قال: أكثر الناس ذنباً أكثرهم كلاماً في معصية الله.

وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال: أكثر الناس خطايا أكثرهم خوضاً في الباطل. وأخرج أحمد عن ابن مسعود قال: والذي لا إله غيره ما على الأرض شيء أخرج إلى طول سجن من لسان.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ أُمَّرَأَةً حَافَتُ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النِّسَاء: ١٢٨)، فقال ﴿بَعْلِهَا﴾ ولم يقل «زوجها» ليدل على أنَّ نُشُوزَ الرجل وإِعْرَاضَهُ عن زوجته غالباً ما يكون بسبب عدم حسن تبعليها له.

قال في (لسان العرب): تبعلت المرأة إذا أطاعت بعليها وتبعلت له أي تزينت، وامرأة حسنة التبعل إذا كانت مطاوعةً لزوجها محبةً له. وليلدل كذلك على أنَّ زوجها

هو سيدها، فلا ينبغي أن تبغضه إن رأت منه بعض التعالي بل تصبر وتحتسب، فإن وصل الأمر إلى ما لا يطاق جاز له أن تخالعه وليس لمجرد تعاليه المعتاد عليها تخالعه؛ قال في (لسان العرب): البعل: الرئيس المالك، وكذا يجوز له مخالعه إن أضر بها في حقوق المعاشرة الزوجية؛ قال في (لسان العرب): البعال: ملاعبة المرء أهله، والبعال: النكاح «أي الجماع» ومن الحديث في أيام التشريق: أيام أكل وشرب وبعال، والمباعدة: المباشرة.

قلت: فأشارت الآية إلى كل هذه المعاني بهذا اللفظ الواحد!!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾﴾ (النِّسَاءُ: ١٧٤).

قال في (الظلال): نور تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة؛ ويبدو مفرق الطريق بين الحق والباطل محددًا مرسومًا... في داخل النفس وفي واقع الحياة سواء.. حيث تجد النفس من هذا النور ما ينير جوانبها أولاً؛ فترى كل شيء فيها ومن حولها واضحاً.. حيث يتلاشى الغبش وينكشف؛ وحيث تبدو الحقيقة بسيطة كالبديية، وحيث يعجب الإنسان من نفسه كيف كان لا يرى هذا الحق وهو بهذا الوضوح وبهذه البساطة؟!

وحين يعيش الإنسان بروحه في الجو القرآني فترة؛ ويتلقى منه تصورات وقيمه وموازينه، يحس يسراً وبساطة ووضوحاً في رؤية الأمور. ويشعر أن مقررات كثيرة كانت قلقة في حسه قد راحت تأخذ أماكنها في هدوء؛ وتلتزم حقائقها في يسر؛ وتنفي ما علق بها من الزيادات المتطفلة تبدو في براءتها الفطرية، ونصاعتها كما خلقها الله.. ومهما قلت في هذا التعبير: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ .. فإنني لن أصور بألفاظي حقيقته، لمن لم يذق طعمه ولم يجده في نفسه! ولا بد من المكابدة في مثل هذه المعاني! ولا بد من التذوق الذاتي! ولا بد من التجربة المباشرة!

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ (النِّسَاءُ : ١٧٥).

قال في (الظلال): والاعتصام بالله ثمرة ملازمة للإيمان به.. متى صح الإيمان، ومتى عرفت النفس حقيقة الله وعرفت حقيقة عبودية الكل له. فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده. وهو صاحب السلطان والقدرة وحده.. وهؤلاء يدخلهم الله في رحمة منه وفضل. رحمة في هذه الدنيا - قبل الحياة الأخرى، وفضل في هذه العاجلة - قبل الفضل في الآجلة - فالإيمان هو الواحة الندية التي تجد فيها الروح الظلال من هاجرة الضلال في تيه الخيرة والقلق والشرود. كما أنه هو القاعدة التي تقوم عليها حياة المجتمع ونظامه؛ في كرامة وحرية ونظافة واستقامة - كما أسلفنا - حيث يعرف كل إنسان مكانه على حقيقته. عبد لله وسيد مع كل من عداه.. وليس هذا في أي نظام آخر غير نظام الإيمان - كما جاء به الإسلام - هذا النظام الذي يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. حين يوحد الألوهية؛ ويسوي بين الخلائق جميعاً في العبودية. وحيث يجعل السلطان لله وحده والحاكمة لله وحده؛ فلا يخضع بشر لتشريع بشر مثله، فيكون عبداً له مهما تحرر! فالذين آمنوا في رحمة من الله وفضل، في حياتهم الحاضرة، وفي حياتهم الآجلة سواء..



سُورَةُ الشُّرَاةِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (الْمَائِدَةُ: ١٤).

قال ابن عاشور: وقد ترك علماء اللغة بيان التفرقة بين العداوة والبغضاء، وتابعهم المفسرون على ذلك؛ فلا تجد من تصدى للفرق بينهما سوى الشيخ ابن عرفة التونسي، فقال في تفسيره: العداوة أعم من البغضاء لأن العداوة سبب في البغضاء؛ فقد يتعادى الأخ مع أخيه ولا يتمادى على ذلك حتى تنشأ عنه المباغضة، وقد يتمادى على ذلك. أ.هـ.

ووقع لأبي البقاء الكعبري في كتاب الكليات أنه قال: العداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو مبغض، وقد يبغض من ليس بعدو. وهو يخالف كلام ابن عرفة. وفي تحليلها مصادمة واضحة، فإن كانت العداوة أعم من البغضاء زادت فائدة العطف لأنه يصير في معنى الاحتراس، وإن كانت العداوة أخص من البغضاء لم يكن العطف إلا للتأكيد، لأن التأكيد يحصل بذكر لفظ يدل على بعض مطلق من معنى الموكد، فيتقرر المعنى ولو بوجه أعم أو أخص وذلك يحصل به معنى التأكيد.

وعندي: أن كلا الوجهين غير ظاهر، والذي أرى أن بين معنيي العداوة والبغضاء التضاد والتباين؛ فالعداوة كراهية يصدر عن صاحبها معاملة بجفاء، أو قطيعة، أو إضرار، لأن العداوة مشتقة من العدو وهو التجاوز والتباعد، فإن مشتقات مادة ع د و كلها تدور حول التفرق وعدم الوئام. وأما البغضاء فهي بشدة البغض، وليس في مادة ب غ ض إلا معنى جنس الكراهية فلا سبيل إلى معرفة اشتقاق لفظها من مادتها. نعم يمكن أن يرجع فيه إلى طريقة القلب، وهو من علامات الاشتقاق فإن مقلوب بغض

يكون غضب لا غير، فالبغضاء شدة الكراهية غير مصحوبة بعداوة، فهي مضمرة في النفس. فإذا كانت كذلك لم يصلح اجتماع معنيي العداوة والبغضاء في موصوف واحد في وقت واحد فيتعين أن يكون إلقاؤهما بينهم على معنى التوزيع، أي أغرينا العداوة بين بعض منهم والبغضاء بين بعض آخر. فوقع في هذا النظام إيجاز بديع، لأنه يرجع إلى الاعتماد على علم المخاطبين بعدم استقامة اجتماع المعنيين في موصوف واحد.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنفال: ١٦).﴾

قال في (الظلال): لقد رضي الله الإسلام ديناً.. وهو يهدي من يتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كما رضيته الله له.. يهديه... ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾...

وما أدق هذا التعبير وأصدق؛ إنه ﴿السَّلَامِ﴾ هو ما يسكبه هذا الدين في الحياة كلها.. سلام الفرد. و سلام الجماعة. و سلام العالم... سلام الضمير، و سلام العقل، و سلام الجوارح... سلام البيت والأسرة، و سلام المجتمع والأمة، و سلام البشر والإنسانية... السلام مع الحياة. و السلام مع الكون. و السلام مع الله رب الكون والحياة... السلام الذي لا تجده البشرية - ولم تجده يوماً - إلا في هذا الدين؛ وإلا في منهجه ونظامه وشريعته، ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته.

حقاً إن الله يهدي بهذا الدين الذي رضيته، من يتبع رضوان الله، ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾... سبل السلام كلها في هذه الجوانب جميعها.. ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق سبل الحرب في الجاهليات القديمة أو الحديثة... ولا يدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق حرب القلق الناشئ من عقائد الجاهلية في أعماق الضمير. وحرب القلق الناشئ من شرائع الجاهلية وأنظمتها وتخبطها في أوضاع الحياة.

وقد كان المخاطبون بهذه الكلمات أول مرة يعرفون من تجربتهم في الجاهلية معنى هذا السلام، إذ كانوا يذوقونه مذاقاً شخصياً؛ ويلتذون هذا المذاق المريح.

وما أحوجنا نحن الآن أن ندرك هذه الحقيقة؛ والجاهلية من حولنا ومن بيننا نذيق البشرية الويلات.. من كل ألوان الحرب في الضمائر والمجتمعات قروناً بعد قرون!

ما أحوجنا نحن الذين عشنا في هذا السلام فترة من تاريخنا؛ ثم خرجنا من السلام إلى الحرب التي تحطم أرواحنا وقلوبنا، وتحطم أخلاقنا وسلوكنا، وتحطم مجتمعاتنا وشعوبنا.. بينما نملك الدخول في السلم التي منحها الله لنا؛ حين نتبع رضوانه؛ ونرضى لأنفسنا ما رضى الله لنا!

إننا نعاني من ويلات الجاهلية؛ والإسلام منا قريب. ونعاني من حرب الجاهلية وسلام الإسلام في تناول أيدينا لو نشاء.. فأية صفقة خاسرة هذه التي نستبدل فيها الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ ونشتري فيها الضلالة بالهدى؟ ونؤثر فيها الحرب على السلام؟ إننا نملك إنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحربها المنشوبة في شتى الصور والألوان. ولكننا لا نملك إنقاذ البشرية، قبل أن ننقذ نحن أنفسنا، وقبل أن نفىء إلى ظلال السلام، حين نفىء إلى رضوان الله ونتبع ما ارتضاه. فنكون من هؤلاء الذين يقول الله عنهم: **إِنَّهُ يَهْدِيهِمْ سَبِيلَ السَّلَامِ. ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾**. والجاهلية كلها ظلمات.. ظلمة الشبهات والخرافات والأساطير والتصورات. وظلمة الشهوات والنزعات والاندفاعات في التيه. وظلمة الحيرة والقلق والانقطاع عن الهدى والوحشة من الجنب الآمن المأنوس. وظلمة اضطراب القيم وتخلخل الأحكام والقيم والموازين. والنور هو النور.. هو ذلك النور الذي تحدثنا عنه آنفاً في الضمير وفي العقل وفي الكيان وفي الحياة وفي الأمور.. **﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**. مستقيم مع فطرة النفس ونواميسها التي تحكمها. مستقيم مع فطرة الكون ونواميسه التي تصرفه. مستقيم إلى الله لا يلتوي ولا تلتبس فيه الحقائق والاتجاهات والغايات.. إن الله الذي خلق الإنسان وفطرته؛ وخلق الكون ونواميسه؛ هو الذي وضع للإنسان هذا المنهج؛ وهو الذي رضي للمؤمنين هذا الدين. فطبيعي وبديهي أن يهديهم هذا المنهج إلى

الصراط المستقيم. حيث لا يهديهم منهج غيره من صنع البشر العاجزين الجهال الفانين! وصدق الله العظيم. الغني عن العالمين. الذي لا يناله من هداهم أو ضلالهم شيء ولكنه بهم رحيم!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾﴾ (الأنعام: ٢٧).

قال في (الدر المنثور): أخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال: لأن استيقن أن الله تقبل مني صلاة واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها، لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن علي بن أبي طالب قال: لا يقل عمل مع تقوى، وكيف يقل ما يتقبل؟...

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عمر بن عبد العزيز. أنه كتب إلى رجل: أوصيك بتقوى الله الذي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن يزيد العيص: سألت موسى بن أعين عن قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ قال: تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام، فساهم الله متقين.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن فضالة بن عبيد قال: لأن أكون أعلم أن الله يقبل مني مثقال حبة من خردل، أحب إلي من الدنيا وما فيها، فإن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. وأخرج ابن سعد وابن أبي الدنيا عن قتادة قال: قال عامر بن عبد قيس آية في القرآن أحب إلي من الدنيا جميعاً أن أعطاه أن يجعلني الله من المتقين، فإنه قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وأخرج ابن أبي الدنيا، عن همام بن يحيى قال: بكى عامر بن عبد الله عند الموت فقيل له: ما يبكيك؟ قال: آية في كتاب الله. فقيل له: أية آية؟! قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ عَمَلَ عَبْدٍ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ». وأخرج ابن أبي شيبة عن ثابت قال: كان مطرف يقول: اللهم تقبل مني صيام يوم، اللهم اكتب لي حسنة، ثم يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ .
وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك في قوله ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ قال: الذين يتقون الشرك.

وأخرج ابن عساكر عن هشام بن يحيى عن أبيه قال: دخل سائل إلى ابن عمر فقال لابنه: أعطه ديناراً فأعطاه، فلما انصرف قال ابنه: تقبل الله منك يا أبتاه. فقال: لو علمت أن الله تقبل مني سجدة واحدة أو صدقة درهم لم يكن غائب أحب إلي من الموت، تدري ممن يتقبل الله؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَسْطِيَ إِلَى يَدِكَ لِنَقُلْنَ مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ (الْمَائِدَةُ: ٢٨)، فقال: ﴿بَسَطَ﴾ بالفعل في الشرط بينما قال في الجزاء: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ بالاسم، ولم يسو بينهما، فلم يقل: «لئن بسطت لا أبسط»؛ قال د. فاضل: فائدة قوله ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ بيان أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع؛ أي: أنا لست من أصحاب هذا الوصف وأن هذا الخلق ليس من شيمي ووصفي، ونحوه قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (الشُّعَرَاءُ: ١٣٦)، ففرق بينهما ولم يقل: «أوعظت أم لم تعظ»، وذلك لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشرته. فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم تعظ.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ (الْبَقَرَةُ: ١٤)، ففرق سبحانه بين قولهم للمؤمنين، وقولهم لأصحابهم، فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث ﴿ءَامَنَّا﴾، وخاطبوا جماعتهم بالجملة الاسمية المؤكدة الدالة على الثبوت والدوام ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ ، ولم يقولوا: «إنا مؤمنون» كما قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ ، وذلك لأن أنفسهم لا تساعدكم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم

باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق ورغبة واعتقاد، وأما في مخاطبة إخوانهم فهم في ما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يُزالوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، أفاده الزمخشري.

قال د. فاضل: وجاء في «تسهيل السبيل» للبكري: أنهم خاطبوا بالجملة الفعلية أولاً في ﴿قَالُوا ءَأَمْنًا﴾ وبضدها في ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ لإظهار الثبات على معتقدتهم الفاسد وأن ما خاطبوا به المؤمنين أمر متجدد بسبب لقائهم تقيّة فقط.

- قَالَ تَعَالَى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقُلُودَ﴾ (النَّازِعَاتِ: ٩٧)، ففصل بين ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ وغيره، ولم يقل: «البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد قياماً للناس»، وذلك لأنّ قيام أمر الناس بتعظيمهم البيت الحرام أكثر من قيام أمرهم بتعظيمهم للهدي والقلائد والأشهر الحرم، كما أنّ حرمة البيت الحرام أعظم، ففصل بين البيت الحرام وبينها لذلك.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾﴾ (النَّازِعَاتِ: ١٠٠).

قال في (الظلال): لقد كان الله الذي أخرج هذه الأمة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، يُعِدُّها لأمر عظيم هائل.. كان يعدها لحمل أمانة منهجه في الأرض، لتستقيم عليه كما لم تستقم أمة قط، ولتقيمه في حياة الناس كما لم يقم كذلك قط. ولم يكن بد أن تراض هذه الأمة رياضة طويلة. رياضة تخلعها أولاً من جاهليتها؛ وترفعها من سفح الجاهلية الهابطة وتمضي بها صعوداً في المرتقى الصاعد إلى قمة الإسلام الشاخنة ثم تعكف بعد ذلك على تنقية تصوراتها وعاداتها ومشاعرها من رواسب الجاهلية؛ وتربية إرادتها على حمل الحق وتبعاته. ثم تنتهي بها إلى تقييم الحياة جملة وتفصيلاً وفق قيم الإسلام في ميزان الله.. حتى تكون ربانية حقاً.. وحتى ترتفع بشريتها إلى أحسن تقويم... وعندئذ

لا يستوي في ميزانها الخبيث والطيب؛ ولو أعجبها كثرة الخبيث! والكثرة تأخذ العين وتهول الحس. ولكن تميز الخبيث من الطيب، وارتفاع النفس حتى تزنه بميزان الله، يجعل كفة الخبيث تشيل مع كثرته، وكفة الطيب ترجح على قلته.. وعندئذ تصبح هذه الأمة أمانة ومؤتمنة على القوامه.. القوامه على البشرية... تزن لها بميزان الله؛ وتقدر لها بقدر الله؛ وتختار لها الطيب، ولا تأخذ عينها ولا نفسها كثرة الخبيث!

وموقف آخر ينفع فيه هذا الميزان.. ذلك حين ينتفش الباطل؛ فتراه النفوس رابياً؛ وتؤخذ الأعين بمظهره وكثرته وقوته.. ثم ينظر المؤمن الذي يزن بميزان الله إلى هذا الباطل المنتفش، فلا تضطرب يده، ولا يزوغ بصره، ولا يختل ميزانه؛ ويختار عليه الحق الذي لا رغوة له ولا زبد؛ ولا عدة حوله ولا عدد.. إنها هو الحق.. الحق المجرد إلا من صفته وذاته؛ وإلا من ثقله في ميزان الله وثباته؛ وإلا من جماله الذاتي وسلطانه!

لقد ربي الله هذه الأمة بمنهج القرآن، وقوامه رسول الله ﷺ حتى علم - سبحانه - أنها وصلت إلى المستوى الذي تؤمن فيه على دين الله.. لا في نفوسها وضمايرها فحسب، ولكن في حياتها ومعاشها في هذه الأرض، بكل ما يضطرب في الحياة من رغبات ومطامع، وأهواء ومشارب، وتصادم بين المصالح، وغلاب بين الأفراد والجماعات. ثم بعد ذلك في قوامتها على البشرية بكل ما لها من تبعات جسام في خضم الحياة العام. لقد رباها بشتى التوجيهات، وشتى المؤثرات، وشتى الابتلاءات، وشتى التشريعات؛ وجعلها كلها حزمة واحدة تؤدي دوراً في النهاية واحداً، هو إعداد هذه الأمة بعقيدها وتصوراتها، وبمشاعرها واستجاباتها، وبسلوكها وأخلاقها، وبشريعتها ونظامها، لأن تقوم على دين الله في الأرض، ولأن تتولى القوامه على البشر.. وحقق الله ما يريده بهذه الأمة.. والله غالب على أمره... وقامت في واقع الحياة الأرضية تلك الصورة الوضيئة من دين الله.. حلماً يتمثل في واقع.. وتملك البشرية أن ترسمه في كل وقت حين تجاهد لبلوغه فيعينها الله.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفْعِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٣).

قال ابن عاشور: وعطف ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ على ﴿ وَلِنَصْغِي ﴾ وإن كان الإصغاء يقتضي الرضى ويسببه فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء وأن لا تكرر لام التعليل فحول مقتضى الظاهر للدلالة على استقلاله بالتعليل فعطف بالواو وأعيدت اللام لتأكيد الاستقلال فيدل على أن صغي أفندتهم إليه ما كان يكفي لعملهم به إلا لأنهم رضوه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام: ١٧).

فائدة قرآنية: قال عامر بن عبد قيس: آيات في كتاب الله إذا ذكرتهن لا أبالي على ما أصبحت أو أمسيت: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام: ١٧)، ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (نمل: ٢)، ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق: ٧)، ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود: ٦).

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِئٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٩).

قال في (الظلال): ﴿ قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِئٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾. إنه لا بد أن تقف العصبية المسلمة في الأرض، من الجاهلية التي تغمر الأرض، هذا الموقف لا بد أن تقذف في وجهها بكلمة الحق هذه عالية مدوية، قاطعة فاصلة، مزلزلة رهيبة... ثم تتجه إلى الله تعلم أنه على كل شيء قدير، وأنه هو القاهر فوق عباده. وأن هؤلاء العباد - بما فيهم الطواغيت المتجبرون أضعف من الذباب

وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، أو إنهم ليسوا بضارين من أحد إلا بإذن الله، وليسوا بنافعين أحداً إلا بإذن الله، وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ولا بد أن تتيقن العصبه المسلمة كذلك أنها لن تنصر ولن يتحقق لها وعد الله بالتمكين في الأرض، قبل أن تفاصيل الجاهلية على الحق عند مفترق الطريق. وقبل أن تعلن كلمة الحق في وجه الطاغوت وقبل أن تشهد على الجاهلية هذا الإشهاد، وتنذر لها هذه النذارة، وتعلنها هذا الإعلان، وتفاصيلها هذه المفاصلة وتبرأ منها هذه البراءة.

إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة موقف تاريخي، إنما جاء منهجاً مطلقاً خارجاً عن قيود الزمان والمكان منهجاً تتخذه الجماعة المسلمة حينما كانت في مثل الموقف الذي تنزل فيه هذا القرآن. وهي اليوم في مثل هذا الموقف تماماً، وقد استدار الزمان كهيئة يوم جاء هذا القرآن لينشئ الإسلام في الأرض إنشاءً.

فليكن اليقين الجازم بحقيقة هذا الدين. والشعور الواضح بحقيقة قدرة الله وقهره. والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله. لتكن هذه عدة الجماعة المسلمة... والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (الأنعام: ٣٢).

قال الفيروز أبادي: قوله: ﴿﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾﴾ قدم اللعب على اللهو في موضعين هنا، وكذلك في القتال والحديد و قدم اللهو على اللعب في الأعراف والعنكبوت وإنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب. يبينه ما ذكر في الحديد ﴿﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾﴾ كلعب الصبيان ﴿﴿وَلَهْوٌ﴾﴾ كلهو الشبان ﴿﴿وَزِينَةٌ﴾﴾ كزينة النسوان ﴿﴿وَتَفَاخُرٌ﴾﴾ كتفاخر الإخوان ﴿﴿وَتَكَاثُرٌ﴾﴾ كتكاثر السلطان. وقريب من هذا في تقديم لفظ اللعب على اللهو قوله: ﴿﴿وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٌ﴾﴾ ﴿﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًا لَأَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾﴾، و قدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة. فذكر على ترتيب ما انقضى، وبدأ بما به الإنسان

انتهى من الحالتين، وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء، قليل البقاء ﴿وَرَبَّكَ أَدَارَ الْأَخْرَةِ لَهَا الْحَيَاةُ الَّتِي لَا بَدَايَةَ لَهَا وَلَا نَهَايَةَ لَهَا فَبَدَأَ بِذِكْرِ اللَّهِ، لَأَنَّهُ فِي زَمَانِ الشَّبَابِ، وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ زَمَانِ اللَّعِبِ وَهُوَ زَمَانُ الصَّبَا.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرْعُونَ﴾ (الأنعام: ٤٢)﴾

قال د. فاضل: كثير من الكلمات تستعمل في مواضع مختلفة فمرة تأتي كما هي ومرة تأتي مبدلة وهذا حسب السياق فما كان على وزن «يَفْعَلُ» قد يؤتى به في اللغة للدلالة على التدرج أي الحدوث شيئاً فشيئاً وذلك نحو تَخَطَّى وتمشَّى وتبصَّر وتجنَّس فهناك فرق بين «مشى» و«تمشَّى» و«خطأ» و«تخطَّى» و«جسَّ» و«تجنَّس» ففي تَمْشَى وَتَخَطَّى من التدرج ما ليس في مشا وخطا. وقد يؤتى بهذا الوزن للدلالة على التكلف وبذل الجهد نحو تَصَبَّرَ وَتَحَلَّمَ أي كلف نفسه وحملها الصبر والحلم وفي كلا المعنيين دلالة على الطول في الوقت والتَّمَهُّلُ في الحدث، وكذلك الأمر في القرآن الكريم فإذا اجتمعت صيغتان من هذا البناء في اللغة «يتفعل» و«يفعل» استعمل «يتفعل» لما هو أطول زمناً من «يفعل» وذلك لأن الفك أطول زمناً في النطق كما ذكرنا فهو ملائم للطول في الحدث. وما كان على وزن «يَفْعَلُ» يأتي به القرآن فيما يحتاج إلى المبالغة في الحدث وذلك لأن التضعيف كثيراً ما يؤتى به للمبالغة نحو فَعَلَ وَفَعَّلَ كـ «قَطَعَ» وَقَطَعَ وَكَسَرَ وَكَسَّرَ ففي قَطَعَ وَكَسَرَ من المبالغة ما ليس في قَطَعَ وَكَسَرَ، ونحو فَعَالَ وَفُعَالَ مثل: كُبَارَ وَكُبَّارَ فـ «كُبَّارَ» أبلغ من «كُبَارَ» في الاتصاف بالحدث كما هو مقرر في كتب اللغة فتكرار الحرف إشارة إلى تكرار الحدث جاء في «الخصائص»: ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل فقالوا: كَسَّرَ وَقَطَعَ وَفَتَّحَ وَغَلَّقَ. اهـ.

ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرْعُونَ﴾ (الأنعام: ٤٢) وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرْعُونَ﴾ (الأنعام: ٩٤).

فقال في آية الأنعام: ﴿بَضْرَعُونَ﴾ وقال في الأعراف: ﴿يَضْرَعُونَ﴾ بالإبدال والإدغام وذلك أنه قال في آية الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وقال في الأعراف: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ والأمم أكثر من القرية وهذا يعني تطاول الإرسال على مدار التاريخ فلما طال الحدث واستمر جاء بما هو أطول بناء فقال: ﴿بَضْرَعُونَ﴾ ولما كان الإرسال في الأعراف إلى قرية قال: ﴿يَضْرَعُونَ﴾ فجاء بما هو أقصر في البناء هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى أنه استعمل في آية الأنعام «أرسل إلى» فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ﴾ واستعمل في الأعراف «أرسل في» فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ والإرسال إلى شخص ما يقتضي التبليغ ولا يقتضي المكث فإنك قد ترسل إلى شخص رسالة فيبلغها ويعود. وأما الإرسال في القرية أو في المدينة فإنه يقتضي التبليغ والمكث فإن ﴿فِي﴾ تفيد الظرفية وهذا يعني بقاء النبي بينهم ويزكروهم بالله ويريهم آياته المؤيدة ولا شك أن هذا يدعوهم إلى زيادة التضرع والمبالغة فيه فجاء بالصيغ الدالة على المبالغة في الحدث والإكثار منه فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضْرَعُونَ﴾ فوضع كل مفردة في مكانها اللائق بها.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ﴾ إِلَىٰ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٥٠).

قال ابن عاشور: وشبهت حالة من لا يفقه الأدلة ولا يفكك بين المعاني المتشابهة بحالة الأعمى الذي لا يعرف أين يقصد ولا أين يضع قدمه. وشبهت حالة من يميز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة القوي البصر حيث لا تختلط عليه الأشباح. وهذا تمثيل لحال المشركين في فساد الوضع لأدلتهم وعقم أقيستهم، ولحال المؤمنين الذين اهتموا ووضعوا الأشياء مواضعها، أو تمثيل لحال المشركين التي هم متلبسون بها والحال المطلوبة منهم التي نفروا منها ليعلموا أي الحالين أولى بالتخلق.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنِيعَ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: ٥٦).

قال ابن عاشور: وقد أتى بالخبر بالجار والمجرور ف قيل: ﴿ مِنْ الْمُهْتَدِينَ ﴾ ولم يقل: «وما أنا مهتد»، لأن المقصود نفي الجملة التي خبرها ﴿ مِنْ الْمُهْتَدِينَ ﴾ فإن التعريف في ﴿ الْمُهْتَدِينَ ﴾ تعريف الجنس، فأخبار المتكلم عن نفسه بأنه من المهتدين يفيد أنه واحد من الفئة التي تعرف عند الناس بفئة المهتدين، يفيد أنه مهتد إفادة بطريقة تشبه طريقة الاستدلال. فهو من قبيل الكناية التي هي إثبات الشيء بإثبات ملزومه. وهي أبلغ من التصريح. قال في الكشف في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾: قولك فلان من العلماء أبلغ من قولك فلان عالم، لأنك تشهد له بكونه معدوداً في زميرهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم. وقال عند قوله تعالى: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ في سورة الشعراء: فإن قلت لو قيل: «أوعظت أو لم تعظ» كان أليق، والمعنى واحد؟ قلت: ليس المعنى بواحد وبينهما فرق لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشرته. فهو أبلغ في قلة الاعتداد بوعظه من قوله: أم لم تعظ. وقال الخفاجي: أن أصل هذا لابن جني.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيْ ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ ﴾ (الأنعام: ٦٨).

قال ابن عاشور: والخوض حقيقته الدخول في الماء مشياً بالرجلين دون سباحة ثم استعير للتصرف الذي فيه كلفة أو عنت، كما استعير التعسف وهو المشي في الرمل لذلك. واستعير الخوض أيضاً للكلام الذي فيه تكلف الكذب والباطل لأنه يتكلف له قائله، قال الراغب: وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه، فمعنى ﴿ يَخُوضُونَ فِيْ ءَايَاتِنَا ﴾ يتكلمون فيها بالباطل والاستهزاء.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ ﴾ (الأنعام: ٧٠).

قال ابن عاشور: والدين في قوله: ﴿ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ ﴾ يجوز أن يكون بمعنى الملة، أي ما يتدينون به ويتحلونه ويتقربون به إلى الله. أي اتخذوه لعباً ولهواً، أي جعلوا

الدين مجموع أمور هي من اللعب واللهو، أي العبث واللهو عند الأصنام في مواسمها، والمكاء والتصدية عند الكعبة على أحد التفسيرين في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾. وإنما لم يقل «اتخذوا اللهو واللعب ديناً» لمكان قوله ﴿اتَّخَذُوا﴾ فإنهم لم يجعلوا كل ما هو من اللهو واللعب ديناً لهم بل عمدوا إلى أن ينتحلوا ديناً فجمعوا له أشياء من اللعب واللهو وسموها ديناً. ويجوز أن يكون المراد من الدين العادة. أي الذين دأبهم اللعب واللهو المعرضون عن الحق، وذلك في معاملتهم الرسول ﷺ.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (الأنعام: ٩٢).

قال في (الظلال): ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل، وأن ينزل الله عليهم الكتب. وهذا الكتاب الجديد، الذي ينكرون تنزيله، هو كتاب مبارك.. وصدق الله.. فإنه والله لمبارك.. مبارك بكل معاني البركة.. إنه مبارك في أصله. باركه الله وهو ينزله من عنده. ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل.. قلب محمد الطاهر الكريم الكبير.. ومبارك في حجمه ومحتواه. فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر، ولكن يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام، في أضعاف أضعاف حيزه وحجمه! وإن الذي مارس فن القول عن نفسه وعن غيره من بني البشر، وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول ولا يعالجوه من قضايا التعبير، يدرك أن هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية. وأن هناك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز - ولا في أضعاف أضعاف - عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات! وأن الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرر من الحقائق ما يجعل

الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً منفرداً لا نظير له في كلام البشر.. وإنه مبارك في أثره.. وهو يخاطب الفطرة والكيونة البشرية بجملتها خطاباً مباشراً عجباً لطيف المدخل، ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن، فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل. ذلك أن به من الله سلطاناً. وليس في قول القائلين من سلطان! ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب. وما نحن ببالغين لو مضينا شيئاً أكثر من شهادة الله له بأنه ﴿مُبَارَكٌ﴾ ففيها فصل الخطاب!

وقال الشنقيطي في مقدمة العذب المنير: ﴿كَتَبَ أَنْزَلَهُ مُبَارَكٌ﴾ (الأنعام: ٩٢). هذا الكتاب مبارك أي كثير البركات والخيرات فمن تعلمه وعمل به غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة. وكان بعض علماء التفسير يقول: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا تصديقاً لهذه الآية.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (الأنعام: ٩٥).

قال ابن عاشور: وافتتاح الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾ مع أنه لا ينكر أحد أن الله هو فاعل الأفعال المذكورة هنا، ولكن النظر والاعتبار في دلالة الزرع على قدرة الخالق على الإحياء بعد الموت كما قدر على إماتة الحي، لما كان نظراً دقيقاً قد انصرف عنه المشركون فاجترأوا على إنكار البعث، كان حالهم كحال من أنكر أو شك في أن الله فالق الحب والنوى، فأكد الخبر بحرف ﴿إِنَّ﴾. وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات هذا الوصف ودوامه.

وقد جيء بجملة ﴿يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فعلية للدلالة على أن هذا الفعل يتجدد ويتكرر في كل آن، فهو مراد معلوم وليس على سبيل المصادفة والاتفاق.

وجيء في قوله: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ اسماً للدلالة على الدوام والثبات، فحصل بمجموع ذلك أن كلا الفعلين متجدد وثابت، أي كثير وذاتي، وذلك لأن أحد الإخراجين ليس أولى بالحكم من قرينه فكان في الأسلوب شبه الاحتباك. والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ لزيادة التمييز وللتعريض بغباوة المخاطبين المشركين لغفلتهم عن هذه

الدلالة على أنه المنفرد بالإلهية، أي ذلكم الفاعل الأفعال العظيمة من الفلق وإخراج الحي من الميت والميت من الحي هو الذي يعرفه الخلق باسمه العظيم على أنه الإله الواحد، المقصور عليه وصف الإلهية فلا تعدلوا به في الإلهية غيره، ولذلك عقب بالتفريع بالفاء قوله: ﴿فَأَنَّى تُؤَفَّكُونَ﴾ .

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ (الأنعام: ٩٦).﴾

قال ابن عاشور: قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾: بهادة الجعل لأن الظلمة عدم فتعلق القدرة فيها هو تعلقها بإزالة ما يمنع تلك الظلمة من الأنوار العارضة للأفق. والمعنى أن الله فلق الإصباح بقدرته نعمةً منه على الموجودات ولم يجعل النور مستمراً في الأفق فجعله عارضاً مجزئاً أوقاتاً لتعود الظلمة إلى الأفق رحمةً منه بالموجودات ليسكنوا بعد النصب والعمل فيستجموا راحتهم. وعطف ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ على ﴿اللَّيْلَ﴾ بالنصب رعيّاً لمحل الليل لأنه في محل المفعول لـ «جاعل» بناء على الإضافة اللفظية. والإخبار عنهما بالمصدر إسناد مجازي لأنه في معنى اسم الفاعل أي حاسبين. والحاسب هم الناس بسبب الشمس والقمر.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ (الأنعام: ٩٩)،

وقال: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ (فتح: ١٠)، فقال: ﴿النَّخْلُ﴾ بينما قال: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (الحج: ١١)، وقال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ (الحج: ٦٧)، فقال: ﴿النَّخِيلُ﴾؛ قال د. فاضل: قال السهيلي في (الروض الأنف): إذا قلت عبيد ونخيل فهو اسم يتناول الصغير والكبير من ذلك الجنس قال تعالى: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وحين ذكر المخاطبين منهم قال: «العباد» ولذلك قال حين ذكر المثمر من النخيل: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ و﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ فتأمل الفرق بين الجمعين في حكم البلاغة واختيار الكلام. اهـ . والذي أراه العكس فإن النخل أكثر

من النخيل وذلك أن النخل اسم جنس جمعي والنخيل جمع واسم الجنس أشمل وأعم من الجمع كما قرره علماء اللغة وكما هو في الاستعمال القرآني. ذلك أن اسم الجنس يشمل المفرد والمثنى والجمع ويقع على القليل والكثير فيصح أن يقول من أكل ثمرة واحدة: «لقد أكلت التمر» ولا يصح أن يقول: «أكلت تمرتين ولا تمرات ولا ثُمُور»، ويصح أن يقول من شاهد نخلة واحدة أو نخلتين: «لقد شاهدت النخل» ولا يقول: «شاهدت النخيل ولا النخلات».

وأما ما ذكره السهيلي في «الروض الأنف» ففيه نظر من حيث اللغة ومن حيث الاستعمال القرآني فإن الله كما قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فُصِّلَتْ: ٤٦) قال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (عَنْكَر: ٣١)، وكما قال: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَغْيَتْ نَبْهِيْدُ﴾ فذكر الثمر فإنه قال: ﴿وَنَخِيْلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ (الْبَقَرَةُ: ٤) وهو مثمر أيضاً قال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيْلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُوْنَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ (النَّحْل: ٦٧). فالنخيل يقال للمثمر وغيره وكذلك النخل أما الفرق بينهما فما ذكرناه وهو أن النخل أعم وأشمل من النخيل لأنه اسم جنس جمعي. وهذا ما قرره علماء اللغة ويؤيده الاستعمال القرآني فإن القرآن أورد «النخيل» في ثمانية مواضع وهي فيها لا تفيد الشمول فقد قال: ﴿أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَن تَكُوْنَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيْلِ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفَاءُ﴾ (البَقَرَةُ: ٢٦٦) وقال: ﴿أَوْ تَكُوْنَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيْلِ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الْاِنشَاء: ٩١) وقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّخِيْلِ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَاوْكُهُ كَثِيْرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُوْنَ﴾ (الْمُؤْمِنُونَ: ١٩) وقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّتٍ مِّنْ نَّخِيْلِ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعِيُونِ﴾ (يَس: ٣٤) فأنت ترى في هذه الآيات الأربع أنه جعل النخيل في جنات فلا يشمل ما في غير الجنات فلا تدخل فيها النخلة الواحدة أو النخلتان وقليل النخل. وقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيْلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي

الْأَكْلِ ﴿الرَّحْمَةُ: ٤﴾ فقال: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ فخرج ما لم يُسَق بماء واحد وقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ (النَّحْلُ: ٦٧) فخرج منه ما لم يُتَخَذْ مِنْهُ السَّكَرُ. أما النخل فهو عام يشمل الصغير والكبير المثمر وغيره سواء كان في جنات أم في غيرها وسواء كانت نخلة واحدة أم أكثر.

وقد قال تعالى في وصف الجنة: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (الرَّحْمَةُ: ٦٨) ونخل الجنة كثير كثير. وقال: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٦٢﴾ وَرُزُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿الشُّجُرَاءُ: ١٤٦-١٤٨﴾ والنخل ها هنا يشمل ما في الجنات وغيرها وقال: ﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ (الرَّحْمَةُ: ١٠، ١١) وهو يشمل جميع النخل سواء كان في جنات أم لم يكن.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٠٤). قال ابن عاشور في بيان وجه قوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾: للإيذان بأن ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ مقدم في التقدير على متعلقه المحذوف. والتقدير: فلنفسه أبصر، ولولا قصد الإيذان بهذا التقديم لقال: فمن أبصر أبصر لنفسه كما قال: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ﴾ والمقام يقتضي تقديم المعمول هنا ليفيد القصر، أي فلنفسه أبصر لا لفائدة غيره، لأنهم كانوا يحسبون أنهم يغيظون النبي ﷺ بإعراضهم عن دعوته إياهم إلى الهدى، وقرينة ذلك أن هذا الكلام مقول من النبي ﷺ. وقد أوماً إلى هذا صاحب الكشف بخلاف آية ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ﴾ فإنها حكيت كلاماً خوطب به بنو إسرائيل من جانب الله تعالى وهم لا يتوهمون إن إحسانهم ينفع الله أو إساءتهم تضر الله.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٢٢).

قال في (الظلال): إن هذه العقيدة تنشئ في القلب حياة بعد الموت؛ وتطلق فيه نوراً بعد الظلمات. حياة يعيد بها تذوق كل شيء، وتصور كل شيء، وتقدير كل شيء بحسب آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة. ونوراً يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديداً كما

لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذي نورّه الإيمان. هذه التجربة لا تنقلها الألفاظ. يعرفها فقط من ذاقها.. والعبارة القرآنية هي أقوى عبارة تحمل حقيقة هذه التجربة. لأنها تصورها بألوان من جنسها ومن طبيعتها.

إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأولى الأبدية، التي لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب. فهي موت.. وانعزال عن القوة المؤثرة في الوجود كله.. فهي موت.. وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية.. فهي موت.. والإيمان اتصال، واستمداد، واستجابة.. فهو حياة..

إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراف والاطلاع.. فهو ظلمة.. وختم على الجوارح والمشاعر.. فهو ظلمة.. وتيه في التيه وضلال.. فهو ظلمة.

وإن الإيمان تفتح ورؤية، وإدراك واستقامة.. فهو نور بكل مقومات النور.

إن الكفر انكماش وتحجر.. فهو ضيق... وشروء عن الطريق الفطري الميسر.. فهو عسر.. وحرمان من الاطمئنان إلى الكنف الآمن.. فهو قلق.. وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة وظل ممدود..

وما الكافر؟ إن هو إلا نبتة ضالة لا وشائج لها في تربة هذا الوجود ولا جذور.. إن هو إلا فرد منقطع الصلة بخالق الوجود، فهو منقطع الصلة بالوجود. لا تربطه به إلا روابط هزيلة من وجوده الفردي المحدود. في أضيق الحدود. في الحدود التي تعيش فيها البهيمة. حدود الحس وما يدركه الحس من ظاهر هذا الوجود!

إن الصلة بالله، والصلة في الله، لتصل الفرد الفاني بالخلق الأول والأبد الخالد. ثم تصله بالكون الحادث والحياة الظاهرة.. ثم تصله بموكب الإيمان والأمة الواحدة الضاربة في جذور الزمان. الموصولة على مدار الزمان.. فهو في ثراء من الوشائج، وفي ثراء من الروابط. وفي ثراء من «الوجود» الزاخر الممتد اللاحب، الذي لا يقف عند عمره الفردي المحدود. ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فتكشف له حقائق هذا

الدين، ومنهجه في العمل والحركة، تكشفاً عجيباً.. إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يجده الإنسان في قلبه حين يجد هذا النور.. مشهد التناسق الشامل العجيب في طبيعة هذا الدين وحقائقه. ومشهد التكامل الجميل الدقيق في منهجه للعمل وطريقته. إن هذا الدين لا يعود مجموعة معتقدات وعبادات وشرائع وتوجيهات.. إنما يبدو «تصميماً» واحداً متداخلاً مترابطاً متناسقاً.. متعاشقاً يبدو حياً يتجاوب مع الفطرة وتتجاوب معه في ألفة عميقة وفي صداقة وثيقة، وفي حب ودود!

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور؛ فتتكشف له حقائق الوجود، وحقائق الحياة، وحقائق الناس، وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وتجري في عالم الناس.. تتكشف له في مشهد كذلك رائع باهر.. مشهد السنّة الدقيقة التي تتوالى مقدماتها ونتائجها في نظام محكم ولكنه فطري ميسر.. ومشهد المشيئة النافذة من وراء السنة الجارية تدفع بالسنة لتعمل وهي من ورائها محيطة.. ومشهد الناس والأحداث وهم في نطاق النواميس وهي في هذا النطاق أيضاً.

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضوح في كل شأن وفي كل أمر وفي كل حدث.. يجد الوضوح في نفسه وفي نواياه وخواطره وخطته وحركته. ويجد الوضوح فيما يجري حوله سواء من سنة الله النافذة، أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة! ويجد تفسير الأحداث والتاريخ في نفسه وعقله وفي الواقع من حوله، كأنه يقرأ من كتاب! ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فيجد الوضوء في خواطره ومشاعره وملاحظه! ويجد الراحة في باله وحاله ومآله! ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها، وفي استقبال الأحداث واستدبارها! ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين! ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ ؟ كذلك كان المسلمون قبل هذا الدين. قبل أن يُنفخ الإيمان في أرواحهم فيحييها، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراق.. كانت قلوبهم مواتا. وكانت أرواحهم ظلاماً.. ثم إذا

قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء، ويفيض منها النور فتمشي به في الناس تهدي الضال، وتلتقط الشارد، وتطمئن الخائف، وتحرر المستعبد، وتكشف معالم الطريق للبشر وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد. الإنسان المتحرر المستنير؛ الذي خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد! أومن نفخ الله في روحه الحياة، وأفاض على قلبه النور.. كمن حاله أنه في الظلمات، لا مخرج له منها؟ إنها عالمان مختلفان شتان بينهما شتان! فما الذي يمسك بمن في الظلمات والنور حوله يفيض؟ ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. هذا هو السر.. إن هناك تزييناً للكفر والظلمة والموت! والذي ينشئ هذا التزيين ابتداءً هو الله الذي أودع فطرة هذا الكائن الإنساني الاستعداد المزدوج لحب النور وحب الظلمة، ثم إن هناك شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ويزينون للكافرين ما يعملون.. والقلب الذي ينقطع عن الحياة والإيمان والنور، يسمع في الظلمة للوسوسة؛ ولا يرى ولا يحس ولا يميز الهدى من الضلال في ذلك الظلام العميق!.. وكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون..

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ ﴾ (الأنعام: ١٣٣)..

قال ابن عاشور: وعدل عن أن يوصف بوصف الرحيم إلى وصفه بأنه ﴿ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ لأن الغنى وصف ذاتي لله لا ينتفع الخلائق إلا بلوازم ذلك الوصف وهي جوده عليهم لأنه لا ينقص شيئاً من غناه بخلاف صفة الرحمة فإن تعلقها بنفع الخلائق فأوثرت بكلمة ﴿ ذُو ﴾ لأن ﴿ ذُو ﴾ كلمة يتوصل بها إلى الوصف بالأجناس ومعناها صاحب. وهي تشعر بقوة أو وفرة ما تضاف إليه فلا يقال ذو إنصاف إلا لمن كان قوي الإنصاف ولا يقال ذو مال لمن عنده مال قليل.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّهْمَاتُ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ

وَأَنتُوا حَقُّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُشْرِكُوا ﴿(الأنعام: ١٤١)﴾، فقال: ﴿مُتَشَبِّهِ﴾ بينما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِّهِ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿(الأنعام: ٩٩)﴾، فقال: ﴿مُشْتَبِهًا﴾، قال د. فاضل: وقد اتسمت الآيتان كلاتهما بسمات السياق الذي وردت فيه كل آية منهما فالآية الأولى في بيان قدرة الله وآياته والأخرى في بيان ما يؤكل من الفواكه والزرع.

«اشْتَبَهَ» أكثر ما يفيد الالتباس والإشكال كقولهم: «اشْتَبَهْتُ عَلَيْهِ الْقِبْلَةَ وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ». وَأَنَّ «تَشَابَهَ» أكثر ما يفيد المشاركة في معنى من المعاني سواء أدى إلى الالتباس أم لم يؤد. ومعلوم أن الذي يستطيع أن يشبه الأمور حتى تلتبس على الناظر أو المتأمل فلا يميز بينها أقدر من الذي يقدر على أن يجعل مجرد تشابه بين شيئين. وأن الأمور المشبهة كلما دقت كانت أدل على القدرة والبراعة هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إن الأمور المشتبهة تحتاج إلى زيادة نظر وتأمل لإدراك حقيقة أمرها فوضع ﴿مُشْتَبِهًا﴾ في السياق الدال على قدرته وآياته وفي موضع الأمر بالنظر ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾ دون الموضع الآخر مما ليس في هذا السياق فكان كل تعبير أنسب في سياقه الذي ورد فيه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني وهو أنه لم قال في الموضعين ﴿وَعَيْرَ مُتَشَبِّهِ﴾ فنفي

التشابه دون الاشتباه؟

فذلك لأن نفي التشابه ينفي الاشتباه ونفي الاشتباه لا ينفي التشابه. وإيضاح ذلك أنك إذا قلت: «هذان الشيئان غير متشابهين» فقد نفيت التشابه بينهما ونفيت الاشتباه من باب أولى. وذلك لأن التشابه إنما يحصل من شدة التشابه بين الشيئين فإذا

نفيت التشابه زال الالتباس والاشتباه، أما إذا قلت: «هذان الشيئان غير مشتبهين» فقد نفيت الاشتباه وعدم التمييز بينهما ولكنك لم تنف التشابه فقد يكون بينهما تشابه لا يوقع في اللبس. فلو قال في الآية الأولى: «مشتبهاً وغير مشتبه» لكان نفى الاشتباه ولم ينف عنه التشابه فعلى هذا يمكن أن يكون النوعان متشابهين في وجه من الوجوه، فأراد أن ينفي ذلك فقال: ﴿وَعَيَّرَ مُتَشَبِهٍ﴾. وهذا أدل على القدرة، فإن جعل الأشياء بعضها متشابه وبعضها مختلف أدل على القدرة من جعلها كلها متشابهة أو جعلها كلها مختلفة والله أعلم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

(الأنعام: ١٤٢)

قال ابن عاشور: والفرش اختلف في تفسيره في هذه الآية ف قيل: الفرش ما لا يطيق الحمل من الإبل أي فهو يركب كما يفرش الفرش وهذا قول الراغب، وقيل: الفرش الصغار من الإبل أو من الأنعام كلها لأنها قريبة من الأرض فهي كالفرش، وقيل: الفرش ما يذبح لأنه يفرش على الأرض حين الذبح أو بعده أي فهو الضأن والمعز والبقر لأنها تذبح. وفي اللسان عن أبي إسحاق: أجمع أهل اللغة على أن الفرش هو صغار الإبل زاد في الكشف أو الفرش: ما يُنسَج من وبره وصفه وشعره الفرش يريد أنه كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ أَصَوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَثًا وَمَتْنَعًا إِلَى حِينٍ﴾ وقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الآية ولأنهم كانوا يفترشون جلود الغنم والمعز للجلوس عليها. ولفظ ﴿وَفَرَشًا﴾ صالح لهذه المعاني كلها ومحامله كلها مناسبة للمقام فينبغي أن تكون مقصودة من الآية وكان لفظ الفرش لا يوازنه غيره في جمع هذه المعاني. وهذا من إعجاز القرآن من جانب فصاحته، فالحمولة الإبل خاصة والفرش يكون من الإبل والبقر والغنم على اختلاف معاني اسم الفرش

الصالحة لكل نوع من ضميمته إلى كلمة ﴿ وَمِنْ ﴾ الصالحة للابتداء فالمعنى: وأنشأ من الأنعام ما تحملون عليه وتركبونه وهو الإبل الكبيرة والإبل الصغيرة وما تأكلونه وهو البقر والغنم وما هو فرش لكم وهو ما يجز منها وجلودها. وقد علم السامع أنّ الله لما أنشأ حمولة وفرشاً من الأنعام أن يتذكروا أنهم يأكلون منها فحصل إيجاز في الكلام ولذلك عقب بقوله: ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ .

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٨، ٩). وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَآيِنَتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٨، ٩). قال في (الدر المنثور): وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ قال: توزن الأعمال.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه قال: إنما يوزن من الأعمال خواتيمها، فمن أراد الله به خيراً ختم له بخير عمله، ومن أراد به شراً ختم له بشر عمله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحارث الأعور قال: إنَّ الحق ليثقل على أهل الحق كثقله في الميزان، وإنَّ الحق ليخف على أهل الباطل كخفته في الميزان.

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير واللالكائي عن حذيفة قال: صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام، يرد بعضهم على بعض فيؤخذ من حسنات الظالم فترد على المظلوم، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فردت على الظالم.

وأخرج أبو الشيخ عن الكلبي في قوله ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ قال: أخبرني أبو صالح عن ابن عباس أنه قال: له لسان وكفتان. يوزن عمله، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم ومنازلهم في الجنة بما كانوا بآياتنا يظلمون.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ قال: قال للنبي صلى الله عليه وسلم بعض أهله: يا رسول الله هل يذكر الناس أهلهم يوم القيامة؟ قال: «أما في ثلاث مواطن فلا: عند الميزان، وعند تطاير الصحف في الأيدي، وعند الصراط».

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل

النار، ثم قرأ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ الآيتين. ثم قال: إِنَّ الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الأعراف. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص عن علي بن أبي طالب قال: من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه يوم القيامة، ومن كان باطنه أرجح من ظاهره ثقل ميزانه يوم القيامة.

وأخرج أبو الشيخ عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوضع الميزان يوم القيامة فيوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته دخل النار».

وأخرج البزار وابن مردويه واللالكائي والبيهقي عن أنس رفعه قال: إِنَّ ملكاً موكل بالميزان، فيؤتى بالعبد يوم القيامة فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق: سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خفت ميزانه نادى الملك: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً.

وأخرج الحاكم وصححه عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لو سعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك...! ما عبدناك حق عبادتك، ويوضع الصراط مثل حد موسى، فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك...! ما عبدناك حق عبادتك».

وأخرج ابن المبارك في الزهد والآجري في الشريعة واللالكائي عن سلمان قال: يوضع الميزان وله كفتان لو وضع في إحدهما السموات والأرض ومن فيهن لو سعه، فتقول الملائكة: من يزن هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك...! ما عبدناك حق عبادتك.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال: الميزان له لسان وكفتان يوزن فيه الحسنات والسيئات، فيؤتى بالحسنات في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان، فتثقل على السيئات فتؤخذ فتوضع في الجنة عند منازله، ثم يقال للمؤمن: اِحْقُ بعملك. فينطلق إلى الجنة فيعرف منازله بعمله، ويؤتى بالسيئات في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان، فتخف - والباطل خفيف - فتطرح في جهنم إلى منازله فيها، ويقال له: اِحْقُ بعملك إلى النار. فيأتي النار فيعرف منازله بعمله وما أعد الله له فيها من ألوان العذاب. قال ابن عباس: فلهم أعرف بمنازلهم في الجنة والنار بعملهم من القوم ينصرفون يوم الجمعة راجعين إلى منازلهم.

وأخرج الترمذي وحسنه والبيهقي في البعث عن أنس قال: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة فقال: «أنا فاعل». قلت يا رسول الله: أين أطلبك؟ قال: «اطلبي أول ما تطلبني على الصراط». قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: «فاطلبني عند الميزان». قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاثة مواطن».

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه واللالكائي والبيهقي في البعث عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، فيقول: أتنكر من هذا شيئاً، أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: أفلك عذراً وحسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم. فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم. فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء».

وأخرج أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أُحصى عليه فتمايل به الميزان فيبعث به إلى النار فإذا أدبر به، إذا صائح يصيح من عند الرحمن: لا تعجلوا لا تعجلوا فإنه قد بقى له. فيؤتى ببطاقة فيها: لا إله إلا الله. فتوضع مع الرجل في كفة حتى تميل به الميزان».

وأخرج الطبراني في الأوسط عن جابر عن النبي ﷺ قال: «أول ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله».

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه واللالكائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرض ومن فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن».

وأخرج ابن أبي الدنيا والبزار وأبو يعلى والطبراني والبيهقي بسند جيد عن أنس قال: لقي رسول الله ﷺ أبا ذر فقال: «ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما؟». قال: بلى يا رسول الله. قال: «عليك بحسن الخلق وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلها».

وأخرج ابن أبي شيبة عن ميمون بن مهران قال: قلت لأُم الدرداء: أما سمعت من النبي ﷺ شيئاً؟ قالت: نعم، دخلت عليه فسمعتة يقول: «أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن».

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان واللالكائي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من شيء يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خلق حسن».

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عمر بن الخطاب قال: أعطيت ناقة في سبيل الله، فأردت أن أشتري من نسلها، فسألت النبي ﷺ فقال: «دعها تأتي يوم القيامة هي وأولادها جميعاً في ميزانك».

وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قضى لأخيه حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فإن رجع وإلا شفعت».

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن مغيث بن سمى وعن مسروق قالاً: تعبد راهب في صومعة ستين سنة، فنظر يوماً في غب سماء فقال: لو نزلت فإني لا أرى أحداً فشربت من الماء وتوضأت ثم رجعت إلى مكاني، فتعرضت له امرأة فتكشفت له، فلم يملك نفسه أن وقع عليها، فدخل بعض تلك الغدران يغتسل فيه، وأدركه الموت وهو على تلك الحال، ومر به سائل فأومأ إليه أن خذ الرغيف رغيفاً كان في كسائه، فأخذ المسكين الرغيف ومات، فجيء بعمل ستين سنة فوضع في كفة، وجيء بخطيئته فوضعت في كفة، فرجحت بعمله حتى جيء بالرغيف، فوضع مع عمله فرجح بخطيئته. وأخرج الطبراني في الأوسط عن سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: «بخ بخ خمس ما أنقلهن في الميزان. سبحان الله، ولا إله إلا الله، والحمد لله، والله أكبر، وفرط صالح يفرطه المسلم».

وأخرج أبو يعلى وابن حبان عن عمرو بن حريث أن رسول الله ﷺ قال: «ما أنفقت عن خادمك من عمله كان لك أجره في موازينك».

وأخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ فمسح بثوب نظيف فلا بأس به ومن لم يفعل فهو أفضل، لأنّ الوضوء يوزن يوم القيامة مع سائر الأعمال».

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن سعيد بن المسيب أنه كره المتدليل بعد الوضوء، وقال: هو يوزن.

وأخرج الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن الزهري قال: إنما كره المنديل بعد الوضوء لأن كل قطرة توزن.

وأخرج المرهبي في فضل العلم عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء».

وأخرج ابن عبد البر في فضل العلم عن إبراهيم النخعي قال: يجاء بعمل الرجل فيوضع في كفة ميزانه يوم القيامة فيخف، فيجاء بشيء أمثال الغمام فيوضع في كفة ميزانه فترجح، فيقال له: أتدري ما هذا؟ فيقول: لا. فيقال له: هذا من فضل العلم الذي كنت تعلمه الناس.

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن حماد بن أبي سليمان قال: يجيء رجل يوم القيامة فيرى عمله محتقراً، فبينما هو كذلك إذ جاءه مثل السحاب حتى يقع في ميزانه، فيقال: هذا ما كنت تُعلم الناس من الخير فورث بعدك فأجرت به.

وأخرج ابن المبارك عن أبي الدرداء قال: من كان الأجوفان همّه خسر ميزانه يوم القيامة.

وأخرج الأصبهاني في الترغيب عن ليث قال: قال عيسى بن مريم عليه السلام: أمة محمد أثقل الناس في الميزان، ذلت ألسنتهم بكلمة ثقلت على من كان قبلهم: لا إله إلا الله.

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أيوب قال: سمعت من غير واحد من أصحابنا: أن العبد يوقف على الميزان يوم القيامة فينظر في الميزان، وينظر إلى صاحب الميزان فيقول صاحب الميزان: يا عبد الله أتفقد من عملك ذلك شيئاً؟ فيقول: نعم. فيقول: ماذا؟ فيقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. فيقول صاحب الميزان: هي أعظم من أن توضع في الميزان. قال موسى بن عبيدة: سمعت أنها تأتي يوم القيامة تجادل عمن كان يقولها في الدنيا جدال الخصم.

وأخرج أبو داود والحاكم عن أبي الأزهر زهير الأنباري قال: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه قال: «اللهم اغفر لي، وأخسء شيطاني، وفكّ رهاني، وثقل ميزاني، واجعلني في الندي الأعلى».

❖ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأنعام: ١٦).

قال في الدر المنثور: وأخرج ابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: الحق. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: طريق مكة. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن عون بن عبد الله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: طريق مكة.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز إبليس معهم بمثل عدتهم.

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في الآية يقول: أقعد لهم فأصدهم عن سبيلك. وأخرج أحمد والنسائي وابن حبان والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن سبرة ابن الفاكه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم في طريقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له: أتهاجر وتذر أرضك وسماؤك وإنما مثل المهاجر كالفرس في طوله؟ فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: هو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتتكح المرأة ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد». قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات أو وقصته دابته فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».

❖ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(الأنعام: ٢٨)

قال ابن عاشور: ضَمَّنَ القول معنى تكذبون أو معنى تتقولون، فلذلك عدي بعلى، وكان حقه أن يعدى بعن، لو كان قولاً صحيح النسبة أ.هـ. يعني: كان يقول: «أتقولون عن الله».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَبَ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَانِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ٤٨ أَهْتَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الْأَنْعَامُ: ٤٨، ٤٩).

قال ابن عاشور: وقوله ﴿ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ هو المقسم عليه وقد سلطوا النفي في كلامهم على مراعاة نفي كلامه يقول الرسول ﷺ أو المؤمنون. وذلك أن بشارات القرآن لأولئك الضعفاء ووعدته إياهم بالجنة وثنائه عليهم نزل منزلة كلامه يقول: إن الله ينالهم برحمة أي بأن جعل إيواء الله إياهم بدار رحمته أي الجنة بمنزلة النيل وهو حصول الأمر المحبوب المبحوث عنه. فأطلق على ذلك الإيواء فعل «ينال» على سبيل الاستعارة وجعلت الرحمة بمنزلة الآلة للنيل كما يقال: نال الثمرة بمحجن فالباء للآلة. أو جعلت الرحمة ملابسة للنيل فالباء للملابسة والنيل هنا استعارة. وقد عمدوا إلى هذا الكلام المقدر فنفوه فقالوا: ﴿ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ وهذا النظم الذي حكي به قسمهم يؤذن بتهكمهم بضعفاء المؤمنين في الدنيا. وقد أغفل المفسرون تفسير هذه الآية بحسب نظمها.

- قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (الْأَنْعَامُ: ٥٠).

قال ابن عاشور: فعل الفيض حقيقة سيلان الماء وانصبابه بقوة ويستعمل مجازاً في الكثرة، ومنه ما في الحديث «ويفيض المال فلا يقبله أحد». ويجوز عندي في الآية أن يُحمل الفيض على المعنى المجازي وهو سعة العطاء والسخاء من الماء والرزق، إذ ليس معنى الصب بمناسب بل المقصود الإرسال والتفضل. اهـ.

قلت: فإن قيل فلم قالوا: ﴿أَفِضُوا﴾ ولم يقولوا: «أرسلوا» مع أنهم في النار، والمناسب لهم اليأس من الخير فضلاً عن الطمع في كثرته؟

قلت: كأنهم سألوا أهل الجنة وأخبروهم أنهم كرماء وأهل سخاء فأتى القرآن بلفظة ﴿أَفِضُوا﴾ التي تدل على ذلك باختصار وإيجاز، فله حلاوته وروعته!!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام: ٥٦).﴾

قال ابن عاشور: وعدم لحاق علامة التأنيث لوصف ﴿قَرِيبٌ﴾ مع أن موصوفه مؤنث اللفظ وجهه علماء العربية بوجوه كثيرة وأشار إليها في الكشف وجُلُّها يحوم حول تأويل الاسم المؤنث بما يرادفه من اسم مذكر. أو الاعتذار بأن بعض الموصوف به غير حقيقي التأنيث كما هنا. وأحسنها عندي قول الفراء وأبي عبيدة: أن قريباً أو بعيداً إذا أطلق على قرابة النسب أو بُعد النسب فهو مع المؤنث بقاء ولا بد؛ وإذا أطلق على قرب المسافة أو بعدها جاز فيه مطابقة موصوفه وجاز فيه التذكير على التأويل بالمكان وهو الأكثر؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ولما كان إطلاقه في هذه الآي لقرب المسافة جرى على الشائع في استعماله في المعنى الحقيقي. وهذا من لطيف الفروق العربية في استعمال المشترك إزالةً للإبهام بقدر الإمكان.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٥٧).﴾

قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ هنا، وفي الروم: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَعًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ (البقرة: ٨) بلفظ المستقبل، وفي الفرقان: ﴿أَوْ يُقْلَعْنَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ،

جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿ (الْفُرْقَانُ : ٨) ،
 وفاطر: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَتُهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
 كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ (قَطْلُ : ٩) بلفظ الماضي، لأن ما قبلها في هذه السورة ذكر الخوف والطمع
 وهو قوله: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ وهما يكونان في المستقبل لا غير فكان ﴿ يُرْسِلُ ﴾
 بلفظ المستقبل أشبه بما قبله، وفي الروم قبله: ﴿ وَمَنْ أَيْنُهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبْشِرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ
 مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ﴾ (الرُّومُ : ٤٦) فجاء بلفظ المستقبل أشبه بما قبله. وأما في
 الفرقان فإن قبله: ﴿ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ (الْفُرْقَانُ : ٤٥) الآية وبعده ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ
 هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿ (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ
 بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (الْفُرْقَانُ : ٥٤)، أفاده الفيروز آبادي.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ
 بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الْاِنْعَامُ : ٦٩).

فقال: ﴿ بَضْطَةً ﴾ بالصاد، كذا قال: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾
 (البَقَّة : ٢٤٥)، فقال: ﴿ وَيَبْصُطُ ﴾ بالصاد، بينما قال في بقية المواضع في القرآن بالسين كقوله:
 ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ (الْبَقَّة : ٢٦)، وقوله: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ (الْحُكَّة : ٦٢)، وقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي
 السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (الرُّومُ : ٤٨)، ووجه ذلك كما قال د. فاضل: أن الصاد أقوى من السين
 وأظهر، فكان الأنسب أن يقول: ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ﴾ في حق عاد لقوة أجسامهم
 والبسط أكثر من غيرهم، وكذا في قوله: ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾ لعدم التقييد فيها بل أطلق
 البسط بخلاف الآيات الأخرى فإنه قيد فيها البسط بالرزق أو بسط الريح كما في آية
 الروم ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴾ (مَرْيَمَ : ٦٩)،
 فقال: ﴿ عَيْنًا ﴾ بالياء، بينما قال: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ

نَزَى رَبُّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴿الْفُرْقَانُ: ٢١﴾، فقال: ﴿عُتْوًا كَبِيرًا﴾ بالواو، ووجه ذلك كما قال د. فاضل: أنَّ الواو أثقل وأقوى من الياء، فلما أكد الفعل بالمصدر ووصفه بالكبر ناسب أن يأتي بالواو فقال: ﴿وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ بخلاف آية مريم، كما أنه ذكر في آية الفرقان من عتو القوم وكفرهم أنهم كفروا بالله ولا يرجون اليوم الآخر واستكبروا في أنفسهم وطلبوا رؤية الله أو إنزال الملائكة، ولم يذكر ذلك في سورة مريم. اهـ.

قلت: ومن الفوائد أيضاً أنه لما قال في سورة مريم: ﴿عَيْنًا﴾ دلَّ على أنه سينزع من كل أمة أشدها في هذا العتو على الله وعلى شرعه وإن كان قليلاً بالنسبة لعتو غيرهم، فلن يختص هذا إذاً بفرعون وأبي جهل وغيرهم من كبار العتاة، بل هو لكل شديد قومه في العتو، وإن كان أقل من عتو غيره من الأمم الكافرة، ولو قال ﴿عُتْوًا﴾ لربما ظنَّ ظان أنَّ ذلك خاص بكبار عتاة الأمم كفرعون وأبي جهل وأضرابهما، فأكرم بحلاوة القرآن.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾﴾ (الصافات: ٧٥، ٧٦).

قال ابن عاشور: ووصفهم بالذين استكبروا هنا لتفضيع كبرهم وتعاضمهم على عامة قومهم واستدلالهم إياهم، وللتنبية على أن الذين آمنوا بما جاءهم به صالح عليه السلام هم ضعفاء قومه. واختيار طريق الموصولية في وصفهم ووصف الآخرين بالذين استضعفوا لما تومئ إليه الصلة من وجه صدور هذا الكلام منهم أي أن استكبارهم هو صارفهم عن طاعة نبيهم وأن احتقارهم المؤمنين هو الذي لم يسغ عندهم سبقهم إياهم إلى الخير والهدى كما حكى عن قوم نوح قولهم: ﴿وَمَا زَنَّاكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَزَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ وكما حكى عن كفار قريش بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ

فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١٣١﴾ ولهذا لم يوصف قوم صالح بالكفر كما وصف به قوم هود. والذين استضعفوا هم عامة الناس الذين أذلهم عظماءهم واستعبدوهم لأن زعامة الذين استكبروا كانت قائمة على السيادة الدنيوية الخلية عن خلال الفضيلة من العدل والرفقة وحب الإصلاح فلذلك وصف الملائ بالذين استكبروا وأطلق على العامة وصف الذين استضعفوا. والاستفهام في ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ للتشكيك والإنكار أي ما نظنكم آمنتكم بصالح ﷺ عن علم بصدقه ولكنكم اتبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين كما قال قوم نوح ﷺ: ﴿وَمَا نَزَّلَكَ أُتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾ وفي ذلك شوب من الاستهزاء. وقد جيء في جواب ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ بالجملة الاسمية للدلالة على أن الإيمان متمكن منهم بمزيد الثبات فلم يتركوا للذين استكبروا مطمئناً في تشكيكهم بله صرفهم عن الإيمان برسولهم.

وأكد الخبر بحرف «إن» لإزالة ما توهموه من شك الذين استكبروا في صحة إيمانهم. والعدول في حكاية جواب الذين استضعفوا عن أن يكون بنعم إلى أن يكون بالموصول وصلته لأن الصلة تتضمن إدماجاً بتصديقهم بما جاء به صالح من نحو التوحيد وإثبات البعث والدلالة على تمكنهم من الإيمان بذلك كله بما تفيده الجملة الاسمية من الثبات والدوام. وهذا من بليغ الإيجاز المناسب لكون نسيج هذه الجملة من حكاية القرآن لا من المحكي من كلامهم؛ إذ لا يظن أن كلامهم بلغ من البلاغة هذا المبلغ، وليس هو من الأسلوب الحكيم كما فهمه بعض المتأخرين. ومراجعة الذين استكبروا بقولهم: ﴿إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ كُفِرُوا﴾ تدل على تصلبهم في كفرهم وثباتهم فيه؛ إذ صيغ كلامهم بالجملة الاسمية المؤكدة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ (الأنعام: ٨٨).﴾

قال ابن عاشور: وإيثار وصفهم بالاستكبار هنا دون الكفر مع أنه لم يحك عنهم هنا خطاب المستضعفين حتى يكون ذكر الاستكبار إشارة إلى أنهم استضعفوا المؤمنين

كما اقتضته قصة ثمود، فاختر وصف الاستكبار هنا لمناسبة مخاطبتهم شعبياً بالإخراج أو الإكراه على اتباع دينهم وذلك من فعل الجبارين أصحاب القوة. وكان إخراج المغضوب عليه من ديار قبيلته عقوبة متبعة في العرب إذا أجمعت القبيلة على ذلك ويسمى هذا الإخراج عند العرب بالخلع، والمخرج يسمى خليعاً. وأكدوا التواعد بلام القسم ونون التوكيد ليقن شعيب بأنهم منجزو ذلك الوعيد.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ (١٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٤، ٩٥).

فقال: ﴿ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ﴾ ولم يقل: «الحسنات» بل أتى بال «الجنس»، للإشعار بأنهم أعطوا حالة حسنة بطيئة النفع لا تبلغ مبلغ البركة، أفاده ابن عاشور.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٦).

قال ابن عاشور: والفتح إزالة حجز شيء حاجز عن الدخول إلى مكان. يقال فتح الباب وفتح البيت وتعديته إلى البيت على طريقة التوسع وأصله فتح للبيت، وكذلك قوله هنا: ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ ﴾. وقوله: ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ كقول القائل: فتح كوة أي جعلها فتحة. والفتح هنا استعارة للتمكين كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ في سورة الأنعام. وتعديته فعل الفتح إلى البركات هنا استعارة مكنية بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بها تحتويه فهنا استعارتان: مكنية وتبعية. وقرأ ابن عامر ﴿ لَفَتَحْنَا ﴾ بتشديد التاء وهو يفيد المبالغة. والبركات جمع بركة والمقصود من الجمع تعددها باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾.

(الأنعام: ١١٧)

قال ابن عاشور: التعبير بصيغة المضارع ﴿ تَلَقَّفُ ﴾، ﴿ يَأْفِكُونَ ﴾ للدلالة على التجديد والتكرير، مع استحضار الصورة العجيبة، أي: فإذا هي يتجدد تلففها لما يتجدد ويتكرر من إفكهم. اهـ.

قلت: هذان الغرضان - أعني التجدد واستحضار الصورة العجيبة - يكثر ابن عاشور وغيره من علماء اللغة من ذكرهما بياناً لفائدة اختيار الفعل المضارع، فاحفظهما ونزلهما على غير هذه الآيات، لكن ينتبه إلى أنه ربما لم يصح حمل بعض الآيات إلا على أحد الغرضين فقط.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَاصِرُفٌ عَنْ عَائِنِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِعَايَتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٦).

قال ابن عاشور: اختيار الأفعال الأربع المضارعة لإفادة تجدد تلك الأفعال منهم واستمرارهم عليها، وأمّا اختيار الفعل الماضي ﴿ كَذَّبُوا بِعَايَتِنَا ﴾، ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾، فهو لإفادة أن وصف التكذيب قديم راسخ فيهم. فكان رسوخ ذلك فيهم سبباً من أسباب الطبع والختم على قلوبهم فلا يشعرون بنقائصهم ولا يصلحون أنفسهم، فلا يزالون متكبرين معرضين غاوين. وللتنبية على أن غفلتهم عن قصد صيغ الإخبار عنهم بصيغة ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ للدلالة على استمرار غفلتهم وكونها دأباً لهم. وإنما تكون كذلك إذا كانوا قد التزموها فأما لو كانت عن غير قصد فإنها قد تعزيرهم وقد تفارقهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذْهَا هِيَ تَلَقَّفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ (فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴿ ١١٨ ﴾ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴾ (الأنعام: ١١٧ - ١١٩).

إنه الباطل ينتفش، ويسحر العيون، ويسترهب القلوب، ويخيل إلى كثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه مُحِق! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفض

كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفئ كشعلة الهشيم! وإذا الحق راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور... والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال، وهو يصور الحق واقعاً ذا ثقل: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ .. وثبت، واستقر.. وذهب ما عداه فلم يعد له وجود: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .. وغلب الباطل والمبتلون وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون. أفاده في الظلال.

﴿قَالَ تَعَالَى﴾: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ (١٣٠) ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَنُخْرِجُوهُ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْمُونَ﴾ (١٣٢) ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَبِّحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣٤) ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٣٥) ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَزُّرُتًا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٢٠ - ١٢٦).

قال في (الظلال): ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ (١٣٠) ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿إنها صولة الحق في الضمائر. ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين.. إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه. وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى إن كان من السحر والبشر، أم من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر. والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تتكشف له، لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة، ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور.. ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين.. ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر؛ ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان؛ ولا كيف تلمسها حرارة اليقين. فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب - وهي بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء - .. ومن ثم فوجئ فرعون بهذا الإيمان المفاجئ الذي لم يدرك ديبه في القلوب ولم يتابع خطاه في

النفوس؛ ولم يفتن إلى مداخله في شعاب الضمائر.. ثم هزته المفاجأة الخطيرة التي تزلزل العرش من تحته: مفاجأة استسلام السحرة - وهم من كهنة المعابد - لرب العالمين.. رب موسى وهارون. بعد أن كانوا مجموعين لإبطال دعوة موسى وهارون إلى رب العالمين!.. والعرش والسلطان هما كل شيء في حياة الطواغيت.. وكل جريمة يمكن أن يرتكبوها بلا تخرج في سبيل المحافظة على الطاغوت.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴾ لَأَقْطَعَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَبِّلَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴾ (الأنعام: ١٢٣، ١٢٤).

قال في (الظلال): هكذا.. ﴿ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ .. كأننا كان عليهم أن يستأذونه في أن تنتفض قلوبهم للحق - وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها - أو يستأذونه في أن ترتعش وجداناتهم - وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً - أو يستأذونه في أن تشرق أرواحهم - وهم أنفسهم لا يملكون مداخلها. أو كأننا كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت من الأعماق. أو أن يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار. أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شعاب اليقين! ولكنه الطاغوت ... جاهل غبي مطموس؛ وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور! ثم إنه الفزع على العرش المههد والسلطان المهزوز. ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾. وفي نص آخر: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾! والمسألة واضحة المعالم.. إنها دعوة موسى إلى ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .. هي التي تزعج وتحيف.. إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين. وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتنحية شريعته. وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يشرعون للناس ما يشاءون، ويعبدون الناس لما يشرعون!.. إنها منهجان لا يجتمعان.. أو هما دينان لا يجتمعان.. أو هما ربان لا يجتمعان.. وفرعون كان يعرف وملؤه كانوا يعرفون.. ولقد فزعوا للدعوة من موسى وهارون إلى رب العالمين. فأولى أن يفزعوا الآن وقد ألقى السحرة ساجدين. قالوا:

﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٣١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿ ! والسحرة من كهنة الديانة الوثنية التي تؤله فرعون، وتمكنه من رقاب الناس باسم الدين! وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشي الفظيع.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٣٢) لَأَقْطَعَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلَّ بَنَاتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنعام: ١٢٣، ١٢٤).

قال في (الظلال): إنه التعذيب والتشويه والتنكيل.. وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان.. وعدة الباطل في وجه الحق الصريح.. ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان؛ تستعلي على قوة الأرض، وتستهيئ بآس الطغاة؛ وتتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم. إنها لا تقف لتسأل: ماذا ستأخذ وماذا ستدفع؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواق وتضحيات؟.. لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق..

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ (١٣٥) وَمَا نُنْقِمُ مِّنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَفَرِّغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٢٥، ١٢٦).

قال في (الظلال): إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يترزع. كما أنه لا يخضع أو يخنع. الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية في رضاها، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره. ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾، والذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت.. وأنها معركة العقيدة في الصميم.. لا يدهن ولا يناور.. ولا يرجو الصفح والعفو من عدو لن يقبل منه إلا ترك العقيدة، لأنه إنما يحاربه ويطارده على العقيدة. ﴿ وَمَا نُنْقِمُ مِّنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا ﴾، والذي يعرف أين يتجه في المعركة، وإلى من يتجه؛ لا يطلب من خصمه السلامة والعافية، إنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام. ﴿ رَبَّنَا أَفَرِّغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾، ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان، وأمام

الوعي، وأمام الاطمئنان.. يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب! ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام. فإذا هي مستعصية عليه، لأنها من أمر الله، لا يملك أمرها إلا الله.. وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب في جوار الله؟ وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمت القلوب بالله؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان! إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية. هذا الذي كان بين فرعون وملئه، والمؤمنين والسحرة.. السابقين.. إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بانتصار العقيدة على الحياة. وانتصار العزيمة على الألم. وانتصار «الإنسان» على «الشیطان»! إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية. بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية. فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة. والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استدلال القلوب والأرواح. ومتى عجزت القوة المادية عن استدلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب. إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية! فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتُمنى بالقرب من السلطان.. هي ذاتها التي تستعلي على فرعون؛ وتستتهن بالتهديد والوعيد، وتُقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب. ويذهب التهديد.. ويتلاشى الوعيد.. ويمضي الإيمان في طريقه. لا يتلفت، ولا يتردد، ولا يحيد!

فائدة: ذكر صاحب الظلال سر كثرة الكلام على أمة بني إسرائيل في القرآن:

من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها. فقد كانوا حرباً على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول. هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة؛ وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معاً. وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم

وتأمروا معهم على الجماعة المسلمة. وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم؛ كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة. وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة.. فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة، لتعرف من هم أعداؤها: ما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم؟

ولقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله؛ كما كانوا أعداء هدى الله في ماضيهم كله. فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفاً؛ ووسائلهم كلها مكشوفة. ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير. وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة طويلة؛ ووقعت الانحرافات في عقيدتهم، ووقع منهم النقص المتكرر لميثاق الله معهم؛ ووقع في حياتهم آثار هذا النقص وهذا الانحراف، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم.. فاقضى هذا أن تُلَمَّ الأمة المسلمة - وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها - بتاريخ القوم، وتقلبات هذا التاريخ؛ وتعرف مزلق الطريق وعواقبها، ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة - في حقل العقيدة والحياة - إلى حصيلة تجاربها؛ وتتفنع بهذا الرصيد وتتفنع على مدار القرون. ولتتقي - بصفة خاصة - مزلق الطريق، ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدي التجارب الأولى.

ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل. وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها، وتنحرف أجيال منها؛ وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها فترات تمثل فترات من حياة بني إسرائيل؛ فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجدي الدعوة في أجيالها الكثيرة، نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم؛ يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته. ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب

التي عرفت ثم انحرفت! فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة، لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها، وينفض عنها الركام، لجذته عليها، وانبهارها بهذا الحديد الذي يطرق فطرتها لأول مرة. فأما القلوب التي نوديت من قبل، فالنداء الثاني لا تكون له جذته. ولا تكون له هزته؛ ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته؛ ومن ثمّ تحتاج إلى الجهد المضاعف، وإلى الصبر الطويل!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا أَلَيْسَ بِرِكَناً فِيهَا﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الأنعام: ١٣٧). فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى﴾، ليضمنها «حقّت على» أو ليضمنها معنى الإنعام، أفاده ابن عاشور.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾ (الأنعام: ١٤٨). ولم يبين المفعول الثاني وكذا في كل الآيات التي ذكرت اتخاذهم العجل لم يذكر المفعول الثاني، ومقتضى الكلام «اتخاذهم العجل إلهاً» أو «اتخذوا من حليهم عجلاً إلهاً»، ونكتة حذفه دائماً هي التنبيه على أنه لا ينبغي التلفظ بأنّ عجلاً مصطنعاً من جماد إله، وقد أشار تعالى إلى هذا المفعول المحذوف دائماً في طه بقوله: ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (طه: ٨٨)، أفاده الشنقيطي.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ (الحج: ٥)، فحذف المفعول ولم يقل: «لنبين لكم قدرتنا» مثلاً ليدل على أنّ أفعاله سبحانه هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنه بالذكر ولا يحيط به الوصف، أفاده الزمخشري.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥)، فقال: ﴿وَرَبَتْ﴾ مع أنّ الذي يزيد ويربو هو النبات لا الأرض، ووجهه أنّ

الزيادة الحاصلة في النبات لما كان نابتاً فيها متصلاً بها صار كأنه زيادة حصلت في الأرض نفسها، أفاده الشنقيطي.

وقال الطبري: ربت أي أضعفت النبات بمجيء الغيث، وقيل انتفخت الأرض لأجل خروج النبات، نقله الشنقيطي.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (الزمر: ٦٣)، فقال: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بالمضارع دون الماضي، قال الزمخشري لإفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان كما تقول: أنعم عليّ فلان كذا وكذا فأروح وأعدو شاكرًا له، ولو قلت: فغدوت ورحت، لم يقع الموقع.

وقال الشنقيطي: ويظهر لي أنّ التعبير بالمضارع يفيد استحضر الهيئة التي اتصفت بها الأرض بعد نزول المطر، والماضي لا يفيد دوام استحضرها لأنه يفيد انقطاع الشيء. وأما الرفع في قوله: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ فلأنه ليس مسبباً عن الرؤية التي هي موضع الاستفهام وإنما هو سبب الإنزال في قوله: ﴿أَنْزَلَ﴾، والإنزال الذي هو سبب إصباح الأرض مخضرة ليس فيه استفهام. ومعلوم أنّ الفاء التي يُنصب بعدها المضارع إن حذفت جاز جعل مدخولها جزاء الشرط، ولا يمكن أن تقول هنا: إن تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً، تصبح الأرض مخضرة، لأنّ الرؤية لا أثر لها ألبتة في اخضرار الأرض، بل سببه إنزال الماء لا رؤية إنزاله، وما ذكر الزمخشري من سبب للرفع ها هنا لا يظهر لي كل الظهور.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ (الأنعام: ١٦٩).

قال ابن عاشور: وبناء فعل ﴿سَيُغْفَرُ﴾ على صيغة المجهول لأنّ الفاعل معروف وهو الله إذ لا يصدر هذا الفعل إلا عنه. وللدلالة على أنهم يقولون ذلك على وجه العموم لا في خصوص الذنب الذي أنكر عليهم أو الذي تلبسوا به حين القول. ونائب الفاعل محذوف لعلمه من السياق والتقدير: سيغفر لنا ذلك أو ذنوبنا لأنهم يحسبون أن

ذنوبهم كلها مغفورة ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا السَّارُّ إِلَّا أَسَافًا مَعْدُودَةً ﴾ كما تقدم في سورة البقرة أي يغفر لنا بدون سبب المغفرة وهو التوبة كما يعلم من السياق وهو جزمهم بذلك عقب ذكر الذنب دون ذكر كفارة أو نحوها.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿ (الأنعام: ١٧٥ - ١٧٧) .

قال في (الظلال): إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات.. إنسان يؤتاه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه على علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع.. ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً. ينسلخ كأنها الآيات أديم له متلبس بلحمه؛ فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحي من أديمه اللاصق بكيانه.. أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟.. ها هو ينسلخ من آيات الله؛ ويتجرد من الغطاء الواقى، والدرع الحامى؛ وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم؛ فيصبح غرضاً للشيطان لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام؛ فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه.. ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بئس نكد.. إذا نحن بهذا المخلوق، لاصقاً بالأرض، ملوثاً بالطين. ثم إذا هو مسخ في هيئة الكلب، يلهث إن طورد ويلهث إن لم يطارد.. كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى؛ والخيال شاخص يتبعها في انفعال وانبهار وتأثر.. فإذا انتهى إلى المشهد الأخير منها... مشهد اللهاث الذي ينقطع.. سمع التعليق المرهوب الموحى، على المشهد كله. ﴿ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا

أَلْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١﴾. ذلك مثلهم! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم. ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخاً. ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان، هابطون عن مكان «الإنسان» إلى مكان الحيوان.. مكان الكلب الذي يتمرغ في الطين.. وكان لهم من الإيمان جناح يرفون به إلى عليين؛ وكانوا من فطرتهم الأولى في أحسن تقويم، فإذا هم ينحطون منها إلى أسفل سافلين! ﴿٢﴾ سَاءَ مَثَلًا أَلْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿٣﴾! وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟ وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟ من يعريها من الغطاء الواقى والدرع الحامي، ويدعها غرضاً للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق، اللاهث لهاث الكلب أبداً!!! وهل يبلغ قول قائل في وصف هذه الحالة وتصويرها على هذا النحو العجيب الفريد؛ إلا هذا القرآن العجيب الفريد!!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾﴾ (الأنعام: ١٨٩).

قال ابن عاشور: والسكون مجاز في الاطمئنان والتأنس؛ أي جعل من نوع الرجل زوجه ليألفها ولا يخفو قربها. ففي ذلك منه الإيناس بها وكثرة ممارستها لينساق إلى غشيانها فلو جعل الله التناسل حاصلاً بغير داعي الشهوة لكانت نفس الرجل غير حريصة على الاستكثار من نسله. ولو جعله حاصلاً بحالة ألم لكانت نفس الرجل مقلة منه بحيث لا تنصرف إليه إلا للاضطرار بعد التأمل والتردد كما ينصرف إلى شرب الدواء ونحوه لمعقبة المنافع. وفرع عنه بقاء التعقيب ما يحدث عن بعض سكون الزوج إلى زوجه وهو الغشيان وصيغة هذه الكناية بالفعل الدال على التكلف لإفادة قوة التمكن من ذلك لأن التكلف يقتضي الرغبة. أ. هـ. قلت: يقصد فعل ﴿تَغَشَّاهَا﴾.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ ﴾ (الأنعام: ١٩٣).

قال د. فاضل: ففرّق بين طرفي التسوية فقال: ﴿ أَدْعَوْتُمُوهُمْ ﴾، بالفعل ثم قال: ﴿ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ بالاسم ولم يسو بينهما، فلم يقل: «أدعوتموهم أم صمتم» بالفعلية، أو: «أنتم داعوهم أم أنتم صامتون»، وذلك أنّ الحال الثابتة للإنسان هي الصمت وإنما يتكلم لسبب يعرض له، فجاء للدلالة على الحال الثابتة بالاسم ﴿ صَامِتُونَ ﴾ وجاء للدلالة على الحالة الطارئة بالفعل ﴿ أَدْعَوْتُمُوهُمْ ﴾ أي: أحدثتم لهم دعاءً أم بقيتم على حالكم من الصمت. وقال في الكشف: فإذا قلت: هلاً قيل: أم صمتم؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية؟ قلت: لأنهم كانوا إذا حَزَبهم أمرٌ دعوا الله دون أصنامهم.. فكانت حالتهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم. فقيل: إن دعوتهم لم تفرق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم.

قال د. فاضل: ومثلها قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ ﴾ (المائدة: ١٩)، فقال: ﴿ صَفًى وَيَقْبِضْنَ ﴾ ولم يقل: «صافات وقابضات» أو «يصففن ويقبضن»؛ ذلك أنّ الأصل في الطيران صف الأجنحة والقبض طارئ، فكان الصف بصفة الاسمية للدلالة على الثبوت، والقبض بصفة الفعلية للدلالة على التجدد والحدوث. قال في الكشف: فإن قلت: لم قال ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ولم يقل: «وقابضات»؟ قلت: لأنّ الأصل في الطيران هو صف الأجنحة لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها، وأمّا القبض فطارئ على البسط للاستظهارية على التحرك فجاء بما هو طارٍ «طارئ» غير أصل بلفظ الفعل على معنى أتهنّ صافات ويكون منهنّ القبض تارةً بعد تارة كما يكون من السابح.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ اَللّٰهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا اَمْ لَهُمْ اَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا اَمْ لَهُمْ اَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا اَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ﴾ (الأنعام: ١٩٥).

قال ابن عاشور: وترتيب هذه الجوارح الأربع على حسب ما في الآية ملحوظ فيه أهميتها بحسب الغرض الذي هو النصر والنجدة؛ فإن الرجلين تسرعان إلى الصريخ قبل التأمل واليدين تعملان عمل النصر وهو الطعن والضرب وأما العين والأذن فإنهما وسيلتان لذلك كله فأخرا. وإنما قدم ذكر العين هنا على خلاف معتاد القرآن في تقديم السمع على البصر كما سبق في أول سورة البقرة لأن الترتيب هنا كان بطريق الترقى.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾﴾

(الأنعام: ٢٠٠)

قال ابن عاشور: والنزع النخس والغرز كذا فسر في الكشف وهو التحقيق وأما الراغب وابن عطية فقيدها بأنه دخول شيء في شيء لإفساده. قلت: وقريب منه الفسخ بالسين وهو الغرز لإبرة أو نحوها للوشم. قال ابن عطية: وقلما يستعمل في غير فعل الشيطان ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ وإطلاق النزغ هنا على وسوسة الشيطان استعارة شبه حدوث الوسوسة الشيطانية في النفس بنزع الإبرة ونحوها في الجسم بجامع التأثير الخفي. وشاعت هذه الاستعارة بعد نزول القرآن حتى صارت كالحقيقة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾﴾

(الأنعام: ١٩٩، ٢٠٠).

قال في (الظلال): خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس في المعاشر والصحبة، ولا تطلب إليهم الكمال، ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق. واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم.. كل أولئك في المعاملات الشخصية لا في العقيدة الدينية ولا في الواجبات الشرعية. فليس في عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضي والتسامح. ولكن في الأخذ والعطاء والصحبة والجوار. وبذلك تمضي الحياة سهلة لينة. فالإغضاء عن الضعف البشري، والعطف عليه، والسماحة معه، واجب الكبار الأقوياء تجاه

الصغار الضعفاء. ورسول الله ﷺ راع وهادٍ ومعلمٌ ومربٍّ. فهو أولى الناس بالسماحة واليسر والإغضاء.. وكذلك كان ﷺ.. لم يغضب لنفسه قط. فإذا كان في دين الله لم يقم لغضبه شيء!.. وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله ﷺ. فالتعامل مع النفوس البشرية لهاديتها يقتضي سعة صدر، وسماحة طبع، ويسراً وتيسيراً في غير تهاون ولا تفريط في دين الله.. ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ .. وهو الخير المعروف الواضح الذي لا يحتاج إلى مناقشة وجدال؛ والذي تلتقي عليه الفطر السليمة والنفوس المستقيمة.. والنفس حين تعتاد هذا المعروف يسلس قيادتها بعد ذلك، وتتطوع لألوان من الخير دون تكليف. وما يصد النفس عن الخير شيء مثلاً يصدّها التعقيد والمشقة والشدة في أول معرفتها بالتكاليف! ورياضة النفوس تقتضي أخذها في أول الطريق بالميسور المعروف من هذه التكاليف حتى يسلس قيادها وتعتاد هي بذاتها النهوض بما فوق ذلك في يسر وطواعية ولين..

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ .. من الجهالة ضد الرشد، والجهالة ضد العلم.. وهما قريب من قريب.. والإعراض يكون بالترك والإهمال؛ والتهوين من شأن ما يجهلون به من التصرفات والأقوال؛ والمرور بها مر الكرام؛ وعدم الدخول معهم في جدال لا ينتهي إلى شيء إلا الشد والجذب، وإضاعة الوقت والجهد.. وقد ينتهي السكوت عنهم، والإعراض عن جهالتهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها، بدلاً من الفحش في الرد واللجاج في العناد. فإن لم يؤد إلى هذه النتيجة فيهم، فإنه يعزلهم عن الآخرين الذين في قلوبهم خير. إذ يرون صاحب الدعوة محتملاً معرضاً عن اللغو، ويرون هؤلاء الجاهلين يحمقون ويجهلون فيسقطون من عيونهم ويعزلون!

وما أجدر صاحب الدعوة أن يتبع هذا التوجيه الرباني العليم بدخائل النفوس! ولكن رسول الله ﷺ بشر. وقد يثور غضبه على جهالة الجاهل وسفاهة السفهاء وحق الحمقى.. وإذا قدر عليها رسول الله ﷺ فقد يعجز عنها من وراءه من

أصحاب الدعوة.. وعند الغضب ينزغ الشيطان في النفس، وهي نائرة هائجة مفقودة الزمام!.. لذا يأمره ربه أن يستعيد بالله؛ لينفث غضبه، ويأخذ على الشيطان طريقه. ﴿وَمَا يَزْنَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَالَ نَعَالِي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (الأنعام: ٢٠٦)﴾

قال ابن عاشور مبيناً سر قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ﴿دون «الملائكة»: ووجه العدول عن لفظ الملائكة إلى الموصولية ما تؤذن به الصلة من رفعة منزلتهم فيتدرع بذلك إلى إيجاد المنافسة في التخلق بأحوالهم و﴿عِنْدَ﴾ مستعمل مجازاً في رفعة المقدار والخطوة الإلهية وقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ ليس المقصود به التنويه بشأن الملائكة لأن التنويه بهم يكون بأفضل من ذلك وإنما أريد به التعريض بالمشركين وأنهم على النقيض من أحوال الملائكة المقربين فخليق بهم أن يكونوا بعداء عن منازل الرفعة والمقصود هو قوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ أي ينزهونه بالقول والاعتقاد عن صفات النقص وهذه الصلة هي المقصودة من التعليل للأمر بالذكر. واختيار صيغة المضارع لدلالاتها على التجديد والاستمرار أو كما هو المقصود. وتقديم المعمول من قوله: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ للدلالة على الاختصاص أي ولا يسجدون لغيره وهذا أيضاً تعريض بالمشركين الذين يسجدون لغيره والمضارع يفيد الاستمرار أيضاً.

قلت: قوله ﴿عِنْدَ﴾ مستعمل مجازاً... إلخ. غير صحيح بل هو على حقيقته فالله في السماء.



سُورَةُ الْأَنْفَالِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ (الأنفال: ٢).

قال ابن عاشور: وكيفية تأثير تلاوة الآيات في زيادة الإيمان أن دقائق الإعجاز التي تحتوي عليها آيات القرآن تزيد كل آية تنزل منها أو تتكرر على الأسماع سامعها يقيناً بأنها من عند الله فتزيده استدلالاً على ما في نفسه وذلك يقوي الإيمان حتى يصل إلى مرتبة تقرب من الضرورة على نحو ما يحصل في تواتر الخبر من اليقين بصدق المخبرين ويحصل مع تلك الزيادة زيادة في الإقبال عليها بشراشر القلوب. ثم في العمل بما تتضمنه من أمر أو نهى حتى يحصل كمال التقوى فلا جرم كان لكل آية تتلى على المؤمنين زيادة في عوارض الإيمان من قوة اليقين وتكثير الأعمال فهذا وصف راسخ للآيات. ويجوز أن تفسر زيادة الإيمان عند تلاوة الآيات بأنها زيادة إدراك للمعاني المؤمن بها. وحظ المقام المتعلق بأحكام الأنفال من هذه الزيادة هو أن سماع آيات حكم الأنفال يزيد إيمان المؤمنين قوة بنبد الشقاق والتشاجر الطارئ بينهم في أنفس الأموال عندهم وهو المال المكتسب من سيفهم فإنه أحب أموالهم إليهم وفي الحديث: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي». وبذلك تتضح المناسبة بين ذكر ذلك بأن شأن المؤمنين ازدياد إيمانهم عند تلاوة آيات الله.

وقال في (الدر المنثور): أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال: فرقت قلوبهم.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يُصلُّون إذا غابوا،

ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه.

وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير وأبو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أبي الدرداء قال: إنما الوجل في القلب كاحتراق السعفة يا شهر أما تجد قشعريرة؟ قلت: بلى. قال: فادع عندها فإن الدعاء يستجاب عند ذلك.

وأخرج الحكيم الترمذي عن عائشة قالت: ما الوجل في قلب المؤمن إلا كضربة السعفة، فإذا وجد أحدكم فليدع عند ذلك.

وأخرج الحكيم الترمذي عن ثابت البناني قال: قال فلان: إني لأعلم متى يستجاب لي. قالوا: ومن أين يعلم ذاك؟ قال: إذا اقشعر جلدي، ووجل قلبي، وفاضت عينا، فذاك حين يستجاب لي.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان عن السدي في قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهمل بمعصية، فيقال له: اتق الله. فيجل قلبه. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَنًا ﴾ قال: تصديقاً. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس في قوله: ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَنًا ﴾ قال: زادتهم خشية.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (الأنفال: ١٧).

قال ابن عاشور: وقوله: ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ زيادة تقييد للرمي وأنه الرمي المعروف المشهور وإنما احتيج إليه في هذا الخبر ولم يؤت بمثله في قوله: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلْهُمْ ﴾ لأن القتل لما كانت له أسباب كثيرة كان اختصاص سيوف المسلمين بتأثيره غير مشاهد. وكان من المعلوم أن الموت قد يحصل من غير فاعل غير الله، لم يكن نفي ذلك التأثير وإسناد حصوله إلى مجرد فعل الله محتاجاً إلى التأكيد بخلاف كون رمي الحصى الحاصل

بيد الرسول ﷺ حاصلًا منه فإن ذلك أمر مشاهد لا يقبل الاحتمال فاحتيج في نفيه إلى التأكيد إبطالًا لاحتمال المجاز في النفي بأن يحمل على نفي رمي كامل؛ فإن العرب قد ينفون الفعل ومرادهم نفي كماله حتى يجمعون بين الشيء وإثباته أو نفي ضده بهذا الاعتبار كقول عباس بن مرداس: فلم أعط شيئاً ولم أُمْنَع. أي شيئاً مجدياً فدل قوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ على أن المراد بالنفي في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ هو الرمي بمعنى أثره وحصول المقصود منه وليس المراد نفي وقوع الرمي مثل المراد من قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ لأن الرمي واقع من يد النبي ﷺ ولكن المراد نفي تأثيره. فإن المقصود من ذلك الرمي إصابة عيون أهل جيش المشركين وما كان ذلك بالذي يحصل برمي اليد لأن أثر رمي البشر لا يبلغ أثره مبلغ تلك الرمية، فلما ظهر من أثرها ما عم الجيش كلهم علم انتفاء أن تكون تلك الرمية مدفوعة بيد مخلوق ولكنها مدفوعة بقدرة الخالق الخارجة عن الحد المتعارف وأن المراد بإثبات الرمي في قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ كالقول في: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: ٢٠)، فقال: ﴿تَوَلَّوْا﴾ بتاء واحدة بينما قال: ﴿هَاتَيْنِمْ هَتُولَاءِ تَدْعُونَ لِنُفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (الحجرات: ٣٨)، وقال: ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (البقرة: ١٦)، فقال: ﴿تَتَوَلَّوْا﴾، وسر ذلك - والله أعلم - أنه نهى في الآية الأولى عن التولي، فناسب حذف التاء للدلالة على النهي عن أي تولٍ - ولو قل -، ولقلة تولي المؤمنين قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا﴾ بحذف التاء للدلالة على قلة توليهم، بينما قال لقوم هود: ﴿وَلَا نَتَوَلَّوْا جُحْرَمِينَ﴾ للدلالة على عظيم توليهم، وقال للأعراب: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ بتأين للدلالة على عظيم الإثم والجرم إنما هو في التولي عن الجهاد الواجب، وكذا قال في سورة محمد

في التولي عن النفقة الواجبة في سبيل الله: ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا﴾ وليس بمجرد ترك الصدقة المستحبة أو الجهاد المستحب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٠)، فقال: ﴿تَصَدَّقُوا﴾ بحذف إحدى التائين ولم يقل: «تتصدقوا» للدلالة على أن أيَّ تصدق - ولو قل - فإن فيه الخير.

وقريبٌ منه قوله تعالى مخبراً عما قاله إخوة يوسف: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَ غَنَانَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ (يوسف: ٦٥)، فقال: ﴿نَبْغِي﴾ بينما قال مخبراً عما قاله موسى لفتاه: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ (الكهف: ٦٤)، فقال: ﴿نَبْغِ﴾ بحذف الياء، وسر ذلك - والله أعلم - أن فقدان فتى موسى للحوت جعل علامةً على وجود الخضر في المكان الذي يُفقد فيه الحوت، فناسب أن يقول: ﴿نَبْغِ﴾ بحذف الياء للدلالة على أن هذه البغية إنما هي دليلٌ لهم من أجل المطلوب الأساسي وهو لقيا الخضر عليه السلام وليس فقدان الحوت هو البغية الأساسية، وأما آية يوسف، فقولهم: ﴿مَا نَبْغِي﴾ يحتمل أن يكون المراد منه «ما نتريد في قولنا لك ما لم يقع» ويحتمل أن يكون المراد منه «أي شيء نطلب من هذا الملك بعد أن صنع معنا من الإحسان ما صنع»، فعلى الاحتمال الأول يكون وجه زيادة الياء هو الدلالة على أنهم يعلمون أن الكذب على أخيهما بغْيٌ عظيم، فقالوا لأبيهم ما فعلنا هذا البغي العظيم، وزيادة الياء تدل على ذلك، وعلى الاحتمال الثاني يكون وجه زيادة الياء هو الدلالة على أنه أكرمهم غاية الكرم بحيث لو طلبوا الزيادة على ما فعل لكان طمعاً زائداً، فزيادة الياء تدل على ذلك، والله أعلم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠).

قال ابن عاشور: والإتيان بالمضارع في موضع الماضي الذي هو الغالب مع ﴿وَإِذْ﴾ استحضار للحالة التي دبروا فيها المكر كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي

أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثَبَّرَ سَحَابًا ﴿ وَمَعْنَى ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ لِيَجْبِسُوكَ . يقال: أثبتته إذا حبسه ومنعه من الحركة وأوثقه، والتعبير بالمضارع في ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ و﴿ يَقْتُلُوكَ ﴾ و﴿ يُخْرِجُوكَ ﴾ لأن تلك الأفعال مستقبلية بالنسبة لفعل المكر إذ غاية مكرهم تحصيل واحد من هذه الأفعال.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ﴾ (الأنفال: ٣٣).

قال في الدر المنثور: وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن قتادة رحمته الله قال: إن القرآن يدلكم على دلائكم ودوائكم، أما دلائكم فذنوبكم، وأما دوائكم فالاستغفار.

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي عن كعب رحمته الله قال: إن العبد ليزنب الذنب الصغير فيحتقره ولا يندم عليه ولا يستغفر منه، فيعظم عند الله حتى يكون مثل الطود، ويزنب الذنب فيندم عليه ويستغفر منه فيصغر عند الله عز وجل حتى يعفو له.

وأخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري رحمته الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ أَمَانِينَ لَأُمْتِي ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فَإِذَا مَضَتْ تَرَكْتُ فِيهِمُ الْاسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وأخرج أبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رحمته الله قال: كان فيكم أمانان مضى أحدهما وبقي الآخر.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رحمته الله قال: أن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين من قوارع العذاب ما دام بين أظهرهم، فأمان قبضه الله تعالى إليه، وأمان بقي فيكم قوله: ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه والحاكم وابن عساكر عن أبي موسى رحمته الله قال: أنه قد كان فيكم أمانان، مضى أحدهما وبقي الآخر ﴿ وَمَا

كَانَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٥٢﴾ فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَمَّا الْاسْتِغْفَارُ فَهُوَ كَاتِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعْبِ الْإِيمَانِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَمَانَانِ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَالْإِسْتِغْفَارُ، فَذَهَبَ أَمَانٌ - يَعْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَبَقِيَ أَمَانٌ، يَعْنِي الْإِسْتِغْفَارُ. وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْعَبْدُ آمِنٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مَا اسْتَغْفَرَ اللَّهَ».

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتْكَ يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي».

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجاً، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ».

وَأَخْرَجَ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ فِي نَوَادِرِ الْأَصُولِ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتَغْفَاراً كَثِيراً».

وَأَخْرَجَ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكْثُرُوا مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ فَافْعَلُوا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَنْجَحَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهُ».

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ فِي الزَّهْدِ عَنْ مَغِيثِ بْنِ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ يَسِيرُ إِذْ تَفَكَّرَ فِيمَا سَلَفَ مِنْهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ غْفِرَانِكَ. فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَغْفَرَ لَهُ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَأَحْمَدُ فِي الزَّهْدِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ بَدْءاً مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قال: من قال: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه خمس مرات، غفر له وإن كان عليه مثل زبد البحر.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ (الْأَنْعَالُ: ٤٢).﴾

قال ابن عاشور: ﴿وَالدُّنْيَا﴾ هي القرية أي العدو التي من جهة المدينة فهي أقرب لجيش المسلمين من العدو التي من جهة مكة و﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ هي التي ممالي مكة وهي كثيب وهي قصوى بالنسبة لموقع بلد المسلمين والوصف بالدنيا والقصوى يشعر المخاطبون بفائدته. وهي أن المسلمين كانوا حريصين أن يسبقوا المشركين إلى العدو القصوى لأنه أصلب أرضاً، فليس للوصف بالدنو والقصو أثر في تفضيل إحدى العدوتين على الأخرى ولكنه صادم أن كانت القصوى أسعد بنزول الجيش، فلما سبق جيش المشركين إليها اغتم المسلمون. فلما نزل المسلمون بالعدو الدنيا أرسل الله المطر وكان الوادي دهساً فلبد المطر الأرض ولم يعقهم عن المسير وأصاب الأرض التي بها قرش فعطلهم عن الرحيل فلم يبلغوا بداراً إلا بعد أن وصل المسلمون وتخبروا أحسن موقع وسبقوا إلى الماء فاتخذوا حوضاً يكفيهم وغوروا الماء فلما وصل المشركون إلى الماء وجدوه قد احتازه المسلمون فكان المسلمون يشربون ولا يجد المشركون ماء.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَدْنَاكَ كَثِيراً لَفَسَلْتُمْ وَلَنَنْزَعْنَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ (الْأَنْعَالُ: ٤٣).﴾

قال ابن عاشور: وكان النبي ﷺ قد رأى رؤيا منام جيش المشركين قليلاً أي قليل العدد وأخبر برؤياه المسلمين فتشجعوا للقاء المشركين وحملوها على ظاهرها وزال عنهم ما كان يخامرهم من تهيب جيش المشركين فكانت تلك الرؤيا من أسباب النصر. وكانت تلك الرؤيا منة من الله على رسوله والمؤمنين. وكانت قلة العدد في الرؤيا رمزاً وكناية عن وهن أمر المشركين لا عن قلة عددهم، ولذلك جعلها الله في رؤيا النوم دون

الوحي لأن صور المرائي المنامية تكون رموزاً لمعان فلا تعد صورتها الظاهرية خلفاً بخلاف الوحي بالكلام. وقد حكاها النبي ﷺ للمسلمين فأخذوها على ظاهرها لعلمهم أن رؤيا النبي وحي. وقد يكون النبي قد أطلعه الله على تعبيرها الصائب وقد يكون صرفه عن ذلك فظن كالمسلمين ظاهرها؛ وكل ذلك بالحكمة فرؤيا النبي ﷺ لم تخطئ ولكنها أوهمتهم قلة العدد لأن ذلك مرغوبهم والمقصود منه حاصل وهو تحقق النصر. ولو أخبروا بعدد المشركين كما هو لجنبوا عن اللقاء فضعفت أسباب النصر الظاهرة المعتادة التي تكسبهم حسن الأحدث. ورؤيا النبي لا تخطئ ولكنها قد تكون جارية على الصورة الحاصلة في الخارج كما ورد في حديث عائشة في بدء الوحي أنه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وهذا هو الغالب وخاصة قبل ابتداء نزول الملك بالوحي. وقد تكون رؤيا النبي ﷺ رمزية وكناية كما في حديث رؤياه بقرة تذبح ويقال له: والله خير فلم يعلم المراد حتى تبين له أنهم المؤمنون الذين قتلوا يوم أحد. فلما أراد الله خذل المشركين وهزمهم أرى نبيه المشركين قليلاً كناية بأحد أسباب الانهزام فإن الانهزام يجيء من قلة العدد. وقد يمسك النبي ﷺ عن بيان التعبير الصحيح لحكمة كما في حديث تعبير أبي بكر رؤيا الرجل الذي قص رؤياه على رسول الله ﷺ وقول النبي له: «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً». وأبى أن يبين له ما أصاب منها وما أخطأ ولو أخبر الله رسوله ليخبر المؤمنين بأنهم غالبون المشركين لآمنوا بذلك إيماناً عقلياً لا يحصل منه ما يحصل من التصوير بالمحسوس. ولو لم يخبره ولم يره تلك الرؤيا لكان المسلمون يحسبون المشركين حساباً كبيراً لأنهم معروفون عندهم بأنهم أقوى من المسلمين بكثير. وهذه الرؤيا قد مضت بالنسبة لزمن نزول الآية فالتعبير بالفعل المضارع لاستحضار حالة الرؤيا العجيبة. والقليل هنا قليل العدد بقرينة قوله: ﴿كَثِيراً﴾. أراه الله إياهم قليلي العدد وجعل ذلك في المكاشفة النومية كناية عن الوهن والضعف.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَفَيْتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيْلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُوْلًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُوْرُ﴾ (الْاَنْفَالُ : ٤٤).

قال ابن عاشور: أرى الله المسلمين أن المشركين قليلون وأرى المشركين أن المسلمين قليلون. خيل الله لكلا الفريقين قلة الفريق الآخر بإلقاء ذلك التخييل في نفوسهم وجعل الغاية من تلك الرؤيتين نصر المسلمين. وهذا من بديع صنع الله تعالى إذ جعل للشيء الواحد أثرين مختلفين وجعل للأثرين المختلفين أثراً متحداً. فكان تخيل المسلمين قلة المشركين مقوياً لقلوبهم وزائداً لشجاعتهم ومزيلاً للرعب عنهم فعظم بذلك بأسهم عند اللقاء لأنهم ما كان ليفل من بأسهم إلا شعورهم بأنهم أضعف من أعدائهم عدداً وعدداً، فلما أزيل ذلك عنهم بتخييلهم قلة عددهم خلصت أسباب شدتهم مما يوهنها. وكان تخيل المشركين قلة المسلمين أي كونهم أقل مما هم عليه في نفس الأمر برداً على غليان قلوبهم من الغيظ وغاراً إياهم بأنهم سينالون التغلب عليهم بأدنى قتال فكان صارفاً إياهم عن التأهب لقتال المسلمين حتى فاجأهم جيش المسلمين فكانت الدائرة على المشركين. فنتج عن تخيل القلتين انتصار المسلمين. وإنما لم يكن تخيل المسلمين قلة المشركين مثبّطاً عزيمتهم كما كان تخيل المشركين قلة المسلمين مثبّطاً عزيمتهم لأن المسلمين كانت قلوبهم مفعمة حنقاً على المشركين وإيماناً بفساد شرهم وامتنالاً لأمر الله بقتالهم فما كان بينهم وبين صب بأسهم على المشركين إلا صرف ما يشبّط عزائمهم. فأما المشركون فكانوا مزهدين بعدائهم وعنادهم وكانوا لا يرون المسلمين على شيء فهم يحسبون أن أدنى جولة تجول بينهم يقبضون فيها على المسلمين قبضاً فلذلك لا يعبؤون بالتأهب لهم فكان تخييل ما يزيدهم تهاوناً بالمسلمين يزيد تواكلهم وإهمال إجماع أمرهم. وخولف الأسلوب في حكاية إراءة المشركين وحكاية إراءة المسلمين لأن المشركين كانوا عدداً كثيراً فناسب أن يحكي تقليلهم بإراءتهم قليلاً المؤذنة بأنهم ليسوا بالقليل وأما المسلمون فكانوا عدداً قليلاً بالنسبة لعدوهم فكان المناسب لتقليلهم أن يعبر عنه بأنه كان قليلاً ليؤذن بأنه زيادة في قلتهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الْأَنْكَالُ : ٥٢)، فقال هنا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ بينما قال في آل عمران: ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ، قال ابن عاشور مبيناً وجه هذا الاختلاف: وأما الاختلاف بذكر حرف التأكيد هنا دونه في سورة آل عمران فلأنه قصد هنا التعريض بالمشركين وكانوا ينكرون قوة الله عليهم بمعنى لازمها: وهو إنزال الضر بهم وينكرون أنه شديد العقاب لهم فأكد الخبر باعتبار لازمه التعريض الذي هو إبلاغ هذا الإنذار إلى من بقي من المشركين. وفي سورة آل عمران لم يقصد إلا الإخبار عن كون الله شديد العقاب إذا عاقب فهو تذكير للمسلمين وهم المقصود بالإخبار بقرينة قوله عقبه: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ ﴾ وزيد وصف ﴿ قَوِيٌّ ﴾ هنا مبالغة في تهديد المشركين المقصودين بالإنذار والتهديد.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (الْأَنْكَالُ : ٦١).

قال ابن عاشور: فمعنى ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ ﴾ : إن مالوا إلى السلم ميل القاصد إليه كما يميل الطائر الجناح وإنما لم يقل: «وإن طلبوا السلم فأجبهم إليها» للتنبيه على أنه لا يسعفهم إلى السلم حتى يعلم أن حالهم حال الراغب لأنهم قد يظهرون الميل إلى السلم كيداً. فهذا مقابل قوله: ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْصِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ فَإِنَّ نَبذ العهد نبذ لحال السلم. واللام في قوله: ﴿ لِلْسَّلْمِ ﴾ واقعة موقع «إلى» لتقوية التنبيه على أن ميلهم إلى السلم ميل حق أي وإن مالوا لأجل السلم ورغبة فيه لا لغرض آخر غيره لأن حق «جناح» أن يعدى «بإلى» لأنه بمعنى مال الذي يعدى بإلى فلا تكون تعديته باللام إلا لغرض وفي الكشف أنه يقال جناح له وإليه. اهـ .

قلتُ: وقد يقال كذلك أن المراد: «وإن خضعوا وذلوا لكم ومالوا إلى السلم فأجيبوهم» ليكون دلالة على أن إجابتهم للسلم إنما تكون في حال ذلتهم وخضوعهم وأما في حال اعتدائهم على مقدسات الإسلام والمسلمين وانتهاكهم للحرمات فلا بد من كسر شوكتهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (۱۵۷) أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ سَعَةً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال: ۶۵، ۶۶).

قال ابن عاشور: وعبر عن وجوب ثبات العدد من المسلمين لمثليه من المشركين بلفظي عشرين معنيين ومثليهما ليحيى الناسخ على وفق المنسوخ فقبل ثبات العشرين للمائتين بنسخه إلى ثبات مائة واحدة للمائتين فأبقى مقدار عدد المشركين كما كان عليه في الآية المنسوخة إيماءً إلى أن موجب التخفيف كثرة المسلمين لا قلة المشركين. وقبل ثبات عدد مائة من المسلمين لألف من المشركين بثبات ألف من المسلمين لألفين من المشركين إيماءً إلى أن المسلمين الذين كان جيشهم لا يتجاوز مرتبة المئات صار جيشهم يعد بالآلاف وأعيد وصف مائة المسلمين بـ ﴿ صَابِرَةٌ ﴾ لأن المقام يقتضي التنويه بالتصاف بالثبات ولم توصف مائة الكفار بالكفر وبأنهم قوم لا يفقهون لأنه قد علم ولا مقتضى لإعادته. قلت: وهذا كلام نفيس، فله درّ هذا الرجل!! لولا ميوله الأشعرية لكان إماماً إماماً!!

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؕ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؕ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٣٨) إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣٩) إِلَّا أَنْفِرُوا فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤٠) أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التَّوْبَةُ: ٣٨ - ٤١).

قال في (الظلال): ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ؟ .. إنها ثقله الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض .. ثقله الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع .. ثقله الدعة والراحة والاستقرار .. ثقله اللذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب .. ثقله اللحم والدم والتراب .. والتعبير يلقي كل هذه الظلال بجرس ألفاظه: ﴿ أَتَأْقَلْتُمْ ﴾ .. وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل! ويلقيها بمعنى ألفاظه: ﴿ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ .. وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرقة الأرواح وانطلاق الأشواق. إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقله اللحم والدم؛ وتحقيق للمعنى العلوي في الإنسان، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة؛ وتطلع إلى الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود. ﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .. وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة

للجهاد في سبيله، إلا وفي هذه العقيدة دَخل، وفي إيمان صاحبها بها وهن. لذلك يقول الرسول ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق». فالنفاق - وهو دَخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال - هو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر، والآجال بيد الله، والرزق من عند الله. ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. والخطاب لقوم معينين في موقف معين. ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله. والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو كذلك عذاب الدنيا. عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين؛ وهم مع ذلك يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد؛ ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء. وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء. ﴿وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ .. يقومون على العقيدة، ويؤدون ثمن العزة، ويستعلون على أعداء الله. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ .. ولا يقام لكم وزن، ولا تُقدَّمون أو تؤخرون في الحساب! ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .. لا يعجزه أن يذهب بكم، ويستبدل قوماً غيركم، ويترككم عن التقدير والحساب! إن الاستعلاء على ثقله الأرض وعلى ضعف النفس، إثبات للوجود الإنساني الكريم. فهو حياة بالمعنى العلوي للحياة. وإن الثاقل إلى الأرض والاستسلام للخوف إعدام للوجود الإنساني الكريم. فهو فناء في ميزان الله وفي حساب الروح المميزة للإنسان. ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه، على نصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء. ﴿إِلَّا نَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ إِذْ هُمَا

فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ يَجُودُ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤١﴾ .. ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعاً، كما تضيق القوة العاشمة دائماً بكلمة الحق، لا تملك لها دفعاً، ولا تطيق عليها صبراً، فاتتمرت به، وقررت أن تتخلص منه؛ فأطلعه الله على ما اتتمرت، وأوحى إليه بالخروج، فخرج وحيداً إلا من صاحبه الصديق، لا جيش ولا عدة، وأعداؤه كثر، وقوتهم إلى قوته ظاهرة. والسياق يرسم مشهد الرسول ﷺ وصاحبه. ﴿إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ﴾ .. والقوم على إثرهما يتعقبون، والصديق ﷺ يجزع - لا على نفسه ولكن على صاحبه - أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب، يقول له: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. والرسول ﷺ وقد أنزل الله سكينته على قلبه، يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟». ثم ماذا كانت العاقبة، والقوة المادية كلها في جانب، والرسول ﷺ مع صاحبه منها مجرد؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس. وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار. ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ .. وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوية نافذة. ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ .. ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٤١).

قال في (الدر المشور): وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قال: نشاطاً وغير نشاط.

وأخرج ابن أبي شيبه وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحكم في قوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قال: مشاغيل وغير مشاغيل.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن ﷺ في قوله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قال: في العسر واليسر.

وأخرج ابن المنذر عن زيد بن أسلم رحمته الله في قوله: ﴿خَفَافًا وَثِقَالًا﴾ قال: فتیاناً وكهولاً. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿خَفَافًا وَثِقَالًا﴾ قال: شباباً وشيوخاً.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رحمته الله قال: قالوا: إنَّ فينا الثَّقیل وذو الحاجة والصنعة والشغل والمتشر به أمره في ذلك، فأنزل الله ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا خفافاً وثقالاً وعلى ما كان منهم.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رحمته الله قال: جاء رجل زعموا أنه المقداد وكان عظيماً سمياً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى، فنزلت يومئذ فيه ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس شأنها، فنسخها الله فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ (البقرة: ٩١) الآية.

وأخرج ابن جرير عن حزمي قال: ذكر لنا أن أناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلاً أو كبيراً فيقول: إني لا أثم، فأنزل الله ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية.

وأخرج ابن سعد وابن أبي عمر العدني في مسنده وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس بن مالك. أن أبا طلحة قرأ سورة براءة، فأتى على هذه الآية ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قال: أرى ربنا يسنفرنا شيوخاً وشباباً. وفي لفظ فقال: ما أسمع الله عذر أحد أجهزوني. قال بنوه: يرحمك الله تعالى قد غزوت مع رسول الله صلی الله علیه وسلم حتى مات، وغزوت مع أبي بكر رحمته الله حتى مات، وغزوت مع عمر رحمته الله حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفونه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير دفنوه فيها.

وأخرج ابن سعد والحاكم عن ابن سيرين رحمته الله قال: شهد أبو أيوب رحمته الله بدرًا ثم لم يتخلف عن غزوة للمسلمين إلا عاماً واحداً، وكان يقول: قال الله: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجديني إلا خفيفاً وثقيلاً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن أبي راشد الحبراني قال: رأيت المقداد فارس رسول الله ﷺ بحمص يريد الغزو فقلت: لقد أعذر الله تعالى إليك. قال: أبت علينا سورة التوبة ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يعني سورة التوبة.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي يزيد المدني قال: كان أبو أيوب الأنصاري والمقداد بن الأسود يقولان: أمرنا أن ننفر على كل حال، ويتأولان قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. ١٠هـ.

قلت: قد فهم كثير من السلف من هذه الآية عدم عذر أحد في ترك الجهاد.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبِعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣) لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَازْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧) لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا﴾ (البقرة: ٤٢ - ٤٨).

قال في (الظلال): لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك! ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة. ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة. ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة.

وإنه لنموذج مكرور في البشرية ذلك الذي ترسمه تلك الكلمات الخالدة.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ .. فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة. كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص. كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان، فما هي قلة عارضة، إنما هي النموذج المكرور. وإنهم ليعيشون على حاشية الحياة، وإن خيل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب، لكنهم اجتنبوا أداء الثمن الغالي، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص! ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ .. فهو الكذب المصاحب للضعف أبدًا. وما يكذب إلا الضعفاء. أجل ما يكذب إلا ضعيف ولو بدا في صورة الأقوياء الجبارين في بعض الأحيان. فالقوي يواجه والضعيف يداور. وما تتخلف هذه القاعدة في موقف من المواقف ولا في يوم من الأيام. ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ .. بهذا الحلف وبهذا الكذب، الذي يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس، والله يعلم الحق، ويكشفه للناس، فيهلك الكاذب في الدنيا بكذبه، ويهلك في الآخرة يوم لا يجدي النكران. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .. ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ٤٤ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ .. وهذه هي القاعدة التي لا تخطئ. فالذين يؤمنون بالله، ويعتقدون بيوم الجزاء، لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد؛ ولا يتلکأون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح؛ بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله، طاعة لأمره، و يقيناً بلقائه، وثقة بجزائه، وابتغاء لرضاه. وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم، فضلاً عن الإذن لهم. إنما يستأذنك أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلکأون ويتلمسون المعاذير، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويتدردون.

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، فما يتردد ويتلصق إلا الذي لا يعرف الطريق، أو الذي يعرفها ويتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق! ولقد كان أولئك المتخلفون ذوي قدرة على الخروج، لديهم وسائله، وعندهم عدته. ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ .. وقد كان فيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وكان فيهم الجد بن قيس، وكانوا أشرفاً في قومهم أثرياء. ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ .. لما يعلمه من طبيعتهم ونفاقهم، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين كما سيجيء. ﴿فَنَبْطُغُهُمْ﴾ .. ولم يبعث فيهم الهمة للخروج. ﴿وَقِيلَ أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ .. وتخلفوا مع العجائز والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون الغزو، ولا ينبعثون للجهاد. فهذا مكانكم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية من اليقين. وكان ذلك خيراً للدعوة وخيراً للمسلمين. ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ .. والقلوب الحائرة تبت الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش، ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطراباً وفوضى. ولأسرعوا بينهم بالوقعة والفتنة والتفرقة والتخذيل. وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين. ولكن الله الذي يرفع دعوته ويكلاً رجالها المخلصين، كفى المؤمنين الفتنة، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ .. وإن ماضيهم ليس شهد بدخل نفوسهم، وسوء طويتهم، فلقد وقفوا في وجه الرسول ﷺ وبذلوا ما في طوقهم، حتى غلبوا على أمرهم فاستسلموا وفي القلب ما فيه. ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُون﴾ .. وكان ذلك عند مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة، قبل أن يظهره الله على أعدائه. ثم جاء الحق وانتصرت كلمة الله فحنوا لها رؤوسهم وهم كارهون، وظلوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين.

فائدة : قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْفِقِينَ﴾ (التوبة: ٤٤)، فقال: ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾

ولم يقل: «ألا يجاهدوا» مع أن الآية واردة في معرض ذم من يستأذن رسول الله في التخلف عن الجهاد بأعذار واهية، وبيان أن المؤمنين ليسوا كذلك، ولعلّ فائدة قوله: ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ دون قوله: «ألا يجاهدوا» هو بيان شدة حرص المؤمنين على الجهاد حتى أنهم يكادون يقدمون على الجهاد دون استئذان - لشدة حرصهم عليهم - ولولا عدم جواز الافتئات على الإمام في ذلك - في أحيان كثيرة - لأقدموا على الجهاد دون استئذان. أو يكون حذف اللام للدلالة على أن الإقدام على الجهاد دأبهم وشأنهم، فكأنه قال: «لا يستأذنونك في التخلف عن الجهاد بل شأنهم ودأبهم أن يبادروا إليه ويقدموا عليه»، ولو قال: «لا يستأذنك ألا يجاهدوا» لربما تُوهّم أن اللوم لأنهم لا يستأذنون بل يتخلفون دون استئذان.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾﴾ (البقرة: ٤٥).

قال ابن عاشور: وجيء في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تجدد نفي إيمانهم وفي ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بصيغة الماضي للدلالة على قدم ذلك الارتياب ورسوخه فلذلك كان أثره استمرار انتفاء إيمانهم. ولما كان الارتياب ملازماً لانتفاء الإيمان كان في الكلام شبه الاحتباك إذ يصير بمنزلة أن يقال: الذين لم يؤمنوا ولا يؤمنون وارتابت وترتاب قلوبهم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾﴾ (البقرة: ٤٦)، فقال: ﴿الْفَاعِلِينَ﴾ ﴿بَيْنَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾﴾ (١١٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (التغلات: ١٩٠، ١٩١)، فقال: ﴿وَقُعُودًا﴾، قال د. فاضل: الجمع يؤتى به على وزن مصدر فعله للدلالة على المعنى الحقيقي للفعل، كالحضور، فقال: ﴿وَقُعُودًا﴾ للدلالة على القعود الحقيقي، ومثله قوله: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿(الزمر: ٥، ٦)، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ

﴿ جُنُوبِكُمْ ﴾ (النِّسَاءُ : ١٠٣)، فقال فيهما: ﴿ وَقُودًا ﴾ في القعود الحقيقي بينما قال: ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (النِّسَاءُ : ٢٤)، أي ماكنون مقيمون، وقال: ﴿ ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ (النِّسَاءُ : ٨٦)، وقال: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النِّسَاءُ : ٩٥)، وهو القعود عن الجهاد.

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (النِّسَاءُ : ٦٨)، وقوله: ﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا ﴾، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴾ (الزُّمَرُ : ٦٤)، فقال: ﴿ قِيَمًا ﴾ لإرادة القيام الحقيقي بينما قال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ يَشْهَدَتُهُمْ قَائِمُونَ ﴾ (الْمَلَأَ : ٣٣)، فقال: ﴿ قَائِمُونَ ﴾ لإرادة القيام بالأمر وليس القيام الحقيقي، وقال: ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (الْحَجَّ : ٢٦)، فالقائمون هنا بمعنى العاكفين بدلالة قوله تعالى في آية أخرى: ﴿ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (البَقَرَةُ : ١٢٥) اهـ.

قلت: في جعل معنى قوله: ﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ العاكفين كما قال نظر، ولكن قد يقال: إنما قال ﴿ وَالْقَائِمِينَ ﴾ في المصلين بالحرم وكذا قال: ﴿ السُّجُودِ ﴾ دون «السجد» للدلالة على أن القيام الظاهر في الحرم وكذا السجود هنالك من شأنها أن يورثا العبد القيام بالشرع والسجود والخشوع الباطن، وهذا من لطائف القرآن !! ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْقَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ ﴾ (النِّسَاءُ : ٤٧).

قال ابن عاشور: وجيء بحرف «في» من قوله: ﴿ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ ﴾ الدال على الظرفية دون حرف «من» فلم يقل: «ومنكم سماعون لهم» أو «ومنهم سماعون» لئلا يتوهم تخصيص السماعين بجماعة من أحد الفريقين دون الآخر لأن المقصود أن السماعين لهم فريقان فريق من المؤمنين وفريق من المنافقين أنفسهم مبثوثون بين المؤمنين

لإلقاء الأراجيف والفتنة وهم الأكثر فكان اجتلاب حرف «في» إيفاء بحق هذا الإيجاز البديع ولأن ذلك هو الملائم لمحملي لفظ ﴿سَمَّعُونَ﴾ فقد حصلت به فائدتان.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْخُذَنَا فَنَرَبِّصُوا إِنَّآ مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾﴾ (التَّوْبَةُ: ٥٢)

فبدءوا بتربصهم وانتظارهم عذاب الله لأنه أشد وأعظم من وقع سيوف المؤمنين كما أن استشهادهم - في الأغلب - يقتضي تأخر عذاب الكفار عن الدنيا، والمؤمن يرغب في الشهادة أعظم الرغبة وينتظرها، فبدءوا بذكر عذاب الله لذلك أيضاً، والله أعلم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ﴾﴾ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (التَّوْبَةُ: ٥٨، ٥٩)، فقال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ، ولم يقل: «حسبنا ربنا سيؤتينا ربنا ... إلى ربنا راغبون» مع أنهم طمعوا في رزق دنيوي، فأرشدهم أن الإيمان أن يكونوا في طلبهم الرزق من ربهم مكتفين بالله مشرعاً حاكماً ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ طامعين في رزق ربهم الدنيوي وكذا رزق الهداية والصلاح ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ﴾ راغبين في زيادة الإيمان ومعاني الإحسان ﴿إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ وليس فقط رغبتهم في الرزق الدنيوي.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾﴾ (التَّوْبَةُ: ٧٠).

قال ابن عاشور: وأثبت ظلمهم أنفسهم لهم بأبلغ وجه إذ أسند إليهم بصيغة الكون الماضي الدال على تمكن الظلم منهم منذ زمان مضى. وصيغ الظلم الكائن في ذلك الزمان بصيغة المضارع للدلالة على التجدد والتكرار أي على تكرير ظلمهم أنفسهم في الأزمنة الماضية. أ. هـ.

قلتُ: ومثله قوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (البقرة: ٧٧)، فقوله: ﴿ كَانُوا ﴾ يدل على تمكن الكذب منهم وتأكد كونه فيهم، وقوله: ﴿ يَكْذِبُونَ ﴾ يدل على تكرره وتجده.

فائدة: قال د. فاضل: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ (البقرة: ٧٠، ٧١).

فقال: ﴿ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وهو الموطن الوحيد الذي جاء فيه نحو هذا التعبير في القرآن في حين قال في المواطن الأخرى كلها: ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (الأعراف: ١٠١) ولو نظرت في هذه التعبيرات ودققت فيها لوجدت أن كل التعبيرات التي جاءت بالفعل «جاء» أشق وأصعب مما جاء بـ «أتى» فمثلاً قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: ١٠١ - ١٠٣).

فانظر كيف قال في آية التوبة: ﴿ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ولم يذكر أنهم كفروا وعوقبوا في حين قال في آيات الأعراف: ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ فذكر عدم إيمانهم وأنهم طبع على قلوبهم ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ وذكر أنه وجد أكثرهم فاسقين وأنه لم يجد لأكثرهم عهداً وذكر بعد ذلك ظلم فرعون وقومه لموسى وتكذيبهم بآيات الله وعاقبتهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٧٦) فَأَعَقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (البقرة: ٧٥ - ٧٧)، فقال: ﴿ فَأَعَقَبَهُمْ ﴾ ليدل على أنَّ ذلك عقوبة ما صنعوا، وليدل كذلك على أنَّ هذا الجزاء أعقب فعلهم ولم يتأخر كثير وقتٍ عنه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفَنِّلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ (٨٣) وَلَا تَضِلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾ (٨٤) وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (البقرة: ٨١ - ٨٥).

قال في (الظلال): هؤلاء الذين أدركتهم ثقله الأرض. ثقله الحرص على الراحة، والشح بالنفقة. وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة، وخواء القلب من الإيمان.. هؤلاء المخلفون - والتعبير يلقي ظل الإهمال كما لو كانوا متاعاً يخلف أو هملاً يترك - فرحوا بالسلامة والراحة ﴿ خَلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال! ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .. ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال. إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة، وطروادة الإرادة؛ وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز. وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات. ولكن

هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان، وأنه ألد وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال. والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾. فإن كانوا يشفقون من حر الأرض، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال. فكيف بهم في حر جهنم وهي أشد حراً، وأطول أمداً؟ وإنما لسخرية مريرة، ولكنها كذلك حقيقة. فإما كفاح في سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض، وإما انطراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله. ﴿فَلْيَصْحِكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ .. ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَنِّلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ .. إن الدعوات في حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق. والصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه في ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب. فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة. والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف في ساعة الشدة، ثم يعودون إليه في ساعة الرخاء، جناية على الصف كله، وعلى الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحه الميرير .. ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَنِّلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ .. لماذا؟ ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ .. ففقدتم حقكم في شرف الخروج، وشرف الانتظام في الكتبة، والجهاد عبء لا ينهض به إلا من هم له أهل. فلا ساحة في هذا ولا مجاملة. ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ .. المتجانسين معكم في التخلف والقعود. هذا هو الطريق الذي رسمه الله تعالى لنبيه الكريم، وأنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبداً. فليعرف أصحابها في كل زمان وفي كل مكان ذلك الطريق.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفُوتُ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾﴾ (البقرة: ٩١)،

فقال: ﴿الْضُّعْفَاءُ﴾ دون «الضعاف»، وسر ذلك - والله أعلم - أنَّ الضعفاء أدلَّ على الضعف المعنوي أكثر - كما قال د. فاضل - فيكون في الآية الدليل على أنَّ المستضعف معنوياً معذورٌ في تركه للجهاد، إذا كان استضعافاً معتبراً شرعاً، وإذا كان المستضعف المغلوب على أمره - ولو كان قويَّ البنية - معذوراً، فالضعيف غير القادر على الجهاد أولى بالعذر، فكان قوله: ﴿الْضُّعْفَاءُ﴾ دالاً على الصنفين، ولو قال: «الضعاف» لدلَّ على ضعف القوة والبنية فقط.

وقد يقال - وهذا ما ظهر لي - أنَّ كلمة «ضعفاء» بضم الصاد، والضممة أثقل الحركات، وأما كلمة «ضعاف» بكسر الصاد، وهي حركة خفيفة، وفي ذلك دقة بالغة لأنَّ كلمة «ضعفاء» تدل على قوة ضعفهم وشدتهم، فناسب أن يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ﴾ للدلالة على أنَّ المرء لا ينبغي له أن يتهاون في أمر الجهاد متعللاً بأنه ضعيف، فالعذر لمن هو من الضعفاء. ولذا أيضاً قال سبحانه: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٢١)، وقال أيضاً: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ (النمل: ٤٧)، فقال: ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ للدلالة على عدم عذرهم رغم شدة ضعفهم واستضعافهم، فكيف بالضعاف فقط؟! ولذا أيضاً قال: ﴿أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّتٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ (البقرة: ٢٦٦)، فقال: ﴿ضُعَفَاءُ﴾ للدلالة على عظيم ضعف هذه الذرية، ومع ذلك لا يكسب لهم، فهكذا مثل ضياع عمل المانِّ والمعجب والمرائي كمثل ضياع هذه الذرية الضعفاء، وأما قوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضَعَفَاءُ خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (التوبة: ٩)، فقال: ﴿ضَعَفَاءُ﴾ بكسر الصاد لأنَّ الولي يخاف على ذريته إن كان بهم ضعف يسير ويؤرقه التفكير في أمرهم فضلاً عن أن يكون ضعفاء شديدي الضعف.

﴿ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْنِلُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيهِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) ﴿ (البُكَرِيُّ: ١١١، ١١٢).

قال في (الظلال): هذا النص الذي تلوته من قبل وسمعته ما لا أستطيع عدداً من المرات، في أثناء حفظي للقرآن، وفي أثناء تلاوته، وفي أثناء دراسته بعد ذلك في أكثر من ربع قرن من الزمان.. هذا النص - حين واجهته في «الظلال» أحسست أنني أدرك منه ما لم أدركه من قبل في المرات التي لا أملك عدها على مدى ذلك الزمان!

إنه نص رهيب ! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله؛ وعن حقيقة البيعة التي أعطوها - بإسلامهم - طوال الحياة. فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف «المؤمن» وتتمثل فيه حقيقة الإيمان. وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق !

حقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها الله كرمًا منه وفضلاً وسماحة - أن الله سبحانه قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم؛ فلم يعد لهم منها شيء.. لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله. لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا.. كلا.. إنها صفقة مشتراة، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخير، ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام.. والثنى: هو الجنة.. والطريق: هو الجهاد والقتل والقتال.. والنهاية: هي النصر أو الاستشهاد.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَنِّلُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنُلُونَ وَيُقْنَلُونَ﴾ ..

من بايع على هذا. من أمضى عقد الصفقة. من ارتضى الثمن ووفى. فهو المؤمن.. فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا.. ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال. ولكنه كَرَّم هذا الإنسان فجعله مريداً؛ وكَرَّمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - وكَرَّمه فقيده بعقوده وعهوده؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمية: .. شر البهيمية ... ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُنْفِقُونَ .. كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنها في عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه. ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات. ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَنِّلُونُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنُلُونَ وَيُقْنَلُونَ﴾ ..

عونك اللهم ! فإن العقد رهيب.. والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، قاعدون، لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد. ولا يقتلون. ولا يقتلون. ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال !

لقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين - على عهد رسول الله ﷺ - فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم؛ ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم، أو يحسونها مجردة في مشاعرهم. كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها.

لتحويلها إلى حركة منظورة، لا إلى صورة متأملة.. هكذا أدركها عبد الله بن رواحة رحمته الله في بيعة العقبة الثانية. قال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة رحمته الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم - (يعني ليلة العقبة) - : «أشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشرکوا به شيئاً؛ وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قال: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة». قالوا: ربح البيع، ولا نقيـل ولا نستقـيل.

هكذا.. «ربح البيع ولا نقيـل ولا نستقـيل».. لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين؛ انتهى أمرها، وأمضي عقدها، ولم يعد إلى مرد من سبيل: «لا نقيـل ولا نستقـيل» فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار؛ والجنة: ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن. وعداً قديماً في كل كتبه. ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ﴾ .. ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟﴾. أجل! ومن أوفى بعهده من الله؟ إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.. كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله.. إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياو بتركها: ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ الْجَارِيَةَ الَّتِي لَا تَسْتَقِيمُ هَذِهِ الْحَيَاةُ بِدُونِهَا وَلَا تَصْلَحُ الْحَيَاةُ بِتَرْكِهَا:﴾ ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ .. ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ..

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه. ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق! .. بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق.. إن دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده. ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق.. بل لا بد أن يقطع عليه الطريق.. ولا بد لدين الله أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله. ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينشني عنه ليدع الباطل طريقاً! .. وما دام في «الأرض» كفر. وما دام في «الأرض» باطل. وما دامت في «الأرض» عبودية لغير الله

تذل کرامة «الإنسان»، فالجهاد في سبيل الله ماض، والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء. وإلا فليس بالإيمان: و«من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق».. (رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾﴾ (البقرة: ۱۱۴).

قال في (الدر المنثور): وأخرج ابن مردويه عن جابر رضي الله عنه أن رجلاً كان يرفع صوته بالذكر فقال رجل: لو أن هذا خفض صوته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعه فإنه أواه».

قلت: هذا حيث شرع الرفع كتكبير العيدين وإلا فالأصل خفض الصوت بالذكر. وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له ذو البجادين: «إنه أواه»، وذلك أنه كان يكثر ذكر الله بالقرآن والدعاء. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم أدخل ميتاً القبر، وقال: «رحمك الله إن كنت لأواهاً تلاء للقرآن».

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن شداد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأواه: الخاشع المتضرع».

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال: الأواه الدعاء. وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال: الأواه الدعاء المستكين إلى الله كهيئة المريض المتأوه من مرضه.

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ أن عبد الله بن مسعود سئل عن الأواه فقال: هو الرحيم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال: الأواه المؤمن التواب.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: الأواه الحليم المؤمن المطيع.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أيوب قال: الأَوَّاهُ الذي إذا ذكر خطاياهُ استغفر منها.
وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال: الأَوَّاهُ المؤمن بالحبشية.
وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس قال:
الأَوَّاهُ الموقن.

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ من طريق أبي ظبيان عن ابن عباس قال: الأَوَّاهُ
الموقن بلسان الحبشية. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: الأَوَّاهُ الموقن بلسان الحبشة.
وأخرج ابن جرير عن عطاء والضحاك قالا: الأَوَّاهُ الموقن بلسان الحبشية.
وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من وجه آخر عن مجاهد قال: الأَوَّاهُ
الفقيه المؤمن.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: الأَوَّاهُ الشيخ.
وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي ميسرة قال: الأَوَّاهُ الشيخ.
وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عمرو بن شرحبيل قال: الأَوَّاهُ الرحيم بلسان
الحبشة. وأخرج ابن المنذر عن عمرو بن شرحبيل قال: الأَوَّاهُ الدعاء بلسان الحبشة.
وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال: الأَوَّاهُ المسبِّح.
وأخرج البخاري في تاريخه عن الحسن قال: الأَوَّاهُ الذي قلبه معلق عند الله.
وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم قال: كان إبراهيم يُسمَّى الأَوَّاهَ لرقته ورحمته.
وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ قال:
الحليم الرحيم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ قال: كان
من حلمه أَنَّهُ كان إذا آذاه الرجل من قومه قال له: هداك الله.

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال: الأَوَّاهُ المؤمن. وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال:
الأَوَّاهُ المنيب الفقير. وأخرج ابن جرير عن عقبه بن عامر قال: الأَوَّاهُ الكثير ذكر الله.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩).

قال في (الدر المنثور): وأخرج البيهقي في الشعب عن عمر بن الخطاب قال: لا تجد المؤمن كذاباً.

وأخرج البيهقي عن عمر بن الخطاب قال: «لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا إلى صيامه، ولكن انظروا إلى من إذا حدث صدق، وإذا اتتمن أدى، وإذا أشفى ورع».

وأخرج البيهقي عن أنس قال: إن الرجل ليحرم قيام الليل وصيام النهار بالكذبة يكذبها. وأخرج البيهقي عن مطر الوراق قال: خصلتان إذا كانتا في عبد كان سائر عمله تبعاً لهما، حسن الصلاة وصدق الحديث. وأخرج البيهقي عن الفضيل قال: لم يترين الناس بشيء أفضل من الصدق، وطلب الحلال.

وأخرج البيهقي عن عبد العزيز بن أبي رواد قال: إبرار الدنيا الكذب وقلة الحياء، من طلب الدنيا بغيرهما فقد أخطأ الطريق والمطلب، وإبرار الآخرة، الحياء والصدق، فمن طلب الآخرة بغيرهما فقد أخطأ الطريق والمطلب.

وأخرج البيهقي عن يوسف بن أسباط قال: يرزق المرء بالصدق ثلاث خصال، الخلاوة والملاحة والمهابة.

وأخرج البيهقي عن أبي روح حاتم بن يوسف قال: أتيت باب الفضيل بن عياض فسلمت عليه فقلت: يا أبا علي معي خمسة أحاديث إن رأيت أن تأذن لي فأقرأ عليك. فقال لي: اقرأ. فقرأت فإذا هي ستة فقال لي: أن قم يا بني!! تعلم الصدق ثم اكتب الحديث.

وأخرج ابن عدي عن عمران بن الحصين رحمته الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في المعاريض لمدوحة عن الكذب».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣١﴾ (التوبة: ١٢٠، ١٢١)

قال في (الظلال): ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ . في التعبير تأنيب خفي، فما يؤنب أحد يصاحب رسول الله ﷺ بأوجع من أن يقال عنه: إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله، وهو معه، وهو صاحبه، وإنها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة في كل جيل، فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله في سبيل هذه الدعوة؛ وهو يزعم أنه صاحب دعوة، وأنه يتأسى فيها برسول الله ﷺ. إنه الواجب الذي يوجب الحياء من رسول الله - فضلاً عن الأمر الصادر من الله - ومع هذا فالجزاء عليه ما أشفاه! ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . إنه على الظمأ جزاء، وعلى النصب جزاء وعلى الجوع جزاء. وعلى كل موطن قدم يغيب الكفار جزاء. وعلى كل نيل من العدو جزاء يكتب به للمجاهد عمل صالح ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع لهم الله أجراً. وأنه على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر وعلى الخطوات تقطع في الوادي أجر. أجر كأحسن ما يعمل المجاهد في الحياة. ألا والله، إن الله ليجزل لنا العطاء وإنها والله لسماحة في الأجر والسخاء وإنه لمّا يُجْزَلْ أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول الله ﷺ من الشدة والأواء في سبيل هذه الدعوة التي نحن فيها خلفاء وعليها بعده أمانة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

قال ابن عاشور: ﴿عَنْتُمْ﴾ تعبتم والعنت التعب أي شاق عليه حزنكم وشقاؤكم. وهذا كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وذكر هذا في صفة الرسول ﷺ يفيد أن هذا خلق له فيكون أثر ظهوره الرفق بالأمة والحذر مما يلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة. والعدول عن الإتيان بلفظ العنت الذي هو المصدر الصريح إلى الإتيان بالفعل مع ﴿مَا﴾ المصدرية السابقة للمصدر نكتة، وهي إفادة أنه قد عز عليه عنتهم الحاصل في الزمن الذي مضى، وذلك بما لقوه من قتل قومهم ومن الأسر في الغزوات ومن قوارع الوعيد والتهديد في القرآن فلو أتى بالمصدر لم يكن مشيراً إلى عنت معين ولا إلى عنت وقع لأن المصدر لا زمان له بل كان محتملاً أن يعز عليه بأن يجنبهم إياه ولكن مجيء المصدر منسباً من الفعل الماضي يجعله مصدراً مقيداً بالحصول في الماضي ألا ترى أنك تقدره هكذا: عزيز عليه عنتكم الحاصل في ما مضى لتكون هذه الآية تنبيهاً على أن ما لقوه من الشدة إنما هو لاستصلاح حالهم لعلهم يخفضون بعدها من غلواتهم ويرعوون عن غيهم ويشعرون بصلاح أمرهم. اهـ.

قلت: ويفيد كذلك أن ما وقع لهم منه من قتالٍ وغيره لم يكن ليقدم عليه لولا كفرهم وغيهم. وإذا عزَّ عليه عنتهم الماضي فعزَّز عليه أيضاً أي عنت في المستقبل.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾﴾ (البقرة: ١٢٩).

قال ابن عاشور: انتقل الكلام من خطاب العرب إلى خطاب النبي ﷺ بما كان مقتضى الظاهر أن يخاطبوا هم به اعتماداً على قرينة حرف التفریع فقيل له: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ والتقدير فإن توليتهم عنه فحسبه الله وقل حسبي الله فجاء بهذا النظم البديع للإيجاز مع ما فيه من براعة الإيحاء إلى عدم تأهلهم لخطاب الله على تقدير حالة توليهم. والتولي: الإعراض والإدبار وهو مستعار هنا للمكابرة والعناد.

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ ﴾ (يُوسُفَ : ٢).

قال ابن عاشور: الهمزة للاستفهام المستعمل في الإنكار أي كيف يتعجبون من ذلك تعجب إحالة وفائدة إدخال الاستفهام الإنكاري على «كان» دون أن يقال: أعجب الناس، هي الدلالة على التعجب من تعجبهم المراد به إحالة الوحي إلى بشر. والمعنى أحدث وتقرر فيهم التعجب من وحيه؛ لأن فعل الكون يشعر بالاستقرار والتمكن فإذا عبر به أشعر بأن هذا غير متوقع حصوله و﴿ لِلنَّاسِ ﴾ متعلق بـ «كان» لزيادة الدلالة على استقرار هذا التعجب فيهم لأن أصل اللام أن تفيد الملك ويستعار ذلك للتمكن أي لتمكن الكون عجباً من نفوسهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴾ (يُوسُفَ : ١٦)، وفيها بيان أن تلاوة النبي ﷺ للقرآن نعمة، وكذا كون الله أدرانا به نعمة، فيا عجباً لهؤلاء الذين لا يعقلون كيف كفروا بالقرآن !! والله إن الواحد منا ليرك الإكثار من قراءة القرآن أحياناً، فيضيق عليه قلبه، وتتنكر له الأرض فما هي بالتي كان يعرف !! ولا تهدأ نفسه ويرتاح قلبه حتى يعاود الزاد من كتاب الله، فكيف بمن هجره كلية وهو مسلم !! بل كيف بمن كفر بالله ورسوله !! نعوذ بالله ثم نعوذ بالله أن يُحال بيننا وبين كتاب الله !! ونسأله عز وجل أن يرزقنا - بفضلته وإحسانه - شرف الاشتغال بكتابه تلاوة ودراسة وحفظاً وفهماً !!

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَرَبَ أَهْلُهَا أَنَهُمْ قَدِירוْكَ عَلَيْهَا أَتْمَرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ ﴾ ﴾ (يُوسُفَ : ٢٤).

قال ابن عاشور: وقوله: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ﴾ وصف لنبات الأرض الذي منه أصناف يأكلها الناس من الخضروات والبقول وأصناف تأكلها الأنعام من العشب والكلاء وذلك يشبه به ما ينعم به الناس في الحياة من اللذات وما ينعم به الحيوان فإن له حظاً في نعيم الحياة بمقدار نطاق حياته. ولما كان ذلك قد تضمن المأكول والأكل صحَّ أن تشبه به رغبات الناس في تناول لذائذ الحياة على حسب اختلاف مراتب الهمم وذلك يتضمن تشبيه معالي الأمور من نعم الدنيا التي تسمو إليها الهمم العوالي بالنبات الذي يقتاته الناس، وتشبيه سفاسف الأمور بالنبات الذي يأمله الأنعام ويتضمن تشبيه الذين ينجحون إلى تلك السفاسف بالأنعام كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمْتَنِعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ﴾.

وقوله: ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ترديد في الوقت لإثارة التوقع من إمكان زوال نضارة الحياة في جميع الأزمنة لأن الشيء الموقت بمعين من التوقيت يكون الناس في أمن من حلوله في غير ذلك الوقت. والزخرف اسم الذهب وأطلق على ما يتزين به مما فيه ذهب وتلوين من الثياب والحلي. وإطلاق أخذ الأرض زخرفها على حصول الزينة فيها استعارة مكنية شبهت الأرض بالمرأة حين تريد التزين فتحضر فاخر ثيابها من حلي وألوان. والعرب يطلقون على ذلك التناول اسم الأخذ قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ حُدُوًّا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وقال بشار بن برد:

وَحُذِي مَلَابِسَ زِينَةٍ ... وَمُصَبَّغَاتٍ وَهِيَ أَفْخَرُ

وذكر ﴿وَأَزَيَّنَتْ﴾ عقب ﴿زُخْرِفُهَا﴾ ترشيح للاستعارة لأن المرأة تأخذ زخرفها للتزين.

فائدة: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزَيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا

عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ﴿ (يُونُسَ : ٢٤) ، فقال : ﴿ حَصِيدًا ﴾ ولم يقل : «محسوداً» ؛ قال د. فاضل : فعيل أبلغ من مفعول وأشد ، فإن صيغة «مفعول» تدل على الشدة والضعف في الوصف بخلاف «فعيل» التي تدل على الشدة والمبالغة في الوصف ، فالمجروح جرحاً صغيراً أو بالغاً يصح أن يُسمى مجروحاً ، ولا يقال جريح إلا إذا كان جرحه بالغاً ، ومثله في المكسور والكسير . قلت : فقوله هنا ﴿ حَصِيدًا ﴾ يدل على الشدة والمبالغة في الحصد .

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ ﴾ (يُونُسَ : ٧٤) .

قال ابن عاشور : وصيغ النفي بصيغة لام الجحود مبالغة في انتفاء الإيثار عنهم بأقصى أحوال الانتفاء حتى كأنهم لم يوجدوا لأن يؤمنوا بما كذبوا به أي لم يتزحزحوا عنه . ودلت صيغة الجحود على أن الرسل حاولوا إيمانهم محاولة متكررة ودل قوله : ﴿ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أن هنالك تكديباً بادروا به لرسلمهم وأنهم لم يقلعوا عن تكذيبهم الذي قابلوا به الرسل لأن التكذيب إنما يكون لخبر مخبر فقوله : ﴿ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ مؤذن بحصول التكذيب فلما كذبوهم جاؤوهم بالبينات على صدقهم فاستمروا على التكذيب فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل . وهذا من إيجاز الحذف لجمل كثيرة وهذا يقتضي تكرر الدعوة وتكرر البينات وإلا لما كان لقوله : ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقع لأن التكذيب الذي حصل أول مرة إذا لم يطرأ عليه ما من شأنه أن يقلعه كان تكديباً واحداً منسياً . وهذا من بلاغة معاني القرآن .

﴿ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴾ (يُونُسَ : ٩٠)

قال ابن عاشور : وتركيب الجملة إيجاز لأنها قامت مقام خمس جمل ؛ جملة تفيد أن فرعون حاول اللحاق ببني إسرائيل إلى أقصى أحوال الإمكان والطمع في اللحاق ،

وجملة تفيد أنه لم يلحقهم وهاتان مستفادان من ﴿حَتَّى﴾ وهاتان منة على بني إسرائيل، وجملة تفيد أنه غمره الماء فغرق وهذه مستفادة من قوله: ﴿أَدْرَكُهُ الْغَرَقُ﴾ وهي عقوبة له وكرامة لموسى ﷺ، وجملة تفيد أنه لم يسعه إلا الإيمان بالله لأنه قهرته أدلة الإيمان وهذه مستفادة من ربط جملة إيمانه بالظرف في قوله: ﴿إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ وهذه منقبة للإيمان وأن الحق يغلب الباطل في النهاية، وجملة تفيد أنه ما آمن حتى أيس من النجاة لتصلبه في الكفر ومع ذلك غلبه الله وهذه موعظة للكافرين وعزة لله تعالى.

❁ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ (يُونُسَ: ١٠٥).

قال ابن عاشور: والإقامة جعل الشيء قائماً وهي هنا مستعارة لإفراد الوجه بالتوجه إلى شيء معين لا يترك وجهه ينثني إلى شيء آخر واللام للعلقة أي لأجل الدين فيصير المعنى: محض وجهك للدين لا تجعل لغير الدين شريكاً في توجهك. وهذه التمثيلية كناية عن توجيه نفسه بأسرها لأجل ما أمره الله به من التبليغ وإرشاد الأمة وإصلاحها وقريب منه قوله: ﴿أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ في سورة آل عمران.



سُورَةُ هُودٍ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴾ (هُود: ٢٤).

قال ابن عاشور: وقد يظن الناظر أن المناسب ترك عطف صفة ﴿ وَالْأَصْمَى ﴾ على صفة ﴿ كَالْأَعْمَى ﴾ كما لم يعطف نظيراتها في قوله تعالى: ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمَى ﴾ في سورة البقرة ظناً بأن مورد الآيتين سواء في أن المراد تشبيه من جمعوا بين الصفتين وذلك أحد وجهين ذكرهما صاحب الكشاف. والوجه عندي في الداعي إلى عطف صفة ﴿ وَالْأَصْمَى ﴾ على صفة ﴿ كَالْأَعْمَى ﴾ أنه ملحوظ فيه أن لفريق الكفار حالين كل حال منهما جدير بتشبيهه بصفة من تينك الصفتين على حدة فهم يشبهون الأعمى في عدم الاهتمام إلى الدلائل التي طريق إدراكها البصر ويشبهون الأصم في عدم فهم المواعظ النافعة التي طريق فهمها السمع. فهم في حالتين كل حال منهما مشبه به ففي قوله تعالى: ﴿ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى ﴾ تشبيهان مفرقان كقول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا ... لَدَى وَكْرَهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

والذي في الآية تشبيه معقولين بمحسوسين واعتبار كل حال من حالي فريق الكفار لا محيد عنه لأن حصول أحد الحالين كافٍ في جر الضلال إليهم بله اجتماعهما إذ المشبه بهما أمر عديم فهو في قوة المنفي. وأما الداعي إلى العطف في صفتي ﴿ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ بالنسبة لحال فريق المؤمنين فبخلاف ما قررنا في حال فريق الكافرين لأن حال المؤمنين تشبه حالة مجموع صفتي ﴿ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ إذ الاهتمام يحصل بمجموع الصفتين. فلو ثبتت إحدى الصفتين وانتفت الأخرى لم يحصل الاهتمام إذ الأمران المشبه بهما أمران وجوديان فهما في قوة الإثبات؛ فتعين أن الكون الداعي إلى عطف ﴿ وَالسَّمِيعِ ﴾ على ﴿ وَالْبَصِيرِ ﴾ في تشبيه حال فريق المؤمنين هو المزاجية في العبادة لتكون العبارة عن

حال المؤمنين ماثلة للعبارة عن حال الكافرين في سياق الكلام. والمزاوجة من محسنات الكلام ومرجعها إلى فصاحته.

﴿ قَالَ تَعَالَى: فِي مَعْرُضِ ذِكْرِ قِصَّةِ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَانَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كِرِهُونَ ﴾ (هُود: ٢٨)، فقال: ﴿ أَنُلْزِمُكُمْوهَا ﴾ ولم يقل: «أنلزمكم إياها» مثلاً، بل أتى بهذه الكلمة التي أدمجت فيها كل هذه الضمائر في النطق، وشُدَّ بعضها إلى بعض، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون، ويشدون إليه وهم منه نافرون؛ أفاده في التصوير الفني في القرآن.

﴿ قَالَ تَعَالَى: فِي مَعْرُضِ ذِكْرِ قِصَّةِ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ: ﴿ وَيَقَوْمٍ لَاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّ إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰ ذُنُوبَكُمْ قَوْمًا تَجهَلُونَ ﴾ (هُود: ٢٩)، فقال: ﴿ مَا لَّ ﴾ ولم يقل: «أجراً» لأنهم أرادوا إيمالته عن الحق وإيمالته عن صحبة المؤمنين الفقراء من أتباعه وسألوه طردهم عنه، فناسب أن يقول: ﴿ مَا لَّ ﴾ ليدل على أنه لن يميل عن الحق ولن يقبل أيّ مساومة في ذلك.

وتأمل قوله: ﴿ لَاَ أَسْأَلُكُمْ ﴾ ولم يقل: «لن آخذ مالاً»، فقد يصلح هذا كدليل للإمام أحمد في رواية ومن وافقه على جواز أخذ أجره على تعليم العلم والقرآن دون سؤال أو اشتراط ولكن ما أعطي أخذ، مع أن الأنبياء ما أخذوا ولا سألوا ولكن أتى بهذا الأسلوب للإشارة إلى ذلك، والله أعلم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئِي أَرِيبًا مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤١) قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (هُود: ٤٢، ٤٣). فقال: ﴿ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ ولم يقل: «غارقاً» ولا «مع المغرقين» وفي ذلك دقة متناهية، لأنه لو قال: «مع المغرقين» لم يعلم هل غرق معهم وهو على كفره أم نالته العقوبة لمعيته لهم، مع أنه كان قد أسلم، فلما قال: ﴿ مِنَ ﴾ دلّ على أنه مات كافراً،

ولو قال: «غارقاً» لما علم هل غرق غيره معه أم لا، فلما قال: ﴿مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾ دل على غرق الكفار أيضاً.

تنبيه: قال ابن عاشور: عدل عن الفعل الماضي إلى المضارع ﴿وَهِيَ تَجْرِي﴾ لاستحضار الحالة مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾.

﴿قَالَ تَعَالَى: لَنُوحٍ﴾ قال ينوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعطتك أن تكون من الجاهلين﴾ (هود: ٤٦)، فقال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ﴾ بحذف الياء بينما قال في معرض ذكر قصة الخضر مع موسى عليه السلام وقول الخضر لموسى: ﴿قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف: ٧٠)، فقال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ بزيادة الياء، وفي ذلك دقة بالغة لأن نهي نوح كان عن مجرد السؤال، فناسب أن يحذف الياء للدلالة على ذلك، بينما في قصة الخضر المنهي عنه هو السؤال عن علل وحكم ما سيفعله الخضر، وأما غير ذلك من الأسئلة، فلا، فزيادة الياء أفادت هذا القيد.

﴿قَالَ تَعَالَى: لَنُوحٍ بَعْدَ الطُوفَانِ﴾ قِيلَ يَنْوُحُ أَهْطُ سَلِمَ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمٌّ سَمِعَتْهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (هود: ٤٨).

قال في (الدر المشور): أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال: دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك المتاع والعذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة. اهـ.

قلت: اللهم إنا نسألك كما رزقنا الإسلام قبل أن توجدنا، وكما أدخلتنا في ذلك السلام والبركات، نسألك أن تتم علينا نعمتك بالوفاة على الإسلام !!

فوائد:

١ - استشعار المؤمن أنه قد نالته البركات والسلام من ربه، سبب كبير من أسباب زيادة حبه لربه عز وجل ورجائه وطمعه في فضله ورحمته.

٢- كان بعض الصالحين يتوسلون إلى الله بكرمه وإفضاله عليهم؛ فإنَّ الكريم يحب ذلك، وقد روي أنَّ سائلاً دخل على كريمٍ يسأله عطاءً، فتوسل إليه بقوله: أنا الذي فعلت معي كذا وكذا يعدد عليه أياديه عليه، فقال الكريم: مرحباً بمن يتوسل إلينا بكرمنا !! فقوموا إلى ربكم، وتوسلوا إليه بنعمه عليكم ... اللهم أنا الذي أكرمتني بالإسلام قبل أن أكون شيئاً مذكوراً.. وأنا الذي مننت عليَّ بصحبة أهل السُّنة والجماعة.. وأنا الذي ما بي من خيرٍ ونعمةٍ فمَنك وحدك لا شريك لك.. وأنا الذي ما قضيت لي من قضاءٍ إلَّا وجعلت فيه خيراً.. فأسألك يا جواد يا كريم أن تتوفاني على الإسلام والسُّنة وأنت راضٍ عني !!

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يُونُس: ٧، ٨).

قال في (الدر المنثور): أخرج أبو الشيخ عن يوسف بن أسباط قال: الدنيا دار نعيم الظالمين. قال: وقال علي بن أبي طالب: الدنيا جيفة فمَن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب. ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ أَعَادٌ جَعَلُوا بَيْنَكَ وَرَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾﴾ (هُود: ٥٩، ٦٠).

قال ابن عاشور: وإتباع اللعنة إياهم مستعار لإصابتها إياهم إصابة عاجلة دون تأخير كما يتبع الماشي بمن يلحقه ومما يزيد هذه الاستعارة حسناً ما فيها من المشاكلة ومن مماثلة العقاب للجرم لأنهم اتبعوا الملعونين فأتبعوا باللعنة. وبنى فعل ﴿وَأَتَّبَعُوا﴾ للمجهول إذ لا غرض في بيان الفاعل. ولم يسند الفعل إلى اللعنة مع استيفائه ذلك على وجه المجاز ليدل على ان إتباعها لهم كان بأمر فاعل للإشعار بأنها تبعتهم عقاباً من الله لا مجرد مصادفة. واللعنة الطرد بإهانة وتحقير، وقرن الدنيا باسم الإشارة لقصد تهوين أمرها بالنسبة إلى لعنة الآخرة كما في قول قيس بن الخطيم:

متى يأت هذا الموت لا يلف حاجة ... لنفسي إلا قد قضيت قضاءها

أوماً إلى أنه لا يكثرث بالموت ولا يها به.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ

عَصِيبٌ ﴾ (هُود: ٧٧).

قال ابن عاشور: ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها في الوجود فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب المخلص منه فإذا علم أنه لا مخلص منه ضاق به ذرعاً ثم يصدر تعبيراً عن المعاني وترتيباً عنه كلاماً يريح به نفسه.



سُورَةُ يُوسُفَ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (يُوسُفَ: ١٨).

قال ابن عاشور: والتعبير عما أصاب يوسف عليه السلام ﴿ مَا تَصِفُونَ ﴾ في غاية البلاغة لأنه كان واثقاً بأنهم كاذبون في الصفة وواثقاً بأنهم ألحقوا بيوسف عليه السلام ضرراً فلما لم يتعين عنده المصائب أجمل التعبير عنه إجمالاً موجهاً لأنهم يحسبون أن ما يصفونه هو موته بأكل الذئب إياه ويعقوب عليه السلام يريد أن ما يصفونه هو المصائب الواقعة الذي وصفوه وصفاً كاذباً فهو قريب من قوله تعالى: ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾. وإنما فوض يعقوب عليه السلام الأمر إلى الله ولم يسع للكشف عن مصير يوسف عليه السلام لأنه علمَ تعذر ذلك عليه لكبر سنه ولأنه لا عضد له يستعين به على أبنائه أولئك وقد صاروا هم الساعين في البعد بينه وبين يوسف عليه السلام فأيس من استطاعة الكشف عن يوسف عليه السلام بدونهم، ألا ترى أنه لما وجد منهم فرصة قال لهم: ﴿ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ ﴾.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ (يُوسُفَ: ٨٦).

قال في (الدر المنثور): وأخرج عبد الرزاق وابن جرير، عن مسلم بن يسار رحمته الله يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من بث لم يصبر» ثم قرأ ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾. وأخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عمر رحمتهما الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من بث لم يصبر» ثم قرأ ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾. وأخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عمر رحمتهما الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كنوز البر، إخفاء الصدقة، وكتمان المصائب والأمراض، ومن بث لم يصبر» (أي من بث إلى الناس على وجه الشكاية).

وأخرج البيهقي من وجه آخر، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب رحمته الله قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث من كنوز البر: كتمان الصدقة، وكتمان المصيبة، وكتمان المرض».

وأخرج البيهقي في الشعب وضعفه، عن أنس رحمته الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أصبح حزناً على الدنيا، أصبح ساخطاً على ربه. ومن أصبح يشكو مصيبةً نزلت به، فإنما يشكو الله. ومن تضعضع لغني لينال من دنياه، أحبط الله ثلثي عمله. ومن أعطي القرآن فدخل النار، فأبعده الله».

وأخرج البيهقي وضعفه، عن ابن مسعود رحمته الله مرفوعاً مثله. وأحمد في الزهد والبيهقي، عن أبي الدرداء رحمته الله قال: ثلاث من ملاك أمرك: أن لا تشكو مصيبتك، وأن لا تحدث بوجعك، وأن لا تزكي نفسك، بلسانك.

وأحمد في الزهد والبيهقي، عن وهب بن منبه رحمته الله قال: وجدت في التوراة أربعة أسطر متوالية: من شكا مصيبتك فإنما يشكو ربه، ومن تضعضع لغني ذهب ثلثا دينه، ومن حزن على ما في يده غيره فقد سخط قضاء ربه، ومن قرأ كتاب الله فظن أن لا يغفر له، فهو من المستهزئين بآيات الله.

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي، عن الحسن رحمته الله قال: من ابتلي ببلاء فكتمه ثلاثاً، لا يشكو إلى أحد، أتاه الله برحمته.

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن حبيب بن أبي ثابت: أن يعقوب عليه السلام، كان قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فكان يرفعهما بخرقه. ف قيل له: ما بلغ بك هذا؟ قال: طول الزمان، وكثرة الأحزان. فأوحى الله إليه: «يا يعقوب، أتشكوني؟ قال: يا رب، خطيئة أخطأتها، فاغفر لي». قلت: هذا من الإسرائيليات والقرآن قد أخبر أنه عليه السلام وعد بالصبر الجميل. والأنبياء لا يخلفون الوعد.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي﴾ قال: همي.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ، عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿أَشْكُوا بَثِّي﴾ قال: حاجتي.

❖ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَتَّخِذُ الْعَزِيزُ مَسَنًا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِثْنَا بِضَعَةٍ مُرْجَلَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يُونُسُ: ٨٨)، وقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الْأَنْعَامُ: ٣٥)، وقال: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الْمَائِدَةُ: ١٨)، قال د. فاضل: فقال في آية يوسف: ﴿الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ وقال في آية الأحزاب: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ غير أنه قال في الحديد: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ بالإبدال والإدغام وقد ناسب كل تعبير موطنه ففي آية يوسف قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ولم يقل: «المصدقين» لأكثر من سبب منها: أنهم طلبوا التصديق عليهم ولم يطلبوا أن يبالغ لهم في الصدقة وذلك من حسن أديهم، ومنها أنه لو قال: «إن الله يجزي المصدقين» لأفاد بذلك أن الله يجزي المبالغين في الصدقة دون من لم يبالغ وهذا غير مراد فإن الله يجزي على القليل والكثير وهو يجزي المتصدق والمصدق فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يدخل فيه المصدقون ولو قال: «يجزي المصدقين» لم يدخل المقلون في صدقاتهم والله أعلم، فهذا من باب ذكر الأدنى للتنبيه على الأعلى. وأما ما ورد في الأحزاب فقد جاء بها على الأصل من غير إدغام وذلك للتفصيل في الصفات وتعدادها والإطالة في ذكرها فناسب الفك وليشمل عموم أصحاب الصدقة. وأما ما في آية الحديد فإنه ذكر المبالغين

في الصدقات وذكر أنه يضاعف لهم ولهم أجر كريم. وكل اقتضى مكانه فإنه ذكر من بالغ في الصدقة في سورة الحديد لأنه تكرر فيها ذكر الإنفاق والنهي عن البخل فناسب ذكر المبالغة في الصدقة. اهـ.

قلت: ويصح أن يقال أيضاً: ذكر في سورة الأحزاب ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ليدل على الوعد بالمغفرة والأجر العظيم لكل متصدق ولو بالقليل، بينما ذكر في سورة الحديد ﴿إِنَّ الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ مع المضاعفة ﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ ليدل على أن المضاعفة تزداد مع زيادة الصدقة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾﴾ (يُؤْتِيكَ : ٩٣).

قال ابن عاشور: وفائدة إرساله إلى أبيه القميص أن يثق أبوه بحياته ووجوده في مصر، فلا يظن الدعوة إلى قدومه مكيدة من ملك مصر ولقصد المسرة له. والأظهر أنه جعل إرسال قميصه علامة على صدق إخوته فيما يبلغونه إلى أبيهم من أمر يوسف عليه السلام بجلبه؛ فإن قمصان الملوك والكبراء تنسج إليهم خصيصاً ولا توجد أمثالها عند الناس وكان الملوك يخلعونها على خاصتهم، فجعل يوسف عليه السلام إرسال قميصه علامة لأبيه على صدق إخوته أنهم جاءوا من عند يوسف عليه السلام بخبر صدق. ومن البعيد ما قيل: إن القميص كان قميص إبراهيم عليه السلام مع أن قميص يوسف قد جاء به إخوته إلى أبيهم حين جاءوا عليه بدم كذب. وأما إلقاء القميص على وجه أبيه فلقصد المفاجأة بالبشرى لأنه كان لا يبصر من بعيد فلا يتبين رفعه القميص إلا من قرب. وأما كونه يصير بصيراً فحصل ليوسف عليه السلام بالوحي فبشرهم به من ذلك الحين.

فائدة : قال د. فاضل: قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يُؤْتِيكَ : ١١٠)، بينما قال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَل لِّكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأنعام : ٣٤).

فقال في آية يوسف: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ وفي آية الأنعام: ﴿أَنْتُمْ نَصْرُنَا﴾ ومن الواضح أن الحالة الأولى أشق وأصعب وذلك أن الرسل بلغوا درجة الاستيئاس وهي أبعد وأبلغ وذهب بهم الظن إلى أنهم كُذِّبوا أي: أن الله سبحانه وتعالى كذبهم ولم يصدقهم فيما وَعَدَهُم به وهذا أبلغ درجات اليأس وأبعدها وعند ذاك جاءهم نصره سبحانه فنجَّى من شاء وعوقب المجرمون. في حين ذكر في الآية الأخرى أنهم كُذِّبوا أي كذبهم الكافرون وأوذوا فصبروا وفرق بعيد بعيد بين الحالتين فلقد يكذب الرسل وأتباعهم ويؤذون ولكن الوصول إلى درجة اليأس والظن بالله الظنون البعيدة أمر كبير ثم انظر إلى خاتمة الآيتين تر الفرق واضحاً. فما ذكره من نجاة للمؤمنين، ونزول البأس على الكافرين في آية يوسف مما لا تجده في آية الأنعام يدل على الفرق بينهما. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٥) فَاذْقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٢٥، ٢٦) وقوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَفْكَ اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦١) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الحج: ٢٦، ٢٧).

فقال في الآيتين: ﴿وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ﴾ في حين قال: ﴿وَسَتَعْلُوكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٣) يَسْتَعْلُوكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٣ - ٥٥). فقال: ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وذلك أن الآيتين الأوليين في عذاب الدنيا بدليل قوله في آية النحل: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ وقوله في آية الزمر: ﴿فَاذْقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٢٦) في حين أن آية العنكبوت في عذاب الآخرة وحتى لو كانت في عذاب

الدنيا فإن ما ذكر فيها من العذاب أشق وأشد مما في الآيتين الآخرين بدليل قوله: ﴿وَلِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ فجاء لما هو أشق وأشد بالفعل «جاء» ولما هو أيسر بـ «أتى». أ. هـ.

تنبيه: فإن قيل: فلم قال ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْذِنَهُمْ بَعْتَهُ﴾ (الْحَبْكُوتُ: ٥٣)؟

قلت: قال: ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ليدل على قوة وشدة ذلك العذاب، وذلك لما يفيد

فعل «جاء»، بينما قال: ﴿وَلِيَأْذِنَهُمْ بَعْتَهُ﴾ ليدل على سهولة ذلك على الله رغم صعوبة في عرف البشر، وذلك لما يفيد فعل «أتى» من السهولة، فأكرم بدقة القرآن !!

❁ قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يُوسُفُ: ١١٠).

قال ابن عاشور: والجمع بين الماضي في ﴿فَنُجِّيَ﴾ والمضارع في ﴿نَشَاءُ﴾ احتباك

تقديره فَنُجِّيَ مَنْ شِئْنَا مَنْ نَجَا فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ وَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْمَكْذِبِينَ.



سُورَةُ الرَّعْدِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الرَّعْدُ: ٣).

قال ابن عاشور: جيء في التفكير بالصيغة الدالة على التكلف وبصيغة المضارع ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ للإشارة إلى تفكير شديد ومكرر. أ.هـ.

قلت: فيا حسرة على العباد !! أكثرهم - إلا من رحم الله - لا يكاد يتفكر أصلاً.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَرَعَ وَنَحِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرَّعْدُ: ٤).

قال ابن عاشور: لله بلاغة القرآن في تغيير الأسلوب عند الانتقال إلى ذكر النعم الدالة على قدرة الله تعالى فيما أهم الناس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها فجاء ذلك معطوفاً على الأشياء التي أسند جعلها إلى الله تعالى ولكنه لم يسند إلى الله حتى بلغ إلى قوله: ﴿ وَنُفِضْلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ لأن ذلك بأسرار أودعها الله تعالى فيها هي موجب تفاضلها وأمثال هذه العبر ولفت النظر مما انفرد به القرآن من بين سائر الكتب. وأعيد اسم ﴿ الْأَرْضِ ﴾ الظاهر دون ضميرها الذي هو المقتضى ليستقل الكلام ويتجدد الأسلوب وأصل انتظام الكلام أن يقال: جعل فيها زوجين اثنين وفيها قطع متجاورات فعدل إلى هذا توضيحاً وإيجازاً.

والقطع: جمع قطعة بكسر القاف وهي الجزء من الشيء تشبيهاً لها بما يقطع.

وليس وصف القطع بمتجاورات مقصوداً بالذات في هذا المقام إذ ليس هو محل العبرة بالآيات بل المقصود وصف محذوف دل عليه السياق تقديره: مختلفات الألوان والمنابت كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَنُفِضْلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾.

وإنها وصفت بمتجاورات لأن اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشد دلالة على القدرة العظيمة. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَعَرَبِيٌّ سُودٌ ﴾. فمعنى ﴿ قَطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ ﴾ بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة. والاقتصار على ذكر الأرض وقطعها يشير إلى اختلاف حاصل فيها عن غير صنع الناس وذلك اختلاف المراعي والكلاء. ومجرد ذكر القطع كاف في ذلك فأحاطهم على المشاهدة المعروفة من اختلاف منابت قطع الأرض من الأب والكلاء وهي مراعي أنعامهم ودوابهم. ولذلك لم يقع التعرض هنا لاختلاف أكله إذ لا مذاق للآدمي فيه ولكنه يختلف شره بعض الحيوانات على بعضه دون بعض.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ ﴾ (النحل: ٨).

قال ابن عاشور: فأما هنا فصيغ الخبر بصيغة المضارع المفيد للتجدد والتكرير لإفادة أن ذلك العلم متكرر متجدد التعلق بمقتضى أحوال المعلومات المتنوعة والمتكاثرة على نحو ما قرر في قوله: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾.

وتغيض: تنقص. والظاهر أنه كناية عن العلق لأن غيض الرحم انحباس دم الحيض عنها. وازديادها: فيضان الحيض منها. ويجوز أن يكون الغيض مستعاراً لعدم التعدد.

والازدياد: التعدد أي ما يكون في الأرحام من جنين واحد أو عدة أجنة وذلك في الإنسان والحيوان. اهـ.

قلت: وقد أثبت العلم الحديث فيما حكاه البعض أن غيض الأرحام هو أن النطفة عندما تلقح البويضة ينغرز الزيجوت الناتج في جدار الرحم فينبجع الرحم، فهذا هو غيضه، والله أعلم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يُؤُودُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهَا كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (الزَّحْزَاةُ : ١٧) .

قال ابن عاشور: وعدل عن تسمية الذهب والفضة إلى الموصولية بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤُودُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ . لأنها أخصر وأجمع، ولأن الغرض في ذكر الجملة المجعولة صلة. فلو ذكرت بكيفية غير صلة كالوصفية مثلاً لكانت بمنزلة الفضلة في الكلام ولطال الكلام بذكر اسم المعدنين مع ذكر الصلة؛ إذ لا محيد عن ذكر الوقود لأنه سبب الزبد، فكان الإتيان بالموصول قضاء لحق ذكر الجملة مع الاختصار البديع. ولأن في العدول عن ذكر اسم الذهب والفضة إعرافاً يؤذن بقلّة الاكتراث بهما وترفعاً عن ولع الناس بهما فإن اسميهما قد اقترنا بالتعظيم في عرف الناس.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ يُؤُوقُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ أَلْمِثْقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ . (الزَّحْزَاةُ : ٢٠ - ٢٢)

قال ابن عاشور: وجاءت الصلوات ﴿ الَّذِينَ يُؤُوقُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ وما عطف عليهما بصيغة المضارع في تلك الأفعال الخمسة لإفادة التجدد كناية عن الاستمرار. وجاءت صلة ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ وما عطف عليها وهو ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا ﴾ بصيغة الماضي لإفادة تحقق هذه الأفعال الثلاثة لهم وتمكنها من أنفسهم وتنوياً بأنها أصول لفضائل الأعمال. فأما الصبر فلأنه ملاك استقامة الأعمال ومصدرها فإذا تحلق به المؤمن صدرت عنه الحسنات والفضائل بسهولة، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ .

وأما الصلاة فلأنها عماد الدين وفيها ما في الصبر من الخاصة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ . وأما الإنفاق فأصله الزكاة، وهي مقارنة للصلاة كلما ذكرت، ولها الحظ الأوفى من اعتناء الدين بها، ومنها النفقات والعطايا كلها، وهي أهم الأعمال لأن بذل المال يشق على النفوس فكان له من الأهمية ما جعله ثانياً للصلاة ثم أعيد أسلوب التعبير بالمضارع في المعطوف على الصلة وهو قوله: ﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ لاقتضاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء مما يحرص عليه لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السيئات بالحسنات.

فائدة جليلة في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُوكَ﴾: قال ابن عاشور: والدرء: الدفع والطرء. وهو هنا مستعار لإزالة أثر الشيء فيكون بعد حصول المدفوع وقبل حصوله بأن يُعَدَّ ما يمنع حصوله. فيصدق ذلك بأن يتبع السيئة إذا صدرت منه بفعل الحسنات فإن ذلك كطرد السيئة. قال النبي ﷺ: «يا معاذ اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها....» وهذه وخاصة فيما بينه وبين ربه.

ويصدق بأن لا يقابل من فعل معه سيئة بمثلها بل يقابل ذلك بالإحسان؛ قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ بأن يصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عن من ظلمه. وذلك فيما بين الأفراد وكذلك بين الجماعات إذا لم يفضي إلى استمرار الضرر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ﴾ . ويصدق بالعدول عن فعل السيئة بعد العزم فإن ذلك العدول حسنة درأت السيئة المعزوم عليها. قال النبي ﷺ: «من هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة».

فلقد جمع ﴿وَيَذَرُوكَ﴾ جميع هذه المعاني. ولهذا لم يعقب بما يقتضي أن المراد معاملة المسيء بالإحسان كما أتبع في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ ﴿ في سورة فصلت، فقال ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾، وكما في قوله: ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ في سورة المؤمنون.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (البقرة: ٤٣).

قال ابن عاشور: وقد حكى قولهم بصيغة المضارع للدلالة على تكرار ذلك منهم ولاستحضار حالهم العجيبة من الاستمرار على التكذيب بعد أن رأوا دلائل الصدق، كما عبر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلُكُ ﴾ وقوله: ﴿ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾.



سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (إِبْرَاهِيمَ: ١ - ٤).

قال في (الظلال): ﴿ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ .. لتخرج هذه البشرية من الظلمات. ظلمات الوهم والخرافة. وظلمات الأوضاع والتقاليد. وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة، وفي اضطراب التصورات والقيم والموازين.. لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور. النور الذي يكشف هذه الظلمات. يكشفها في عالم الضمير وفي دنيا التفكير. ثم يكشفها في واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد. والإيمان بالله نور يشرق في القلب، فيشرق به هذا الكيان البشري، المركب من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله. فإذا ما خلا من إشراق هذه النفخة، وإذا ما طمست فيه هذه الإشرقة استحال طينة معتمة. طينة من لحم ودم كالبهيمة، فاللحم والدم وحدهما من جنس طينة الأرض ومادتها. لولا تلك الإشرقة التي تنتفض فيه من أمر الله، يرققها الإيمان ويجلوها، ويطلقها تشف في هذا الكيان المعتم، ويشف بها هذا الكيان المعتم. والإيمان بالله نور تشرق به النفس، فترى الطريق. ترى الطريق واضحة إلى الله، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب. غبش الأوهام وضباب الخرافات. أو غبش الشهوات وضباب الأطلع. ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار.

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة. فإذا الناس كلهم عباد متساوون. تربط بينهم أصرتهم في الله وتتمحض دينونتهم له دون سواه، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة. وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة. معرفة الناموس المسير لهذا الكون وما فيه ومن فيه. فإذا هم في سلام مع الكون وما فيه ومن فيه.

والإيمان بالله نور. نور العدل. ونور الحرية. ونور المعرفة. ونور الأنس بجوار الله، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته في السراء والضراء. ذلك الاطمئنان الذي يستتبع الصبر في الضراء والشكر في السراء على نور من إدراك الحكمة في البلاء.

والإيمان بالله وحده إلهاً ورباً، منهج حياة كامل لا مجرد عقيدة تغمر الضمير وتسكب فيه النور.. منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله وحده، والدينونية لربوبيته وحده، والتخلص من ربوبيات العبيد، والاستعلاء على حاكمية العبيد..

وفي هذا المنهج من المواءمة مع الفطرة البشرية، ومع الحاجات الحقيقية لهذه الفطرة، ما يملأ الحياة سعادة ونوراً وطمأنينة وراحة. كما أن فيه من الاستقرار والثبات عاصماً من التقلبات والتخبطات التي تتعرض لها المجتمعات التي تخضع لربوبية العبيد، وحاكمية العبيد. ومناهج العبيد في السياسة والحكم وفي الاقتصاد والاجتماع، وفي الخلق والسلوك، وفي العادات والتقاليد.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ (إِنَّا أَنْجَيْنَاكُمْ: ٦)، فقال: ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ بينما قال في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدْعِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٩)، فقال: ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾، قال د. فاضل السامرائي: «أنجى» على وزن «أفعل» تدل على سرعة الإنجاء، و«نجى» على وزن «فعل» تدل على التلبث والتمهل في التخليص من الشدة والكرب. أ.هـ.

قلتُ: وجه قوله في سورة إبراهيم المكية: ﴿أَنْجَحَكُمْ﴾ هو بيان عظيم المنّة عليهم في إنجائهم من فرعون، ولو شاء الله لطال مكثهم في هذا العذاب، ففي هذا حثّ لهم على الإسلام قبل دخول الرسول ﷺ المدينة، وترغيبٌ لهم، فلمّا دخل المدينة وعادوه وكفروا به، ناسب أن يشير إلى التهديد في طي ذكر النعم عليهم، فقال: ﴿نَجِّنَاكُمْ﴾ التي تدل على عظيم ما كانوا فيه من مهانةٍ وشدةٍ وكربٍ، وأنهم - بكفرهم - بصدد أن يذوقوا من ألوان العذاب والإهانة، أو يكون قد ذكّرهم في المدينة بشدة ما كانوا فيه بقوله في سورة البقرة: ﴿نَجِّنَاكُمْ﴾ ليكون أدعى لاستحياءهم وإيمانهم.

وأما قوله في سورة الإسراء: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (١٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (الأنكabut: ٦٦، ٦٧)، فقال: ﴿نَجَّكُمْ﴾، وكذا قوله في سورة العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٥)، بينما قال في سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْوَحْشِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٢) فَلَمَّا أَنْجَحْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (يونس: ٢٢، ٢٣)، فقال: ﴿أَنْجَحْنَاهُمْ﴾، ﴿نَجَّاهُمْ﴾، فوجه ذلك أنه أراد بيان عظيم كفر الكفار وجحودهم حتى أنّ الله نجاهم من الكرب الشديد العظيم ومع ذلك كفروا، فقال في سورة الإسراء والعنكبوت: ﴿نَجَّكُمْ﴾، ﴿نَجَّاهُمْ﴾ للدلالة على شدة الكرب والبلاء، وأما سورة يونس فقال: ﴿أَنْجَحْنَاهُمْ﴾ ليدل على أنهم لما سألوا النجاة سألوا النجاة السريعة العاجلة فقالوا: ﴿أَنْجَحْنَاهُمْ﴾، واستجاب الله لهم وأعطاهم سؤالهم ﴿نَجَّاهُمْ﴾، ومع ذلك كفروا.

وأما قوله: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِنَفْسِهِ﴾ (١١) وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (المعلاقat: ١١ - ١٤)، فقال: ﴿يُنْجِيهِ﴾

بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴿الْبَنَازِلُ: ٣٨ - ٤٠﴾، وكذا قدرته في إخراج دابة في آخر الزمان تكلم الناس: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (الْبَنَازِلُ: ٨٢)، وقدرته في قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الْبَنَازِلُ: ٨٨)، فناسب ذلك أن يقول: ﴿وَأَنْجَيْنَا﴾ للدلالة على عظيم قدرته سبحانه.

وأما قوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كِبَرَ عَلَيْكُمْ مِّمَّا يَتَذَكَّرُ بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا ﴿يُونُسُ: ٧١ - ٧٣﴾، فقال: ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ بينما قال في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا أَنْزِلْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١٣١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١٣٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٣٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٣٧﴾ فَأَفْنَعُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَجَنِّيًا وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (الشُّعْرَاءُ: ١١١ - ١١٩)، فقال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾، ووجه ذلك أنَّ المملأ الكافرين في سورة الشعراء هددوا نوحاً بالرجم، فدعا عليهم نوحٌ بالهلاك ودعا للمؤمنين بالنجاة، فناسب أن يقول: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ التي تدل على سرعة النجاة وسرعة إجابة الدعاء، كما تدل على عظيم قدرة الله وسهولة ذلك عليه، وأما سورة يونس فقد ذكر فيها عظيم العذاب الذي حلَّ بالكفار في قوله: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ﴾ (يُونُسُ: ٧٣)، فناسب أن يقول: ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾.

فإن قيل: قد دعا لوط لنفسه وأهله أيضاً بالنجاة، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (الشُّعْرَاءُ: ١٦٩)، فكان الجواب ﴿فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (الشُّعْرَاءُ: ١٧٠)، ولم يقل: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ كما قال في نوح؟

قلت: لما ذكر سبحانه في الآيات شدة انتقامه من قوم لوط بقوله: ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ (الشعراء: ١٧٢)، كان الأنسب أن يقول: ﴿فَنَجَّيْنَهُ﴾ بالتضعيف التي تدل على عظيم العقاب والعذاب الذي حلّ بقوم لوط ونجاه الله منه، والله أعلم.

فإن قيل فما وجه قوله سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَفْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ (العنكبوت: ٢٤)، فقال: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ﴾ ولم يقل: «فنجّاه»؟

قلت: لما كان إنجاء إبراهيم عليه السلام من هذه النار العظيمة المتأججة أمراً عجبياً كان الأنسب أن يقول: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ﴾ ليدل على سهولة ذلك على الله القدير المقتدر سبحانه، كما أنّ هذه النار العظيمة لا تكون النجاة منها إلاً بقدرة عظيمة لا يستطيعها إلا الله، وهذا معلوم، فناسب ألا يقول: «فنجّاه الله» التي تدل على ذلك؛ للعلم به، وأن يقول: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ﴾ التي تدل على سهولة ذلك عليه سبحانه، فإنّه ربما توهم متوهم أنّ ذلك كان شاقاً صعباً على الله، فأزال قوله: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ﴾ ذلك التوهم، وهذا أكمل ممّا لو قال: «فنجّاه الله»، والله أعلم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ هُمْ أَنْتُمْ أَنْتُمْ أَوْ لَعُودُكُمْ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَهَا لَكُمْ الظَّالِمِينَ﴾ (إبراهيم: ١٣)، فقال: ﴿فَأَوْحَى﴾ ولم يقل: «وأوحى» ليدل على أنّ عتو الكافرين وتجبرهم لما وصل إلى ذروته جاء وحي الله سريعاً بالنصر للمؤمنين وهلاك الظالمين، فالفاء تدل على التعقيب، فليعلم الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان أنّ الكفر إذا وصل أهله إلى كمال العتو والجبروت فالنصر آتٍ عن قريب.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ (إبراهيم: ٣٠)، فقال: ﴿مَصِيرَكُمْ﴾ ولم يقل: «صيرورتكم»؛ قال د. فاضل: المصدر الميمي «مصير» يدل على بلوغ النهاية، فقولنا: «مصير الخشب رماد» أي نهاية أمره، ومثله: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابٍ﴾ (الزمر: ٣٦)، فإنّ ﴿مَعَابٍ﴾ يعني نهاية الأوب، وأمّ الإياب فإنه

الرجوه ولا يعني منتهى الأوب، ومثله: ﴿لَا جِدْنَ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (الكهف: ٣٦)، أي: عاقبة ومصيراً، وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)، أي: عاقبة أمرهم ونهايتهم، وكذا قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ (البقرة: ٣٠)، أي: منتهى علمهم أو مقدار علمهم، وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (البقرة: ٤٢)، فإنها تعني نهاية المصير إلى الله بخلاف «نهایتك» فإنها تعني الفناء، وكذا قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (البقرة: ٣٠)؛ قال الراغب الأصفهاني: المتاب تعني التوبة التامة، وهو الجمع بين ترك القبيح وتحري الجميل. أ.هـ. فكأنه أراد الغاية في التوبة أو منتهائها.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، فقال: ﴿لَظُلُومٌ﴾ على صيغة «فعل»، بينما قال: ﴿كَفَّارٌ﴾ على صيغة «فعلال». قال د. فاضل: اسم الشيء الذي يُفعل به يكون على «فعل» غالباً كالوَضوء والوقود والسَّحور والغَسول، فالوَضوء: هو الماء الذي يتوضأ به، والوقود: هو ما توقد به النار، والسَّحور: هو ما يُتَسَحَّر به، وكذا الفَطور لما يفطر عليه، ومن هنا استعير البناء إلى المبالغة فعندما تقول: «هو صبور» كان المعنى كأنه مادة تُستنفد في الصبر وتنفى فيه كالوقود الذي يُستهلك في الاتقاد ويفنى فيه، والوَضوء الذي يُسند في الوضوء، وكذا حين تقول: «هو شكور» كأنه مادة معدة للشكر تستهلك فيه، ولذا قال تعالى - والله أعلم - : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سجدة: ١٣).

وقال أيضاً: من المعلوم أنَّ العرب تنسب إلى الحرف والصنعة بصيغة «فعلال» غالباً كالفرَّاء والنَّساج والنَّجَّار والطَّبَّاع والدَّبَّاج والنَّحَّاس والتَّمار واللَّحَّام، وهذا البناء يقتضي المزاولة والتجديد لأنَّ صاحب الصنعة مداوم على صنعته ملازمٌ لها، فعندما تقول: «هو كذاب» كان المعنى كأنها هو شخصٌ حرفته الكذب وهو مداوم عليه كثير المعاناة له مستمر على ذلك لا ينقطع، فقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، كفار: أي مستمر على ذلك يزاوله ويعاينه ويجدده. اهـ.

قلتُ: ولكن يبقى التساؤل لماذا لم يقل: «إنَّ الإنسان لظلام كفور» وقال: ﴿لَظُلُومٌ كَفَّارٌ﴾، فالله أعلم بذلك، وقد يُقال: في الآية ما يشبه الاحتباك، ويكون أصل الكلام: إن الإنسان لظلامٌ ظلومٌ كفارٌ كفورٌ، فحذف «ظلام» ودلَّ عليها بـ ﴿كَفَّارٌ﴾ وحذف «كفور» ودلَّ عليها بـ ﴿لَظُلُومٌ﴾، هذا ما يظهر لي، فإن قيل: فلماذا اختار ﴿لَظُلُومٌ كَفَّارٌ﴾ دون «ظلامٌ كفورٌ»؟ قلتُ: لتوافق رؤوس الآيات قبلها وبعدها. فإن قيل: فلماذا بدأ بذكر الظلم قبل الكفر ولم يقل: «كفارٌ ظلوم»؟ قلتُ: لأنَّ المرء قد يكفر بالشيء وهو محقُّ كمن كفر بالطاغوت، فبدء بذكر الظلم لأنَّ الكفر المذموم هو الكفر بالحق وأما الكفر بكل باطلٍ عبُد من دون الله فهو واجب.



سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴾ (الْحَجَرُ: ٣).

قال بعض أهل العلم: ﴿ ذَرَهُمْ ﴾ تهديد وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ تهديد آخر فمتى يهنا العيش بين تهديدين؟ أفاده البغوي.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ ﴾ (الْحَجَرُ: ١٤، ١٥).

قال ابن عاشور: وإقحام كلمة ﴿ قَوْمٌ ﴾ هنا دون أن يقولوا: «بل نحن مسحورون» لأن ذكرها يقتضي أن السحر قد تمكن منهم واستوى فيه جميعهم حتى صار من خصائص قوميتهم كما تقدم تبينه عند قوله تعالى: ﴿ لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ في سورة البقرة. وتكرر ذلك.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ ﴾ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٣١) قَالَ يَتَّبِعُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴾ (الْحَجَرُ: ٣٠ - ٣٢)، فقال: ﴿ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ بينما قال في سورة ص: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٧٢) إِلَّا إِبْلِيسَ أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الْحَجَرُ: ٧٣، ٧٤) فقال: ﴿ أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ، وقال في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤)، فقال: ﴿ أَبَى وَأَسْتَكْبَرَ ﴾ ، ووجه ذلك - والله أعلم - أن سورة الحجر ذكر فيها الأمر بمعية المؤمنين وخفض الجناح لهم ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الْحَجَرُ: ٨٨)، وذكر فيها أيضاً عاقبة ترك زوجة لوط لمعية المؤمنين ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٩١) إِلَّا أُمَّرَاتَهُ فَعَدْنَاهُ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (الْحَجَرُ: ٥٩، ٦٠) ، وقال عن آل لوط: ﴿ لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي معاً مجتمعين، فهذا جزاء معية المؤمنين وذاك جزاء معية الكافرين، وكذا

ذكر فيها جزاء صحبة المؤمنين وتآخيهم في الدنيا ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾
أَدْخُلُوها بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾
(الحج: ٤٥ - ٤٧)، فكما كانوا إخواناً في الدنيا يكونون إخواناً في الجنة مع زيادة نزع ما
قد يكون في صدور بعضهم لبعض، فناسب ذلك أن يذكر فيها عاقبة ترك إبليس لمعية
الملائكة الساجدين لآدم، فقال: ﴿أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (الحج: ٣١).

وأما سورة ص فذكر فيها عدم استكبار داود وسليمان عن التوبة لربهما: ﴿وَظَنَّ
دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ فغفرنا له، وذلك وإن له، عندنا لزلْفَى
وَحُسْنَ مَنَاقِبٍ ﴿٣٥﴾﴾ (الحج: ٢٤، ٢٥)، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٦﴾﴾
قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٧﴾﴾ فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ
تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٨﴾﴾ (الحج: ٣٤ - ٣٦)، فهذه هي عاقبة التواضع وعدم
الاستكبار مع عظيم ملكهما، وكذا ذكر فيها استكبار كفار قريش عن الإيمان برسول الله
ﷺ ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ (الحج: ١، ٢)، فكان عاقبة
تعزّزهم الباطل النار والعياذ بالله، فناسب أن يذكر فيها استكبار إبليس ليُعلم أن جزاءه
كجزاء المستكبرين، ولو تواضع وأنان لكان جزاؤه كجزاء المتواضعين التائبين.

وأما سورة البقرة، فذكر فيها إباء اليهود واستكبارهم عن قبول الحق والانقياد له
مع علمهم بصدق رسول الله ﷺ ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْحِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا
عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾، وذكر فيها كذلك صوراً
من إباءهم واستكبارهم عن الانقياد حتى لشرعهم الذي يقرون به ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ
الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾،

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾
(التوبة: ٨٧)، فناسب أن يذكر فيها إباء واستكبار إبليس عن انقياده للحق.

﴿ قَالَ تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الْحَجَرِ: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ٥٢﴾ قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبْشِرُكَ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ ٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسِّنِيَ الْعِكْبَرُ فِيمَ تَبْشُرُونَ ٥٤﴾ قَالُوا بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ (الحجر: ٥١ - ٥٦).

بينما قال في سورة الذاريات: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٢٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ ٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (الذاريات: ٢٤ - ٣٠).

قال د. فاضل السامرائي: فوصف الضيف في سورة «الذاريات» بأنهم «مكرمون» فقال: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ولم يصفهم بذلك في سورة «الحجر» بل قال: ﴿ وَنَبِّئُهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وقد أدى هذا إلى الاختلاف بين السياقين في أمور عدة منها:

١ - أنه ذكر في سورة الذاريات، أن إبراهيم عليه السلام ردَّ التحية عليهم حين حيَّوه فقال: ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾، ولم يذكر ذلك في الحجر. وإنما ذكر أنهم حيَّوه ولم يذكر أنه رد التحية عليهم. ولا شك أن ردَّ التحية هو الذي يقتضيه الإكرام. فلما وصفهم بأنهم مكرمون ناسب ذلك ذكر رد التحية، فإنه من إكرامهم.

كما أنه ردَّ التحية عليهم بخير من تحيتهم، فإنهم حيَّوه بالنصب ﴿ سَلَامًا ﴾ وحياهم بالرفع ﴿ سَلَامٌ ﴾. فهم حيَّوه بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، أي: نُسَلِّمُ سلاماً، وهو قد حياهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت. والاسم أقوى وأثبت من

الفعل، كما هو معلوم في اللغة، وكما مرّ توضيحه في سورة الفاتحة، وذلك نحو يطلع ومطلع، ويتعلّم ومتعلّم. فهو حياهم بالسلام الشامل الثابت الدائم فيكون قد حياهم بخيرٍ من تحيتهم.

جاء في «التفسير الكبير»: «إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن فأتى بالجملة الاسمية، فإنها أدل على الدوام والاستمرار».

وجاء في «معاني القرآن» للفراء: «وأما قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَأُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدْأُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ (البقرة: ١٧٨) فإنه رفع وهو بمنزلة الأمر في الظاهر كما تقول: (من لقي العدو فصبراً واحتساباً)، فهذا نصبه ورفع جائر. وإنما كان الرفع وجه الكلام، لأنه عام فيمن فعل، ويراد بها من لم يفعل، فكأنه قال: فالأمر فيها على هذا فيرفع. وينصب الفعل إذا كان أمراً عند الشيء يقع ليس بدائم، مثل قولك للرجل: إذا أخذت في عملك فجداً جداً وسيراً سيراً. نصبت لأنك لم تنو به العموم فيصير كالشيء الواجب على من أتاه وفعله... وأما قوله: ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابَ﴾ (مُحَمَّدٌ: ٤) فإنه حَثُّهم على القتل إذا لقوا العدو، ولم يكن الحث كالشيء الذي يجب بفعل قبله، فلذلك نصب، وهو بمنزلة قولك: إذا لقيتم العدو فتهليلاً وتكبيراً وصدقاً عند تلك الواقعة.. كأنه حثُّ لهم».

وجاء في «شرح ابن يعيش» أن: «الفرق بين النصب والرفع، أنك إذا رفعتها فكأنك ابتدأت شيئاً قد ثبت عندك واستقر وفيها ذلك المعنى.. وإذا نصبت كنت ترجّاه في حال حديثك، وتعمل في إثباته».

٢- ذكر في سورة الذاريات، أنه جاءهم بعجل ووصف هذا العجل بأنه سمين وقربه إليهم ليأكلوه. وهذا مما يدل على تكريم ضيفه واحتفائه بهم، ولم يقل مثل ذلك في «الحجر». وكل من الحاليين المذكورين هو المناسب لموطنه وسياقه.

٣- ذكر في آيات «الذاريات» أنه أوجس منهم خيفة، ولم يواجه ضيفه بما أحسّ في نفسه. في حين أنه واجههم بذاك في سورة الحجر، فقال مخاطباً إياهم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾.

وواضح أن ما جاء في آيات الذاريات هو المناسب لمقام الإكرام، فليس مناسباً لجو التكريم أن يعلن لضعفه، أنه غير مطمئن إليهم، وأنه منهم وجيل. وهكذا ترى أن كل تعبير هو المناسب للسياق الذي ورد فيه.

٤- أظهر التعبير أن حالة الخوف والوجل في آيات الحجر، أكثر مما هي في آيات الذاريات. فإنه واجه ضعفه بالخوف منهم، في سورة «الحجر» بالجملة الاسمية المؤكدة بـ «إن»، وجاء مع ذلك بالصفة المشبهة ﴿وَجِلُّونَ﴾ الدالة على شدة الخوف، ثم أخرجه مخرج العموم والشمول لأهل البيت أجمعين، فذكره بصورة الجمع: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُّونَ﴾. في حين ذكر ذلك في «الذاريات» بالجملة الفعلية غير المؤكدة، فقال: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وذكره بصورة الأفراد. ولا شك أن الحالة النفسية لسيدنا إبراهيم عليه السلام وما صرَّح به من شدة الفزع، جعلت المقام لا يتناسب هو وذكر التكريم فإن التكريم يحتاج إلى انشراح نفسي وانفتاح، وهو غير موجود في آيات «الحجر»، بل إن كل تعبير فيها يدل على القلق وعدم الارتياح. فناسب كل تعبير موطنه.

٥- ولما واجههم بالخوف منهم والوجل في سورة «الحجر» واجهوه بالبشرى، فإنه لما قال لهم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُّونَ﴾ قالوا له: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾. ولما لم يواجههم بذلك في سورة الذاريات، بل ذكره بصيغة الغيبة: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لم يواجهوه بالبشرى بل وردت بصيغة الغيبة أيضاً: ﴿وَبَشَّرُوهُ﴾.

٦- لما ذكر الوجل منهم بالصيغة الاسمية في سورة الحجر: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُّونَ﴾ بشروه بالجملة الاسمية أيضاً ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾. ولما ذكر الخوف منهم بالصيغة الفعلية في سورة الذاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ بشروه بالصيغة الفعلية أيضاً: ﴿وَبَشَّرُوهُ﴾.

٧- قال في آيات الذاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ بتقديم ﴿مِنْهُمْ﴾ على ﴿خِيفَةً﴾. وهذا التقديم، يفيد الاختصاص والحصار، أي: أن الخوف كان منهم لا من غيرهم. ولو قال: «فأوجس خيفة منهم» لكان أخبر أنه خاف منهم ولم يخبر أنه لم يخف من غيرهم،

بل ربما كان ثمة خوف آخر من غيرهم. فإن التعبير الوارد في الآية جعل الضيف وحدهم سبب الخوف وقصر ذلك عليهم. وأما التعبير الآخر، أعني: «فأوجس خيفة منهم» فلا يقصر الخوف عليهم، بل ربما كان هناك سبب آخر معهم وهذا نظير قولك: «بك وثقت» و«وثقت بك» فإن الجملة الأولى أخبرت بها أنك قصرت الثقة على المخاطب ولم تثق بأحدٍ آخر. أما الجملة الثانية فإنها تفيد أنك وثقت به ولم تُفد أنك قصرت الثقة عليه، بل قد تكون وثقت بغيره أيضاً. ومما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ (البقرة: ٢٩)، فقد أخرج الجار والمجرور ﴿بِهِ﴾ عن الفعل ﴿ءَامَنَّا﴾ وقدم الجار والمجرور ﴿وَعَلَيْهِ﴾ على الفعل ﴿تَوَكَّلْنَا﴾.

ذلك أن «الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله؛ بل لا بد معه من رُسُلِهِ وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفردِهِ بالقدرة والعلم الأولين الباقيين قَدَمَ الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره، لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه». وكذلك ذكر في سورة الحجر فقد قال: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ بتقديم ﴿مِنْكُمْ﴾ على ﴿وَجِلُونَ﴾ مما يفيد أنهم هم سبب الخوف. وهذا التقديم يفيد القصر كما في آية الذاريات. فكلتا الآيتين أفادت الدلالة على أن الخوف كان من الضيف وحدهم، لا من غيرهم بدلالة تقديم الجار والمجرور على مُتعلِّقه. غير أنه أخرج ذلك على سبيل المواجهة المؤكدة في آيات الحجر، وعلى سبيل الغيبة غير المؤكدة في آيات الذاريات.

٨- ذكر في آيات الذاريات أن امرأة سيدنا إبراهيم عندما سمعت بالبشرى، أقبلت في جَلْبَةٍ وصَكَّت وجهها متعجبة مما أخبروه به. ولم يذكر ذلك في الحجر؛ ذلك أن الخوف الذي ذكر في الحجر، كان عاماً شاملاً لأهل البيت أجمعين: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ وفي مثل هذا الموقف، قعدت العجوزُ المُسِنَّةُ خائفةً وجلّة من هؤلاء الغرباء الذين أدخلوا الخوفَ على البيت كله. فناسب ذلك عدم ذكر خروجها لهم ومواجهتهم.

أما في آيات الذاريات، فليس فيها هذا الشمول، فلم يمنع ذلك من خروجها، فناسب كل موقف موطنه. اهـ .

قلت: لما ذكر في سورة الحجر مواجهته لهم بوجهه وخوفه منهم ناسب أن يذكر فيها استنكاره للبشرى ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا بُشِّرُونَ ﴾ (الحجر: ٥٤) دون أن يذكر ذلك في سورة الذاريات التي لم يواجههم فيها بوجهه منهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴾ (الحجر: ٨٥، ٨٦).

قال ابن عاشور: وفي صفة ب ﴿ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴾ إيلاء وبشارة للنبي ﷺ بأن الله يخلق من أولئك من يعلم أنهم يكونون أولياء للنبي ﷺ وهم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية والذين ولدوا، كقول النبي ﷺ: «لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد». وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان في أيام الجاهلية من المؤذين للنبي ﷺ:

دعاني داع غير نفسي وردني ... إلى الله من أطردته كل مطرد

يعني بالداعي النبي ﷺ. وتلك هي نكتة ذكر وصف ﴿ الْخَلْقُ ﴾ دون غيره من الأسماء الحسنى.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر: ٩٤)، فقال: ﴿ فَأَصْدَعْ ﴾ ليدل على أكثر من معنى بلفظ واحد، فإن كلمة ﴿ فَأَصْدَعْ ﴾ تعني لغة الجهر والإظهار، من قولهم: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، كقولك: صرح بها. وتعني أيضاً التفريق والشق في الشيء الصلب كالزجاج والحائط ومنه قوله تعالى: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴾ (الزمر: ٤٣) أي يتفرون - على ما ذكر - بدليل قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذِ يَنْفِرُونَ ﴾ (الزمر: ١٤) أي ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي

السَّعِيرُ ﴿الشُّعْرَى: ٧﴾، وعلى هذا، فالمراد بالآية: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: فَرِّقْ بين الحقِّ والباطل بما أمرك الله بتبليغه، ولو قال: «فاجهر» أو «ففرِّق» لدل على معنى واحد، فلمَّا قال: ﴿فَاصْدَعْ﴾ دلَّ على المعنيين معاً.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾﴾ (الحجج: ٨٧).

قال الشنقيطي: السبع المثاني والقرآن العظيم في هذه الآية الكريمة هو فاتحة الكتاب، فقد روى البخاري في صحيحه: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»، وقيل لها: ﴿الْمَثَانِي﴾ لأنها تشنّى قراءتها في الصلاة، وقيل لها: ﴿سَبْعًا﴾ لأنها سبع آيات، وقيل لها: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ لأنها أعظم سورة في القرآن كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لأبي: «أَلَا أَعْلَمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟» فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته، وإنما عطف القرآن العظيم على السبع المثاني مع أنَّ المراد بها واحد وهو الفاتحة لما علم في اللغة العربية من أنَّ الشيء الواحد إذا ذكر بصفتين مختلفتين جاز عطف إحداها على الأخرى تنزيلاً لتغاير الصفات بمنزلة تغاير الذوات، ومنه قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) (الأعلى: ١ - ٤).

سُورَةُ النَّحْلِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿۱﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴿۲﴾ (النَّحْلُ: ١٠، ١١)، فقال: ﴿ وَالنَّخِيلَ ﴾ ﴿ بينما قال في سورة عبس: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ ﴿۳﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿۴﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿۵﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿۶﴾ وَعَبَا وَقَضْبًا ﴿۷﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿۸﴾ (عَبَسَ: ٢٤ - ٢٩)، فقال: ﴿ وَنَخْلًا ﴾، ووجه ذلك - كما قال د. فاضل: أنه قال في النحل: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وقال في عبس: ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ والصب أكثر من الإنزال علاوة على أنه أكده بقوله: ﴿ صَبًّا ﴾ .

وقال في النحل: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير الغيبة، وقال في عبس: ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ ﴿۹﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿۱۰﴾ فَأَنْبَتْنَا ﴿۱۱﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم وهذا يقتضي الزيادة في التفضل على الإنسان فيما ذكر ثم انظر كيف أنه لما زاد في الكمية والأنواع في عبس جاء بضمير الجمع فقال: ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ ﴿۱۲﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿۱۳﴾ فَأَنْبَتْنَا ﴿۱۴﴾. وجاء بضمير الإفراد في النحل.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿۱﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿۲﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿۳﴾ (فَتْح: ٩ - ١١). فاستعمل ﴿ وَالنَّخْلَ ﴾ في آية ق ولم يستعمل ﴿ وَالنَّخِيلَ ﴾ كما في النحل. ويتضح سبب ذلك في النظر في الآيتين فقد أسند إنزال الماء في ق إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾ في حين أسنده في النحل إلى ضمير الغائب كما أسلفنا. والإسناد إلى المتكلم يقتضي زيادة التفضل والإحسان. كما أنه قال في النحل: ﴿ أَنْزَلَ ﴾ وقال في ق: ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾ بالتضعيف للدلالة على التكثير فالماء في ق أكثر. كما

أنه قال في النحل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وقال في ق: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ فوصف الماء في ق بأنه مبارك ولم يصفه بذلك في النحل. والمبارك هو الكثير الزائد؛ فإن البركة هي: النماء والزيادة، فما في النحل يصدق على الإنزال القليل والكثير بخلاف ما في ق. اهـ .

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِي إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ .
(التجلك: ١١ - ١٣)

قال ابن عاشور: وقد أبدى الفخر في كتاب درة التنزيل وجهاً للفرق بين أفراد «آية» في المرة الأولى والثالثة وبين جمع آيات في المرة الثانية: بأن ما ذكر أولاً وثالثاً يرجع إلى ما نجم من الأرض، فجميعه آية واحدة تابعة لخلق الأرض وما تحويه «أي هو كله ذو حالة واحدة وهي حالة النبات في الأرض في الأول وحالة واحدة وهي حالة الذرة في التناسل في الحيوان في الآية الثالثة» وأما ما ذكر في المرة الثانية فإنه راجع إلى اختلاف في أحوال الشمس والقمر والكواكب، وفي كل واحد منها نظام يخصه ودلائل تخالف دلائل غيره، فكان ما ذكر في ذلك مجموع آيات «أي لأن بعضها أعراض كالليل والنهار وبعضها أجرام لها أنظمة مختلفة ودلالات متعددة».

وأبدى الفخر في درة التنزيل وجهاً لاختلاف الأوصاف في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾: بأن ذلك لمراعاة اختلاف شدة الحاجة إلى قوة التأمل فدلالة المخلوقات الناجمة عن الأرض يحتاج إلى التفكير، وهو إعمال الفكر المؤدي إلى العلم. ودلالة ما ذراه في الأرض من الحيوان محتاجة إلى مزيد تأمل في التفكير للاستدلال على اختلاف أحوالها وتناسلها وفوائدها،

فكانت بحاجة إلى التذكير وهو التفكير مع تذكر أجناسها واختلاف خصائصها. وأما دلالة تسخير الليل والنهار والعوالم العلوية فلأنها أدق وأحوج إلى التعمق فعبّر عن المستدلين عليها بأنهم يعقلون. والتعقل هو أعلى أحوال الاستدلال. أ.هـ.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥) وَعَلَّمَتِ بِالنِّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (الْحَجَّكَ : ١٥، ١٦).

قال ابن عاشور: وعدل عن الخطاب إلى الغيبة التفاتاً يومئ إلى فريق خاص وهم السيارة والملاحون فإن هدايتهم هذه النجوم لا غير.

فائدة: تأمل سر تعليق الاهتداء بالنجم لأن النجوم المرادة ثابتة لا تتغير ولا تنكسف وضوؤها مستقر لا يختلف لذاتها وإنما لعوامل أخرى. ومعرفتها أيسر من معرفة منازل القمر وعلى قدر إتقانها تكون الدلالة على الطريق والوصول إلى الهدف. فكذلك أدلة المنهج فهي ثابتة مطردة بينة ميسرة وعلى قدر معرفتها والالتزام بها تكون السلامة والوصول إلى الغاية وإلا كان الاضطراب والضلال والهلاك. أفاده د. ناصر العمر.

- قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَهَاتُوا بُيُوتَهُمْ لِنَزْلِهِ أُفٍّ لَّهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَآلِهِمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (الْحَجَّكَ : ٢٢).

قال ابن عاشور: وعبر بالجملة الاسمية ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ للدلالة على أن الإنكار ثابت لهم دائم لا استمرارهم على الإنكار بعد ما تبين من الأدلة. وذلك يفيد أن الإنكار صار لهم سجية وتمكن من نفوسهم لأنهم ضروا به من حيث أنهم لا يؤمنون بالآخرة فاعتادوا عدم التبصر في العواقب. وكذلك جملة ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ بنيت على الاسمية للدلالة على تمكن الاستكبار منهم. وقد خولف ذلك في آية سورة الفرقان ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ لأن تلك الآية لم تتقدمها دلائل على الوحداية مثل الدلائل المذكورة في هذه الآية.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الْحَجَّكَ : ٢٨).

قال ابن عاشور: وأسندوا العلم إلى الله دون أن يقولوا: «إنا نعلم ما كنتم تعملون»، أدباً مع الله. وإشعاراً بأنهم ما علموا ذلك إلا بتعليم من الله.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الْحَجَّكَ : ٤١، ٤٢).

قال ابن عاشور: والتعبير في جانب الصبر بالماضي وفي جانب التوكل بالمضارع إيماء إلى أن صبرهم قد أذن بالانقضاء لانقضاء أسبابه، وأن الله قد جعل لهم فرجاً بالهجرة الواقعة والهجرة المترتبة. فهذا بشارة لهم. وأن التوكل مستمر لأنهم يستقبلون أعمالاً جليلة تتم لهم بالتوكل على الله في أمورهم فهم يكررونه. وفي هذا بشارة بضمان النجاح.

قلت: يعني الصبر على هذا النوع من البلاء هو الذي قد أذن بالرحيل، وأما أنواع البلاءات الأخرى، بل والصبر على النعماء وعلى طاعة الله فلا انقضاء لها حتى الموت.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَنَحِّدُوا أَيْمَنَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ بُيُوتِهَا وَتَذَوُّوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الْحَجَّكَ : ٩٤).

قال ابن عاشور: وزلل القدم تمثيل لاختلال الحال والتعرض للضرر، لأنه يترتب عليه السقوط أو الكسر، كما أن ثبوت القدم تمكن الرجل من الأرض، وهو تمثيل لاستقامة الحال ودوام السير. ولما كان المقصود تمثيل ما يجره نقض الإيمان من الدخل شبهت حالهم بحال الماشي في طريق بينما كانت قدمه ثابتة إذا هي قد زلت به فصرع. فالمشبه بها حال رجل واحد، ولذلك نكرت ﴿ قَدَمٌ ﴾ وأفردت، إذ ليس المقصود قدماً معينة ولا عدداً من الأقدام، فإنك تقول لجماعة يترددون في أمر: «أراكم تقدمون رجلاً

وتؤخرون أخرى» تمثيلاً لحالهم بحال الشخص المتردد في المشي إلى الشيء. وزيادة ﴿بَعْدَ بُيُوتِهَا﴾ مع أن الزلل لا يتصور إلا بعد الثبوت لتصوير اختلاف الحالين، وأنه انحطاط من حال سعادة إلى حال شقاء ومن حال سلامة إلى حال محنة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

(التَّحْكَمُ: ١٠٠)

قال ابن عاشور مبيناً سر قوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ بالمضارع، مع ﴿هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ بالجملة الاسمية: وعبر بالمضارع للدلالة على تجدد التولي، أي الذين يحددون توليه، للتنبيه على أنهم كلما تولوه بالميل إلى طاعته تمكن منهم سلطانه، وأنه إذا انقطع التولي بالإقلاع أو التوبة انسلخ سلطانه عليهم. وجعلت الصلة جملة اسمية لدالاتها على الدوام والثبات، لأن الإشراك صفة مستمرة لأن قرارها القلب، بخلاف المعاصي لأن مظاهرها الجوارح، للإشارة إلى أن سلطان الشيطان على المشركين أشد وأدوم لأن سببه ثابت ودائم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (التَّحْكَمُ: ١٠٦)، فقال: ﴿صَدْرًا﴾ ليدل على عظيم مؤاخذه من شرح أي صدر الكفر سواء كان صدره أو صدر غيره، ولم يقل: «شرح للكفر صدرًا» بل قال: ﴿بِالْكُفْرِ﴾ ليضمنها معنى الرضى والفرح، فكأنه قال: «فرح بالكفر ورضي به وانشرح له صدره». ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (التَّحْكَمُ: ١١٢).

قال ابن عاشور: والتعبير عن ضرب المثل الواقع في حال نزول الآية بصيغة الماضي للتشويق إلى الإصغاء إليه، وهو من استعمال الماضي في الحال لتحقيق وقوعه، مثل:

﴿ اِنَّ اَمْرَ اللّٰهِ ﴾ . أو لتقريب زمن الماضي من زمن الحال، مثل: قد قامت الصلاة، ويجوز أن يكون ﴿ وَضَرَبَ ﴾ مستعملاً في معنى الطلب والأمر، أي اضرب يا محمد لقومك مثلاً قرية إلى آخره، كما سيجيء عند قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيْهِ شُرَكَاءُ ﴾ في سورة الزمر. وإنما صيغ في صيغة الخبر توسلاً إلى إسناده إلى الله تشریفاً له وتنوياً به.

وقال أيضاً: والإذاقة: حقيقتها إحساس اللسان بأحوال الطعوم. وهي مستعارة هنا في مواضع من القرآن إلى إحساس الألم والأذى إحساساً مكيناً كتتمكن ذوق الطعام من فم ذائقه لا يجد له مدفعاً. واللباس: حقيقته الشيء الذي يلبس. وإضافته إلى ﴿ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ قرينة على أنه مستعار إلى ما يغشى من الإنسان من حالة ملازمة له كملازمة اللباس ... كقوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ بجامع الإحاطة والملازمة.

ومن لطائف البلاغة جعل اللباس لباس شيئين، لأن تمام اللبسة أن يلبس المرء إزاراً ودرعاً ولما كان اللباس مستعاراً لإحاطة ما غشاهم من الجوع والخوف وملازمته أريد إفادة أن ذلك متمكن منهم ومستقر في إدراكهم استقرار الطعام في البطن إذ يذاق في اللسان والحلق ويحس في الجوف والأمعاء. فاستعير له فعل الإذاقة تمليحاً وجمعاً بين الطعام واللباس، لأن غاية القرى والإكرام أن يؤدب للضيف ويخلع عليه خلعة من إزار وبرد، فكانت استعارتان تهكميتان. فحصل في الآية استعارتان: الأولى: استعارة الإذاقة وهي تبعية مصرحة، والثانية: اللباس وهي أصلية مصرحة.

ومن بدیع النظم أن جعلت الثانية متفرعة على الأولى ومركبة عليها بجعل لفظها مفعولاً للفظ الأول. وحصل بذلك أن الجوع والخوف ميطان بأهل القرية في سائر أحوالهم وملازمان لهم وأنهم بالغان منهم مبلغاً أليماً.

﴿ قَالَ تَعَالَى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل: ١٢٠).

قال ابن عاشور: ونفى كونه من المشركين بحرف ﴿ وَلَمْ ﴾ لأن «لم» تقلب زمن الفعل المضارع إلى الماضي، فتفيد انتفاء مادة الفعل في الزمن الماضي وتفيد تجدد ذلك

المنفي الذي هو من خصائص الفعل المضارع فيحصل معنيان: انتفاء مدلول الفعل بهادته، وتجدد الانتفاء بصيغته، فيفيد أن إبراهيم عليه السلام لم يتلبس بالإشراك قط، فإن إبراهيم عليه السلام لم يشرك بالله منذ صار مميزاً وأنه لا يتلبس بالإشراك أبداً.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ﴾ (التحفة: ١٢٥).

قال ابن عاشور: وقيدت الموعظة بالحسنة ولم تقيد بالحكمة بمثل ذلك لأن الموعظة لما كان المقصود منها غالباً ردع نفس الموعوظ عن أعماله السيئة أو عن توقع ذلك منه كانت مظنة لصدور غلظة من الواعظ ولحصول انكسار في نفس الموعوظ، أرشد الله ورسوله أن يتوخى في الموعظة أن تكون حسنة، أي بإلانة القول وترغيب الموعوظ في الخير، قال تعالى خطاباً لموسى وهارون: ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ ۖ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۖ ﴾.



سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ (الْاِسْرَاءُ: ٢٣).

قال ابن عاشور: ووجه تعدد فاعل ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ مُظْهَرًا دُونَ جَعْلِهِ بِضَمِيرِ التَّثْنِيَةِ بِأَن يُقَالُ: «إِذَا يَبْلُغَانِ عِنْدَكَ الْكِبَرَ»، الْاهْتِمَامُ بِتَخْصِيصِ كُلِّ حَالَةٍ مِنْ أَحْوَالِ الْوَالِدَيْنِ بِالذِّكْرِ وَلَمْ يَسْتَغْنِ بِإِحْدَى الْحَالَتَيْنِ عَنِ الْآخَرَى لِأَنَّ لِكُلِّ حَالَةٍ بَوَاعِثَ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي وَاجِبِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا، فَقَدْ تَكُونُ حَالَةُ اجْتِمَاعِهِمَا عِنْدَ الْابْنِ تَسْتَوْجِبُ الْإِحْتِمَالَ مِنْهُمَا لِأَجْلِ مِرَاعَاةِ أَحَدِهِمَا الَّذِي الْابْنُ أَشَدُّ حُبًّا لَهُ دُونَ مَا لَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا مُفْرَدًا عِنْدَهُ بِدُونِ الْآخَرِ الَّذِي مِيلُهُ إِلَيْهِ أَشَدُّ، وَالْإِحْتِيَاجُ إِلَى ذِكْرِ أَحَدِهِمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى وَجُوبِ الْمَحَافَظَةِ عَلَى الْإِحْسَانِ لَهُ وَقَدْ تَكُونُ حَالَةُ انْفِرَادِ أَحَدِ الْأَبْوَيْنِ عِنْدَ الْابْنِ أَخْفَى كَلْفَةً عَلَيْهِ مِنْ حَالَةِ اجْتِمَاعِهِمَا، فَالْإِحْتِيَاجُ إِلَى ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ لِلتَّحْذِيرِ مِنْ اعْتِذَارِ الْابْنِ لِنَفْسِهِ عَنِ التَّقْصِيرِ بِأَنَّ حَالَةَ اجْتِمَاعِ الْأَبْوَيْنِ أُحْرِجَ عَلَيْهِ، فَلِأَجْلِ ذَلِكَ ذَكَرْتُ الْحَالَتَانِ وَأَجْرَى الْحُكْمَ عَلَيْهِمَا عَلَى السَّوَاءِ.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴾ (الْاِسْرَاءُ: ٣٢)، فَقَالَ: ﴿ كَانَ ﴾ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ فَحْشَى الزِّنَا مُسْتَقَرٌّ فِي الْفِطْرِ وَالشَّرَائِعِ مِنْذُ عَهْدِ التَّشْرِيعِ الْأَوَّلِ. ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ ﴾ (الْاِسْرَاءُ: ٣٣).

قال ابن عاشور: ومن نكت القرآن وبلاغته وإعجازه وإشارته الإتيان بلفظ ﴿ سُلْطَنًا ﴾ هذا، الظاهر في معنى المصدر، أي السلطة والحق، والصالح لإرادة السلطان، وهو الإمام الذي يأخذ الحقوق من المعتدين إلى المعتدى عليهم حين تنتظم جامعة المسلمين بعد الهجرة. ففيه إيماء إلى أن الله سيجعل للمسلمين دولة دائمة، ولم يكن للمسلمين يوم نزول الآية سلطان.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا

مَسْتُورًا ﴾ (الأنزل: ٤٥)، فقال: ﴿ مَسْتُورًا ﴾ ولم يقل: «ساتراً»، ليدل على وجود الحجاب الذي يستره ﷺ عن غيره، مع كون هذا الحجاب مستوراً عن الأعين فلا يرى، قال الشيخ عطية سالم: والإعجاز أن يكون الحجاب مستوراً عن أعينهم، وهذا أبلغ في حفظ ﷺ منهم؛ لأنه لو كان الحجاب مرئياً أي ساتراً فقط مع كونه مرئياً لربما اقتحموه عليه، وهذا أيضاً أقوى في الإعجاز؛ لأنه لو كان الحجاب مرئياً لكان كاحتجاب غيره من سائر الناس، ولكن حقيقة الإعجاز فيه هو كونه مستوراً عن أعينهم، وهذا ما رجحه ابن جرير.



سُورَةُ الْكَهْفِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنْذِرَ
بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ ﴾ ﴾ (الْكَهْفُ: ١، ٢)، فقال: ﴿ قِيمًا ﴾ بعد نفي العوج عنه، قال
الشنقيطي: هو تأكيد في المعنى لقوله: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ لأنه قد يكون الشيء مستقيماً
في الظاهر وهو لا يخلو من اعوجاج في حقيقة الأمر. اهـ.

قلت: في قوله: ﴿ قِيمًا ﴾ دون «مستقيماً» إفادة لأكثر من معنى، كل منها صحيح،
فقوله: ﴿ قِيمًا ﴾ يحتمل معنى الاستقامة، ويحتمل كذلك معنى القيام بمصالح الخلق
الدينية والنيوية. ويحتمل كذلك معنى الهيمنة على ما قبله من الكتب السماوية، قال
تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا
عَلَيْهِ ﴾ (الْمَائِدَةُ: ٤٨)، ولو قال: «مستقيماً» لدل على معنى الاستقامة فقط.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِيعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَائِدِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ
(الْكَهْفُ: ٦)﴾

قال الشنقيطي: «لعل» تكون للترجي في المحبوب وللإشفاق في المحذور، وتكون
للنهي، واستظهر أبو حيان أنها هنا للإشفاق عليه ﷺ أن يبخل نفسه لعدم إيمانهم
به، وقال العسكري بأنها هنا للنهي، وهو معنى كلام ابن عطية وهو أظهر الأقوال
عندي، وأن المراد بها في الآية النهي عن الحزن عليهم، وإطلاق لعل مضمنة معنى
النهي في مثل هذه الآية أسلوب عربي يدل عليه سياق الكلام، ومن الأدلة على أن المراد
بها النهي عن ذلك كثرة ورود النهي صريحاً عن ذلك كقوله: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
حَسْرَتٍ ﴾ (فُطُوح: ٨)، وقوله: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الْحَجَّج: ٨٨)، وقوله: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (الْمَائِدَةُ: ٦٨) إلى غير ذلك من الآيات. اهـ.

قلت: وعليه هنا فائدة جلييلة في سر اختيار قوله: «لعل» دون صريح النهي،
لأن النهي لا يبين هل كان الرسول كان مشفقاً عليهم أم لا، ولكن في قوله: «لعل» بيان
أنه كان كذلك مع نبيه عن ذلك في نفس الوقت، وهذا من دقائق الكتاب العزيز.

فائدة: قال الزمخشري: في قوله: ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم برجلٍ فارقتهم أحبتهم وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم، وتلهفاً على فراقهم!

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. (الكهف: ٧)﴾

لقد اغتر بزخرف الدنيا وزينتها الذين نظروا إلى ظاهرها دون باطنها فصحبوا الدنيا صحبة البهائم وتمتعوا بها تمتع السوائم همهم تناول الشهوات من أي وجه حصلت فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت قلق لخراب ذاته وفوات لذاته لا لما قدمت يده من التفریط والسيئات. أفاده السعدي.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَبُّهُمْ بِسُطِّ ذُرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (الكهف: ١٨).﴾

انظر الفرق! كيف نسب الله - في سورة الكهف - الكلب إلى الفتية لأنهم صالحين بينما في سورة الفيل نسب أبرهة وجيشه إلى الفيل لحقارتهم عند الله، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (الفيل: ١)، «انظر كتاب تدبر - مجموعة (١)».

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (الكهف: ٣٩).﴾

قال ابن هبيرة: ما قال له: «قلت ما شاء الله كان» أو «يكون» بل أطلق اللفظ ليعم الماضي والمستقبل والراهن. «ذيل طبقات الحنابلة».

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (الكهف: ٤٥).﴾

إنما شبه تعالى الدنيا بماء لأن الماء لا يستقر في موضع كذلك الدنيا لا تبقى على حال واحدة، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعاً منبتاً وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر. أفاده القرطبي.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ (الكهف: ٢٩ - ٣١).

قال في (الظلال): ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ﴾ ... أعددناها وأحضرناها.. فهي لا تحتاج إلى جهد لإبقائها، ولا تستغرق رمقاً لإعدادها! والتعبير هنا بلفظ ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ يلقي ظل السرعة والتهيؤ والاستعداد. والأخذ المباشر إلى النار المعدة المهيأة للاستقبال ! وهي نار ذات سرادق يحيط بالظالمين، فلا سبيل إلى الهروب، ولا أمل في النجاة والإفلات. ولا مطعم في منفذ تهب منه نسمة، أو يكون فيه استرواح. فإن استغاثوا من الحريق والظماً أغثوا.. أغثوا بماء كدردي الزيت المغلي في قول، وكالصديد الساخن في قول! يشوي الوجوه بالقرب منها فكيف بالحلوق والبطن التي تتجرعه ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ الذي يغاث به الملهوفون من الحريق! ويا لسوء النار وسرادقها مكاناً للارتفاق والاتكاء. وفي ذكر الارتفاق في سرادق النار تهكم مريب. فما هم هنالك للارتفاق، إنما هم للاشتواء! ولكنها مقابلة مع ارتفاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات هنالك في الجنان. وشتان شتان! وبينما هؤلاء كذلك إذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات عدن للإقامة. تجري من تحتهم الأنهار وبهجة المنظر واعتدال النسيم. وهم هنالك للارتفاق حقاً ﴿ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وهم رافلون في ألوان من الحرير. من سندس ناعم خفيف ومن إستبرق مخمل كثيف. تزيد عليها أساور من ذهب للزينة والمتاع ﴿ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾. ومن شاء فليختر. ومن شاء فليؤم من ومن شاء فليكفر. ومن شاء فليجالس فقراء المؤمنين، وجباهم تفوح منها رائحة العرق أو فلينفّر. فمن لم ترضه رائحة العرق من تلك الجباه، التي تضم القلوب الزكية بذكر الله. فليرتفق في سرادق النار، وليهنأ بدردي الزيت أو القيق يغاث به من النار.

﴿ قَالَ تَعَالَى: فِي مَعْرَضِ ذِكْرِ قِصَّةِ مُوسَى مَعَ الْخَضِرَ: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (الْكَهْفُ: ٦٦)، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿ تُعَلِّمَني ﴾ بِكسر النون ولم يقل: «تعلمني» بالياء بينما قال له الخضر: ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ (الْكَهْفُ: ٧٠)، فَقَالَ: ﴿ أَتَّبَعْتَنِي ﴾ بالياء، ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي ﴾ أيضًا بالياء، وفي ذلك دقة بالغة لأنَّ الحذف يدل على عدم المبالغة والإلحاح، فناسب أن يقول له موسى ﷺ وهو طالب العلم: ﴿ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَني ﴾ بحذف الياء ليدل على أنه لن يلازمه ملازمة الثقل المبالغ، ولن يوقعه في تعلمه منه في حرج أو مشقة، وأما الخضر فهو المعلم فناسب أن يقول لموسى: ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي ﴾ بزيادة الياء ليدل على أن طالب العلم ينبغي له أن يلازم شيخه ولا يفارقه ليكمل انتفاعه به، كما أن موسى رجلٌ حيٌّ - كما في الحديث الصحيح - فناسب أن يخبره الخضر بأنَّه لن يتضايق ولن يتضرر من ملازمة موسى له حتى لا يتحرج موسى من ذلك، فما أعظم علمهما بآداب العلم وطلبه!! وقال له الخضر: ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي ﴾ بزيادة الياء لبيان أن طالب العلم ينبغي له أن يسأل عالمه حتى تتضح له المسألة ولا يكتفٍ بالفهم السطحي لمسائل العلم، ولما كان المعلم قد يتضايق من ذلك، قال له الخضر: ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي ﴾ بزيادة الياء ليعلمه أنه لن يتضايق من ذلك بل يرحب به ولكن لا يبادر موسى بالسؤال حتى يبين له وجه ما يراه منه أو قال له ذلك لعلمه بأنَّ ما سيراه موسى معه ممَّا سيضيق ذرعاً منه، فلا حرج على موسى إن سأل سؤال مستفهم وأما سؤال المنكر المبالغ - كما حدث من موسى - فلا، ولذا قال تعالى لنوح ﷺ لما سأله عن إغراقه لابنه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلَنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (هُود: ٤٥، ٤٦)، فقال له: ﴿ فَلَا تَسْأَلَنِي ﴾ بكسر

النون وحذف الياء ليدل على نهيه عن مجرد السؤال عن هذا الأمر، فما أحلى القرآن!!

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَخْرِقْنَهَا لِلنُّعْرِقِ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ (الْكَهْفُ: ٧١).

هنا ملمح لطيف فموسى عليه السلام قال: ﴿لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ولم يقل: «تغرقنا» فلم يذكر نفسه ولا صاحبه رغم أنها كانا على ظهر السفينة؛ لأن هذه أخلاق الأنبياء يهتمون بأوضاع الناس أكثر من اهتمامهم بأنفسهم عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين. أفاده د. عويض العطوي «تدبر - المجموعة (١)».

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾﴾ (الكهف: ٧٩).

قال ابن عاشور: والمعنى ﴿فَأَرْدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقد فعلت وإنما لم يقل: «فعبتها» ليدل على أن فعله وقع عن قصد وتأمل وقد تطلق الإرادة على القصد أيضاً وفي اللسان عزو ذلك إلى سبويه.



سُورَةُ هُودٍ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ، زَكَرِيَّا ٢ ﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا ٣ ﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿

(هُود: ٢ - ٤)، فكانت الفاصلة: ﴿ زَكَرِيَّا خَفِيًّا شَيْبًا شَقِيًّا ﴾،

وكذا في قصة مريم: ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ١٦ ﴾

فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ١٧ ﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ

بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿ (هُود: ١٦ - ١٨)، فكانت الفاصلة: ﴿ شَرْقِيًّا سَوِيًّا تَقِيًّا ﴾،

وكذا في الكلام على أول قصة عيسى: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي

نَبِيًّا ٣٠ ﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١ ﴾ وَبَرًّا

بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢ ﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿

(هُود: ٣٠ - ٣٣)، فكانت الفاصلة: ﴿ حَيًّا شَقِيًّا حَيًّا ﴾، فلما ذكر الرد على

من زعم إلهية عيسى تغيرت الفاصلة: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ

يَمْتَرُونَ ٣٤ ﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٣٥ ﴾ وَإِنَّ

اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٣٦ ﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٣٧ ﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٣٨ ﴾ وَأَنْذَرَهُمْ

يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٩ ﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا

يُرْجَعُونَ ﴿ (هُود: ٣٤ - ٤٠)، وهذه فاصلة طويلة: ﴿ يَمْتَرُونَ فَيَكُونُ مُسْتَقِيمٌ

..... عَظِيمٌ ﴾ وهذه الكلمات تمد بمقدار حركتين أو أربع أو ست «مد عارض للسكون»،

فلما ذكر قصة إبراهيم عادت الفاصلة: ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ءِ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١ ﴾ إِذْ

قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ ﴾ يَتَابَت إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ

الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣ ﴾ يَتَابَت لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ

لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَأْتِي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ (مَرْيَمَ : ٤١ - ٤٥)، ولعل سر ذلك - والله أعلم - أنَّ الكلام على قصة زكريا ومريم وإبراهيم كان مختصراً، فناسب أن تكون الفاصلة من غير مدٍّ، بينما الرد على من زعم إلهية عيسى فيه ذكرٌ للأدلة فناسب هذه الفاصلة التي فيها إطالة، كما أنَّ هذه الفاصلة التي فيها مدٌّ تناسب التأمل والتفكير في أمر عيسى الذي تدعو إليه هذه الآيات.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (مَرْيَمَ : ٤٤).﴾

قال ابن عاشور: وشبه عموم الشيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجوامع انتشار شيء لامع في جسم أسود تشبيهاً مركباً تمثيلاً قابلاً لاعتبار التفريق في التشبيه وهو أبداع أنواع المركب، فشبه الشعر الأسود بفحم والشعر الأبيض بنار على طريق التمثيلية المكنية ورمز إلى الأمرين بفعل ﴿وَاشْتَعَلَ﴾ وأسند الاشتعال إلى الرأس وهو مكان الشعر الذي عمه الشيب لأن الرأس لا يعمه الشيب إلا بعد أن يعم اللحية غالباً فعموم الشيب في الرأس أمانة التوغل في كبر السن. وإسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي لأن الاشتعال من صفات النار المشبه بها الشيب فكان الظاهر إسناده إلى الشيب فلما جيء باسم الشيب تمييزاً لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية المجاز وغرابته وخصوصية التفضيل بعد الاحتمال مع إفادة تنكير ﴿شَيْبًا﴾ من التعظيم فحصل إيجاز بدیع وأصل النظم المعتاد واشتعل الشيب في شعر الرأس. ولما في هذه الجملة من الخصوصيات من مبنى المعاني والبيان كان لها أعظم وقع عند أهل البلاغة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ فَسَقَطَ عَلَيْهِ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ (مَرْيَمَ : ٢٥).﴾

قال ابن عاشور: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ قال ابن عاشور: فائدة أمرها بالتحريك أن يكون إثارة الجذع اليابس رطباً ببركة تحريكها إياه وتلك كرامة

أخرى لها ولتشاهد بعينها كيف يثمر الجذع اليابس رطباً، وفي ذلك كرامة لها بقوة يقينها بمرتبها. والباء في ﴿يَجْذَعُ النَّخْلَةَ﴾ لتوكيد لصوق الفعل بمفعوله مثل: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، وضمن ﴿وَهَزَى﴾ معنى قربي أو أدنى فعدي بـ «إلى» أي حركي جذع النخلة وقريبه يدن إليك ويلن بعد اليبس ويسقط عليك رطباً. والمعنى أدني إلى نفسك جذع النخلة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (مَرْيَمَ: ٢٦)، فقال: ﴿صَوْمًا﴾ بينما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البَقَّة: ١٨٣)، فقال: ﴿الصِّيَامُ﴾، قال د. فاضل: الصوم في آية سورة مريم بمعنى الصمت، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن في غير هذا الموطن، وكأنها لما كانت بمعنى الصمت جيء بها على وزنه وخصها الله به، وأما ﴿الصِّيَامُ﴾ فقد وردت في تسعة مواطن من القرآن الكريم كلها بمعنى العبادة المعروفة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (مَرْيَمَ: ٤٩).﴾

قال ابن عاشور: وإنما اقتصر على ذكر إسحاق ويعقوب دون ذكر إسماعيل فلم يقل: «وهبنا له إسماعيل وإسحاق ويعقوب» لأن إبراهيم لما اعتزل قومه خرج بزوجه سارة قرينته فهي قد اعتزلت قومها أيضاً إرضاءً لربها ولزوجها، فذكر الله الموهبة الشاملة لإبراهيم ولزوجه وهي أن وهب لهما إسحاق وبعده يعقوب. ولأن هذه الموهبة لما كانت كفاء لإبراهيم على مفارقتها أباه وقومه كانت موهبة من يعاشر إبراهيم ويؤنسه وهما إسحاق ويعقوب. أما إسماعيل فقد أراد الله أن يكون بعيداً عن إبراهيم في مكة ليكون جار بيت الله - وإنه لجوار أعظم من جوار إسحاق ويعقوب أباهما.

سُورَةُ طه

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَاهَلُكُمْ وَعَصَيْتَهُمْ يُخَلِّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنَّا لَهُ، قَبْلَ أَنْ أَدْنِ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَا تُقْطَعُ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿ طه: ٦٦ - ٧٦ ﴾.

قال في (الظلال): ﴿ فَإِذَا جَاهَلُكُمْ وَعَصَيْتَهُمْ يُخَلِّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾، والتعبير يشي بعظمة ذلك السحر وضخامته حتى ليوجس في نفسه خيفة موسى، ومعه ربه يسمع ويرى. وهو لا يوجس في نفسه خيفة إلا لأمر جليل ينسبه لحظة أنه الأقوى، حتى يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾.. لا تخف إنك أنت الأعلى. فمعك الحق ومعهم الباطل. معك العقيدة ومعهم الحرفة. معك الإيمان بصدق ما أنت عليه ومعهم الأجر على المبالاة ومغانم الحياة. أنت متصل بالله ذي القوة الكبرى وهم يخدمون مخلوقاً بشرياً فانياً مهما يكن طاغية جباراً. لا تخف ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ بهذا التنكير للتضخيم ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾. فهو سحر من تدبير ساحر وعمله. والساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار، لأنه يتبع تخيلاً ويصنع تخيلاً؛ ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية. شأنه شأن كل مبطل أمام القائم على الحق المعتمد على الصدق. وقد يبدو باطله ضخماً فخماً، مخيفاً لمن يغفل عن قوة الحق الكامنة الهائلة التي لا تتبختر ولا تتناول ولا تتظاهر؛ ولكنها تدمغ الباطل في النهاية، فإذا هو زاهق وتلقفه فتطويه، فإذا هو يتوارى.

وَألقى موسى.. ووقعت المفاجأة الكبرى. والسياق يصور ضخامة المفاجأة بوقعها في نفوس السحرة الذين جاءوا للمباراة فهم أحرص الناس على الفوز فيها، والذين كانوا منذ لحظة يُحْمَس بعضهم بعضاً ويدفع بعضهم بعضاً. والذين بلغت بهم البراعة في فنههم إلى حد أن يوجس في نفسه خيفة موسى. ويخيل إليه - وهو الرسول - أن حبا لهم وعصيتهم حيات تسعى! يصور السياق وقع المفاجأة في نفوسهم في صورة تحول كامل في مشاعرهم ووجدانهم، لا يسعفهم الكلام للتعبير عنه؛ ولا يكفي النطق للإفشاء به. ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ فَأَلْوَأْأَمَنَّا رَبَّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ .. إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان.

ولكن أنى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف؟ أنى لهم أن يدركوا كيف تتقلب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم، نسوا أن الله هو مقلب القلوب؛ وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان. ﴿قَالَ أَمَنَّمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ، لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قَطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ .. ﴿أَمَنَّمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ﴾ ... قولة الطاغية الذي لا يدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون - وقد لمس الإيمان قلوبهم - أن يدفعوه عنها، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء. ﴿إِنَّهُ، لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ ... فذلك سر الاستسلام في نظره، لا أنه الإيمان الذي دب في قلوبهم من حيث لا يحتسبون. وإنه للرحمن يكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال. ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة؛ ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح: ﴿فَلَا قَطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾. ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة. قوة الوحوش في الغابة. القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ! ولكنه كان قد فات الأوان. كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت الذرة الصغيرة بمصدرها الهائل. فإذا هي قوية قويمة. وإذا القوى الأرضية كلها

ضئيلة ضئيلة. وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة. وكانت قد تفتحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضئيلة لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل. ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه. ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى. .. إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القربى منه مغنماً يتسابق إليه المتسابقون. فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة، وترخص ملكه وزخرفته وجاهه وسلطانها. ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ فهي علينا أعز وأعلى وهو جل شأنه أكبر وأعلى. ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ ودونك وما تملكه لنا في الأرض. ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾. فسلطانك مقيد بها، ومالك من سلطان علينا في غيرها. وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا. وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله، ويأمل في الحياة الخالدة أبداً. ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصياناً؛ فلعل بإيماننا بربنا يغفر لنا خطايانا. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ خير قسمة وجواراً، وأبقى مغنماً وجزاء. إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى. .. وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٦) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى. . فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى. فهذا هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرمًا هي أشد عذاباً وأدوم ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حي فيمتع. إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة.. وفي الجانب الآخر الدرجات العلى.. جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ وتطهر من الآثام. وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر، وواجهته بكلمة الإيمان القوية. وباستعلاء الإيمان الواثق. وبتحذير الإيمان الناصع. وبرجاء الإيمان العميق.

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴾ (الأنبياء: ١)،
فزاد ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ لأن الغفلة لا يكاد ينفك عنها أحد، فمقل ومستكثر، ولكن
المؤمن يرجع إلى ربه ويتوب من غفلته ونيب، وأمّا الجاهل فيعرض ويستمر في
الغفلة ويزداد غياً وضلالاً.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴾ ﴾ (الأنبياء: ١٥).
قال ابن عاشور: شبهوا بزرع حُصد أي بعد أن كان قائماً على سوقه خضراً فهو
يتضمن تشبيههم قبل هلاكهم بزرع في حسن المنظر والطلعة كما شبه بالزرع في قوله
تعالى: ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ﴾ في سورة
الفتح. ويقال للناشي: أنبته الله نباتاً حسناً قال تعالى: ﴿ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ في سورة
آل عمران. فللإشارة إلى الشبهين شبه البهجة وشبه الملك أوثر تشبيههم حين هلاكهم
بالحصيد وكذلك شبهوا حين هلاكهم بالنار الخامدة فتضمن تشبيههم قبل ذلك بالنار
المشوبة في القوة والبأس كما شبه بالنار في قوله تعالى: ﴿ كَلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَآهَا
اللَّهُ ﴾ في سورة المائدة وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا ﴾ في سورة البقرة
فحصل تشبهان بليغان.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ﴾
(الأنبياء: ٧٩)، فبدء بتسبيح الجبال، ولم يقل: «وسخرنا مع داود الجبال والطيور
يسبحن»، وفي ذلك دقة بالغة، لأن الجبال جماد فتسبيحه أدل على القدرة من الطيور
الذي هو حيوان، وله حياة كاملة، وفصل بينهما لأن تسبيح الجبال غير تسبيح الطيور،
ولم يجمع بينهما بقوله: «وسخرنا مع داود الجبال والطيور يسبحن» لئلا يُظن أن تسبيحهما
بطريقة واحدة متشابهة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا ﴾ (الأنبياء: ٨٧) بينما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ (الأنبياء: ٤٨).

فأضاف كلمة ﴿ وَذَا ﴾ إلى النون وكلمة ﴿ كَصَاحِبِ ﴾ إلى الحوت والمقصود واحد وهو يونس عليه السلام وسر ذلك - والله أعلم - أن النون اسم للحوت العظيم وكلمة ﴿ وَذَا ﴾ تطلق مع ما يدل على العظمة. أفاده د. عويض العطوي «تدبر - المجموعة (١)».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ أُذْيَةٍ صَالِحًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ (الأنبياء: ٩٤)، فقال: ﴿ كُفْرَانَ ﴾ بينما قال: ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الأنبياء: ٨٩)، وقال أيضاً: ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الأنبياء: ٩٩)، فقال: ﴿ كُفُورًا ﴾، قال د. فاضل: الكفران أكثر استعمالاً في جحود النعمة، والكفر في الدين، والكفور فيهما جميعاً، فقال في سورة الأنبياء: ﴿ كُفْرَانَ ﴾ لأن المراد نفي جحود السعي، وأمّا الآيات الأخرى، فالمراد بيان الجحود وكفر الدين معاً.



سُورَةُ الْحَجِّ

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾﴾ (الحج: ٣٠).

قال ابن عاشور: وجيء بالمضارع في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ ليشمل ما نزل من القرآن في ذلك مما سبق نزول سورة الحج لأنه تلى فيما مضى ولم يزل يتلى ويشمل ما عسى أن ينزل من بعد مثل قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾ الآية في سورة العنود (المائدة).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾﴾ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الحج: ٣٤، ٣٥).

قال في (الدر المنثور): وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال: المطمئنين.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي شيبه وابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن أوس ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال: المخبتون الذين لا يظلمون الناس وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وأخرج ابن أبي شيبه وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك رحمته الله ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال: المتواضعين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رحمته الله ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال: الوجلين.

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبه عن عبد الله بن مسعود رحمته الله أنه كان إذا رأى الربيع بن خثيم قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ وقال له: ما رأيتك إلا ذكرت المخبتين.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾﴾ (المؤمنون: ١، ٢).

قال د. فاضل: إن السورة مشحونة بجو الخشوع بشقيه سواء ما يتعلق بالقلب أو ما يتعلق بالجوارح وبال دعوة إليه بكل أحواله، فقد كرر الدعوة إلى التقوى، والتقوى أمر قلبي وهي من لوازم الخشوع فقال: ﴿أَفَلَا نَنْقُوتُ﴾ (المؤمنون: ٢٣، ٣٢، ٨٧). وقال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَانْقُوتُوا﴾، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾.

والخشية والإشفاق أمر قلبي وهما من لوازم الخشوع وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾. والوجل أمر قلبي وهو من لوازم الخشوع أيضاً وذكر الكفار وذمهم بقوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ﴾ (المؤمنون: ٦٣) وهذه الغمرة تمنعها من الخشوع والخضوع والإعراض عما سوى الله تعالى وذكر القلوب ههنا أمر له دلالة فلم يقل: ﴿هُمْ فِي غَمَرَةٍ﴾ كما في مكان آخر من القرآن الكريم «الذاريات» بل قال: ﴿قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ﴾ والقلب هو موطن الخشوع ومكانه فإن كان هذا القلب في غمرة فكيف يخشع؟ وقال في ذم الكفار: ﴿فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْصَرَعُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٦) فلم يخشعوا لأن الخاشع مستكين لربه متضرع متذل إليه وقال: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ والاستكبار والعلو مناقضان للخشوع؛ إذ الخشوع تطامن وتذل وخضوع لله رب العالمين. فبدء السورة بالخشوع هو المناسب لجو السورة ثم إن البدء به له دلالة أخرى ذك أنه ورد في الآثار أن الخشوع أول ما يُرفع من الناس. وقد جاء عن عبادة بن الصامت أنه قال: يوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً. وعن حذيفة أنه قال: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة وتنقض عرى الإسلام عروة عروة. فبدأ بما يُرفع أولاً وختم بما يرفع آخراً وهو الصلاة فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ثم انظر كيف جاء بالخشوع بالصيغة الاسمية

الدالة على الثبات ولم يقل: «يخشعون» للدلالة على أنه وصف لهم دائم في الصلاة غير عارض فإن الصلاة إذا ذهب منها الخشوع كانت ميتة بلا روح.

وذكر سبحانه الصلاة أولاً مفردة ﴿صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ثم ذكر ثانياً مجموعة ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُخَافُظُونَ﴾، قال د. فاضل: جاء في «الكشاف»: وقد وجدت أولاً ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت وجمعت آخراً لتفاد المحافظة على أعدادها وهي: الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة على كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنائز والاستسقاء والكسوف وصلاة الضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل. واستعمال الجمع مع المحافظة أنسب شيء للدلالة على المحافظة عليها بأجمعها.

وقد جيء بالفعل المضارع فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بخلاف ما مر من الصفات للدلالة على التجدد والحدوث لأن الصلوات لها مواقيت وأحوال تحدث وتتجدد فيها فيصلي لكل وقت وحالة فليس فيها من الثبوت ما في الأوصاف التي مرت؛ فهناك فرق مثلاً بينها وبين قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ لأن الخشوع ينبغي أن يكون مستمراً ثابتاً في الصلاة لا ينقطع فهو صفة ثابتة فيها، وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ فإنه ينبغي أن يكون الإعراض عن اللغو دائماً مستمراً لا ينقطع، وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ فإن حفظ الفروج ثابت دائم. وأما العطف بالواو في كل صفة من هذه الصفات فللدلالة على الاهتمام بكل صفة على وجه الخصوص وهذا ما تفيده الواو من عطف الإخبار والصفات.

جاء في (تفسير فتح القدير): وكرر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقل بموصوف متعدد.

❦ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ٢ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.

قال ابن عاشور: وتقييده هنا بكونه في الصلاة لقصد الجمع بين وصفهم بأداء الصلاة وبالحشوع وخاصة إذا كان في حال الصلاة لأن الحشوع لله يكون في حالة الصلاة وفي غيرها، إذ الحشوع محله القلب فليس من أفعال الصلاة ولكنه يتلبس به المصلي في حالة صلاته وذكر مع الصلاة لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الحشوع وقوته ولذلك قدمت، ولأنه بالصلاة أعلق فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الحشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال الصلاة لأن المصلي يناجي ربه فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له. وهذا من آداب المعاملة مع الخالق تعالى وهي رأس الآداب الشرعية ومصدر الخيرات كلها.

وعقب ذكر الحشوع بذكر الإعراض عن اللغو لأن الصلاة في الأصل الدعاء، وهو من الأقوال الصالحة، فكان اللغو مما يخطر بالبال عند ذكر الصلاة بجامع الضدية، فكان الإعراض عن اللغو بمعني الإعراض مما تقتضيه الصلاة والحشوع لأن من اعتاد القول الصالح تجنب الباطل ومن اعتاد الحشوع لله تجنب قول الزور.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (المؤمنون: ٤)، فقال: ﴿فَاعِلُونَ﴾، ولم يقل: «مؤدون»، ولا «مؤتون»، وفي هذا دقة تعبيرية بالغة؛ قال د. فاضل: وجه ذلك أن «الزكاة» اسم مشترك بين عدة معان فقد يطلق على القدر الذي يخرج المزكي من ماله إلى مستحقه أي قد تطلق على المال المخرج وقد يطلق على المصدر بمعنى التزكية وهو الحدث والمعنى إخراج القدر المفروض من الأموال إلى مستحقه وقد تكون بمعنى العمل الصالح وتطهير النفس من الشرك والدنس كما قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ (الكهف: ٨١)، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) و﴿ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأنبياء: ١٤، ١٥)، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (١) و﴿قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (البقيع: ٩، ١٠). أي أفلح من طهر نفسه وخلصها من الدنس والسوء. وهذه المعاني

مجتمعة يصح أن تكون مرادة في هذا التعبير ذلك أنه يصح أن يكون المعنى والذين هم يؤدون الزكاة وذلك على تضمين ﴿فَعِلُّوْنَ﴾ معنى «مؤدون» أو على تقدير مضاف محذوف أي والذين هم لأداء الزكاة فاعلون فأصل الكلام على هذا المعنى «والذين هم فاعلون الزكاة» فالزكاة مفعول به لاسم الفاعل ﴿فَعِلُّوْنَ﴾ ثم قدم المفعول للاختصاص فصار ﴿لِلزَّكَاةِ فَعِلُّوْنَ﴾ كما تقول: «أنا زيدا ضارب» ثم زيدت اللام لتوكيد الاختصاص وهو قياس مع مفعول اسم الفاعل تقدم أو تأخر كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة: ٩١) ونسبي هذه اللام لام التقوية وبهذين التقديرين يكون المقصود بالزكاة اسم العين وهو المال الذي يُخرج لمستحقه ويصح أن تكون «الزكاة» بمعنى التزكية وهو الحدث أي فعل المزكي فيكون ﴿فَعِلُّوْنَ﴾ بمعناها فيكون أصل التعبير «فاعلون الزكاة» ومعنى «فعل الزكاة» زكى أو أخرج الزكاة كما يقال للضارب فعل الضرب.

وقال د. فاضل أيضاً: فالزكاة إذن تحتمل العبادة المالية وتحتمل العمل الصالح والتطهير والنماء واللام تحتمل التقوية وتحتمل التعليل وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة فهو يريد الذين يؤدون الزكاة ويفعلون العمل الصالح وتطهير النفس ويفعلون من أجل ذلك ولا تجتمع هذه المعاني في أي تعبير آخر فلو أبدل كلمة «مؤتون» مكان ﴿فَعِلُّوْنَ﴾ لاقتصر الأمر على زكاة المال ولو حذف اللام لم يفد معنى التعليل. فانظر كيف جمع عدة معان بأيسر سبيل وقد تقول ولم لم يقل: «والذين هم للصلاة فاعلون» كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ؟

والجواب: إن إخراج النصاب إلى مستحقه كاف لأداء فريضة الزكاة وليس وراءه شيء يتعلق بها فإن لم يفعل ذلك فلا زكاة. أما فعل الصلاة من قيام وقعود وركوع وسجود مع هيئاتها الأخرى فليس كافٍ بل ينبغي أن يكون مع ذلك خشوع وتدبر وحضور قلب وسنن وآداب تكمل هذه الأفعال الظاهرة وتتمها ولذلك قال ﷺ: «لك من صلاتك ما عقلت منها». فاتضح الفرق بينهما.

ويصح أن تكون الزكاة بمعنى العمل الصالح وتطهير النفس فيحتمل أن تكون اللام زائدة مقوية دخلت على المفعول به «الزكاة» فيكون معنى «فعل الزكاة» فعل العمل الصالح وتطهير النفس كما يقال: «فعل خيراً أو فعل شراً» فيكون معنى الآية «الذين هم فاعلون العمل الصالح وتطهير النفس» واللام زائدة في المفعول ويسمونها مقوية وهي تفيد تأكيد الاختصاص في المفعول المقدم أي لا يفعلون إلا ذاك. ويحتمل أن تكون اللام لام التعليل أي يفعلون من أجل الزكاة أي هم عاملون من أجل تزكية نفوسهم وتطهيرها والمفعول محذوف فيكون الفعل عاماً وهو كل ما يؤدي إلى الخير وتطهير النفس.

وجاء في (روح المعاني): وعن أبي مسلم أن الزكاة هنا بمعنى العمل الصالح كما في قوله تعالى: ﴿حَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةٌ﴾ (الكهف: ٨١) واختار الراغب أن الزكاة بمعنى الطهارة واللام للتعليل والمعنى والذين يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكيهم الله تعالى أو يزكوا أنفسهم.

قال صاحب (الكشاف) معنى الآية الذين هم لأجل الطهارة وتزكية النفس عاملون الخير ويرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ (الأنبياء: ١٤، ١٥) وَ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (البقرة: ٩).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون: ٨).

وفيه فوائد تعبيرية نفيسة، قال د. فاضل: جاء في «البحر المحيط»: والأمانة الظاهر أنها كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي وشأن ودين ودنيا والشرع كله أمانة وهذا قول الجمهور، ولذلك قال أبي بن كعب: من الأمانة أن أوثمت المرأة على فرجها.

وفي الحديث: «المؤذن مؤتمن» يعني أن المؤذن أمين الناس على صلاتهم وصيامهم فصلاة الناس وصيامهم أمانة عنده وفي الحديث أيضاً: «المجالس بالأمانة» وهذا ندب إلى ترك إعادة ما يجري في المجلس من قول أو فعل فكان ذلك أمانة عند من سمعه أو رآه. والأمانة تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان وقد جاء في كل منها

حديث وفي الحديث: «الإيمان أمانة ولا دين لمن لا أمانة له» وفي حديث آخر: «لا إيمان لمن لا أمانة له» وفي الحديث: «استودع الله دينك وأمانتك» أي: أهلك ومن تخلفه بعدك منهم ومالك الذي تودعه.

وجاء في «روح المعاني» في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ ... الآية عند أكثر المفسرين عامة في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الناس كالتكاليف الشرعية والأموال المودعة والأيمان والنذور والعقود ونحوها. وجمعت الأمانة دون العهد قيل لأنها متنوعة متعددة جداً بالنسبة إلى كل مكلف من جهته تعالى ولا يكاد يخلو مكلف من ذلك ولا كذلك العهد. وجاء فيه أيضاً: وكأنه لكثرة الأمانة جمعت ولم يُجمع العهد قيل إيداناً بأنه ليس كالأمانة كثرة وقيل لأنه مصدر. ويدل على كثرة الأمانة ما روى الكلبي: كل أحد مؤتمن على ما افترض عليه من العقائد والأقوال والأحوال والأفعال ومن الحقوق في الأموال وحقوق الأهل والعيال وسائر الأقارب والمملوكين والجار وسائر المسلمين. وقال السدي: إن حقوق الشرع كلها أمانات قد قبلها المؤمن وضمن أداؤها بقبول الإيمان. وقيل كل ما أعطاه الله تعالى للعبد من الأعضاء وغيرها أمانة عنده فمن استعمل ذلك في غير ما أعطاه لأجله وأذن سبحانه له به فقد خان الأمانة.

أما اختيار كلمة ﴿رَاعُونَ﴾ مع الأمانة والعهود دون «الحفظ» الذي استخدم مع الفروج فله سبب لطيف ذلك أن ﴿رَاعُونَ﴾ اسم فاعل من رعى وأصل الرعي حفظ الحيوان وتولي أمره وتفقد شأنه. جاء في (الكشاف): والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية ويقال من راعي هذا الشيء؟ أي متوليه وصاحبه.

وجاء في (روح المعاني) تفسير ﴿رَاعُونَ﴾ قائمون بحفظها وإصلاحها وأصل الرعي حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذب العدو عنه ثم استعمل في الحفظ

مطلقاً. فالرعي ليس مجرد الحفظ بل هو الحفظ والإصلاح والعناية بالأمر وتولي شأنه وتنفذ أحواله وما إلى ذلك وهذا فيما يتعلق بالأمانة كثير إذ ليس مجرد الحفظ كافياً فمن أئتمن عندك أهله وصغاره فلا بد من أن تتفقد أمورهم وتنظر في أحوالهم وحاجاتهم علاوة على حفظهم وكذلك من تولى أمر الرعية ونحوه من أئتمن على زرع أو ضرع وكذلك ما حمّله الله للإنسان.

ثم إن اختيار كلمة ﴿رَعُونَ﴾ بالصيغة الاسمية دون الفعلية له سببه فإنه لم يقل: «يرعون» ذلك ليدل على لزوم وثبات الرعي ودوامه وعدم الإخلال به البتة. وأما تقديم الأمانة والعهد على ﴿رَعُونَ﴾ فللاهتمام والعناية بأمرهما وللدلالة على أنها أولى من يُرعى في هذه الحياة. وزيادة اللام تفيد الزيادة في الاختصاص وتوكيده، وتفيد فائدة أخرى إلى جانب ما ذكرت؛ ذلك أن كلمة «الراعي» قد تكون بمعنى صاحب تقول: «من راعي هذا الدار؟» و«من الراعي لهذه الدار؟» أي من صاحبها ومتولي أمرها؟ فيكون المعنى على هذا: والذين هم أصحاب الأمانات والعهود أي هم أهلها ومتولوها ولو قيل بدل ذلك: الذين هم يرعون الأمانة والعهود لم تُفد هذه الفائدة الجليلة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾﴾ (المؤمنون: ١٥).

فأكد الموت بـ«إِنَّ»، واللام ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ بينما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ١٦)، فأكد البعث بـ«إِنَّ» وحدها، وذلك لحكم بالغة، قال د. فاضل: جاء في (روح المعاني): ولم يؤكد سبحانه أمر البعث تأكيده لأمر الموت مع كثرة المترددين فيه والمنكرين له اكتفاء بتقديم ما يغني عن كثرة التأكيد ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد من خلقه تعالى الإنسان من سلالة من طين ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأ خلقاً آخر يستغرق العجائب ويستجمع الغرائب فإن في ذلك أدل دليل على حكمته وعظيم قدرته عز وجل.

وقال في (روح المعاني) كذلك: ولمّا تضمنت الجملة السابقة المبالغة في أنه تعالى شأنه أحكم خلق الإنسان وأتقنه أبلغ سبحانه عز وجل في تأكيد الجملة الدالة على موته

مع أنه غير منكر لما أن ذلك سبب لاستبعاد العقل إياه أشد استبعاد حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده وسمع أن الله جل جلاله أحكم خلق الإنسان وأتقنه غاية الإتقان. وهذا وجه دقيق لزيادة التأكيد في الجملة الدالة على الموت وعدم زيادته في الجملة الدالة على البعث.

وجاء في (روح المعاني) أيضاً: وقيل إنما بولغ في القرينة الأولى لتهاذي المخاطبين في الغفلة فكأنهم نزلوا منزلة المنكرين لذلك وأخلت الثانية لوضوح أدلتها وسطوح براهينها، وربما يقال إن شدة كراهة الموت طبعاً التي لا يكاد يسلم منها أحد نزلت منزلة شدة الإنكار فبولغ في تأكيد الجملة الدالة عليه وأما البعث فمن حيث إنه حياة بعد الموت لا تكرهه النفوس ومن حيث إنه مظنة للشدائد تكرهه. فلما لم يكن حاله كحال الموت ولا كحال الحياة بل بين بين أكدت الجملة الدالة عليه تأكيداً واحداً.

وجاء في (البحر المحيط): إنه إنما بولغ في تأكيد الموت تنبيهاً للإنسان أن يكون الموت نُصَبَ عينيه ولا يغفل عن تَرْقُّبِهِ فَإِنْ مَالَهُ إِلَيْهِ فَكَأَنَّهُ أَكَدَتْ جملته ثلاث مرار لهذا المعنى لأن الإنسان في الحياة الدنيا يسعى فيها غاية السعي ويؤكد ويجمع حتى كأنه مُحَلَّدٌ فيها فنبه بذكر الموت مؤكداً مبالغاً.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾ (٣٥) هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ (المؤمنون: ٣٦).

قال ابن عاشور: وجاء هنا فعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ من «أوعد» وجاء قبله فعل ﴿أَيَعِدْكُمْ﴾ وهو من «وعد» مع أن الموعود به شيء واحد. قال الشيخ ابن عرفة: «لأن الأول راجع إليهم في حال وجودهم فجعل وعداً، والثاني راجع إلى حالتهم بعد الموت والانعدام فناسب التعبير عنه بالوعد».

وأقول: أحسن من هذا أنه عبر مرة بالوعد ومرة بالوعد على وجه الاحتباك، فإن إعلامهم بالبعث مشتمل على وعد بالخير إن صدقوا وعلى وعيد إن كذبوا، فذكر الفعلان على التوزيع إيجازاً.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاعِزَّنَا رَبَّنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١٠٨) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٩ - ١١١)، فقال: ﴿ سَخِرِيًّا ﴾ بياء النسب ولم يقل مثلاً: «سُخْرِيَّة»، وذلك لأنَّ ياء النسب تدل على زيادة في الفعل، كما قيل في الخصوصية بمعنى الخصوص، أفاده الزمخشري. قال الشنقيطي: ومعناه: أنَّ الياء المشددة في آخره تدل على زيادة سخرهم منهم ومبالغتهم في ذلك.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ (الأنعام: ١٧).

أورد في (الدر المنثور) عن بعضهم أنَّ المعنى: من كل عظم وعرق وعصب، وأورد أيضاً: من كل موضع شعرة في جسده. قلت: فيها من آية مخوفة لمن تأملها.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (الأنعام: ٤١).

روى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: ما يسرني بنصيب من دعوة نوح وإبراهيم للمؤمنين والمؤمنات حمر النعم.

قلت: فما أحلاها من كلمة تزيد رجاء القلب وتُشعر العبد بالانتماء للأنبياء والرسل وعباد الله الصالحين.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴾ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحج: ٨٧، ٨٨).

قال في (الدر المنثور): أخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة قال: من أعطي القرآن ثمَّ نظر إلى شيء من الدنيا، فقد صَغُرَ القرآن. ألم تسمع قول الله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴾ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الحج: ٨٧، ٨٨)، وقوله: ﴿ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (طه: ١٣١)، قال: رزق ربك يعني القرآن.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (التكْوِيْن: ٩٠).

قال في (الدر المنثور): مرَّ عليّ بن أبي طالب بقوم يتحدثون عن المروءة، فقال: أو ما كفاكم الله عزّ وجلّ ذاك في كتابه؟ إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فالعدل و الإنصاف والإحسان والتفضل، فما بقي بعد هذا؟! وقال الشعبي: قال عيسى بن مريم: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك. وسأل عمر بن عبد العزيز محمداً بن كعب القرظي عن العدل فقال: كُنْ لصغير الناس أباً ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسادهم، ولا تضربن بغضبك سوطاً واحداً متعدداً فتكون من العادين. أ.هـ. ملخصاً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ (الكَهْف: ١٣).

أورد في (الدر المنثور) عن ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا وهو شاب ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وقرأ: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء: ٦٠)، و﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ﴾ (الكَهْف: ٦٠)، و﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ (الكَهْف: ١٣).

سُورَةُ النَّبِيِّ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُبْدِيكَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتٍ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الذَّيْبِ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ (النَّبِيُّ: ٣١)، فقال: ﴿ الطِّفْلِ ﴾ بالإنفراد بينما قال: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (النَّبِيُّ: ٥٩)، فقال: ﴿ الْأَطْفَالُ ﴾، ووجه ذلك أن المذكورين في الآية الأولى أشخاص متعدّدوا الإحساس والمواقف بالنسبة إلى الجنس والزينة، فكل واحد له إحساس خاص به فناسب أن يقول: ﴿ الْأَطْفَالُ ﴾، وأمّا الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، فموقفهم واحد متجانس، وهو عدم التمييز، فكانهم شخص واحد لا تمايز بينهم، فأفردهم وجعلهم كأنهم شخص واحد، ولذا قال في الثانية: ﴿ الطِّفْلِ ﴾، أفاده د. فاضل السامرائي وهو كلام نفيس.

قلت: وكذا يقال في سر إفراد ﴿ طِفْلاً ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ﴾ (الْحَجَّ: ٥)، وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ﴾ (الْعَنْفَل: ٦٧)، وذلك أن الأطفال كلّهم في هذه المراحل الخلقية واحد، فكانهم طفل واحد.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النَّبِيُّ: ٣١)، فقال: ﴿ جَمِيعًا ﴾ ولم يقل: «كلّكم» مثلاً بل قال: ﴿ جَمِيعًا ﴾ ليدل على أن الفلاح التام منوط بتوبة الكل جميعاً، وإلا فتأخر البعض عن التوبة - ولو تاب الباقي - سبب لنزول البلاء على المسلمين، وفي قصة موسى عليه السلام المشهورة عند القصاص والوعاظ،

وفيها أنه لما خرج يستسقي وكان فيهم عبدٌ غير تائب لم يسقهم الله حتى تاب، فسقاهم، فلربما نزل البلاء أو رفع الخير بسبب ذنبٍ واحدٍ من عموم المسلمين، وهم النبي ﷺ بإخبار أصحابه بليلة القدر فتلاحى رجالان فرفعت !!

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْوَصْبَاحُ فِي رُجَاةِ الرُّجَاةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النُّور: ٣٥).

وقد أورد السيوطي رحمه الله درراً من أقوال السلف في تفسير هذا المثل العظيم من أمثلة القراءان، فأوردت أكثرها، قال رحمه الله:

وأخرج أبو داود والنسائي والبيهقي عن زيد بن أرقم قال: سمعت النبي ﷺ يقول في دبر صلاة الغداة وفي دبر الصلاة: «اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد بأنك أنت الرب وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك، اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة، اللهم ربنا ورب كل شيء اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة في الدنيا والآخرة، ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب، الله أكبر الله أكبر الله نور السموات والأرض، الله أكبر الله أكبر حسبي الله ونعم الوكيل، الله أكبر الله أكبر». (ولكنه ضعيف).

وأخرج الطبراني عن سعيد بن جبيرة قال: كان ابن عباس يقول: اللهم إني أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض أن تجعلني في حرزك وحفظك وجوارك وتحت كنفك. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر الأمر فيهما، نجومهما، وشمسهما، وقمرهما.

وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ الذي أعطاه المؤمن ﴿كَمِشْكُوفٍ﴾ مثل الكوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ الْوَصْبَاحُ فِي رُجَاةِ الرُّجَاةِ كَأَنَّهَا

كَوْكَبٌ دَرِيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴿ فِي سَفْحِ جَبَلٍ لَا تَصِيْبُهَا الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ وَلَا إِذَا غَرَبَتْ ﴾ ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ فذلك مثل قلب المؤمن نور على نور ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ قال: أعمال الكفار إذا جاؤا رأوها مثل السراب إذا أتاه الرجل قد احتاج إلى الماء فأتاه فلم يجد شيئاً. فذلك مثل عمل الكافر يرى أن له ثواباً وليس له ثواب ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَمْ يَكْدِرْنَهَا ﴾ فذلك مثل القلب الكافر ظلمة فوق ظلمة.

وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف عن الشعبي قال: في قراءة أبي بن كعب «مثل نور المؤمن كمشكاة».

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقول: مثل نور من آمن بالله كمشكاة قال: وهي النقرة يعني الكوة.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق علي عن ابن عباس ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال: «هادي أهل السموات وأهل الأرض» ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ مثل هدايه في قلب المؤمن ﴿ كَمِشْكُوفٍ ﴾ يقول: موضع الفتيلة يقول: كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار إذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوءه، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا أتاه العلم ازداد هدىً على هدى ونوراً على نور.

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبي العالية قال: هي في قراءة أبي بن كعب مثل نور من آمن به. أو قال: مثل من آمن به.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبي بن كعب ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ قال: هو المؤمن الذي جعل الإيوان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله فقال: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال: مثل نور من آمن به فكان أبي بن

كعب يقرؤها: مثل نور من آمن به فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره ﴿كَيْشْكُوفٍ﴾ قال: فصدر المؤمن المشكاة ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ والمصباح: النور، وهو القرآن، والإيمان الذي جعل في صدره ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ والزجاجة: قلبه. ﴿كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ فقلبه مما استنار فيه القرآن والإيمان كأنه كوكب دري يقول: كوكب مضيء. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ﴾ والشجرة المباركة: أصل المبارك الاخلاص لله وحده. وعبادته لا شريك له. ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: فمثله كمثل شجرة التف بها الشجر، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حالة كانت، لا إذا طلعت، ولا إذا غربت، فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصله شيء من الفتن، وقد ابتلي بها فثبتته الله فيها، فهو بين أربع خلال. إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن أعطي شكر، وإن ابتلي صبر. فهو في سائر الناس كالرجل الحي، يمشي بين قبور الأموات ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور. فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور ويوم القيامة إلى الجنة. ثم ضرب مثل الكافر فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ﴾. قال: وكذلك الكافر يحییء يوم القيامة وهو يحسب أن له عند الله خيراً فلا يجده، ويدخله الله النار قال: وضرب مثلاً آخر للكافر فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾. فهو يتقلب في خمس من الظلم. فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومدخله ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات وإلى النار. فكذلك ميت الأحياء يمشي في الناس لا يدري ماذا له وماذا عليه.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن اليهود قالوا لمحمد: كيف يخلص نور الله من دون السماء؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَيْشْكُوفٍ﴾ والمشكاة: كوة البيت. ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ وهو السراج يكون في الزجاجة. وهو مثل ضربه الله لطاعته، فسمى طاعته نوراً، ثم سماها أنواعاً شتى ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: هي وسط الشجرة لا تنالها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت وذلك لوجود الزيت ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ﴾ يقول:

بغير نار ﴿تُورُ عَلَى نُورٍ﴾ يعني بذلك إيمان العبد وعمله ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ هو مثل المؤمن.

وأخرج الطبراني وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله: ﴿كَمْشَكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قال: المشكاة. جوف محمد صلى الله عليه وسلم. والزجاجة: قلبه. والمصباح: النور الذي في قلبه. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ﴾ الشجرة: إبراهيم. ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لا يهودية ولا نصرانية ثم قرأ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التغوي: ٦٧).

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن شمر بن عطية قال: جاء ابن عباس رضي الله عنهما إلى كعب الأخبار فقال: حدثني عن قول الله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ قال: مثل نور محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة قال: المشكاة: الكوة. ضربها مثلاً لفمه ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ والمصباح: قلبه. ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ والزجاجة: صدره. ﴿كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دَرِّيٌّ﴾ شبه صدر محمد صلى الله عليه وسلم بالكوكب الدري، ثم رجع إلى المصباح. إلى قلبه فقال: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ قال: يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أنه يضيء ولو لم تمسه نار.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: الله هادي أهل السموات والأرض ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يا محمد في قلبك كمثل هذا المصباح في هذه المشكاة، فكما أن هذا المصباح في هذه المشكاة كذلك فؤادك في قلبك. وشبه قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكوكب الدري الذي لا يخبو ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ تأخذ دينك عن إبراهيم عليه السلام. وهي الزيتون. ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ليس بنصراني فيصلني نحو المشرق، ولا يهودي فيصلني نحو المغرب ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ فيقول: يكاد محمد ينطق بالحكمة قبل أن يوحى إليه بالنور الذي جعل الله في قلبه.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿مَثَلُ نُورٍ﴾ قال: محمد ﷺ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ قال: يكاد من رأى محمداً ﷺ يعلم أنه رسول الله وإن لم يتكلم.
وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رحمته الله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورٍ﴾ قال: مثل نور المؤمن.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن رحمته الله ﴿مَثَلُ نُورٍ﴾ قال: مثل هذا القرآن في القلب ﴿كَمِشْكُوفٍ﴾ قال: ككوة.

وأخرج ابن جرير عن أنس رحمته الله قال: إن إلهي يقول: «إن نوري هداي».
وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله: ﴿كَمِشْكُوفٍ﴾ قال: هي موضع الفتيلة من القنديل.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس رحمتهما الله ﴿كَمِشْكُوفٍ﴾ قال: ككوة.
وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عمر رحمتهما الله قال: ﴿كَمِشْكُوفٍ﴾ الكوة.
وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رحمتهما الله قال: ﴿كَمِشْكُوفٍ﴾ بلسان الحبشة: الكوة. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رحمته الله قال: ﴿كَمِشْكُوفٍ﴾ الكوة بلغة الحبشة. وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ﴿كَمِشْكُوفٍ﴾ قال: الكوة التي ليست بنافذة. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك قال: ﴿كَمِشْكُوفٍ﴾ الكوة التي ليس لها منفذ و﴿مَصْبَاحٌ﴾ السراج.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رحمته الله ﴿مَثَلُ نُورٍ﴾ قال: مثل نور الله في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكُوفٍ﴾ قال: الكوة ﴿كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ قال: منير مضيء ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: لا يفي عليها ظل شرقي ولا غربي كنا نتحدث أنها صاحبة الشمس. وهو أصفى الزيت، وأطيبه، وأعذبه، هذا مثل ضربه الله للقرآن أي قد جاءكم من الله نور وهدى متظاهران المؤمن يسمع كتاب الله. فوعاه، وحفظه، وانتفع بما فيه، وعمل به، فهذا مثل المؤمن.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ قال: يعني الزهرة. ضرب الله مثل المؤمن مثل ذلك النور يقول: قلبه نور، وجوفه نور، ويمشي في نور. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رحمته الله ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ قال: ضخم. وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن ابن عباس رحمته الله في قوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قال: شجرة لا يظلمها كهف ولا جبل، ولا يوارئها شيء وهو أجود لزيتها.

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة والضحاك رحمته الله ومحمد بن سيرين. مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رحمته الله في قوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قال: ليست شرقية ليس فيها غرب، ولا غربية ليس فيها شرق، ولكنها شرقية غربية. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رحمته الله في قوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قال: هي في وسط الشجر لا تصيبها الشمس في شرق ولا غرب، وهي من وجوه الشجر. وأخرج عبد بن حميد عن أبي مالك ومحمد بن كعب. مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رحمته الله قال: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية. ولكنه مثل ضربه الله لنوره.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس رحمته الله ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ قال: رجل صالح ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قال: لا يهودي ولا نصراني. وأخرج عبد بن حميد في مسنده والترمذي وابن ماجه عن عمر رحمته الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اتئدوا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة».

وأخرج البيهقي في الشعب عن عائشة رحمته الله أنها ذكر عندها الزيت فقالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أن يؤكل، ويدهن، ويستعط به، ويقول: «إنه من شجرة مباركة».

فائدة: قال البغوي: قال تعالى: ﴿الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ (النُّجُوم: ٣٥).

شبه الله تعالى الزجاجة بالكوكب ولم يشبهها بالشمس والقمر لأن الشمس والقمر يلحقهما الخسوف والكواكب لا يلحقها الخسوف.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْزِجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّتِهِ، وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ (النُّجُوم: ٤٣).

قال ابن عاشور: وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ وهو كقوله في سورة البقرة: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطَفُ أَبْصَرُهُمْ﴾ سوى أن هذه الآية زيد فيها لفظ ﴿سَنَا﴾ لأن هذه الآية واردة في مقام الاعتبار بتكوين السحاب وإنزال الغيث فكان المقام مقتضياً للتنبيه بهذا البرق وشدة ضيائه حتى يكون الاعتبار بأمرين: بتكوين البرق في السحاب، وبقوة ضيائه حتى يكاد يذهب بالأبصار، وآية البقرة واردة في مقام التهديد والتشويه لحالهم حين كانوا مظهرين للإسلام ومنطوين على الكفر والجحود فكانت حالهم كحالة الغيث المشتمل على صواعق ورعد وبرق فظاهره منفعة وفي باطنه قوارع ومصائب.

ومن أجل اختلاف المقامين وضع التعبير هنا بـ ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ وهناك بقوله: ﴿يُخْطَفُ أَبْصَرُهُمْ﴾ لأن في الخطف من معنى النكاية بهم والتسلط عليهم ما ليس في ﴿يَذْهَبُ﴾ إذ هو مجرد الاستلاب. وأما التعبير هنا بـ ﴿بِالْأَبْصَرِ﴾ معرفاً باللام فلا أن المقصود أن البرق مقارب أن يزيل طائفة من جنس الأبصار إذ اللام هنا لام الحقيقة كما في قوله: ﴿أَنْ يَأْكُلَهُ الدِّبُّ﴾ وقولهم: ادخل السوق، لأن الحكم على حالة البرق الشديد من حيث هي بخلاف آية البقرة فإنها في مقام التوبيخ لهم بأن ما شأنه أن ينفع الناس به قد أشرف على الضرر بهم دون غيرهم، فلذلك ذكر لفظ أبصار مضافاً إلى ضميرهم.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ ﴾ (الْفُرْقَانُ: ١٢).

قال في الدر المنثور: وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال: من مسيرة مائة عام.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس قال: إن العبد ليُجرَّ إلى النار فتشوق إليه شهقة البغلة إلى الشعر، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف، وإن الرجل من أهل النار ما بين شحمة أذنية وبين منكبيه مسيرة سبعين سنة، وإن فيها لأودية من قيح تكال ثم تصب في فيه.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير في قوله: ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ قال: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ترعد فرائضه حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجنثو على ركبتيه ويقول: يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي.

وأخرج ابن وهب في الأهوال عن العطف بن خالد قال: «يؤتى بجهنم يومئذ يأكل بعضها بعضاً يقودها سبعون ألف ملك، فإذا رأت الناس فذلك قوله: ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴾ زفرت زفرة لا يبقى نبي ولا صديق إلا برك لركبتيه ويقول: يا رب نفسي نفسي ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمتي.. أمتي».

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن مغيث بن سمي قال: ما خلق الله من شيء إلا وهو يسمع زفير جهنم غدوة وعشية، إلا الثقلين الذين عليهم الحساب والعقاب.

وأخرج آدم بن أبي إياس في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال: من مسيرة مائة عام وذلك إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك، لو تركت لأتت على كل بر وفاجر ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا

وَزَفِيرًا ﴿ تَزْفِرُ زَفْرَةً لَا يَبْقَى قَطْرَةٌ مِنْ دَمْعٍ إِلَّا بَدَرَتْ، ثُمَّ تَزْفِرُ الثَّانِيَةَ فَتَنْقُطُ الْقُلُوبُ مِنْ أَمَاكِنِهَا، وَتَبْلُغُ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن كعب قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، ونزلت الملائكة صفوفاً فيقول الله لجبريل: ائت بجهمهم؛ فيأتي بها تقاد بسبعين ألف زمام حتى إذا كانت من الخلائق على قدر مائة عام، زفرت زفرة طارت لها أفئدة الخلائق، ثم تزفر زفرة ثانية، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى لركبته، ثم تزفر الثالثة، فتبلغ القلوب الحناجر، وتذهل العقول، فيفزع كل امرئ إلى عمله حتى إن إبراهيم عليه السلام يقول: بخُلَّتِي لَا أَسْأَلُكَ إِلَّا نَفْسِي. ويقول موسى: بمناجاتي لَا أَسْأَلُكَ إِلَّا نَفْسِي. ويقول عيسى: بما أكرمتني لَا أَسْأَلُكَ إِلَّا نَفْسِي، لَا أَسْأَلُكَ مريم التي ولدتنني. ومحمد ﷺ يقول: أمتي.. أمتي.. لَا أَسْأَلُكَ الْيَوْمَ نَفْسِي. فيجيبه الجليل جل جلاله: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءِي مِنْ أَمْتِكَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. فوعزتي لأقرن عينك في أمتك، ثم تقف الملائكة بين يدي الله تعالى ينتظرون ما يؤمرون.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ (الرَّحْمَنُ: ١٣). قال الشنقيطي: اعلم أنه تعالى في هذه الآية الكريمة قال: ﴿ مَكَانًا ضَيِّقًا ﴾ وكذلك في الأنعام في قوله تعالى: ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (الأنعام: ١٢٥)، وقال في هود: ﴿ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ (هود: ١٢)، فما وجه التعبير في سورة هود بقوله: ﴿ وَضَاقَ ﴾ على وزن فاعل وفي الفرقان والأنعام بقوله: ﴿ ضَيِّقًا ﴾ على وزن فيعل مع أنه في المواضع الثلاثة هو الوصف من ضاق يضيق فهو ضيق؟

والجواب عن هذا هو أنه تقرر في فن الصرف أن جميع أوزان الصفة المشبهة باسم الفاعل إن قصد بها الحدوث والتجدد جاءت على وزن فاعل مطلقاً كما أشار له ابن مالك في لاميته بقوله:

وفاعل صالح للكل إن قصد الـ ... حدوث نحو غداً ذا فارح جذلاً

وإن لم يقصد به الحدوث والتجدد بقي على أصله، وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى في سورة هود: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ (هود: ١٢) أريد به أنه يحدث له ضيق الصدر ويتجدد له بسبب عنادهم وتعتهم في قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ (هود: ١٢) ولما كان كذلك قيل فيه: ضائق بصيغة اسم الفاعل أما قوله: ﴿ضَيِّقًا﴾ في الفرقان والأنعام فلم يرد به حدوث ولذلك بقي على أصله.

❁ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا﴾ (١٥) ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ (الفرقان: ١٥، ١٦).

قال في (الدر المنثور): وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ يقول: سلوا الذي وعدتكم تنجزوه.

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طريق سعيد بن هلال عن محمد بن كعب القرظي في قوله: ﴿كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ قال: إن الملائكة تسأل لهم ذلك في قولهم: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ (نمل: ٨) قال سعيد: وسمعت أبا حازم يقول: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا، فانجز لنا ما وعدتنا. فذلك قوله: ﴿وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾.

❁ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (الفرقان: ٢٤).

قال في (الدر المنثور): أخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال: أحسن منزلاً، وخير مأوى.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال: مصيراً.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال: في الغرف من الجنة. وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة، وذلك الحساب اليسير، وذلك مثل قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا ﴿٨﴾ وينقلب إلى أهله مسرورًا.

وأخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقل هؤلاء وهؤلاء. ثم قرأ ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وقرأ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنما هي ضحوة فيقل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقل أعداء الله مع الشياطين مقرنين.

وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم في الحلية عن إبراهيم النخعي قال: كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة نصف النهار، فيقل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن الصواف قال: بلغني أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم ليقيلون في رياض الجنة حتى يفرغ الناس من الحساب. وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي مأوى ومنزلاً قال قتادة: حدث صفوان ابن محرز قال: إنه ليجمع يوم القيامة برجلين كان أحدهما ملكاً في الدنيا، فيحاسب، فإذا عبد لم يعمل

خيراً فَيُؤْمَرُ به إلى النار. والآخر كان صاحب كساء في الدنيا، فيحاسب، فيقول: يا رب ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به فيقول: صدق عبدي، فأرسلوه، فيؤمر به إلى الجنة، ثم يتركان ما شاء الله، ثم يدعى صاحب النار، فإذا هو مثل الحممة السوداء فيقال له: كيف وجدت مقيلك؟ فيقول: شر مقيل. فيقال له: عد. ثم يدعى صاحب الجنة، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر فيقال له: كيف وجدت مقيلك؟ فيقول: رب خير مقيل. فيقال: عد.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. الساعة التي يكون فيها ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقلولة. فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة، فينطلق بهم إلى الجنة، فكانت قيلولتهم في الجنة، وأطعموا كبدة الحوت فأشبعهم كلهم، فذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وأخرج ابن عساكر عن عكرمة أنه سئل عن يوم القيامة أمن الدنيا هو أم من الآخرة؟ فقال: صَدُرَ ذلك اليوم من الدنيا، وآخره من الآخرة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسٍ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الفرقان: ٤٨ - ٥٠).

قال ابن عاشور: وتقديم ذكر الأنعام على الأناس اقتضاه نسج الكلام على طريقة الأحكام في تعقيبه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ ولو قدم ذكر ﴿وَأُنَاسٍ﴾ لتفكك النظم. ولم يقدم ذكرها في قوله تعالى: ﴿مَنْعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَمَكُمُ﴾ في سورة النازعات لانتفاء الداعي للتقديم فجاء على أصل الترتيب.

وقال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (البُرُجَانِ: ٥٠): الضمير في قوله: ﴿صَرَّفْنَاهُ﴾ عائد إلى المطر كما قال ابن عباس وابن مسعود وعكرمة ومجاهد. «قلت: لكونه أقرب مذكور» وعليه فالمعنى: لقد صرفنا المطر بين الناس فأنزلنا مطراً كثيراً في بعض السنين على بعض البلاد، فيكثر فيها الخصب، فيتذكروا نعمة الله عليهم، فيشكروا له، وأنزلنا مطراً قليلاً أو منعنا المطر في بعض السنين عن بعض البلاد، ليتذكر من نزل بهم البلاء، فيبادروا بالتوبة إلى الله ليرحمهم ويسقيهم. واختار القرطبي والزخشري أن الضمير يعود إلى القرآن، وهو قول عطاء، والأول هو التحقيق.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾﴾ (البُرُجَانِ: ٦٢).

قال في (الدر المنثور): أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال: أبيض وأسود.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال: هذا يخلف هذا، وهذا يخلف هذا ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ قال: يذكر نعمة ربه عليه فيهما ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ قال: شكور نعمة ربه عليه فيهما. وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال: يختلفان. هذا أسود وهذا أبيض، وإن المؤمن قد ينسى بالليل ويذكر بالنهار، وينسى بالنهار ويذكر بالليل.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يقول: من فاته شيء من الليل أن يعمل له أدركه بالنهار، ومن فاته شيء من النهار أن يعمل له أدركه بالليل.

وأخرج الطيالسي وابن أبي حاتم عن الحسن: أن عمر أطل صلاة الضحى فقل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه فقال: إنه بقي عليّ من وردي شيء وأحببت أن أتمه. أو قال أقضيه. وتلا هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يقول: جعل الليل خلفاً من النهار، والنهار خلفاً من الليل، لمن فرط في عمل أن يقضيه.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال: إن لم يستطع عمل الليل عمله بالنهار، وإن لم يستطع عمل النهار عمله بالليل. فهذا خلفه لهذا.

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال: من عجز بالليل كان له في أول النهار مستعتب، ومن عجز بالنهار كان له في الليل مستعتب.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة. أن سلمان جاءه رجل فقال: لا أستطيع قيام الليل قال: إن كنت لا تستطيع قيام الليل فلا تعجز بالنهار قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده إن في كل ليلة ساعة. لا يوافقها رجل مسلم يصلي فيها، يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه». قال قتادة: فأروا الله من أعمالكم خيراً في هذا الليل والنهار، فإنهما مطيتان تحملان الناس إلى آجالهم، تقربان كل بعيد، وتبليان كل جديد، وتحيثان بكل موعود، إلى يوم القيامة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

(الْبُرُجَانِ: ٦٧)

قال ابن عاشور: أفاد قوله: ﴿إِذَا أَنْفَقُوا﴾ أن الإنفاق من خصالهم فكأنه قال: والذين ينفقون وإذا أنفقوا إلخ. وأريد بالإنفاق هنا الإنفاق غير الواجب. وذلك إنفاق المرء على أهل بيته وأصحابه لأن الإنفاق الواجب لا يذم الإسراف فيه، والإنفاق الحرام لا يحمد مطلقاً بله أن يذم الاقتصار فيه على أن في قوله: ﴿إِذَا أَنْفَقُوا﴾ إشعاراً بأنهم اختاروا أن ينفقوا ولم يكن واجباً عليهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (الْفُرْقَان: ٧٣)، فقال: ﴿ وَعُمْيَانًا ﴾، هذا هو الموضع الوحيد، بينما قال في المواضع الأخرى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (البَقَّة: ١٨)، وقال: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البَقَّة: ١٧١)، وقال: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَدَىٰ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ (النَّبَأ: ٨١، البُرُوج: ٥٣)، قال د. فاضل: ووجه ذلك أن «فعلان» تستعمل غالباً للدلالة على القلة النسبية، ولذا قال: ﴿ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنشَاءً وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورُ ۖ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ (الشُّورَى: ٤٩، ٥٠)، فقال في الأولى: ﴿ الذُّكُورُ ﴾، وقال في الثانية: ﴿ ذُكْرَانًا ﴾ لأنَّ العادة أنه إذا ولدت المرأة ذكوراً فقط كان عددهم أكثر من أن تلد ذكراً وإناثاً.

ومثله قوله تعالى: ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشُّجَرَاء: ١٦٥)، وقوله عن مشركين العرب: ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ (الأنعَم: ١٣٩)، وذلك لأنَّ قوم لوط كانوا لا يأتون جميع الذكور وإنما يأتون صنفاً خاصاً منهم، ألا ترى أنهم لا يأتون الأطفال والشيوخ، وإنما يأتون من تستسيغه نفوسهم المنكوسة من الذكران بخلاف قوله تعالى: ﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ فإنه يشمل جميع الذكور بلا استثناء. فلمَّا كان عباد الرحمن أقل في عددهم، قال: ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (الْفُرْقَان: ٧٣)، بينما أهل الكفر والضلال كثرة، فقال: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ ﴾، ﴿ عُمَىٰ وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الْفُرْقَان: ٧٤).

تأمل وجه إشارة القرآن إلى طلب علو المهمة في دعاء عباد الرحمن أواخر سورة الفرقان: ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ثم تأمل كيف مدح الناطق بهذا الدعاء فكيف بمن بذل الجهد في طلبه؟ ثم إنَّ مدح الداعي بذلك دليل على جواز وقوعه، جعلنا الله تعالى أئمة للمتقين. أفاده د. محمد العواجي «تدبر - المجموعة (١)».

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُنْزِلْكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (الشُّعَرَاءِ: ١٨ - ٢٠).

قال ابن عاشور: كانت رباطة جأش موسى وتوكله على ربه باعثة له على الاعتراف بالفعللة وذكر ما نشأ عنها من خير له، ليدل على أنه حمد أثرها وإن كان قد اقترفها غير مقدّر ما جرت به إليه من خير؛ فابتدأ بالإقرار بفعلته ليعلم فرعون أنه لم يجد لكلامه مدخل تأثير في نفس موسى. وأخر موسى الجواب عن قول فرعون ﴿ أَلَمْ نُنْزِلْكَ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ ﴾ لأنه علم أن القصد منه الإقصار من مواجهته بأن رباً أعلى من فرعون أرسل موسى إليه. وابتدأ بالجواب عن الأهم من كلام فرعون وهو ﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ ﴾ لأنه علم أنه أدخل في قصد الإفحام، وليظهر لفرعون أنه لا يوجل من أن يطالبوه بذحل ذلك القتل ثقة بأن الله ينجيهم من عدوانهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُتَقَلِّبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشُّعَرَاءِ: ٤٩ - ٥١).

قال في (الظلال): ثم جعل يهدد بالعذاب الغليظ بعد التهويل فيما ينتظر المؤمنين: ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية، حينما يشعر بالخطر على عرشه أو شخصه، يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة، بلا تخرج من قلب أو ضمير.. وإنها لحماقة فرعون الطاغية المتجبر الذي يملك تنفيذ ما يقول، فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور! إنها كلمة القلب الذي وجد الله فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان. القلب الذي اتصل بالله فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل الطغيان. القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهيمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير.

فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشَّجَرَةُ : ٥٠، ٥١). لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف. لا ضير في التصليب والعذاب. لا ضير في الموت والاستشهاد. ﴿لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ وليكن في هذه الأرض ما يكون. فالمطمع الذي نتعلق به ونرجوه ﴿أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا﴾ جزاء ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأن كنا نحن السابقين. يا الله! يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر وإذ يفيض على الأرواح. وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس. وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين. وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾﴾ (الشَّجَرَةُ : ٥٢).

وسماهم بالاسم الشريف: عبادي، فلما ضعف توكلهم ولم يستشعروا كفاية الله لهم سلبهم هذا الوصف الشريف فقال عنهم ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (الشَّجَرَةُ : ٦١). أفاده د. محمد بن عبد الله القحطاني. «تدبر - المجموعة (١)».

﴿قَالَ تَعَالَى: عَنْ الْمَجْرِمِينَ: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾﴾ ﴿١٤﴾ وَخُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿١٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشَّجَرَةُ : ٩٤ - ٩٨)، فقال: ﴿فَكَبِّكُوا﴾ ولم يقل: «فألقوا» بل أتى بهذه الكلمة التي فيها قلقلة الباء التي تناسب حركتهم، كما أن جرسها يناسب صوت الحركة التي تتم بها، أفاده في التصوير الفني في القرآن.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾﴾ ﴿١٨﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشَّجَرَةُ : ١٦٥، ١٦٦).

قال ابن عاشور: والمعنى: أتأتون الذكران مخالفين جميع العالمين من الأنواع التي فيها ذكور وإناث فإنها لا يوجد فيها ما يأتي الذكور فهذا تنبيه على أن هذا الفعل الفظيع مخالف للفطرة لا يقع من الحيوان العجم فهو عمل ابتدعه ما فعلوا غيرهم، ونحوه

قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّكُمْ لَنَآتُونَ الْأَفْدَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. وفي الإتيان بالجملة الاسمية في قوله: ﴿أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ دون أن يقول: بل كنتم عادين، مبالغة في تحقيق نسبة العدوان إليهم. وفي جعل الخبر ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ دون اقتصار على ﴿عَادُونَ﴾ تنبيه على أن العدوان سجية فيهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم.

❁ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَنْبَيْتُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿٣٢١﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿الشُّعْرَاءُ: ٢٢١ - ٢٢٣﴾. وكذا قال: ﴿تَنْزَلُ الْمَلَكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ﴾ (الْقَنَازِلُ: ٤).

قال د. فاضل: فقال في هذه الآيات ﴿تَنْزَلُ﴾ في حين قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فُضِّلَتْ: ٣٠). فقال في آيتي القدر والشعراء: ﴿تَنْزَلُ﴾ بحذف إحدى التاءين وقال في فصلت: ﴿تَنْزَلُ﴾ من دون حذف وذلك - والله أعلم - أن التَّنَزَّلَ في آية فصلت أكثر مما في الآيتين الأخريين ذلك أن المقصود بها: أنَّ الملائكة تنزل على المؤمنين عند الموت لتبشرهم بالجنة وهذا يحدث على مدار السنة في كل لحظة ففي كل لحظة يموت مؤمن مستقيم فتتنزل لتبشره بالجنة فأعطى الفعل كل صيغته ولم يحذف منه شيئاً. وأما آية الشعراء فإنَّ التَّنَزَّلَ فيها أقل لأن الشياطين لا تنزَّلُ على كل الكفرة وإنما تنزل على الكهنة أو على قسم منهم وهم الموصوفون بقوله: ﴿كُلُّ آفَاكٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿٣٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ ولا شك أن هؤلاء ليسوا كثيراً في الناس وهم ليسوا بكثرة الأولين ولا شطرهم بل هم قلة فاقتطع من الحدث فقال: ﴿تَنْزَلُ﴾ بحذف إحدى التاءين. وكذلك ما في آية سورة القدر فإنَّ التَّنَزَّلَ الملائكة (هذا التنزل الخاص) إنما هو في ليلة واحدة في العام وهي ليلة القدر فهو أقل من التَّنَزَّلَ الذي يحدث باستمرار على من يحضره الموت

فاقتطع من الحدث. فأنت ترى أنه اقتطع من الفعل إحدى التائين في آيتي الشعراء وآية القدر. لأن التَّنْزُلَ أقل ولم يحذف من آية فصلت لأنه أكثر والله أعلم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾﴾ (الشُّعَرَاءُ: ٢٢٧).

ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ولا أنكى لقلوب المتأملين ولا أصدع لأكباد المتدبرين وذلك قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإطلاقه وقوله: ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ وإبهامه. وكان السلف الصالح يتواعظون بها. أفاده الزمخشري.



سُورَةُ النَّمْلِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ: إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا سَتَاتِكُمْ مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ آتِيَكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْأُمْرُسُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (النَّمْل: ٧ - ١٢)، بينما قال في سورة القصص: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ: ءَأَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٣٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ أَنْ يَمْوَسَّىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَنْ أَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمْوَسَّى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِينَ ﴿٤١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ: إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (الْقَصَص: ٢٩ - ٣٣).

فالقصة في سورة القصص، إذن مفصلة مطولة، وفي سورة النمل موجزة مجملة. وهذا الأمر ظاهر في صياغة القصتين، واختيار التعبير لكل منهما.

هذا أمر، والأمر الثاني أن المقام في سورة النمل، مقام تكريم لموسى أوضح مما هو في القصص، ذلك أنه في سورة القصص، كان جو القصة مطبوعاً بطابع الخوف الذي يسيطر على موسى ﷺ بل إن جو الخوف كان مقترناً بولادة موسى ﷺ فقد خافت أمه فرعون عليه، فقد قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَاتَّقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾.

ويستبدُّ بها الخوفُ أكثرَ حتى يصفها رب العزة بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.

ثم ينتقل الخوفُ إلى موسى ﷺ ويساوره وذلك بعد قتله المصري: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾. فنصحه أحدُ الناصحين بالهرب من مصر لأنه مهدد بالقتل: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وطلب من ربه أن ينجيه من بطش الظالمين: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. فهرب إلى مدين وهناك اتصل برجل صالح فيها، وقصَّ عليه القصص فطمأنه قائلاً: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا الطابع - أعني طابع الخوف - يبقى ملازماً للقصّة إلى أواخرها، بل حتى إنه لما كلفه ربه بالذهاب إلى فرعون راجعه وقال له: إنه خائف على نفسه من القتل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَنَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾. وطلب أخاه ظهيراً له يُعينه ويصدّقه لأنه يخاف أن يكذّبوه: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

في حين ليس الأمر كذلك في قصة النمل، فإنها ليس فيها ذِكْرٌ للخوف إلا في مقام إلقاء العصا. فافتضى أن يكون التعبير مناسباً للمقام الذي ورد فيه.

فقال في النمل: ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾. وقال في القصص: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾. فبنى الكلام في النمل على القطع ﴿سَأَتِيكُمْ﴾ وفي القصص على الترجي ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ﴾. وذلك أن مقام الخوف في القصص لم يناسب أن يقطع بالأمر فإن الخائف لا يستطيع القطع بما سيفعل بخلاف الآمن. ولما لم يذكر الخوف في سورة النمل بناءً على الوثوق والقطع بالأمر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنّ ما ذكره في النمل هو المناسب لمقام التكريم لموسى بخلاف ما في القصص.

وكرر فعل الإتيان في النمل، فقال: ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ﴾، ولم يكرره في القصص، بل قال: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ﴾ فأكد الإتيان في سورة النمل لقوة يقينه وثقته، والتوكيد يدل على القوة، في حين لم يكرر فعل الإتيان في القصص

مناسبة لجو الخوف. وقال في سورة النمل: ﴿أَوْ ءَاتِيَكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. وقال في القصص: ﴿لَعَلَّ ءَاتِيَكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾. فذكر في سورة النمل أنه يأتيهم بشهاب قبس، والشهاب: هو شعلة من النار ساطعة. ومعنى «الْقَبَسُ»: شعلة نار تقتبس من معظم النار، كالمقباس يقال: قبس يقبس منه ناراً، أي: أخذ منه ناراً، وقبس العلم استفادته.

وأما «الجذوة»: فهي الجمرة أو القبسة من النار وقيل: هي ما يبقى من الحطب بعد الالتهاب، وفي معناه ما قيل: هي عود فيه نار بلا لهب.

والمجيء بالشهاب أحسن من المجيء بالجمرة، لأن الشهاب يديء أكثر من الجمرة لما فيه من اللهب الساطع، كما أنه ينفع في الاستنارة أيضاً. فهو أحسن من الجذوة في الاستضاءة والدفع. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ذكر أنه سيأتي بالشهاب مقبوساً من النار، وليس مُحْتَكِساً أو محمولاً منها، لأن الشهاب يكون مقبوساً وغير مقبوس، وهذا أدل على القوة وثبات الجنان، لأن معناه أنه سيذهب إلى النار ويقبس منها شعلة ساطعة.

أما في القصص فقد ذكر أنه ربما أتى بجمرة من النار، ولم يقل إنه سيقبسها منها. والجذوة قد تكون قبساً وغير قبس. ولا شك أن الحالة الأولى أكمل وأتم لما فيها من زيادة نفع الشهاب على الجذوة، ولما فيها من الدلالة على الثبات وقوة الجنان. وقد وضع كل تعبير في موطنه اللائق به، ففي موطن الخوف، ذكر الجمرة وفي غير موطن الخوف، ذكر الشهاب القبس.

وقال في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾. وقال في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ﴾. فما الفرق بينهما؟

قال الراغب الأصفهاني مفرقاً بين الإتيان والمجيء: «الإتيان مجيءٌ بسهولة، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتي». وقال: «المجيء كالإتيان، لكن المجيء أعم، لأن الإتيان مجيءٌ بسهولة». اهـ.

ولم يذكر أهل المعجمات ما ذكره الراغب، وإنما هم يفسرون واحداً بالآخر، فيفسرون جاء بأتى، وأتى بجاء، غير أنهم يذكرون في بعض تصريفات «أتى» ما يدل على السهولة، فيقولون مثلاً في تفسير الطريق الميَّاء من «أتى» «طريق مسلوكة يسلكه كل أحد» وذلك لسهولته ويسره. ويقولون: «كل سيل سهله الماء، أتى» و«أتوا جداولها: سهلوا طرق المياه إليها» يقال: «أتيت الماء» إذا أصلحت مجراه حتى يجري إلى مقارّه... ويقال: أتيت للسيل، فأنا أوَّتيه إذا سهلت سبيله من موضع إلى موضع ليخرج إليه.. وأتيت الماء تأتيةً وتأتياً، أي: سهَّلتُ سبيله ليخرج إلى موضع.

والذي استبان لي أن القرآن الكريم، يستعمل المجيء لما فيه صعوبة ومشقة، أو لما هو صعب وأشق مما تُستعمل له «أتى» فهو يقول مثلاً: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ﴾ (المؤمنون: ٢٧). وذلك لأن المجيء فيه مشقة وشدة. وقال: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ (فتح: ١٩). وقال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (الكهف: ٧١). وقال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (الكهف: ٧٤). وقال: ﴿قَالُوا يَمْرِمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (مريم: ٢٧). وقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُزُّ الْجِبَالِ هَدًّا﴾ (مريم: ٨٨ - ٩٠). وقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الأنعام: ٨١). وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاعَةُ﴾ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (عبس: ٣٣، ٣٤). وهذا كله مما فيه صعوبة ومشقة. أ. هـ.

تنبيه: فإن قيل: فلم قال: ﴿هَلْ أَتَكَ حَدِيثُ الْغَلَشِيَّةِ﴾ ولم يقل: «جاء» رغم شدة الغاشية؟

قلت: ليدل على سهولة ذلك على الله رغم ما يصحبها من أهوال وفظائع

وعجائب، إلا أن ذلك كله على الله يسير!!

تابع سورة النمل :

١- قال د. فاضل: قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّمْلِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾، وقال في سورة

القصص: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا﴾ ذلك أن ما قطعه موسى على نفسه في النمل أصعب مما في

القصص فقد قطع في النمل على نفسه أن يأتيهم بخبر أو شهاب قبس في حين ترجى ذلك في القصص والقطع أشق وأصعب من الترجي، كما أنه قطع في النمل أن يأتيهم بشهاب قبس أي بشعلة من النار ساطعة مقبوسة من النار التي رآها في حين أنه ترجى في القصص أن يأتيهم بجمرة من النار والأولى أصعب. ثم إن المهمة التي ستوكل إليه في النمل أصعب وأشق مما في القصص فإنه طُلبَ إليه في النمل أن يُبلغ فرعون وقومه رسالة ربه في حين طلب إليه في القصص أن يبلغ فرعون وملائه وتبليغ القوم أوسع وأصعب من تبليغ الملائ ذلك أن دائرة الملائ ضيقة وهم المحيطون بفرعون في حين أن دائرة القوم واسعة لأنهم منتشرون في المدن والقرى كما أن التعامل مع هذه الدائرة الواسعة من الناس صعب شاق فإنهم مختلفون في الأمزجة والاستجابة والتصرف. فما في النمل أشق وأصعب فجاء بالفعل «جاء» دون «أتى» الذي هو أخف ويدل على ذلك قوله تعالى في سورة طه: ﴿ فَلَمَّا أَتَتْهَا يُودِي يَمُوسَى ﴾ ذلك لأنه أمره بالذهاب إلى فرعون ولم يذكر أحداً آخر ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ ﴿ وَسَيِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ فانظر كيف لما أرسله إلى فرعون قال: ﴿ أَتَتْهَا ﴾ ولما أرسله إلى فرعون وملائه قال: ﴿ أَتَتْهَا ﴾ أيضاً في حين لما أرسله إلى فرعون وقومه قال: ﴿ جَاءَهَا ﴾ وأنت ترى الفرق بين الموطنين ظاهراً.

٢- قَالَ تَعَالَى في سورة النمل: ﴿ يَمُوسَى ﴾ (النمل: ٩) بينما قال في القصص: ﴿ أَنْ يَمُوسَى ﴾ (القصص: ٣٠) قال د. فاضل: فجاء بـ ﴿ أَنْ ﴾ المفسرة في القصص ولم يأت بها في النمل وذلك لأكثر من سبب منها: أن المقام في النمل مقام تعظيم لله سبحانه وتكريم لموسى كما ذكرنا فشرفه بالنداء المباشر في حين ليس المقام كذلك في القصص فجاء بما يفسر الكلام أي: نادينا بنحو هذا أو بما هذا معناه فهناك فرق بين قولك: «أشرت إليه أن أذهب» و«قلت له اذهب» فالأول معناه أشرت إليه بالذهاب أي لفظ أو دلالة تدل على هذا المعنى وأما الثاني فقد قلت له هذا القول نصاً ومثله قوله تعالى: ﴿ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ

يَتَابَرِهِيْمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ (الصَّافَّاتِ: ١٠٤، ١٠٥) أي بما هذا تفسيره أو بما هذا معناه بخلاف قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (هُود: ٤٦)، ومنها أن المقام في سورة القصص مقام تبسط وتفصيل فجاء بـ ﴿ أَنْ ﴾ زيادة في التبسط، ومنها أن ثقل التكليف في النمل يستدعي المباشرة في النداء ذلك أن الموقف يختلف بحسب المهمة وقوة التكليف كما هو معلوم.

٣- قال د. فاضل: قال في النمل: ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ وقال في القصص: ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴾ ذلك أن المقام في سورة القصص مقام الخوف والخائف يحتاج إلى الأمن فأمنه قائلاً: ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴾. أما في سورة النمل فالمقام مقام التكريم والتشريف فقال: ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ فألح بذلك إلى أنه منهم وهذا تكريم وتشريف ثم انظر كيف قال: ﴿ لَدَى ﴾ مشعراً بالقرب وهو زيادة في التكريم والتشريف، ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما قال في سورة النمل: ﴿ لَدَى ﴾ المفيدة للقرب ناداه بما يفيد القرب فقال: ﴿ يَمْوِسَّى ﴾ ولم يقل: ﴿ أَنْ يَمْوِسَّى ﴾ كما قال في القصص ففصل بين المنادي والمنادى بما يفيد البعد. وأمره أيضاً بما يفيد القرب بلا فاصل بينهما فقال: ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ولم يقل: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ للدلالة على قرب المأمور منه فناده من قرب وأمره من قرب وذلك لأنه كان منه قريباً فانظر علو هذا التعبير ورفعته.

٤- قال في النمل: ﴿ وَأَدْخُلْ يَدَّكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ وقال في القصص: ﴿ أَسْأَلُكَ يَدَّكَ فِي جَيْبِكَ ﴾. لقد استعمل في سورة القصص أمر الفعل ﴿ أَسْأَلُكَ ﴾ الذي يستعمل كثيراً في سلوك السبل فيقال: سلك الطريق والمكان سلكاً. قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ (١١) لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿ (نُوح: ١٩، ٢٠). ذلك لأنه تردد سلوك الأمكنة والسبل في قصة موسى في القصص بخلاف ما ورد في النمل فقد ورد فيها - أي في سورة القصص - سلوك الصندوق بموسى وهو ملقى في اليم إلى قصر فرعون وسلوك أخته وهي تقص أثره وسلوك موسى الطريق إلى مدين بعد فراره من مصر وسلوكه

السبيل إلى العبد الصالح في مدين وسير موسى بأهله وسلوكه الطريق إلى مصر حتى إنه لم يذكر في النمل سيره بأهله بعد قضاء الأجل بل إنه طوى كل ذكرٍ للسير والسلوك في القصة مبتدئاً ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّي ۤأَنْتُسْتُ نَارًا سَتَاتِكُمْ مِّنْهَا بَخْرٌ﴾ بخلاف ما ورد في القصص فإنه قال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ۤأَنَّكَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ فحسن ذكر السلوك في القصص دون النمل.

ومن ناحية أخرى إن الإدخال أخص من السلك أو السلوك اللذين هما مصدر الفعل سلك لأن السلك أو السلوك قد يكون إدخالاً وغير إدخال تقول: سلكت الطريق وسلكت المكان أي سرت فيه وتقول: سلكت الخيط في المخطط أي أدخلته فيه فالإدخال أخص وأشق من السلك والسلوك فإن السلك قد يكون سهلاً ميسوراً، قال تعالى في النحل: ﴿فَأَسْأَلُكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ (الحجك: ٦٩). فانظر كيف قال: ﴿ذُلًّا﴾ ليدل على سهولته ويسره وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢١). وهل هناك أيسر من سلوك الماء في الأرض وغوره فيها؟ فناسب وضع السلوك في موطن السهولة واليسر ووضع الإدخال في موطن المشقة والتكليف الصعب. لقد ناسب الإدخال أن يوضع مع قوله: ﴿سَتَاتِكُمْ مِّنْهَا بَخْرٌ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ ومهمة التبليغ إلى فرعون وقومه، وناسب أن يوضع السلوك في مقام الخوف وأن يوضع الإدخال في مقام الأمن والثقة. وناسب أن يوضع الإدخال وهو أخص من السلوك مع «الشهاب القبس» الذي هو أخص من الجذوة وأن يوضع السلوك وهو أعم من الإدخال مع الجذوة من النار التي هي أعم من الشهاب القبس.

﴿قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ١٥).

قال ابن عاشور: وحكاية قولهما: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ كناية عن تفضيلهما بفضائل غير العلم ألا ترى إلى قوله: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومنهم أهل العلم

وغيرهم، وتنويه بأنهما شاكران نعمته. ولأجل ذلك عطف قولهما هذا بالواو دون الفاء لأنه ليس حمداً لمجرد الشكر على إيتاء العلم. والظاهر أن حكاية وقعت بالمعنى، بأن قال كل واحد منهما: الحمد لله الذي فضلني، فلما حُكي القولان جمع ضمير المتكلم. ويجوز أن يكون كل واحد شكر الله على منحه ومنح قريبه، على أنه يكثر استعمال ضمير المتكلم المشارك لا لقصد التعظيم بل لإخفاء المتكلم نفسه بقدر الإمكان تواضعاً كما قال سليمان عقب هذا: ﴿عَلَّمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وجعلنا تفضيلهما على كثير من المؤمنين دون جميع المؤمنين؛ إمّا لأنها أرادا بالعباد المؤمنين كل من ثبت له هذا الوصف من الماضين وفيهم موسى وهارون، وكثير من الأفاضل والمساوي، وإما لأنها اقتصدا في العبارة إذ لم يحيطا بمن ناله التفضيل، وإمّا لأنها أرادا بالعباد أهل عصرهما فعبراً بـ ﴿كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ تواضعاً لله.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (النَّبَأُ: ٢٢).﴾

قال ابن عاشور: و﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قريب قريباً يوصف بضد البعد أي يوشك أن يكون بعيداً. وهذا وجه إثارة التعبير بـ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ لأن ﴿غَيْرَ﴾ تفيد دفع توهم أن يكون بعيداً وإنما يتوهم ذلك إذا كان القرب يشبه البعد. (قلت: وهذا كلام نفيس).

﴿قَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ بَلْقِيسَ قَبْلَ أَنْ تَعْلَنَ إِسْلَامَهَا: ﴿وَكَشَفْتُ عَنْ سَاقَيْهَا﴾ (النَّبَأُ: ٤٤).﴾

ففيه دلالة على أن ثوبها كان طويلاً ساتراً لساقيهما وهي من؟ امرأة كافرة؟ في حين أن بعض المسلمات وللأسف الشديد يتنافسن في خلع جلاباب الحشمة والحياء فيما ترتديه من ملابس بلا حياء ولا خوف من الله؛ أليس من المدمي أن تكون امرأة كافرة أكثر حشمةً وتستراً من بعض نساء المسلمين؟! «كتاب تدبر: المجموعة (١)».

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَبَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ (النَّبَأُ: ٦٧).﴾

قال ابن عاشور: والتعبير عنهم باسم الموصول لما في الموصول من الإيحاء إلى علة قولهم هذه المقالة وهي ما أفادته الصلة من كونهم كافرين، فكانه قيل: وقالوا بكفرهم

أإذا كنا تراباً... إلى آخره استفهماً بمعنى الإنكار. أتوا بالإنكار في صورة الاستفهام لتجهيل معتقد ذلك وتعجيزه عن الجواب بزعمهم. والتأكيد بـ «أن» لمجاراة الكلام المردود عليه بالإنكار. والتأكيد تهكم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾﴾ (البَنَاقَةُ : ٧٥)، فقال: ﴿غَائِبَةٍ﴾ بالتأنيث للدلالة على أن الشيء البالغ غيابه عن الناس لا يغيب عن الله عز وجل، ولذا أيضاً قال عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الْمُطَفِّلَةُ : ١٨)، ليدل على أن الشيء البالغ خفاؤه على الناس لا يخفى في ذلك اليوم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾﴾ (البَنَاقَةُ : ٨٠). قال ابن عاشور: و﴿الْمَوْتَى﴾ و﴿الدُّعَاءَ﴾: مستعاران للقوم الذين لا يقبلون القول الحق ويكابرون من يقوله لهم. شبهوا بالموتى على طريقة الاستعارة في انتفاء فهمهم معاني القرآن، وشبهوا بالصم كذلك في انتفاء أثر بلاغة ألفاظه عن نفوسهم.

وللقرآن أثران: أحدهما ما يشتمل عليه من المعاني المقبولة لدى أهل العقول السليمة وهي المعاني التي يدركها ويسلم لها من تبلغ إليه ولو بطريقة الترجمة بحيث يستوي في إدراكها العربي والعجمي وهذا أثر عقلي، والأثر الثاني دلالة نظمه وبلاغته على أنه خارج عن مقدرة البلغاء العرب. وهذا أثر لفظي وهو دليل الإعجاز وهو خاص بالعرب مباشرة، وحاصل لغيرهم من أهل النظر والتأمل إذا تدبروا في عجز البلغاء من أهل اللسان الذي جاء به القرآن، فهؤلاء يوقنون بأن عجز البلغاء أهل ذلك اللسان على معارضته دال على أنه فوق مقدرتهم؛ فالمشركون شبهوا بالموتى بالنظر إلى الأثر الأول، وشبهوا بالصم بالنظر إلى الأثر الثاني، فحصلت استعارتان. ونفي الإسماع فيها ترشيحان للاستعارتين وهما مستعاران لانتفاء معالجة إبلاغهم. ولأجل اعتبار كلا الأثرين المبني عليهما ورود تشبيهين كرر ذكر الترشيحين فعطف ﴿وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ﴾ على ﴿لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾، ولم يكتف بأن يقال: إنك لا تسمع الموتى ولا الصم. وتقيد

الصم بزمان توليهم مدبرين لأن تلك الحالة أوغل في انتفاء إسماعهم لأن الأصم إذا كان مواجهاً للمتكلم قد يسمع بعض الكلام بالصراخ أو يستفيد المعنى المقصود بحركة الشفتين فإذا تولى فذلك أبعد له عن السمع.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعُمَى عَنْ ضَلَلَتِهِمْ ﴾ ﴾ (النِّسَاءُ : ٨١).

قال ابن عاشور: وقوله: ﴿ عَنْ ضَلَلَتِهِمْ ﴾ يتضمن استعارة مكنية قريبتها حالية. شبه الدين الحق بالطريق الواضحة، وإسناد الضلالة إلى سالكيه ترشيح لها، والضلالة أيضاً مستعارة لعدم إدراك الحق تبعاً للاستعارة المكنية، وأطلقت هنا على عدم الاهتداء للطريق، وضمير ﴿ ضَلَلَتِهِمْ ﴾ عائد إلى العمى، ولتأتي هذه الاستعارة الرشيقة عدل عن تعليق ما حقه أن يعلق بالهدى فعلق به ما يقتضيه نفى الهدى من الصرف والمباعدة. فقيل: ﴿ عَنْ ضَلَلَتِهِمْ ﴾ بتضمين ﴿ بِهَدَى ﴾ معنى صارف. فصار: ما أنت بهاد، بمعنى: ما أنت بصارفهم عن ضلالتهم كما يقال: سقاه عن العيمة، وهي شهوة اللبن.

وعدل في الجملة عن صيغة النفيين السابقين في قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الضُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ الواقعين على مسندين فعليين، إلى تسليط النفي هنا على جملة اسمية للدلالة على ثبات النفي. وأكد ذلك الثبات بالباء المزيدة لتأكيد النفي. ووجه إثارة هذه الجملة بهذين التحقيقين هو أنه لما أفضى الكلام إلى نفي اهتدائهم وكان اهتداؤهم غاية مطمع الرسول ﷺ كان المقام مشعراً ببقية من مطمعه في اهتدائهم حرصاً عليهم فأكد له ما يقلع طمعه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَآذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴾

(النِّسَاءُ : ٨٤).

قال ابن عاشور: ومن لطائف البلاغة أنه جاء بالمعادل الأول مصرحاً به لأنه المحقق منهم فقال: ﴿ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي ﴾ وحذف معادله الآخر تنبيهاً على انتفائه كأنه قيل: أهو ما عهد منكم من التكذيب أم حدث حادث آخر، فجعل هذا المعادل متردداً فيه، وانتقل الكلام إلى استفهام وهذا تبكيك لهم.

وقال في (الكشاف): ومثاله أن تقول لراعيك وقد علمت أنه راعي سوء: أأأكل نعمي أم ماذا تعمل بها، فتجعل ما ابتدأت به وجعلته أساس كلامك وهو الذي صح عندك من أكله وفساده وترمي بقولك: أم ماذا تعمل بها، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتبتهته. ويجوز أن يكون الإستفهام تقديرًا وتكون «أم» متصلة وما بعدها هو معادل الاستفهام باعتبار المعنى كأنه قيل: أكذبتهم أم لم تكذبوا فماذا كنتم تعملون إن لم تكذبوا فإنكم لم تتبعوا آياتي.



سُورَةُ الْقَصَصِ

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ﴾ (الْقَصَصُ: ١٢).

قال ابن عاشور: والعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية في قوله: ﴿وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ﴾ لقصد تأكيد أن النصح من سجاياهم ومما ثبت لهم فلذلك لم يقل: وينصحون له كما قيل: ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ لأن الكفالة أمر سهل بخلاف النصح والعناية. وتعليق ﴿لَهُ﴾ بـ ﴿نَصْحُونَ﴾ ليس على معنى التقييد بل لأنه حكاية الواقع. فالمعنى: أن النصح من صفاتهم فهو حاصل له كما يحصل لأمثاله حسب سجيّتهم. والنصح: العمل الخالص الخلي من التقصير والفساد. اهـ.

قلت: ويحتمل أن يُقال تخصيص ﴿لَهُ نَصْحُونَ﴾ لثلاثيهم أنهم سيرفعون معه غيره كما تفعل المرضعات من إرضاعهنّ لأكثر من طفل، فنفت ذلك لتدل على أنّها ستوفر لبنها ورعايتها له دون غيره.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَّىٰ ابْنَ الْإِسْكَانِ يَأْتِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِنَّكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الْقَصَصُ: ٢٠).

قال ابن عاشور: ظاهر النظم أن الرجل جاء على حين محاورة القبطي مع موسى فلذلك انطوى أمر محاورتهما إذ حدث في خلاله ما هو أهم منه وأجدى في القصة.

والظاهر أن أقصى المدينة هو ناحية قصور فرعون وقومه فإن عاده الملوك السكنى في أطراف المدن توقياً من الثورات والغارات لتكون مساكنهم أسعد بخروجهم عند الخوف. وقيل: الأطراف منازل الأشراف. وبهذا يظهر وجه ذكر المكان الذي جاء منه الرجل وأن الرجل كان يعرف موسى.

قَالَ تَعَالَى فِيمَا قَصَّه مِمَّا كَانَ بَيْنَ مُوسَى وَصَالِحِ مَدِينٍ: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْكَ﴾ (الْقَصَصُ: ٢٧)، فقال: ﴿حِجَجٍ﴾ ولم يقل: ﴿سِنِينَ﴾ بينما قال عن أهل الكهف: ﴿وَلْيَتُوبُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ (الْكَهْفُ: ٢٥)، فقال: ﴿سِنِينَ﴾، وكذا قال عن يوسف: ﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يُوسُفُ: ٤٢)، وفي ذلك دقة بالغة؛ قال في لسان العرب: يقال حججت فلاناً إذا أكثرت زيارته والاختلاف إليه. وقال أيضاً: السَّنة: العام. والسَّنة مطلقة: السنة المجدبة، أو قوعوا ذلك عليها إكباراً لها وتشنيعاً واستطالةً. يقال أصابتهم السنة. والسَّنة: الأزمة وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ (الْأَنْعَامُ: ١٣٠) أي بالقحوط. وتصغير سنة: سُنيهة وسُنيّة وتجمع سَنَوَاتٍ وسَنَهَاتٍ، فإذا جمعتها جمع الصحة كسرت السين فقلت: سنين وسُنون. اهـ.

قلت: فوجه قول صالح مدين لموسى: ﴿حِجَجٍ﴾ ليدل على أنه سأله أن يكثُر في هذه السنين من زيارته والاختلاف إليه ليرى ابنته من ناحية، وربما ليزودهما بما قد يحتاجانه من طعام وغيره على ما جرت عادة الآباء الأثرياء الكرماء به مع بناتهم وأزواجهن قليلي ذات اليد. وأمّا في قصة يوسف وأصحاب الكهف، فقد كانت سنين لم تتخللها زيارة من يوسف ولا من أصحاب الكهف لغيرهم ولا حتى زيارة غيرهم لهم، كما أنها كانت طوالاً شديداً وإن كان الله قد هونها عليهم، كما أنها كانت سنين أزمة بلا شك، فناسب كل ذلك أن يقال: ﴿سِنِينَ﴾ دون ﴿حِجَجٍ﴾ مع أن كلاً منهما بمعنى الأعوام. وللدلالة على طولها ومشقتها قال ﴿سِنِينَ﴾ دون «سنوات».

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ عَاسَكَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ

تَصْطَلُونُ ﴿ (الْقَصَصُ : ٢٩)، فقال: ﴿ اَمْكُثُوا ﴾ بينما قال في سورة النمل: ﴿ اِذْ قَالَ مُوسَى لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونُ ﴾ (النمل : ٧)، ولم يقل: ﴿ اَمْكُثُوا ﴾ لأن المكث هو الإقامة في المكان، لأن قصة موسى ذكرت باختصار وإيجاز شديد في سورة النمل، فالقارئ يمر عليها مروراً مناسباً فنادراً ما يذكر أمره لأهله بالمكث فيها، بينما ذكرت القصة بشيء من التفصيل في سورة القصص، فناسب ذكر المكث للدلالة على ذلك، وللإشارة إلى أنه ينبغي التمهّل في قراءة ودراسة هذه القصة في سورة القصص لأخذ العبر البليغة منها.

ولذا أيضاً قال في سورة طه: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٠﴾ اِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ اَمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ (طه : ٩، ١٠)، فقال: ﴿ اَمْكُثُوا ﴾ أيضاً لنفس العلة، والمتأمل المتمهل في سورتي القصص وطه بالذات يجد عبراً كثيراً ودروساً بليغة. وقال في سورتي القصص وطه: ﴿ لَعَلِّي ﴾، ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ لإفادة رجاء العظة والعبرة في المكث مع هذه القصة في هاتين السورتين، والله أعلم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ (القصص : ٣٣، ٣٤)، فبدء بذكر خوف موسى من القتل ثم خوفه من التكذيب بينما قال في الشعراء: ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَنْقُوزَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (الشعراء : ١٠ - ١٤)، فبدء بذكر خوفه من التكذيب، ووجه ذلك - والله أعلم - أن قصة قتل موسى للقبطي قد ذكرت بالتفصيل في سورة القصص، فناسب ذكرها أولاً، وأمّا في سورة الشعراء فإنه ذكر فيها تعيين فرعون لموسى بهذه الفعلية، وأنه ظن أن ذلك يفت في عضد موسى، وذكر ردّ موسى عليه بثبات قلب وثقة ﴿ وَفَعَلَتْ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١١) قَالَ فَعَلْنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ ﴿١٢﴾ فَفَرَرْتُ

مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢﴾ (الشُّعَرَاءُ: ١٩ - ٢٢)، فلم يناسب أن يبدأ بذكر خوفه من أمر قتله القبطي.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ ﴾ (الْقَصَصُ: ٤٢).

قال ابن عاشور: والتخالف بين صيغتي قوله: ﴿ وَاتَّبَعْنَاهُمْ ﴾ وقوله: ﴿ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾، لأن اللعنة في الدنيا قد انتهى أمرها بإغراقهم، أو لأن لعن المؤمنين إياهم في الدنيا يكون في أحيان يذكر ونهم، فكلا الاحتمالين لا يقتضي الدوام فجيء معه بالجملة الفعلية، وأما تقييح حالهم يوم القيامة فهو دائم معهم ملازم لهم فجيء في جانبه بالاسمية المقتضية الدوام والثبات.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ﴾ (الْقَصَصُ: ٥٤).

قال ابن عاشور: أي إنهم يؤتون أجرين على إيمانهم، أي يضاعف لهم الثواب لأجل أنهم آمنوا بكتابهم من قبل ثم آمنوا بالقرآن، فعبّر عن مضاعفة الأجر ضعفين بالمرتين تشبيهاً للمضاعفة بتكرير الإيتاء وإنما هو إيتاء واحد. وفائدة هذا المجازظهار العناية حتى كأن الميثب يعطي ثم يكرر عطاءه ففي ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ تمثيله.

- قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ ﴾ (الْقَصَصُ: ٦١).

قال في (الدر المشور): أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾: هو المؤمن. سمع كتاب الله فصدق به وآمن بما وعد فيه من الخير والجنة. ﴿ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال: هو الكافر. ليس كالمؤمن. ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ قال: من المحضرين في عذاب الله. وأخرج ابن أبي شيبة وابن

أبي حاتم عن مسروق رحمته الله أنه قرأ هذه الآية ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَنَقِيهِ﴾ فلم يتجاوزها. وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رحمته الله في قوله: ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ قال: أهل النار أحضروها.

وأخرج البخاري في تاريخه عن عطاء بن السائب قال: كان ميمون بن مهران إذا قدم ينزل على سالم البراد، فقدم قدمة فلم يلقه فقالت له امرأته: إِنَّ أَخَاكَ قرأ ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ﴾ قالت: فشغل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رحمته الله قال: من استطاع منكم أن يضع كنزَه حيث لا يأكله السوس فليفعل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب رحمته الله قال: مكتوب في التوراة. ابن آدم ضع كنزك عندي فلا غرق، ولا حرق، أدفعه إليك أفقر ما تكون إليه يوم القيامة.

وأخرج مسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رحمته الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، فيقول: رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، ويقول: يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، فيقول: أي رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول تبارك وتعالى: أما علمت أن عبدي فلاناً استسقاك فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي. قال: ويقول: يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني. فيقول: أي رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً استطعمك فلم تطعمه، أما أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي».

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد الله بن عبيد بن عمير رحمته الله قال: «يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا، وأعطش ما كانوا، وأعرى ما كانوا، فمن

أطعم الله عز وجل أطعمه الله، ومن كسا الله عز وجل كساه الله، ومن سقى الله عز وجل سقاه الله، ومن كان في رضا الله كان الله على رضاه أقدر».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ قُرُونَكُمْ كَاتٍ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ (الْقَصَصُ: ٧٦)، فقال: ﴿ كَاتٍ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾ ولم يقل: «من بني إسرائيل» لما في إضافة ﴿ قَوْمٍ ﴾ إلى موسى من الإيماء إلى أن لقارون اتصالاً خاصاً بموسى فهو اتصال القرابة، أفاده ابن عاشور.

وقال أيضاً: وافتتاح الجملة بحرف التوكيد يجوز أن يكون لإفادة تأكيد خبر ﴿ إِنَّ ﴾ وما عطف عليه وتعلق به مما اشتملت عليه القصة وهو سوء عاقبة الذين تغرهم أموالهم وتزدهيهم فلا يكثرثون بشكر النعمة ويستخفون بالدين، ويكفرون بشرائع الله؛ لظهور أن الإخبار عن قارون بأنه من قوم موسى ليس من شأنه أن يتردد فيه السامع حتى يؤكد له، فمصب التأكيد هو ما بعد قوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ﴾ إلى آخر القصة المنتهية بالخسف.

ويجوز أن تكون ﴿ إِنَّ ﴾ لمجرد الاهتمام بالخبر ومناط بالاهتمام هو مجموع ما تضمنته القصة من العبر التي منها أنه من قوم موسى فصار عدواً له ولأتباعه، فأمره أغرب من أمر فرعون.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الْقَصَصُ: ٧١، ٧٢)

قال ابن عاشور: ووصف الليل بـ ﴿ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ إدماج للمنة في أثناء الاستدلال للتذكير بالنعمة المشتملة على نعم كثيرة. وتلك هي نعمة السكون فيه فإنها تشمل لذة الراحة، ولذة الخلاص من الحر، ولذة استعادة نشاط المجموع العصبي الذي به التفكير والعمل، ولذة الأمن من العدو. ولم يوصف الضياء بشيء لكثرة منافعه واختلاف أنواعها.

قَالَ تَعَالَىٰ بَعْدَ ذِكْرِ قِصَّةِ قَارُونَ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْعِقِينَ﴾ (الْقَصَصُ: ٨٣).

قال ابن عاشور: انتهت قصة قارون بما فيها من العبر من الخير والشر، فأعقبت باستئناف كلام عن الجزاء على الخير وضده في الحياة الأبدية وأنها معدة للذين حالهم بضد حال قارون، مع مناسبة ذكر الجنة بعنوان الدار لذكر الخسف بدار قارون للمقابلة بين دار زائلة ودار خالدة.

❁ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الْقَصَصُ: ٨٥).

قال ابن عاشور: عبر عن جانب المهتدي بفعل ﴿مَنْ جَاءَ﴾ للإشارة إلى أن المهتدي هو الذي جاء بهدى لم يكن معروفاً من قبل كما يقتضيه: جاء بكذا، وعبر عن جانب الضالين بالجملة الاسمية المقتضية ثبات الضلال المشعر بأن الضلال هو أمرهم القديم الراسخ فيهم مع ما أفاده حرف الظرفية من انغماسهم في الضلال وإحاطته بهم. ويكون المعنى حينئذ على حد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ لِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لظهور أن المبلغ بهذا الكلام لا يفرض في حقه أن يكون هو الشق الضال فيتعين أن الضال من خالفه. وبالنسبة إلى الوجه الثاني تكون بمنزلة الوداع والمشاركة وقطع المجادلة.



سُورَةُ الْجَنِّبُوتِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلِيَحْمِلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَنْفُسِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (الْجَنِّبُوتِ: ١٣).

وفيه بيان لما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعتهم لمخاطبيهم أصلاً. والتعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة. أفاده الألوسي.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَنْجَحَهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الْجَنِّبُوتِ: ٢٤).

قال الفيروز أبادي: قوله: ﴿ فَأَنْجَحَهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال بعده: ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فجمع الأولى ﴿ لَآيَاتٍ ﴾، ووجد الثانية، لأن الأولى إشارة إلى إثبات النبوة، وفي النبيين «صلوات الله وسلامه عليهم» كثرة والثاني إشارة إلى التوحيد وهو - سبحانه - واحد لا شريك له.



سُورَةُ الرُّومِ

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٦﴾ يَعْلَمُونَ

ظَهَرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ (الرُّومُ: ٦، ٧).

قال في (الظلال): والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل؛ وتورجح في أفهم ميزان القيم؛ فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحاً؛ ويظل علمهم بها ظاهراً سطحياً ناقصاً، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغير نظرتة لكل ما يقع في هذه الأرض فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون. ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم في الوجود. ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة. وقدر زهيد من النصيب الضخم. ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها، مع آخر يعيش لهذه الدنيا ولا ينتظر ما وراءها. لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ولا قيمة واحدة من قيمها الكبيرة؛ ولا يتفكان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشئون فلكل منهما ميزان، ولكل منهما زاوية للنظر، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال.. هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا، وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن، ونواميس شاملة للظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والموت والحياة، والماضي والحاضر والمستقبل، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء. وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الإسلام البشرية إليه ويرفعها إلى المكان الكريم اللائق بالإنسان الخليفة في الأرض.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ

الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الرُّومُ: ٤١).

قال ابن عاشور: وأطلق الظهور على حدوث حادث لم يكن، فشبّه ذلك الحدوث بعد العدم بظهور الشيء الذي كان مختفياً. ومحمل صيغة فعل ﴿ظَهَرَ﴾ على حقيقتها من الماضي يقتضي أن الفساد حصل وأنه ليس بمستقبل، فيكون إشارة إلى فساد مشاهد أو محقق الوقوع بالأخبار المتواترة. وقد تحمل صيغة الماضي على معنى توقع حصول الفساد والإنذار به فكأنه قد وقع على طريقة ﴿أَنَّى أَمْرُ اللَّهِ﴾.



سُورَةُ الْقُثَمَانِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢٣) نُمْنُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (الْقُثَمَانِ: ٢٢ - ٢٤).

قال في (الظلال): إنَّه الاستسلام المطلق لله - مع إحسان العمل والسلوك - الاستسلام بكامل معناه، والطمأنينة لقدر الله والانطباع لأوامر الله وتكاليفه وتوجيهاته مع الشعور بالثقة والاطمئنان للرحمة، والاسترواح للرعاية، والرضى الوجداني رضى السكون والارتياح. كل أولئك يرمز له بإسلام الوجه إلى الله. والوجه أكرم وأعلى ما في الإنسان. ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾. العروة التي لا تنقطع ولا تهين ولا تخون ممسكاً بها في سراء أو ضراء ولا يضل من يشد عليها في الطريق الوعر والليلة المظلمة، بين العواصف والأنواء! هذه العروة الوثقى هي الصلة الوثيقة الثابتة المطمئنة بين قلب المؤمن المستسلم وربّه. هي الطمأنينة إلى كل ما يأتي به قدر الله في رضى وفي ثقة وفي قبول. طمأنينة تحفظ للنفس هدوءها وسكينتها ورباطة جأشها في مواجهة الأحداث وفي الاستعلاء على السراء فلا تبطر، وعلى الضراء فلا تصغر، وعلى المفاجآت فلا تذهل! وعلى اللاؤاء في طريق الإيوان، والعقبات تتناثر فيه من هنا ومن هناك. إن الرحلة طويلة وشاقة وحافلة بالأخطار. وخطر المتاع فيها والوجدان ليس أصغر ولا أقل من خطر الحرمان فيها والشقاء. وخطر السراء فيها ليس أهون ولا أيسر من خطر الضراء، والحاجة إلى السند الذي لا يهين، والحبل الذي لا ينقطع. حاجة ماسة دائمة، والعروة الوثقى هي عروة الإسلام لله والاستسلام والإحسان. ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾. وإليه المرجع والمصير. فخير أن يسلم الإنسان وجهه إليه منذ البداية، وأن يسلك إليه الطريق على

ثقة وهدى ونور. ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢٣) نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿. تلك نهاية من يسلم وجهه إلى الله وهو محسن وهذه نهاية من يكفر ويخدعه. متاع الحياة ... متاع نهايته في الدنيا وفي هذا تهوين شأنه على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين. ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ .. فشأنه أهون من أن يحزنك وأصغر من أن يهكم. ونهايته في الآخرة التهوين من شأنه كذلك وهو في قبضة الله لا يفلت وهو مأخوذ بعمله، والله أعلم بما عمل وبما يخفيه في صدره من نوايا. ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾. ومتاع الحياة الذي يخدعه قليل، قصير الأجل، زهيد القيمة. ﴿ نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ﴾. والعاقبة بعد ذلك مروعة فظيعة وهو مدفوع إليها دفعاً لا يملك لها رداً. ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾. ووصف العذاب بالغلظ يجسمه - على طريقة القرآن - والتعبير بالاضطرار يلقي ظل الهول الذي يحاول الكافر ألا يواجهه مع العجز عن دفعه، فأين هذا من يسلم وجهه إلى الله ويستمسك بالعروة الوثقى، ويصير إلى ربه في النهاية هادئ النفس مطمئن الضمير.



سُورَةُ السَّجْدَةِ

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السَّجْدَةُ: ٩).

قال ابن عاشور: والعدول عن أن يقال: وجعلكم سامعين مبصرين عالمين إلى ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾. لأن ذلك أعرق في الفصاحة، ولما تؤذن به اللام من زيادة المنة في هذا الجعل، إذ كان جعلاً لفائدتهم ولأجلهم، ولما في تعليق الأجناس من السمع والبصر والأفئدة بفعل الجعل من الروعة والجلال في تمكن التصرف، ولأن كلمة ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أجمع من كلمة عاقلين لأن الفؤاد يشمل الحواس الباطنة كلها والعقل بعض منها.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (السَّجْدَةُ: ١٦).

قال ابن عاشور: وجيء فيها بالمضارع لإفادة تكرار ذلك وتجده منه في أجزاء كثيرة من الأوقات المعدة للاضطجاع وهي الأوقات التي الشأن فيها النوم. والتجافي: التباعد والمشاركة. والمعنى: أن تجافي جنوبهم عن المضاجع يتكرر في الليلة الواحدة، أي يكثرون السهر بقيام الليل والدعاء لله؛ وقد فسر النبي ﷺ بصلاة الرجل في جوف الليل، كما في حديث معاذ عند الترمذي.



سُورَةُ الْأَنْجُرَاتِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ (الْأَنْجُرَاتِ : ۴) .

وقال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ (الْحَجَّالَةُ : ۲) وقال: ﴿وَالَّذِي يَبَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الْفَلَاقِ : ۴) .

فقال في كل ذلك: ﴿اللَّيِّ﴾ بالهمز في حين قال: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكَ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ (النِّسَاءُ : ۱۵) . وقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّن الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ (النِّسَاءُ : ۲۳) . وقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّائِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (يُونُسَ : ۵۰) .

قال د. فاضل: من الملاحظ في استعمال هاتين الكلمتين أنه استعمال ﴿اللَّيِّ﴾ بالهمزة في حالتي الظهار والطلاق ولم يستعملها في غيرها وكان ذلك لثقل الهمزة فاستعمل الهمزة لثقلها للحالات الثقيلة النادرة وهي حالات المفارقة. ومن الطريف أن بناء ﴿اللَّيِّ﴾ وجرسها يوحي بذلك فكأنها مشتقة من اللَّأْي وهو الإبطاء والاحتباس والجهد والمشقة والشدة. والمُظَاهِرُ والمُطَلَّقُ محتبس عن امرأته مبطئ عنها وفي ذلك ما فيه من الجهد والمشقة والشدة للطرفين فانظر حسن المناسبة في اللفظ والمعنى والاستعمال.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (۱) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ (الْأَنْجُرَاتِ : ۱۰، ۱۱)

قال د. فاضل: فمد الظنون وأطلقها وذلك لأنهم ظنوا ظنونا كثيرة مختلفة فأطلقها في الصوت مناسبة لتعددتها وإطلاقها. ولو قال: «الظنون» لوقف على الساكن والساكن مقيد فناسب إطلاق الألف لإطلاق الظنون. والمؤمنون ههنا في موقف ضيق وخوف شديدين وزلزلة عظيمة كما أخبر عنهم ربنا فغزتهم الظنون وشرقوا وغربوا فيها، فأطلق الصوت مناسبة لإطلاق الظنون وتعددتها. فإن قلت: ولم لم يقل: «وتظنون بالله ظنونا» وهي مطلقة أصلاً؟ قلنا: كان ذلك لأكثر من سبب؛ فإن هذا إطلاقه واجب فلا يفيد أنه أطلق الصوت لإطلاق الظنون ولا أنه أطلقه لنكتة ثم إن الظنون التي ظنها أصحاب رسول الله ﷺ معلومة لهم معلومة له سبحانه فهي معارف لا نكرات فناسب ذلك التعريف والمد.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الْأَنْعَامُ: ٢٨)، فقال عن الطلاق: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، وفي ذلك دقة بالغة لأن مادة «سرح» تدور حول السهولة والتعجيل، وتفريج الضيق والشدة، فكأنه قال لهن: أطلقكن طلاقاً سهلاً معجلاً أعطيكن فيه متعة تزول معها شكواكن من الضيق والشدة.

قال في (لسان العرب): السَّرَحُ: المال السارح. وسَرَحَ عنه: فرَّج. وإذا ضاق شيء ففرَّجت عنه قلت: سَرَحْتُ عنه تسريحاً. والتسريح: التسهيل. وافعل ذلك في سراح ورواح أي في سهولة. وأمر سريح أي معجل. والاسم منه السراح. وتسريح المرأة: تطليقها والاسم منه السراح. أ.هـ.

قلت: ولكن يلاحظ أنه سبحانه قال: ﴿سَرَاحًا﴾ ولم يقل: «تسريحاً» مع أنه يقال: سَرَحَ تسريحاً وسَرَحَ سرحاً، فكلمة سراحاً اسم وليست مصدرأً، وعلة ذلك -والله أعلم- بيان المبالغة في التعجيل، فالسراح: العجلة نفسها «أي الاسم»، وكذا هو السهولة نفسها، كما يستفاد من كلام ابن منظور في (لسان العرب)، وهذا أبلغ من المصدر.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظَرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ (الْأَنْجَلَاءُ : ٥٣).

قال ابن عاشور: وَضُمَّنَ ﴿يُؤْذَنُ﴾ معنى تدعون فعدى بـ ﴿إِلَى﴾ فكأنه قيل: إِلَّا أَنْ تُدْعَوْا إِلَى طَعَامٍ فَيُؤْذَنُ لَكُمْ لِأَنَّ الطَّفِيلِي قَدْ يُؤْذَنُ لَهُ إِذَا اسْتَأْذَنَ وَهُوَ غَيْرُ مَدْعُو فِيهِ حَالَةٌ غَيْرُ مَقْصُودَةٍ مِنَ الْكَلَامِ. فَالْكَلَامُ مُتَضَمِّنٌ شَرْطَيْنِ هُمَا الدَّعْوَةُ وَالِإِذْنُ فَإِنَّ الدَّعْوَةَ قَدْ تَتَقَدَّمُ عَلَى الْإِذْنِ وَقَدْ يَقْتَرِنَانِ. وَمَوْقِعُ الْاسْتِدْرَاكِ لِرَفْعِ تَوْهَمِ أَنَّ التَّأَخُّرَ عَنْ إِبَانِ الطَّعَامِ أَفْضَلُ فَأَرْشَدَ النَّاسَ إِلَى أَنْ تَأْخُرَ الْحُضُورُ عَنْ إِبَانِ الطَّعَامِ لَا يَنْبَغِي بَلِ التَّأَخُّرُ لَيْسَ مِنَ الْأَدَبِ لِأَنَّهُ يَجْعَلُ صَاحِبَ الطَّعَامِ فِي انْتِظَارٍ. وَكَذَلِكَ الْبَقَاءُ بَعْدَ انْقِضَاءِ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ تَجَاوَزَ لِحَدِّ الدَّعْوَةِ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ لِحُضُورِ شَيْءٍ تَقْتَضِي مَفَارِقَةَ الْمَكَانِ عِنْدَ انْتِهَائِهِ لِأَنَّ تَقْيِيدَ الدَّعْوَةِ بِالْغَرَضِ الْمَخْصُوصِ يَتَضَمَّنُ تَحْدِيدَهَا بِانْتِهَاءِ مَا دَعِيَ لِأَجْلِهِ. وَكَذَلِكَ الشَّأْنُ فِي كُلِّ دُخُولٍ لَغَرَضٍ مِنْ مَشَاوِرَةٍ أَوْ مُحَادَثَةٍ أَوْ سَمَرٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. وَكُلُّ ذَلِكَ يَتَحَدَّدُ بِالْعَرَفِ وَمَا لَا يَثْقُلُ عَلَى صَاحِبِ الْمَحَلِّ فَإِنَّ كُلَّ مَحَلٍّ لَا يَخْتَصُّ بِهِ أَحَدٌ كَدَارِ الشُّوْرَى وَالنَّادِي فَلَا تَحْدِيدَ فِيهِ.

قَالَ تَعَالَى عَنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ ابْنَ اللَّهِ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ (الْأَنْجَلَاءُ : ٥٥)، فَقَالَ: ﴿ أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ ولم يقل: ﴿ بَنِي ﴾ بينما قال في سورة النور: ﴿ وَلَا يُدْبِكُ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَيَضْرِبَنَّ خُمُرُهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُدْبِكُ زِينَتُهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ (النُّورُ : ٣١)، فَقَالَ: ﴿ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ﴾، وَوَجْهٌ

ذلك - كما قال د. فاضل: - أنَّ لفظ ﴿بَنِي﴾ تدل على الكثرة وأنها تشمل أكثر مما يشمله الأبناء نحو بني آدم وبني إسرائيل ولم يرد في القرآن: أبناء آدم، ولا أبناء إسرائيل، فلمَّا كان أبناء الإخوة والأخوات أكثر من أبناء المرأة وأبناء بعولتهنَّ ناسب أن يقول: ﴿بَنِي إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِمْ﴾ ولا يقول: «أبناء إخوانهم أو أبناء أخواتهم» عند الكلام على عموم المسلمين، وأمَّا عند الكلام عن أزواج النبي ﷺ فقال: ﴿أَبْنَاءُ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءُ أَخَوَاتِهِمْ﴾ لقلة أبناء إخوانهم وأبناء إخوانهم بالنسبة لعموم المسلمين.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ (الْأَنْعَامُ: ٥٦).

وعبر بالنبي دون اسمه ﷺ على خلاف الغالب في حكايته تعالى عن أنبيائه عليهم السلام إشعاراً بما اختص به ﷺ من مزيد الفخامة والكرامة وعلو القدر وأكد ذلك الإشعار بـ «أل» إشارة أنه المعروف الحقيقي بهذا الوصف. أفاده الألويسي.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (النَّازِعَاتِ: ٦٦، ٦٧).

قال د. فاضل: قال تعالى: ﴿الرَّسُولَ﴾، و﴿السَّبِيلَ﴾ بمد «الرسول» و«السبيل» مع أن القياس لا يقتضي المد وهو لم يمد «السبيل» في أول السورة وإنما قال: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ والفرق بينهما أن آتي المد هما من قول أهل النار وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء كما أخبر عنهم ربنا بقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ (قَطْل: ٣٧) فالمقام هنا مقام صراخ ومد صوت فناسب المد. في حين أن الآية الأخرى ليست كذلك وإنما هي قول الله مقررًا حقيقة عقلية معلومة؛ قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ. وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾. فالمقام لا يقتضي المد ههنا بخلاف ذاك.

سُورَةُ سُجَّاتٍ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سُجَّاتٍ: ٢٤).

قال ابن عاشور: ومن لطائفه هنا أن اشتمل على إيحاء إلى ترجيح أحد الجانبين في أحد الاحتمالين بطريق مقابلة الجانبين في ترتيب الحالتين باللف والنشر المرتب وهو أصل اللف؛ فإنه ذكر ضمير جانب المتكلم وجماعته وجانب المخاطبين ثم ذكر حال الهدى وحال الضلال على ترتيب ذكر الجانبين، فأوماً إلى أن الأولين موجهون إلى الهدى والآخرين موجهون إلى الضلال المبين لا سيما بعد قرينة الاستفهام، وهذا أيضاً من التعريض وهو أوقع من التصريح لاسيما في استنزال طائر الخصم. وفيه أيضاً تجاهل العارف، فقد التأم في هذه الجملة ثلاثة محسنات من البديع ونكتة من البيان فاشتملت على أربع خصوصيات. وجيء في جانب أصحاب الهدى بحرف الاستعلاء المستعار للتمكن تمثيلاً لحال المهتدي بحال متصرف في فرسه يُركضه حيث شاء أو متمكن من شيء بلغ به مقصده، وهي حالة مماثلة لحال المهتدي على بصيرة فهو يسترجع مناهج الحق في كل صوب متسع النظر منشرح الصدر، ففيه تمثيلية مكنية وتبعية. وجيء في جانب الضالين بحرف الظرفية المستعار لشدة التلبس بالوصف تمثيلاً لحالهم في إحاطة الضلال بهم بحال الشيء في ظرف محيط به لا يتركه يفارقه ولا يتطلع منه على خلاف ما هو فيه من ضيق يلزمه. وفيه أيضاً تمثيلية تبعية وهذا يُنظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾. فحصل في الآية أربع استعارات وثلاثة محسنات من البديع وأسلوب بياني وحجة قائمة وهذا إعجاز بديع.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سُجَّاتٍ: ٢٥).

قال ابن عاشور: وإسناد الإجماع إلى جانب المتكلم ومن معه مبني على زعم المخاطبين وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴾. كان المشركون يؤنبون

المؤمنين بأنه خاطئون في تجنب عبادة أصنام قومهم، وهذه نكتة صوغه في صياغة الماضي لأنه متحقق على زعم المشركين. وصيغ ما يعمل المشركون في صيغة المضارع لأنهم ينتظرون منهم عملاً؛ تعريضاً بأنهم يأتون عملاً غير ما عملوه أي يؤمنون بالله بعد كفرهم. وهذا ضرب من المشاركة والموادة ليخلوا بأنفسهم فينظروا في أمرهم ولا يلهيهم جدال المؤمنين عن استعراض ومحاسبة أنفسهم. وأسندوا العمل على إطلاقه في جانب المخاطبين لأن النظر والتدبر بعد ذلك يكشف عن كنه كلا العاملين.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سَبَأٌ: ٣١).

قال: ﴿الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ جملة اسمية ليفيد طول الوقوف بين يدي الله طولاً يستوجب الضجر ويملاً القلوب رعباً وهو ما أشار إليه حديث: «تدنو الشمس من رؤوس الخلائق فيشتد عليهم حرها فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يُريحنا من مكاننا» الحديث، وأما قوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سَبَأٌ: ٣١). فالسين والتاء في ﴿اسْتَضَعُّوا﴾ للعد والحسبان أي الذين يعدهم الناس ضعفاء لا يؤبه بهم وإنما يعدهم الناس كذلك لأنهم كذلك، ويعلم أنهم يستضعفون أنفسهم بالأولى لأنهم أعلم بما في أنفسهم. ومن مشمولاته الضعة والضرعة ولذلك قبل بـ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي عدوا أنفسهم كبراء وهم ما عدوا أنفسهم كبراء إلا لما يقتضي استكبارهم لأنهم لو لم يكونوا كذلك لوصفوا بالغرور والإعجاب الكاذب؛ ولهذا عبر في جانب الذين استضعفوا بالفعل المبني للمجهول وفي جانب الذين استكبروا بالفعل المبني للمعلوم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي﴾ (سَبَأٌ: ٥٠)

قال ابن عاشور: واختير في جانب الهدى فعل ﴿أَهْتَدَيْتُ﴾ الذي هو مضارع «هدى» لما فيه من الإيحاء إلى أن له هادياً وبينه بقوله: ﴿فِيمَا يُوحِي إِلَى رَيْتٍ﴾ ليحصل شكره لله إجمالاً ثم تفصيلاً وفي قوله: ﴿فِيمَا يُوحِي إِلَى رَيْتٍ﴾ إيحاء إلى أنه على هدى لأنه أثبت أن وحياً من الله وارد إليه. وقد استفيد أن الضلال المفروض إن حصل فسببه من قبل نفسه من إسناد فعل «أضل» إلى ضمير المتكلم ثم مما عقبه من قصر الضلال على الحصول من المتكلم وهو أغرق في التعلق به.

فائدة: في مناسبة خاتمة آخر سورة سبأ مع أول فاطر:

قال أبو حيان: لما ذكر سبحانه في آخر سبأ هلاك المشركين أعداء المؤمنين وأنزلهم منازل العذاب، تعين على المؤمنين حمده تعالى وشكره لنعمائه ووصفه بعظيم آلائه، أي وهذه مناسبة جعل سورة فاطر التي تبدأ بحمد الله بعد سبأ. أ.هـ.

قلت: لما ذكر في آخر سبأ انقطاع الأمل واليأس عند الكفار الذين حيل بينهم وبين ما يشتهون، كان من المناسب جعل سورة فاطر بعدها لما في أولها من ذكر نعم الله على خلقه في الدنيا بإرسال الملائكة ﴿رُسُلًا أُولِي﴾، ورزقه للخلق: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْفُكُوا تَوَفَّكُونَ﴾، فهو الرحمن الرحيم، وما ظلم هؤلاء الكفار ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم وكذبوا الرسل وما اتعظوا بنصح الرسل ووعظهم، ولا استجابوا لتحذير الله إياهم ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُودُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۚ ۞ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۚ﴾ (قط: ٥ - ٧)، كما أن أول سورة فاطر يبين طريق النجاة من حال الكفار المشين وهو طريق الفوز بالدنيا والآخرة وهو الاعتماد على الله وحده والتوكل عليه وحده: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (قط: ٢).

سُورَةُ قَطْرِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾ (قَطْرِ: ٨).

قال ابن عاشور: والنهي موجه إلى نفس الرسول ﷺ أن تذهب حسرات على الضالين ولم يوجه إليه بأن يقال فلا تذهب عليهم حسرات والرسول ﷺ ونفسه متحدان فتوجيه النهي إلى نفسه دون أن يقال فلا تذهب عليهم حسرات للإشارة إلى أن الذهاب مستعار إلى التلف والانعدام كما يقال طارت نفسها شعاعاً. ومثله في كلامهم كثير لتحصل فائدة توزيع النهي والخطاب على شيئين في ظاهر الأمر فهو تكرير الخطاب والنهي لكليهما وهي طريقة التجريد المعداد في المحسنات. وفائدة التكرير الموجب تقرير الجملة في النفس. وانتصب ﴿ حَسْرَتٍ ﴾ على المفعول لأجله أي لا تتلف نفسك لأجل الحسرة عليهم وهو كقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَنِعُ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ ﴾. أي من حزن نفسه لا من حزن العينين. وجمعت الحسرات مع أن اسم الجنس صالح للدلالة على تكرار الأفراد قصداً للتنبيه على إرادة أفراد كثيرة من جنس الحسرة لأن تلف النفس يكون عند تعاقب الحسرات الواحدة تلو الأخرى لدوام المتحسر منه؛ فكل تحسر يترك حزازة وكمداً في النفس حتى يبلغ إلى الحد الذي لا تطيقه النفس فينفطر له القلب؛ فإنه قد علم في الطب أن الموت من شدة الألم كالضرب المبرح وقطع الأعضاء سببه اختلال حركة القلب من توارد الآلام عليه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (قَطْرِ: ١٠).

قال في (الظلال): ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾. وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر في القلوب أن تبدل المعايير كلها، وتبدل الوسائل والخطط أيضاً! إن العزة كلها

لله. وليس شيء منها عند أحد سواه. فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره. ليطلبها عند الله، فهو واجدها هناك وليس بواجدها عند أحد، ولا في أي كنف، ولا بأي سبب ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

إن الناس الذين كانت قريش تبتغي العزة عندهم بعقيدتها الوثنية المهلهلة؛ وتخشى اتباع الهدى - وهي تعترف أنه الهدى - خشية أن تصاب مكانتها بينهم بأذى. إن الناس هؤلاء، القبائل والعشائر وما إليها، إن هؤلاء ليسوا مصدرًا للعزة، ولا يملكون أن يعطوها أو يمنعوها ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ .. وإذا كانت لهم قوة فمصدرها الأول هو الله. وإذا كانت لهم منعة فواهبها هو الله. وإذن فمن كان يريد العزة والمتعة فليذهب إلى المصدر الأول، لا إلى الآخذ المستمد من هذا المصدر. ليأخذ من الذي يملك وحده كل العزة، ولا يذهب يطلب قمامة الناس وفضلاتهم. وهم مثله طلاب محاييج ضعاف!

إنها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية. وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازن، وتعديل الحكم والتقدير، وتعديل النهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب! ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب لتقف به أمام الدنيا كلها عزيزاً كريماً ثابتاً في وقفته غير مزعزع، عارفاً طريقه إلى العزة، طريقه الذي ليس هنالك سواه! إنه لن يحني رأسه لمخلوق متجبر. ولا لعاصفة طاغية. ولا لحدث جلل. ولا لوضع ولا لحكم. ولا لدولة ولا لمصلحة، ولا لقوة من قوى الأرض جميعاً. وعلام؟ والعزة لله جميعاً. وليس لأحد منها شيء إلا برضاه؟ ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ .. ولهذا التعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضخمة مغزاه وإيحائه. فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله. القول الطيب والعمل الصالح. القول الطيب الذي يصعد إلى الله في علاه؛ والعمل الصالح الذي يرفعه إليه ويكرمه بهذا الارتفاع. ومن ثم يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء.

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس. حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله. حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي. يستعلي بها على شهواته المذلة، ورغائبه القاهرة، ومخاوفه ومطامعه من الناس وغير الناس. ومتى استعلي على هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه. فإنما تذلل الناس شهواتهم ورغباتهم، ومخاوفهم ومطامعهم. ومن استعلي عليها فقد استعلي على كل موضع وعلى كل شيء وعلى كل إنسان.. وهذه هي العزة الحقيقية ذات القوة والاستعلاء والسلطان!

إن العزة ليست عناداً جامحاً يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل. وليست طغياناً فاجراً يضرب في عتو وتجبر وإصرار. وليست اندفاعاً باغياً يخضع للنزول ويذل للشهوة. وليست قوة عمياء تبطش بلا حق ولا عدل ولا صلاح.. كلا! إنما العزة استعلاء على شهوة النفس، واستعلاء على القيد والذل، واستعلاء على الخضوع الخانع لغير الله. ثم هي خضوع لله وخشوع؛ وخشية الله وتقوى، ومراقبة لله في السراء والضراء.. ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه. ومن هذه الخشية لله تصمد لكل ما يآبه. ومن هذه المراقبة لله لا تُعنى إلا برضاه. هذا مكان الكلم الطيب والعمل الصالح من الحديث عن العزة، وهذه هي الصلة بين هذا المعنى وذاك في السياق.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾﴾ (طه: ١٠).

قال ابن عاشور: وإنما جيء في جانب العمل الصالح بالإخبار عنه بجملة ﴿يَرْفَعُهُ﴾ ولم يعطف على ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ في حكم الصعود إلى الله مع تساوي الخبرين لفائدتين: أولهما الإيحاء إلى أن نوع العمل الصالح أهم من نوع الكلم الطيب على الجملة لأن معظم العمل الصالح أوسع نفعاً من معظم الكلم الطيب «عدا كلمة الشهادتين وما ورد تفضيله من الأقوال في السنة مثل دعاء يوم عرفة» فلذلك أسند إلى الله رفعه بنفسه كقول النبي ﷺ: «من تصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً تلقاها

الرحمن بيمينه وكلتا يديه يمين فيريها له كما يربي أحدكم فلوة حتى تصير مثل الجبل»
وثانيهما: أن الكلم الطيب يتكيف في الهواء فإسناد الصعود إليه مناسب لماهيته وأما
العمل الصالح فهو كصفات عارضة لذوات فاعلة ومفعولة فلا يناسبه إسناد الصعود
إليه وإنما يحسن أن يجعل متعلقاً لرفع يقع عليه ويسخره إلى الارتفاع.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُ
وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾﴾ (نمل: ١٩ - ٢٢).

قال ابن عاشور: وقدم تشبيه حال الكافر وكفره على تشبيه حال المؤمن وإيمانه
ابتداءً لأن الغرض الأهم من هذا التشبيه هو تفضيع حال الكافر ثم الانتقال إلى حسن
حال ضده لأن هذا التشبيه جاء لإيضاح ما أفاده القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا نُنْذِرُ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ كما تقدم آنفاً من أنه قصر إضافي قصر قلب. ثم شبه الكفر
بالظلمات في أنه يجعل الذي أحاط هو به غير متين للأشياء فإن من خصائص الظلمة
إخفاء الأشياء والكافر خفيت عنه الحقائق الاعتيادية وكلما بينها له القرآن لم ينتقل إلى
مكان أجلى كما لو وصفت الطريق للسائر في الظلام. وضرب الظل مثلاً لأثر الإيمان
وضده وهو الحرور مثلاً لأثر الكفر فالظل مكان نعيم في عرف السامعين الأولين وهم
العرب أهل البلاد الحارة التي تتطلب الظل للنعيم غالباً إلا في بعض فصل الشتاء،
وقبول بالحرور لأنه مؤلم ومعذب في عرفهم كما علمت. وفي مقابلته بالحرور إيذان
تشبيه بالظل في حالة استطابته. والحرور حر الشمس ويطلق أيضاً على الريح الحارة
وهي السموم، أو الحرور الريح الحارة التي تهب بليل والسموم تهب بالنهار. فحال
المؤمن يشبه حال الظل تطمئن فيه المشاعر وتصدر فيه الأعمال عن تبصر وترث وإتقان
وحال الكافر يشبه الحرور تضطرب فيه النفوس ولا تتمكن معه العقول من التأمل
والتبصر وتصدر فيها الآراء والمسااعي معجلة متفككة.

فلما كانت الحياة هي مبعث المدارك والمسااعي كلها وكان الموت قاطعاً للمدارك
والمسااعي شبه الإيمان بالحياة في انبعاث خير الدنيا والآخرة منه وفي تلقي ذلك وفهمه

وشبه الكفر بالموت في الانقطاع عن الأعمال والمدرجات النافعة كلها وفي عدم تلقي ما يلقي إلى صاحبه فصار المؤمن شبيهاً بالحي مشابهة كاملة لما خرج من الكفر إلى الإيمان فكأنه بالإيمان نضحت فيه الحياة بعد الموت كما أشار إليه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ﴾ وكان الكافر شبيهاً بالميت ما دام على كفره.

قال في (الظلال) معلقاً على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ (نمل: ٢٢)، ولن يستوي عند الله الإيمان والكفر، والخير والشر، والهدى والضلال؛ كما لا يستوي العمى والبصر، والظلمة والنور، والظل والحرور، والحياة والموت وهي مختلفة الطبائع من الأساس.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمْتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ .. وبين طبيعة الكفر وطبيعة كل من العمى والظلمة والحرور والموت صلة. كما أن هناك صلة بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النور والبصر والظل والحياة.. إن الإيمان نور، نور في القلب ونور في الجوارح، ونور في الحواس. نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما بينهما من ارتباطات ونسب وأبعاد. فالؤمن ينظر بهذا النور، نور الله، يرى تلك الحقائق، ويتعامل معها ولا يخطئ في طريقه ولا يبطئ في خطواته! والإيمان بصر، يرى. يرى رؤية حقيقية صادقة غير مهزوزة ولا مغلخلة. ويمضي بصاحبه في الطريق على نور وعلى ثقة وفي اطمئنان. والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب، ظل من هاجرة الشك والقلق والخيرة في التيه المظلم بلا دليل! والإيمان حياة. حياة في القلوب والمشاعر. حياة وفي القصد والاتجاه. كما أنه حركة مثمرة. قاصدة لا خمود فيها ولا همود ولا عبث فيها ولا ضياع. والكفر عمى. عمى في طبيعة القلب. وعمى عن رؤية دلائل الحق وعمى عن رؤية حقيقة الوجود وحقيقة الارتباطات فيه وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء. والكفر ظلمة أو ظلمات فعندما يبعد الناس عن نور الإيمان يقعدون في ظلمات من الأنواع والأشكال ظلمات تعز فيها الرؤية الصحيحة لشيء من الأشياء.

والكفر هاجرة. حرور. تلفح القلب فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الاستقرار على هدف، وعدم الاطمئنان إلى نشأة أو مصير. ثم تنتهي إلى حر جهنم ولفحة العذاب هناك. والكفر موت. موت في الضمير وانقطاع عن الحياة (الحقيقية). وانفصال عن الطريق الواصل. وعجز عن الانفعال والاستجابة ولكل طبيعته ولكل جزأه، ولن يستوي عند الله هذا وذاك.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (قطر: ٢٥).

قال ابن عاشور: وإذ قد كان سياق الحديث في شأن الأمم جعلت التسلية في هذه الآية بحال الأمم مع رسلهم عكس ما في آية آل عمران: ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾. لأن سياق آية آل عمران كان في رد محاولة أهل الكتاب إفحام الرسول لأن قبلها ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِرَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾. وقد خولف أيضاً في هذه الآية أسلوب آية آل عمران إذ قرن كل من ﴿ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ هنا بالباء وجردا منها في آية آل عمران، وذلك لأن آية آل عمران جرت في سياق زعم اليهود أن لا تقبل معجزة رسول إلا معجزة قربان تأكله النار ف قيل في التفرد بهتانهم قد كذبت الرسل الذين جاء الواحد منهم بأصناف المعجزات مثل عيسى عليه السلام ومن معجزاتهم قرايين تأكلها النار فكذبتموهم فترك إعادة الباء هنالك إشارة إلى أن الرسل جاءوا بالأنواع الثلاثة ولما كان المقام هنا لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ناسب أن يذكر ابتلاء الرسل بتكذيب أممهم على اختلاف أحوال الرسل، فمنهم الذين أتوا بآيات أي خوارق عادات فقط مثل صالح وهود ولوط. ومنهم من أتوا بالزبر وهي المواعظ التي يؤمر بكتابتها وزبرها أي تخطيطها لتكون محفوظة وتردد على الألسن كزبر داود وكتب أصحاب الكتب من أنبياء بني إسرائيل مثل أرمياء وإيلياء. ومنهم من جاءوا بالكتاب المنير يعني كتاب

الشرائع مثل إبراهيم وموسى وعيسى فذكر الباء مشير إلى توزيع أصناف المعجزات على أصناف الرسل.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ (فَطَّل: ٢٧)

قال ابن عاشور: وقصد الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات لأن في اختلافها سعة تشبه سعة اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد في الحديث: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها».

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فَطَّل: ٢٧، ٢٨).

قال ابن عاشور: وجيء في جملة ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ و﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ بالاسمية دون الفعلية كما في الجملة السابقة لأن اختلاف ألوان الجبال والحيوان الدال على اختلاف أحوال الإيجاد اختلافاً دائماً لا يتغير وإنما يحصل مرة واحدة عند الخلق وعند تولد النسل.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فَطَّل: ٢٨).

قال في (الدر المنثور): أخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: العلماء بالله الذين يخافونه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليس العلم من كثرة الحديث، ولكن العلم من الخشية.

وأخرج ابن المنذر عن يحيى بن أبي كثير قال: العالم من خشي الله.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن صالح أبي الخليل رحمته الله في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: أعلمهم بالله أشدهم له خشية.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سفيان عن أبي حيان التيمي عن رجل قال: كان يقال العلماء ثلاثة. عالم بالله، وبأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله، ويعلم الحدود والفرائض. والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي عن مالك بن أنس رحمته الله قال: إن العلم ليس بكثرة الرواية، إنما العلم نور يقذفه الله في القلب.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن رحمته الله قال: الإيمان من خشي الله بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما أسخط الله، ثم تلا ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. وأخرج عبد بن حميد عن مسروق قال: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد والطبراني عن ابن مسعود رحمته الله قال: كفى بخشية الله علماً، وكفى باغترار المرء جهلاً.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن مجاهد رحمته الله قال: الفقيه من يخاف الله.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن العباس العمي قال: بلغني أن داود عليه السلام قال: سبحانك! تعاليت فوق عرشك، وجعلت خشيتك على من في السموات والأرض، فأقرب خلقك إليك أشدهم لك خشية، وما علم من لم يخشك، وما حكيم من لم يطع أمرك.

وأخرج أحمد في الزهد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية.

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم عن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العلم علمان. علم في القلب، فذاك العلم النافع. وعلم على اللسان، فتلك حجة الله على خلقه».

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال: بحسب المرء من العلم أن يخشى الله. وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليته إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس يفطرون، وبجزئه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخلطون، وبخشوعه إذ الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن ألا يكون صخاباً، ولا صياحاً، ولا حديداً.

وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن وهب بن منبه قال: أقبلت مع عكرمة أقود ابن عباس رضي الله عنهما بعدما ذهب بصره حتى دخل المسجد الحرام، فإذا قوم يمترون في حلقة لهم عند باب بني شيبه فقال: أمل بي إلى حلقة المراء، فانطلقت به حتى أتاهم، فسلم عليهم، فأرادوه على الجلوس، فأبى عليهم وقال: انتسبوا إليّ أعرفكم فانتسبوا إليه فقال: أما علمتم أن الله عبداً أسكتهم خشيته من غير عي ولا بكم، إنهم لهم الفصحاء، النطقاء، النبلاء، العلماء بأيام الله، غير أنهم إذا ذكروا عظمة الله طاشت عقولهم من ذلك، وانكسرت قلوبهم، وانقطعت ألسنتهم، حتى إذا استقاموا من ذلك سارعوا إلى الله بالأعمال الزاكية، فأين أنتم منهم؟ ثم تولى عنهم، فلم ير بعد ذلك رجلاً.

وأخرج الخطيب فيه أيضاً عن سعيد بن المسيب قال: وضع عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس ثمان عشرة كلمة حكم كلها قال: ما عاقبت من عصي الله فيك مثل أن تطيع الله فيه، وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يحيئك منه ما يغلبك، ولا تظن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً، ومن عرّض نفسه للتهمة فلا

يلومن من أساء الظن به، من كتم سره كانت الخيرة في يده، وعليك بأخوان الصدق تعش في أكفانهم فإنهم زينة في الرخاء، عدة في البلاء، وعليك بالصدق وإن قتلك، ولا تعرض فيما لا يعني، ولا تسأل عما لم يكن، فإن فيما كان شغلاً عما لم يكن، ولا تطلب حاجتك إلى من لا يحب نجاحها لك، ولا تهاون بالحلف الكاذب فيهلكك الله، ولا تصحب الفجار لتعلم من فجورهم، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله، وتخشع عند القبور، وذل عند الطاعة، واستعصم عند المعصية، واستشر الذين يخشون الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وأخرج عبد بن حميد عن مكحول قال: سئل رسول الله ﷺ عن العالم والعابد فقال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم». ثم تلا النبي ﷺ هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. ثم قال: «إن الله وملائكته، وأهل السماء، وأهل الأرض، والنون في البحر، ليصلون على معلمي الخير».

سُورَةُ يَسِّ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ ٥٩ ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْصِيَّةً وَلَا إِلًا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴾ (يَس: ٥٩، ٥٠).

فقال: ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ ﴿ بينما قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْصِمُونَ ﴾ ﴿ (الزمر: ٣١). فقال: ﴿ تَخْصِمُونَ ﴾، وذلك لأنَّ فعل ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾ بالتضعيف يفيد قوة الاختصام وكثرته والمبالغة فيه، وهكذا تقوم الساعة على شرار الخلق المبالغين في الاختصام، وأمَّا قوله في سورة الزمر: ﴿ تَخْصِمُونَ ﴾ بفك الإدغام يدل على تطاول وتكرار الاختصام، وهكذا يكون الأمر يوم القيامة، فما أطوله من يوم!! وما أكثر الاختصام فيه!! والقاعدة اللغوية في ذلك ما ذكره د. فاضل أن التضعيف «التشديد» يدل على المبالغة والكثرة، وفك التضعيف يدل على التطاول في المدة والتكرار، والله أعلم.



سُورَةُ الصَّافَّاتِ

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَاهِدِينَ﴾ (الصَّافَّاتِ: ٩٩).﴾

قال في (الظلال): هكذا إني ذاهب إلى ربي... إنها الهجرة. وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية. هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضي حياته يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل. ويهاجر إلى ربه متخففاً من كل شيء، طارحاً وراءه كل شيء، مسلماً نفسه لربه لا يستبقي فيها شيئاً موقناً أن ربه سيهديه، وسيرعى خطاه وينقلها في الطريق المستقيم.

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن أواصر شتى إلى آصره واحدة لا يزحمها في النفس شيء. إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (الصَّافَّاتِ: ١٠٣).﴾

قال في (الظلال): ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة. وعظمة الإيمان، وطمأنينة الرضى وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان.. إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً. وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعاً. وقد وصل الأمر إلى أن يكون عياناً. لقد أسلما.. فهذا هو الإسلام. هذا هو الإسلام في حقيقته. ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم.. وتنفيذ. وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم. إنها ليست الشجاعة والجرأة. وليس الاندفاع والحماسة لقد يندفع المجاهد في الميدان، يُقتل ويُقتل. ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود. ولكن هذا كله شيء، والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر.. ليس هنا دم فائر، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص! إنها هو

الاستسلام الواعي المتعقل من القاصد المرید، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لا بل هو الرضى الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل!

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا. كانا قد أسلما. كانا قد حققا الأمر والتكليف ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل ويسيل دمه وتزهق روحه. وهذا أمرٌ لا يعني شيئاً في ميزان الله، بعدما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما.. كان الابتلاء قد تم والامتحان قد وقع ونتائجه قد ظهرت وغاياته قد تحققت ولم يَعُدْ إلا الألم البدني وإلا الدم المسفوح. والجسد الذبيح. والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء ولا يريد دمائهم وأجسادهم في شيء. ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكيانهم فقد أدوا، وقد حققوا التكليف، وقد جازوا الامتحان بنجاح وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما. فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا.



سُورَةُ زُحُرِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ﴾ (١)، معنى الذكر: الشرف وعلو القدر، والمراد القسم على شرف القرءان، ودلّ سبحانه على ذلك في المقسم به، وهذا من أبلغ ما يكون، فبدلاً من أن يقول: «ص وعزتي إنَّ القرءان لذي ذكر» مثلاً، قال: ﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ ليدل على المقسم عليه مع المقسم به معاً، وهذا أسلوبٌ عربيٌّ عظيم؛ قال ابن القيم: وتارة يُحذف المقسم عليه من القسم وهو مراد، إما لكونه قد ظهر وعرف إما بدلالة الحال كمن قيل له كل فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو أو بدلالة السياق وأكثر ما يكون هذا إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه وهي طريقة القرآن فإن المقصود يحصل بذكر المقسم به فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز، كمن أراد أن يقسم على أن الرسول حق فقال: والذي أرسل محمداً بالهدى ودين الحق وأيده بالآيات البينات وأظهر دعوته وأعلى كلمته ونحو ذلك فلا يحتاج إلى ذكر الجواب استغناء عنه بما في القسم من الدلالة عليه كمن أراد أن يقسم على التوحيد وصفات الرب ونعوت جلاله فقال: والله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الأول الآخر الظاهر الباطن وكمن أراد أن يقسم على علوه فوق عرشه فقال: والذي استوى على عرشه فوق سمواته يصعد إليه الكلم الطيب.

ونظائر ذلك لم يحتاج إلى جواب القسم وكان في المقسم به ما يدل على المقسم عليه. فمن هذا قوله تعالى: ﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه وللشرف والقدر ما يدل على المقسم عليه وكونه حقاً من عند الله غير مفترى كما يقول الكافرون. وهذا معنى قول كثير من المفسرين - متقدميهم ومتأخريهم - إن الجواب هاهنا محذوف تقديره: إن القرآن لحق، وهذا مطرد في كل شأنه ذلك.

قلتُ: وهذا كلامٌ طيب لابن القيم رحمه الله ولكن يُضاف ها هنا فائدة أبداهَا عبد القاهر الجرجاني رحمه الله وهي أَنَّ قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (حُجَّة: ٢)، في قوله: ﴿بَلِ﴾ ما يدل على المقسم عليه، فإنَّ ﴿بَلِ﴾ رافعٌ لخبرٍ قبله ومثبتٌ لخبرٍ بعده، فقد ظهر ما بعده وظهر ما قبله، وما بعده دليلٌ على ما قبله، فالظاهر يدل على الباطن، فإذا كان كذلك وجب أن يكون قوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (حُجَّة: ٢) مخالفاً لهذا المضمَر، فكأنه قيل: والقرءان ذي الذكر إنَّ الذين كفروا يزعمون أنهم على الحق، وعزتي - مثلاً - إنَّهم لكاذبون بل هم في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ. ولا تعارض بين كلامهما، بل قوله ﴿وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾ دليلٌ على أَنَّهُ يقسم على ذلك أيضاً - كما ذكرنا آنفاً عن ابن القيم - فكأنه قال: ص وعزتي وجلالي إنَّ القرءان لذي ذكر، وإنَّ الذين كفروا ليزعمون أَنَّهُم على الحق، وهم كاذبون بل هم في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ، فاختصر ذلك كله، وقال: ﴿صَّ وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾ ❶ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (حُجَّة: ١، ٢)، فله إعجازه وإيجازه!!

❶ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجْلَلٌ لَّنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (حُجَّة: ١٦)، فقال: ﴿قِطْنَا﴾ ولم يقل: «نصيبنا» وفي ذلك دقة بالغة، لأنَّ القط في الأصل - كما قال الشنقيطي - هو كتاب الجائزة لأنَّ الملك يكتب فيه النصيب الذي يعطيه لكل إنسان، وجمعه قِطوط، ومنه قول الأعشى:

ولا الملك النعمان حين لقيته ... بغبطته يعطي القِطوط ويأفق. أ.هـ.

قلتُ: فقوله: ﴿قِطْنَا﴾ إذا فيه مناسبة لدلالة على أَنَّ هذا النصيب مكتوب مسبقاً عند الله كالقط الذي يكتبه الملك، ومن جهةٍ أخرى يدل على استهزاءهم حيث جعلوا العذاب الذي يهدِّدون به كالجائزة التي يعطيها الملك، ولو قال: «نصيبنا» لما دلَّ على ذلك، فما أدق كلام الله!! وما أحلاه!!

❶ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبُ أُنزِلَتْهُ إِلَيْكَ مَبْرُكٌ لِّدَّبْرُوا أَيْتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (حُجَّة: ٢٩).

قال الشنقيطي: وأما كون هذا الكتاب مباركاً، فقد ذكره في آيات من كتابه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (الأنعام: ٩٢)، وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٥). والمبارك كثير البركات، من خير الدنيا والآخرة. ونرجو الله القريب المجيب، إذ وفقنا لخدمة هذا الكتاب المبارك أن يجعلنا مباركين أينما كنا، وأن يبارك لنا وعلينا، وأن يشملنا ببركاته العظيمة في الدنيا والآخرة، وأن يعم جميع إخواننا المسلمين، الذين يأترون بأوامره بالبركات في الدنيا والآخرة، إنه قريب مجيب!! أ.هـ.

قلت: لا أعلم أحداً اشتغل بصدق وإخلاص بهذا الكتاب المبارك - كتاب الله العظيم - إلا وبارك الله فيه وله وصار له الصيت بين الناس في الدنيا مع ما يرجى له في الآخرة، وصدق عمر بن الخطاب إذ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين»، والعجب أن الزمخشري والفخر الرازي على فساد اعتقادهما في مسائل كثيرة إلا أنهما نالا صيتاً بين الناس لما اشتغلا بالتفسير.

فائدة: قال القرطبي: يجب على من عَلمَ كتاب الله أن يزدجر بنواحيه ويخشى الله ويتقيه ويراقبه ويستحييه؛ فإنه حُمِّلَ أعباء الرسل وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل، فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ويتدبر حقائق عبارته ويتفهم عجائبه ويتبين غرائبه.

﴿قَالَ تَمَالَى: ﴿وَذَكَرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ (يونس: ٤٨).﴾

قال ابن عاشور: فصل ذكر إسماعيل عن عده مع أبيه إبراهيم وأخيه إسحاق لأن إسماعيل كان جد الأمة العربية أي معظمها فإنه أبو العدانيين وجد للأمم لمعظم القحطانيين لأن زوج إسماعيل جرمية فلذلك قطع عن عطفه على ذكر إبراهيم وعاد الكلام إليه هنا وأما قرنه ذكره بذكر اليسع وذي الكفل بعطف اسميهما على اسمه

فوجهه دقيق في البلاغة وليس يكفي في توجيهه ما تضمنه قوله: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ الْآخِيَارِ﴾ لأن التماثل في الخيرية ثابت لجميع الأنبياء والمرسلين فلا يكون ذكرهما بعد ذكر إسماعيل أولى من ذكر غيرهما من ذوي الخيرية الذين شملهم لفظ الأخيار والاصطفاء فإن شرط قبول العطف بالواو أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جامع عقلي أو وهمي أو خيالي كما قال في المفتاح. فأما عطف اليسع على إسماعيل فلأن اليسع كان مقامه في بني إسرائيل كمقام إسماعيل في بني إبراهيم لأن اليسع كان بمنزلة الابن للرسول إلياس «إيليا» وكان إلياس يدافع ملوك يهود أو ملوك إسرائيل عن عبادة الأصنام وكان اليسع في إعانته كما كان إسماعيل في إعانة إبراهيم وكان إلياس لما رفع إلى السماء قام اليسع مقامه وأما عطف ذي الكفل على إسماعيل فلأنه مماثل لإسماعيل في صفة الصبر قال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾.



سُورَةُ النُّزُورِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ﴾ (النُّزُورُ: ١٠).

قال في (الظلال): والتقوى هي تلك الحساسية في القلب، والتطلع إلى الله في حذر وخشية، وفي رجاء وطمع، ومراقبة غضبه ورضاه في توقر وإرهاف.. إنها تلك الصورة الوضيئة المشرقة التي رسمتها الآية السابقة لذلك الصنف الخاشع القانت من عباد الله. ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾. وما أجزل الجزاء! حسنة في الدنيا القصيرة الأيام الهزيلة المقام تقابلها حسنة في الآخرة دار البقاء والدوام. ولكنه فضل الله على هذا الإنسان. الذي يعرف منه ضعفه وعجزه وضآلة جهده. فيكرمه ويرعاه! ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾. فلا يقعد بكم حب الأرض وإلف المكان، وأواصر النسب والقربى والصحبة في دار عن الهجرة منها، إذا ضاقت بكم في دينكم، وأعجزكم فيها الاحسان. فإن الالتصاق بالأرض في هذه الحالة مدخل من مداخل الشيطان؛ ولون من اتخاذ الأنداد لله في قلب الإنسان. وهي لفظة قرآنية لطيفة إلى مداخل الشرك الخفية في القلب البشري، في معرض الحديث عن توحيد الله وتقواه، تنبئ عن مصدر هذا القرآن. فما يعالج القلب البشري هذا العلاج إلا خالقه البصير به، العليم بخفائيه.

والله خالق الناس يعلم أن الهجرة من الأرض عسيرة على النفس، وأن التجرد من تلك الوشائج أمر شاق، وأن ترك مألوف الحياة ووسائل الرزق واستقبال الحياة في أرض جديدة تكليف صعب على بني الإنسان.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ ٢٣ ﴾ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّتَانِي نَفْسَعُهُمْ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ﴾ (النُّزُورُ: ٢٢، ٢٣).

قال في (الظلال): وكما ينزل الماء من السماء، فینبت لهم به زرعاً مختلفاً ألوانه، كذلك ينزل من السماء ذكراً تتلقاه القلوب الحية؛ فتفتح وتنشرح وتحرك حركة الحياة، وتتلقاه القلوب القاسية كما تتلقاه الصخرة القاسية التي لا حياة فيها ولا نداوة! والله يشرح للإسلام قلوباً يعلم منها الخير، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضيء. والفرق بين هذه القلوب وقلوب أخرى قاسية فرق بعيد. ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. ﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تتلقى الإسلام فتشرح له وتندى به. وتصور حالها مع الله حال الانسراح والتفتح والنداوة والبشاشة والإشراق والاستنارة. كما تصور حقيقة القلوب الأخرى في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها، وعتمتها وظلامها. ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره ليس قطعاً كالقاسية قلوبهم من ذكر الله. وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء. كذلك تصور الآية الثانية هيئة تلقي المؤمنين لهذا القرآن هذا الكتاب المتناسق الذي لا اختلاف في طبيعته ولا في اتجاهاته، ولا في روحه ولا في خصائصه. فهو ﴿مُشْدِهًا﴾ وهو ﴿مَثَانِي﴾ تكرر مقاطعه وقصصه وتوجيهاته ومشاهده. ولكنها لا تختلف ولا تتعارض، إنما تعاد في مواضع متعددة وفق حكمة تتحق في الإعادة والتكرار. في تناسق وفي استقرار على أصول ثابتة ومتشابهة. لا تعارض فيها ولا اصطدام.

والذين يخشون ربهم ويتقونه، ويعيشون في حذر وخشية، وفي تطوع ورجاء يتلقون هذا الذكر في وجل وارتعاش، وفي تأثر شديد تقشعر منه الجلود، ثم تهدأ نفوسهم، وتأنس قلوبهم بهذا الذكر، فتلين جلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّشْدِهًا مَثَانِي نَقْشَعْرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾﴾ (البقرة: ٢٣).

قال ابن عاشور: وإنما جمع بين الجلود والقلوب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ولم يكتف بأحد الأمرين عن الآخر كما اكتفى في قوله: ﴿نَقْشَعْرُهُ

مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴿ لأن اقشعرار الجلود حالة طارئة عليها لا يكون إلا من وجل القلوب وروعها فكفى به عن تلك الروعة. وأما لين الجلود عقب تلك القشعريرة فهو رجوع الجلود إلى حالتها السابقة قبل اقشعرارها. وذلك قد يحصل عن تناس أو تشاغل بعد تلك الروعة فعطف عليه لين القلوب ليعلم أنه لين خاص ناشئ عن اطمئنان القلوب بالذكر كما قال تعالى: ﴿ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ وليس مجرد رجوع الجلود إلى حالتها التي كانت قبل القشعريرة. ولم يكتف بذكر القلوب عن لين الجلود لأنه قصد أن لين القلوب أفعمها حتى ظهر أثره على ظاهر الجلود.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾. (النَّبَأُ: ٣٦، ٣٧)

قال في (الظلال): ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾. بلى! فمن ذا يخيفه، وماذا يخيفه؟ إذا كان الله معه؟ وإذا كان هو قد اتخذ مقام العبودية وقام بحق هذا المقام؟ ومن ذا يشك في كفاية الله لعبده وهو القوي القاهر فوق عباده؟ ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾. فكيف يخاف؟ والذين من دون الله لا يخفون من يحرسه الله. وهل في الأرض كلها إلا من هم دون الله؟ إنها قضية بسيطة واضحة، لا تحتاج إلى جدل ولا كد ذهن.. إنه الله. ومن هم دون الله. وحين يكون هذا الموقف لا يبقى هنالك شك ولا يكون هناك اشتباه. وإرادة الله هي النافذة ومشيتته هي الغالبة. وهو الذي يقضي في العباد قضاءه. في ذوات أنفسهم، وفي حركات قلوبهم ومشاعرهم. ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾. وهو يعلم من يستحق الضلالة فيضله، ومن يستحق الهدى فيهديه. فإذا قضى بقضائه هكذا أو هكذا فلا مبدل لما يشاء. ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾. بلى. إنه لعزيز قوي. وإنه ليجازي كلاً بما يستحق. وإنه ليتنقم ممن يستحق الانتقام. فكيف يخشى أحداً أو شيئاً من يقوم بحق العبودية له، وهو كافله وكافيه؟

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَبَدَأْ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَالَهُمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ ﴾ (النَّبَأُ: ٤٧).

قال بكر العابد: سمعت الفضيل بن عياض يقول في قول الله عز وجل ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ قال: أتوا بأعمال ظنوها حسنات فإذا هي سيئات. قال بكر: فرأيت يحيى بن معين بكى. وقام ابن المنكدر يصلي من الليل فكثر بكاءه في صلاته ففرغ أهله فأرسلوا إلى صديقه أبي حازم فسأله ما الذي أبكاك فقال: مر بي قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (النَّازِعَاتِ: ٤٧) فبكى أبو حازم معه واشتد بكاءهما فقال أهل ابن المنكدر: جئنا بك لتفرج عنه فردته. فأخبرهم ما الذي أبكاها.

فائدة : قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (النَّازِعَاتِ: ٤٧). من أجل ما روي فيه ما رواه منصور عن مجاهد قال : عملوا أعمالاً توهموا أنها حسنات فإذا هي سيئات، وقال السعدي وقيل عملوا أعمالاً توهموا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا وقد كانوا يظنون أنهم ينجون بالتوبة. ويجوز أن يكونوا توهموا أنه يغفر لهم من غير توبة ف ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ من دخول النار. وقال سفيان الثوري في هذه الآية: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء. هذه آياتهم وقصتهم. وقال عكرمة بن عمار جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديداً، فقيل له : ما هذا الجزع ؟ قال: أخاف آية من كتاب الله ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحسب.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (النَّازِعَاتِ: ٥٣).﴾

قال في (الدر المنثور): أخرج ابن جرير عن عليّ رضي الله عنه: ما في القرآن أوسع آية من ﴿يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن

المسيح ابن الله، ومن زعم أن عزيزاً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلوله، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة. يقول الله تعالى هؤلاء ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٧٤) ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولاً من هؤلاء. من قال ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ (التأنيث: ٢٤) وقال ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (الصافات: ٣٨) قال ابن عباس رحمهما: من آيس العباد من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب عليه.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير رحمته قال: إن إبليس قال: يارب زدني قال: صدورهم مساكن لكم، وتجرون منهم مجرى الدم قال: يارب زدني. قال: ﴿ وَأَجَلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الإسراء: ٦٤) فقال آدم عليه السلام: يارب قد سلطته عليّ وإني لا أمتنع منه إلا بك فقال: لا يولد لك ولد الا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء. قال: يارب زدني. قال: الحسنة عشر أو أزيد، والسيئة واحدة أو محوها قال: يارب زدني قال: باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد. قال: يارب زدني قال: ﴿ يِعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.

وأخرج أحمد وأبو يعلى والضياء عن أنس رحمته قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله لغفر لكم. والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاؤ الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون فيغفر لهم».

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري رحمته. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لولا أنكم تذبنون لخلق الله خلقاً يذبنون فيغفر لهم».

وأخرج الخطيب عن ابن عمر رحمتهما قال: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود إن العبد من عبيدي ليأتيني بالحسنة فأحكمه في الجنة قال داود عليه السلام: وما تلك الحسنة؟

قال: كربة فرجها عن مؤمن. قال داود عليه السلام: اللهم حقيق على من عرفك حق معرفتك أن لا يقنط منك.

وأخرج الحكيم الترمذي عن جابر بن عبد الله رحمته الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال لي جبريل عليه السلام: يا محمد إن الله يخاطبني يوم القيامة، فيقول يا جبريل ما لي أرى فلان بن فلان في صفوف أهل النار؟ فأقول يا رب إنا لم نجد له حسنة يعود عليه خيرها اليوم. فيقول الله: إني سمعته في دار الدنيا يقول: يا حنان يا منان، فأته فأسأله وهل من حنان ومنان غيري؟ فأخذ بيده من صفوف أهل النار، فأدخله في صفوف أهل الجنة».

(ضعيف السند وليس ببعيد عن فضل الله)

وأخرج ابن الضريس وأبو القسام بن بشير في أماليه عن علي بن أبي طالب رحمته الله قال: إن الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله تعالى، ولم يرخص لهم في معاصيه، ولم يؤمنهم عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة منه إلى غيره. إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا في علم لا فهم فيه، ولا في قراءة لا تدبر فيها.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن يسار رحمته الله قال: إن للمقنطين جسراً يطأ الناس يوم القيامة على أعناقهم. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن عائشة رحمته الله إنها قالت لرجل: ألم أحدث أنك تعظ الناس؟ قال: بلى. قالت: فإياك وإهلاك الناس وتقنيطهم.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن زيد بن أسلم رحمته الله إن رجلاً كان في الأمم الماضية يجتهد في العبادة، ويشدد على نفسه، ويقنط الناس من رحمة الله تعالى، ثم مات فقال: أي رب مالي عندك؟ قال: النار قال: فأين عبادتي واجتهادي؟ فقليل له كنت تقنط الناس من رحمتي، وأنا أفنطك اليوم من رحمتي.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رحمته الله قال: ذكر لنا إن ناساً أصابوا في الشرك عظماً فكانوا يخافون أن لا يغفر لهم، فدعاهم الله بهذه الآية ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (الزُّمَرُ: ٧٣، ٧٤)﴾

قال في (الدر المنثور): أما قوله تعالى: ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ (الزُّمَرُ: ٧٣).

فقد أخرج البخاري ومسلم والطبراني عن سهل بن سعد رضي الله عنه. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون».

وأخرج مالك وأحمد البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن صلى الله عليه وسلم قال: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد». فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال: «نعم وأرجو أن تكون منهم».

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة الجنة وأبو يعلى والطبراني والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «للجنة ثمانية أبواب. سبعة مغلقة، وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه».

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: للجنة ثمانية أبواب. باب للمصلين، وباب للصائمين، وباب للحاجين، وباب للمعتمرين، وباب للمجاهدين، وباب للذاكرين، وباب للشاكرين.

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل عمل أهل من أبواب الجنة يدعون منه بذلك العمل».

وأخرج البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة دعي الإنسان بأكبر عمله، فإذا كانت الصلاة أفضل دعي بها، وإن كان صيامه أفضل دعي به، وإن كان الجهاد أفضل دعي به». فقال أبو بكر رضي الله عنه: أحد يدعي بعملين؟ قال: «نعم . أنت».

وأخرج الطبراني في الأوسط والخطيب في المتفق والمفترق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الجنة باباً يقال له الضحى، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كانوا يديمون صلاة الضحى؟ هذا بابكم فادخلوه برحمة الله».

وأخرج أحمد عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما بين مصراعين من مصاريع الجنة أربعون عاماً، وليأتين عليهم يوم وإنه لكظيم».

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده لما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر . أو كما بين مكة وبصرى».

وأخرج ابن أبي شيبة عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه أنه خطب فقال: إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لمسيرة أربعين عاماً، وليأتين على أبواب الجنة يوم وليس منها باب إلا وهو كظيم.

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب رضي الله عنه قال: ما بين مصراعي الجنة أربعون خريفاً للراكب المجد، وليأتين عليه يوم وهو كظيم الزحام.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلمي قال إن الرجل ليقف على باب الجنة مائة عام بالذنب عمله، وإنه ليرى أزواجه وخدمه.

وأخرج أحمد والبزار عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله».

وأخرج الطيالسي والدرامي عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مفاتيح الجنة الصلاة».

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدرامي ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما منكم من أحد يسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له من الجنة ثمانية أبواب. من أيها شاء دخل».

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾﴾ (النَّازِعَاتِ: ٧٥).

قال ابن عاشور: والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فيكون إيذاناً بأنها رؤية دنو من العرش وملائكته وذلك تكريم له بأن يكون قد حواه موكب الملائكة الذين حول العرش. والحَفُّ: الإحداق بالشيء والكون بجوانبه وجملته ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حال أي يقولون أقوالاً تدل على تنزيه الله تعالى وتعظيمه ملابسة حمدهم إياه فالباء في ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للملابسة تتعلق بـ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾. وفي استحضار الله تعالى بوصف ربهم إيماء إلى أن قربهم من العرش ترفيع في مقام العبودية الملازمة للخلائق. قلت: بل هو قرب حقيقي على ظاهره.

سُورَةُ غَافِرٍ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَهُ

الْمَصِيرُ ﴾ (بَازِل: ٣).

قال ابن عاشور: وتقديم ﴿ غَافِرِ ﴾ على ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ مع أنه مرتب عليه في الحصول للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعد لتدارك أمره فوصف ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ ﴾ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ تعريض بالترغيب، وصفته ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ تعريض بالترهيب. والتوب مصدر تاب والتوب بالمشاة والثوب بالمثلثة والأوب كلها بمعنى الرجوع أي الرجوع إلى أمر الله وامتناله بعد الابتعاد عنه. وإنما عطفت صفة ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ بالواو على صفة ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ ﴾ ولم تفصل كما فصلت صفتا «العليم غافر الذنب» وصفة ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ إشارة إلى نكتة جليلة وهي إفادة أن يجمع للمذنب التائب بين رحمتين؛ بين أن يقبل توبته فيجعلها له طاعة وبين أن يمحو عنه الذنوب التي تاب منها وندم على فعلها فيصبح كأنه لم يفعلها وهذا فضل من الله. أ. هـ.

قلت: ذي الطول يطلق على سعة الفضل وسعة المال ويطلق على القدرة أيضاً، فوجه اختياره الترهيب مع الإيحاء إلى جانب فضله العظيم على أوليائه في محل كرامته ولو قال: «ذي الانتقام» مثلاً لما دلّ على ذلك.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِءِ

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (بَازِل: ٧ - ٩).

قال القرطبي: قال إبراهيم النخعي: كان أصحاب عبد الله يقولون الملائكة

خير من ابن الكواء (من الخوارج)؛ هم يستغفرون لمن في الأرض وابن الكواء

يشهد عليهم بالكفر. قال إبراهيم: وكانوا يقولون لا يحجبون الاستغفار عن أحد من أهل القبلة.

وقال مطرف بن عبد الله: وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان، وتلا هذه الآية.

وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: افهموها فما في العالم آية أرجى منها، إن ملكاً واحداً لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم. كيف وجميع الملائكة وحلة العرش يستغفرون للمؤمنين.

وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنت أقرأ على سليمة بن عيسى فلما بلغت ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بكى ثم قال: يا خلف: ما أكرم المؤمن على الله نائماً على فراشه والملائكة يستغفرون له.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾﴾ (نَحْطٌ: ٥٨).

قال ابن عاشور: وإنما قدم ذكر ﴿الْأَعْمَى﴾ على ذكر ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ من أن البصر أشرف من العمى بالنسبة لذات واحدة والمشبه بالبصير أشرف من المشبه بالأعمى؛ إذ المشبه بالبصير المؤمنون فقد ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهم في المقام بيان حال الذين يجادلون في الآيات إذ هم المقصود بالموعظة. وأما قوله ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾. فإنما رتب فيه ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماماً بشرف المؤمنين. وأعيدت ﴿وَلَا﴾ النافية بعد واو العطف على النفي وكان العطف مغنياً عنها فإعادتها لإفادتها تأكيد نفى المساواة. ومقام التوبيخ يقتضي الإطناب، ولذلك تعد ﴿وَلَا﴾ في مثله زائدة كما في مغني اللبيب وكان الظاهر أن تقع ﴿وَلَا﴾ قبل ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فعدّل عن ذلك للتنبيه على أن المقصود عدم مساواة المسيء لمن عمل الصالحات وأن ذكر الذين آمنوا قبل المسيء للاهتمام بالذين آمنوا.

سُورَةُ فَضَّلَتْ

﴿ قَالَ نَعَالِي: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَتَيْتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فُضِّلَتْ: ١١).

قال في (الظلال): إنها إيهاء عجيبة إلى انقياد هذا الكون (لأمر ربه)، وإلى اتصال هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته. فليس هنالك إذن إلا هذا الإنسان الذي يخضع (لقدر ربه) كرهاً في أغلب الأحيان، فإنه خاضع حتماً لهذا (القدر)، لا يملك أن يخرج عنه، وهو ترس صغير جداً في عجلة الكون الهائلة والقوانين الكونية الكلية تسري عليه رضي أم كره. ولكنه هو وحده الذي لا ينقاد طائعاً طاعة الأرض والسماء. إنما يحاول أن يتفلت وينحرف عن المجرى الهين اللين، فيصطدم (بالسنن) التي لا بد أن تغلبه - وقد تحطمه وتسحقه - فيستسلم خاضعاً غير طائع. إلا عباد الله الذين تصلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإرادتهم ورغباتهم واتجاهاتهم ... تصطليح كلها مع أوامر ربهم، فتأتي طائعة وتسير هينة لينة مع الكون، متجهة إلى ربه مع الموكب، متصلة بكل ما فيه من قوى، وحينئذ تصنع الأعاجيب، وتأتي بالخوارق. إننا نخضع كرهاً فليتنا نخضع طوعاً. ليتنا نلبي تلبية الأرض والسماء في رضى وفي فرح مع (كائنات) الوجود الخاضعة المطيعة الملبية المستسلمة لله رب العالمين.

إننا نأتي أحياناً حركات مضحكة .. عجلة القدر تدور بطريقتها وبسرعتها ولوجهتها ويدور الكون كله معها وفق سنن ثابتة .. ونأتي نحن فنريد أن نسرع أو أن نبطئ، نحن من بين هذا الموكب الضخم الهائل نحن بما يطرؤ على نفوسنا - حين نفك عن العجلة وننحرف عن خط السير - في قلق واستعجال وأنانية وطمع ورغبي ورهبة ... ونظل نشرد هنا وهناك والموكب ماض. ونحتك بهذا الترس وذاك ونتألم. ونصطدم هنا وهناك ونتحطم والعجلة ماضية في سرعتها وبطريقتها إلى وجهتها، وتذهب قوانا وجهودنا كلها سدى. فأما حين تؤمن قلوبنا حقاً وتستسلم لله حقاً، فإننا - حينئذ - نعرف دورنا على

حقيقته، ونسق بين خطانا و(مواقع) القدر، ونتحرك بقوة مستمدة من خالق الوجود ونصنع أعمالاً عظيمة فعلاً، دون أن يدركنا الغرور، لأننا نعرف مصدر القوة التي صنعنا بها هذه الأعمال العظيمة، ونوقن أنها ليست قوتنا الذاتية. ويا للرضى ويا للسعادة ويا للراحة ويا للطمأنينة التي تغمر قلوبنا يومئذ في رحلتنا القصيرة على هذا الكوكب الطائع الملبى، السائر معنا في رحلته الكبرى إلى ربه في نهاية المطاف.. ويا للسلام الذي يفيض في أرواحنا ونحن نعيش في كون صديق. كلُّه مستسلم لربه، ونحن معه مستسلمون لا تشذ خطانا عن خطاه ولا يعاديننا ولا نعاديهِ لأننا منه ولأننا معه في الاتجاه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴾ ﴾ (فُضِّلَتْ: ١٦)، فقال: ﴿ صَرْصَرًا ﴾ وفي ذلك دقة بالغة لأن كلمة ﴿ صَرْصَرًا ﴾ تدل على أكثر من معنى في وقت واحد وكلها حق؛ قال الشنقيطي: لعلماء التفسير في كلمة الصرصر وجهان معرفان:

(أ) أنَّ الريح الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب التي يسمع لهبوبها صوت شديد. وعلى هذا فالصرصر من الصرة التي هي الصيحة المزعجة. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتْ أُمْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ ﴾ (الدَّاحِيَّاتِ: ٢٩) أي في صيحة. ومن هذا المعنى: صرير الباب والقلم أي صوتهما.

(ب) أنَّ الصرصر من الصر الذي هو البرد الشديد المحرق ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ (الْغَاثَةِ: ١١٧) أي فيها برد شديد محرق، فقوله: ريح صر أي باردة شديدة البرد. والأظهر أن كلا القولين صحيح وأن الريح المذكورة جامعة بين الأمرين فهي عاصفة شديدة الهبوب، باردة شديدة البرد.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴾ (فُضِّلَتْ: ٢٦). فتأمل يا مؤمن كيف قالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُوا ﴾ ولم يقولوا «لا تستمعوا» لماذا؟؟ لأن في ذلك اعترافاً منهم بقوة تأثير أدنى درجات الاستماع وهو السماع فكيف بما

فوقه؟؟ وقالوا: ﴿وَالْغَوَا فِيهِ﴾ فأشعر ذكر اللغو «وهو الصياح والصفير» وذكر حرف الجر «في» بأن المقصود تداخل ذلك مع أصوات القرآن حتى يكون في أثنائه وخلال له، فأين نحن من هذا المؤثر العظيم؟ ولم لا نجاهدهم به جهاداً كبيراً؟ «أفاده د/ عويض العطوي - تدبر المجموعة (١)».



سُورَةُ الشُّبُورِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ﴾ (الشُّبُورِ : ٤).

قال في (الظلال): وكثيراً ما يخدع البشر فيحسبون أنهم يملكون شيئاً، لمجرد أنهم يجدون أشياء في أيديهم ، مسخرة لهم ينتفعون بها، ويستخدمونها فيما يشاءون ولكن هذا ليس ملكاً حقيقياً. إنما الملك الحقيقي لله الذي يوجد ويعدم، ويحيي ويميت ويملك أن يعطي البشر ما يشاء، ويحرمهم ما يشاء، وأن يذهب بما في أيديهم من شيء وأن يضع في أيديهم بدلاً مما أذهب ... الملك الحقيقي لله الذي يحكم طبائع الأشياء، ويصرفها (كيف يشاء) فتلبي وتطيع وتتصرف وفق (مشيئة الله)، وكل ما في السموات وما في الأرض من شيء «الله» بهذا الاعتبار الذي لا يشاركه فيه أحد سواه ... «وهو العلي العظيم» فليس هو الملك فحسب ولكنه ملك العلو والعظمة على وجه التفرد كذلك. العلو الذي كل شيء بالقياس إليه سفول، والعظمة التي كل شيء بالقياس إليها ضالة! ومتى استقرت هذه الحقيقة استقراراً صادقاً في الضمائر عرف الناس إلى أين يتجهون فيما يطلبون لأنفسهم من خير ومن رزق ومن كسب «فكل ما في السموات وما في الأرض لله». والمالك هو الذي بيده العطاء ثم إنه هو ﴿ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ولا يصغر ولا يسفل من يمد يده إليه بالسؤال كما لو مدها للمخاليق وهم ليسوا بأعلاء ولا عظماء.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ﴾ (الشُّبُورِ : ٨).

قال ابن عاشور: قوله ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أحد دليلين على المعنى المستدرك إذ التقدير: ولكنه جعلهم فريقين؛ فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير ليدخل من يشاء منهم في رحمته، وهي الجنة وأفهم ذلك أنه يدخل منهم الفريق الآخر في عقابه ودل عليه

أيضاً بقوله: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ لأن نفي النصير كناية عن كونهم في بؤس وضرر ومغلوبة بحيث يحتاجون إلى نصير لو كان لهم نصير، فيدخل في الظالمين مشركوا أهل مكة دخولاً أولاً لأنهم سبب ورود هذا العموم. وأصل النظم: ويدخل من يشاء في غضبه فعدل عنه إلى ما في الآية للدلالة على أن سبب إدخالهم في غضبه هو ظلمهم أي شركهم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ مع إعادة أنهم لا يجدون ولياً يدفع عنهم غضبه ولا نصيراً يثأر لهم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾﴾ (الشُّورَى: ١٣).

قال ابن عاشور: والاختصار على ذكر دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى الناس فدينه هو أساس الديانات، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ولأن دين إبراهيم هو أصل الحنيفية وانتشر بين العرب بدعوة إسماعيل إليه فهو أشهر الأديان بين العرب، وكانوا على إثارة منه في الحج والختان والقربى والفتوى. ودين موسى هو أوسع الأديان السابقة في تشريع الأحكام، أما دين عيسى فلائته الدين الذي سبق الإسلام ولم يكن بينهما دين آخر ولتضمن التهيئة إلى دعوة اليهود والنصارى إلى دين الإسلام. وتعقيب ذكر دين نوح بما أوحى إلى محمد عليهما السلام بالإشارة إلى أن دين الإسلام هو خاتم الأديان، فعطف على أول الأديان جمعاً بين طرفي الأديان، ثم ذكر بعدهما الأديان الثلاثة الأخرى لأنها متوسطة بين الدينين المذكورين قبلها. وهذا نسج بديع من نظم الكلام.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَنْبَغُ﴾﴾ (الشُّورَى: ٣٨).

قال ابن عاشور: والتشاور لا يكون إلا بين المتشاورين فالوجه أن يكون هذا الطرف إيماء إلى أن الشورى لا ينبغي أن تتجاوز من المتشاورين.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَحَزَّوْا سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (التَّوْبَةُ: ٤٠).

قال في (الدر المنثور): أخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿ وَحَزَّوْا سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا ﴾ قال: ما يكون من الناس في الدنيا مما يصيب بعضهم بعضاً والقصاص. وأخرج أحمد وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المستبان ما قالاً من شيء فعلى البادئ حتى يعتدي المظلوم». ثم قرأ ﴿ وَحَزَّوْا سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا ﴾.

وأخرج ابن جرير، عن السدي رضي الله عنه في قوله: ﴿ وَحَزَّوْا سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا ﴾ قال: إذا شتمك. فاشتبه بمثلها من غير أن تعتدي.

وأخرج ابن جرير، عن ابن أبي نُجَيْح في قوله: ﴿ وَحَزَّوْا سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا ﴾ قال: يقول أخزاه الله، فيقول أخزاه الله.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي ألا ليقم من كان له على الله أجرٌ، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا». وذلك قوله: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجرٌ فليقم، فيقوم عنق كثير فيقال لهم: ما أجركم على الله؟ فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا». وذلك قول الله ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ فيقال لهم: ادخلوا الجنة بإذن الله.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا وقف العباد للحساب ينادي منادٍ ليقم من أجره على الله، فليدخل الجنة، ثم نادى الثانية، ليقم من أجره على الله، قالوا ومن ذا الذي أجره على الله؟ قال: العافون عن الناس، فقام كذا وكذا ألفاً، فدخلوا الجنة بغير حساب».

وأخرج البيهقي، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ينادي مناد من كان أجره على الله فليدخل الجنة مرتين، فيقوم من عفا عن أخيه. قال الله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾».

وأخرج ابن مردويه، عن الحسن رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أول مناد من عند الله يقول: أين الذين أجرهم على الله؟ فيقوم من عفا في الدنيا، فيقول الله أنتم الذين عفوتهم لي ثوابكم الجنة».

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر، عن محمد بن المنكدر رضي الله عنه قال: إذا كان يوم القيامة صرخ صارخ الأرض، ألا من كان له على الله حق، فليقم فيقوم من عفا وأصلح. وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ينادي مناد يوم القيامة، لا يقوم اليوم أحد، إلا من له عند الله يد، فتقول الخلائق: سبحانك بل لك اليد، فيقول بلى، من عفا في الدنيا بعد قدرة».

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال: موسى بن عمران عليه السلام يا رب، من أعز عبادك عندك؟ قال: من إذا قدر عفا».

وأخرج أحمد وأبو داود، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعجب ويتسم، فلما أكثر، رد عليه بعض قوله، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام، فلحقه أبو بكر رضي الله عنه، فقال يا رسول الله، كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت؟ قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، نلت من حقك؛ ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها الله إلا أعز الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة».

سُورَةُ الْخُرُوجِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَسْتُ بِأَعْلَى عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ (الْخُرُوجُ: ١٣، ١٤).

لما كان الركوب مباشرة أمر خطر واتصالاً بسبب من أسباب التلف كان من حق الراكب ألا ينسى أنه منقلب إلى الله غير منفلت من قضائه ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله بإصلاحه من نفسه. أفاده الزمخشري.

وقال أيضاً: ليستعد المؤمن وهو يقرأ هذه الآية من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم وهم على ظهور الدواب أو في بطون السفن وهي تجري بهم لا يذكرهم إلا الشيطان ولا يمتثلون إلا أوامره.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّةَ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الْخُرُوجُ: ٤٠). قال ابن عاشور مبيناً وجه قوله هنا ﴿ الصَّمَّةَ ﴾، ﴿ الْأَعْمَى ﴾ بينما قال قبلها: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيْضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (الْخُرُوجُ: ٣٦)، فقال: ومن بديع معنى الآية أن الله وصف حال إعراضهم عن الذكر بالعشاء وهو النظر الذي لا يبين شبح الشيء المنظور إليه ثم وصفهم هنا بالصم العمي إشارة إلى إن التمحل للضلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشد الضلال ذلك أن التخلق يأتي دونه الخلق والأحوال تنقلب ملكات، وهو معنى قول النبي ﷺ: « لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »؛ وإذ قد كان إعراضهم انصرافاً عن استماع القرآن وعن النظر في الآيات كان حالهم يشبه حال الصم العمي كما مهد لذلك بقوله: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ فظهرت المناسبة بين وصفهم بالعشا وبين ما في هذا الانتقال لوصفهم بالصم العمي.

سُورَةُ الدُّخَانِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴾ (الدُّخَانُ : ٣ - ٨)، فقال: ﴿ حَكِيمٍ ﴾ وفي ذلك دقة بالغة لأن كلمة ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أفادت أمرين في آن واحد، وكلاهما حق ومراد، فكلمة ﴿ حَكِيمٍ ﴾ تعني أنه ذو حكمة بالغة فدلّت على أن أفعاله سبحانه كلها في غاية الحكمة. وهي تعني أيضاً الإحكام فقلوله: ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أي محكم ولا تغيير فيه ولا تبديل إلا أن يشاء الله ذلك، وقد ورد في السنة ما يدل على أن العمل الصالح وصلة الأرحام وحسن الجوار تزيد في العمر.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ ﴿٢﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴾ (الدُّخَانُ : ٣ - ٦).

قال في (الظلال): والليلة المباركة التي أنزل فيها القرآن هي - والله أعلم - الليلة التي بدأ فيها نزوله، وهي إحدى ليالي رمضان الذي قيل فيه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾... والقرآن لم ينزل كله في تلك الليلة، كما أنه لم ينزل كله في رمضان ولكنه بدأ يتصل بهذه الأرض. وكانت هذه الليلة موعد هذا الاتصال المبارك. وهذا يكفي في تفسير إنزاله في الليلة المباركة. وإنها لمباركة حقاً تلك الليلة التي يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية، والتي فيها استقرار هذا المنهج الإلهي في حياة البشر، والتي يتصل فيها الناس بالنواميس الكونية الكبرى مترجمة في هذا القرآن ترجمة يسيرة، تستجيب لها الفطرة وتلبّيها في هوادة، وتقيم على أساسها عالماً إنسانياً مستقراً على قواعد الفطرة واستجاباتها، متناسقاً مع الكون الذي يعيش فيه، طاهراً نظيفاً كريماً بلا تعمل ولا تكلف، يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولاً بالسماء في كل حين.

ولقد عاش الذين أنزل القرآن لهم أول مرة فترة عجيبة في كنف السماء، موصولين

بالله، يطلعهم أول بأول على ما في نفوسهم، ويشعرهم أولاً بأول بأن عينه عليهم، ويحسبون هم حساب هذه الرقابة، وحساب هذه الرعاية، في كل حركة وكل هاجسة تخطر في ضمايرهم، ويلجأون إليه أول ما يلجأون، واثقين أنه قريب مجيب.

ومضى ذلك الجيل وبقي بعده القرآن كتاباً مفتوحاً موصولاً بالقلب البشري، يصنع به حين يتفتح له مالا يصنعه السحر، ويحوّل مشاعره بصورة تحسب أحياناً في الأساطير! وبقي هذا القرآن منهجاً واضحاً كاملاً صالحاً لإنشاء حياة إنسانية نموذجية في كل بيئة وفي كل زمان. حياة إنسانية تعيش في بيئتها وزمانها في نطاق ذلك المنهج الإلهي المتميز الطابع، بكل خصائصه دون تحريف. وهذه سمة المنهج الإلهي وحده. إن البشر يصنعون ما يغني مثلهم، وما يصلح لفترة من الزمان، ولظرف خاص من الحياة. فأما كتاب الله فيحمل طابع الدوام والكمال، والصلاحية المستمرة وتلبية الحاجات في كل ظرف وفي كل حين. ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ .. وقع فرق فيها بهذا القرآن في كل أمر، وفصل فيها كل شأن، وتميز الحق الخالد والباطل الزاهق، ووضعت الحدود، وأقيمت المعالم لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين، فلم يبق هناك أصل من الأصول التي تقوم عليها الحياة غير واضح ولا مرسوم في دنيا الناس، كما هو واضح ومرسوم في (هذه الشريعة). وكان ذلك كله بإرادة الله وأمره، ومشيتته في إرسال الرسل للفصل والتبيين. ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾. وكان ذلك كله رحمة من الله بالبشر إلى يوم الدين. ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وما تتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى في تنزيل هذا القرآن، بهذا اليسر، الذي يجعله سريع اللصوق بالقلب، ويجعل الاستجابة له تتم كما تتم دورة الدم في العروق. وتحول الكائن البشري إلى إنسان كريم، والمجتمع البشري إلى حلم جميل، لولا أنه واقع تراه العيون! إن هذه العقيدة - التي جاء بها القرآن - في تكاملها وتناسقها - جميلة في ذاتها جمالاً يحب ويعشق وتتعلق به القلوب! فليس الأمر فيها أمر الكمال والدقة وأمر الخير والصلاح. فإن هذه السمات فيها تظل ترتفع وترتفع حتى يبلغ الكمال فيها مرتبة الجمال الحبيب الطليق.

الجمال الذي يتناول الجزئيات كلها بأدق تفصيلاتها، ثم يجمعها وينسقها، ويربطها كلها. ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ نزل بها هذا القرآن في الليلة المباركة .. ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. يسمع ويعلم، وينزل ما ينزل للناس على علم وعلى معرفة بما يقولون وما يعملون، وما يصلح لهم ويصلحون به من السنن والشرائع والتوجيه السليم. وهو (المهيمن) على هذا الكون الحافظ لمن فيه وما فيه. ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾. فما ينزله للناس يربيههم به، هو طرف من ربوبيته للكون كله، وطرف من (سننه) (الواقعة في) الكون .. والتلويح لهم باليقين في هذا إشارة إلى عقيدتهم المضطربة المزعجة المهوشة، إذ كانوا يعترفون بخلق الله للسموات والأرض ثم يتخذون من دونه أرباباً، مما يشي بغموض هذه الحقيقة في نفوسهم وسطحيتها وبعدها عن الثبات واليقين. وهو الإله الواحد الذي يملك الموت والحياة، وهو رب الأولين والآخرين: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾. والإحياء والإماتة أمران مشهودان للجميع، وأمرهما خارج عن طاقة كل مخلوق. يبدو هذا بأيسر نظر وأقرب تأمل. ومشهد الموت كمشهد الحياة في كل صورة وفي كل شكل يلمس القلب البشري ويهره، ويستجيشه ويعدده للتأثر والانفعال وبيئه للتقبل والاستجابة. ومن ثم يكثر ذكره في القرآن وتوجيه المشاعر إليه ولمس القلوب به بين الحين والحين.

﴿قَالَ تَعَالَى عَنْ أَثَرِ شَجَرَةِ الزَّقُومِ: ﴿كَأَلْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيرِ﴾ (الأنبياء: ٤٥، ٤٦)، فقال: ﴿كَغَلِي﴾ ولم يقل: «كغليان»، قال د. فاضل: «فعلان» تصلح في اللغة للدلالة على التقلب والاضطراب والحركة كالجولان والغليان، فأتت تقول: غليت الماء غلياً إن أردت الفعل ولم ترد التقلب والحركة، فإن أردت الحركة والاضطراب قلت: غلى الماء غلياناً. ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ (الأنبياء: ٦٤)، فقال: ﴿الْحَيَوَانُ﴾ ولم يقل: «الحياة»، فلمّا أراد فيها معنى الحركة والتقلب وأن الدنيا بالنسبة للحياة الآخرة كأنها سكون وهمود بناها على فعلان للدلالة على كمال الحياة ثم.

سُورَةُ الْجَانثِيَةِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (الْجَانثِيَةِ: ١٨، ١٩).

قال في (الظلال): إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منبعها الجهل. وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها، ويدع الأهواء كلها. وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء، فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله صاحب الشريعة. وهم إلب عليه فبعضهم ولي لبعض. وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة له أو جنوحاً عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه. ولكنهم أضعف من أن يؤذوه. والله ولي المتقين. وأين ولاية من ولاية؟ وأين ضعف جهال مهازيل يتولى بعضهم بعضاً؟ من صاحب شريعة يتولاه الله. ولي المتقين؟ وتعقياً على هذا البيان الحاسم الجازم، يتحدث عن اليقين، وعماً في هذا القول وأمثاله في القرآن من تبصرة وهدى ورحمة لأهل اليقين. ﴿ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾. ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة. فهو بذاته بصائر كاشفة. كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن الأمور. وهو بذاته هدى. وهو بذاته رحمة.. ولكن هذا كله يتوقف على اليقين. يتوقف على النفس التي لا يخامرها، ولا يخالطها قلق، ولا تتسرب إليها ريبة وحين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه، فلا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يحيد. وعندئذ يبدو له الطريق واضحاً، والأفق منيراً، والغاية محددة، والمنهج مستقيماً. وعندئذ يصبح هذا القرآن له نوراً وهدى ورحمة بهذا اليقين.

سُورَةُ الْاٰحْقَافِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الْاٰحْقَافُ : ٣٣) .

قال ابن عاشور: وجملة ﴿ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تذييل لجملة ﴿ بَلَى ﴾ لأن هذه تفيد القدرة على خلق السموات والأرض وإحياء الموتى وغير ذلك من الموجودات الخارجة عن السماوات والأرض.

وتأكيد الكلام بحرف «إن» لرد إنكارهم أن يمكن إحياء الله الموتى، لأنهم لما أحالوا ذلك فقد أنكروا عموم قدرته تعالى على كل شيء.

ولهذه النكتة جيء في القدرة على إحياء الموتى بوصف ﴿ بِقَدِيرٍ ﴾، وفي القدرة على كل شيء بوصف ﴿ قَدِيرٌ ﴾ الذي هو أكثر دلالة على القدرة من وصف ﴿ بِقَدِيرٍ ﴾.



سُورَةُ مُحَمَّدٍ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلٌ أَعْمَلَهُمْ ﴾ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ (مُحَمَّدٌ: ٨، ٩)، فقال: ﴿ أَنْزَلَ ﴾ بينما قال: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ (مُحَمَّدٌ: ٢٦)، فقال: ﴿ نَزَلَ ﴾، ووجه ذلك أَنَّ الأولى في الكفار الذين كرهوا شرع الله جملةً، فقال: ﴿ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أي على سبيل الجملة، وأمَّا الثانية ففي المنافقين الذين يتولون الكفار الكارهين لشرع الله، فكان الأنسب أن يقول: ﴿ نَزَلَ اللَّهُ ﴾ ليدل على ذم المنافق الذي يتولى من كره أي شيء من شرع الله، ولو قل، فضلاً عمَّن كره شرع الله جملةً، والله أعلم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴾ (مُحَمَّدٌ: ٣٥)

قال في (الظلال): أنتم الأعلون. فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم. أنتم الأعلون اعتقاداً وتصوراً للحياة. وأنتم الأعلون ارتباطاً وصلة بالعلي الأعلى. وأنتم الأعلون منهجاً وهدفاً وغاية. وأنتم الأعلون شعوراً وخلقاً وسلوكاً.. ثم.. أنتم الأعلون قوة ومكاناً ونصرة. فمعكم القوة الكبرى: ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾.. فلستم وحدكم. إنكم في (معية) العلي الجبار القادر القهار. وهو لكم نصير حاضر معكم. يدافع عنكم. فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم؟ وكل ما تبدلون، وكل ما تفعلون، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم، لا يضيع منه شيء عليكم: ﴿ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴾.. ولن يقطع شيئاً لا يصل إليكم أثره ونتيجته جزاؤه. فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم، من يقرر الله - سبحانه - له أنه الأعلى. وأنه معه. وأنه لن يفقد شيئاً من عمله. فهو مكرم منصور مأجور؟ هذه هي اللمسة الأولى. واللمسة الثانية تهوين من شأن هذه الحياة الدنيا، التي قد يصيبهم بعض التضحيات فيها. وتوفيه كاملة في الآخرة للأجور مع عدم إبهازهم

ببذل المال مقابل هذه الأجر! ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ
وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ .. والحياة الدنيا لعب وهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى .
حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها. ذلك المنهج الذي يجعلها مزرعة الآخرة؛
ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذي يستحق وراثته الدار الباقية. وهذا هو الذي تشير
إليه الفقرة التالية في الآية: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ﴾ .. فالإيمان والتقوى في الحياة
الدنيا هو الذي يخرجها عن أن تكون لعباً وهواً؛ ويطبعها بطابع الجد، ويرفعها عن
مستوى المتاع الحيواني، إلى مستوى الخلافة الراشدة، المتصلة بالملا الأعلى. ويومئذ لن
يكون ما يبذله المؤمن المتقي من عرض هذه الحياة الدنيا ضائعاً ولا مقطوعاً؛ فعنه ينشأ
الأجر الأوفى، في الدار الأبقى.. ومع هذا فإن الله لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم
كلها، ولا يشق عليهم في فرائضه وتكاليفه، لعلمه سبحانه بشح نفوسهم فطرة وخلقة.
وهو لا يكلف نفساً إلا وسعها. وهو أرحم بهم من أن يكلفهم بذلها كلها، فتضيق
صدورهم وتظهر أضغانهم.



سُورَةُ الْفَتِيحَةِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الْفَتِيحَةُ: ٢٩).

قال الفيروز أبادي: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً ﴾. للتبيين، لا للتبعيض، كما زعم بعض الزنادقة الطاعنين في بعض الصحابة والمعنى: الذين آمنوا هم هؤلاء. ومثل قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، وكلهم محسن متق، ﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، والمقول فيهم ذلك كلهم الكفار.

وقال ابن عاشور: والخطاب في ﴿ تَرَاهُمْ ﴾ لغير معين بل لكل من تتأني رؤيته إياهم، أي يراهم الرائي. وإيثار صيغة المضارع للدلالة على تكرار ذلك أي تراهم كلما شئت أن تراهم ركعاً ساجداً. وهذا ثناء عليهم بشدة إقبالهم على أفضل الأعمال المزية للنفس، وهي الصلوات مفروضها ونافلتها وأنهم يتطلبون بذلك رضى الله ورضوانه. وفي سوق هذا في مساق الثناء إيماء إلى أن الله حقق لهم ما يبتغونه.



سُورَةُ الْمُحْجَرَاتِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ (الْمُحْجَرَاتِ : ١٤) .

قال ابن عاشور: وكان مقتضى ظاهر نظم الكلام أن يقال: قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم، أو أن يقال: قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا، ليتوافق المستدرك عنه والاستدراك بحسب النظم المتعارف في المجادلات، فعدل عن الظاهر إلى هذا النظم لأن فيه صراحة بنفي الإيمان عنهم فلا يحسبوا أنهم غلطوا رسول الله ﷺ واستغنى بقوله: ﴿ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ عن أن يقال: لا تقولوا آمنا، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النهي عن الإعلان بالإيمان لأنهم مطالبون بأن يؤمنوا ويقولوا آمنا قولاً صادقاً ف قيل لهم: ﴿ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ تكذيباً لهم مع عدم التصريح بلفظ التكذيب ولكن وقع التعريض لهم بذلك بعد في قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ إلى قوله: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أي لا أنتم ولذلك جيء بالاستدراك محمولاً على المعنى. وعدل عن أن يقال: ولكن أسلمتم إلى ﴿ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ تعريضاً بوجوب الصدق في القول ليطابق الواقع، فهم يشعرون بأن كذبهم قد ظهر، وذلك مما يتعير به، أي الشأن أن تقولوا قولاً صادقاً. وقوله: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ واقع موقع الحال من الضمير ﴿ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ وهو مبين لمعنى نفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ بأنه ليس انتفاء وجود تصديق باللسان ولكن انتفاء رسوخه وعقد القلب عليه؛ إذ كان فيهم بقية من ارتياب كما أشعر به مقابلته بقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ واستعير الدخول في قوله: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ للتمكن وعدم التزلزل لأن الداخل إلى المكان يتمكن ويستقر فيه بخلاف الخارج عنه فإنه يكون سريع المفارقة له مستوفزاً للانصراف عنه.

سُورَةُ قَات

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (قَات: ١٧، ١٨).

قال في (الدر المنثور): أخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾. قال: مع كل إنسان ملكان ملك عن يمينه وآخر عن شماله، فأما الذي عن يمينه فيكتب الخير، وأما الذي عن شماله فيكتب الشر.

وأخرج أبو نعيم والديلمي عن معاذ بن جبل مرفوعاً: إِنَّ اللَّهَ لَطَفَ الْمَلَائِكَةَ الْحَافِظِينَ حَتَّى أَجْلَسَهُمَا عَلَى النَّاجِذِينَ وَجَعَلَ لِسَانَهُ قَلَمَهُمَا وَرِيقَهُ مَدَادَهُمَا.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال: اسم صاحب السيئات قعيد.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في الآية قال: عن اليمين كاتب الحسنات وعن الشمال كاتب السيئات.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾. الآية، قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه يكتب قوله أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائرته، فذلك قوله: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ (الرعد: ٣٩).

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ قال: إنما يكتب الخير والشر. لا يكتب يا غلام أسرج الفرس ويا غلام اسقني الماء.

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لا يكتب إلا ما يؤجر عليه ويؤزر فيه، لو قال رجل لامرأته تعالي حتى نفعل كذا وكذا كان يكتب عليه شيء.

وأخرج ابن أبي الدنيا في الفدية من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رحمتهما في قوله: ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ الآية، قال: كاتب الحسنات عن يمينه يكتب حسناته وكاتب السيئات عن يساره، فإذا عمل حسنة كتب صاحب اليمين عشراً وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه حتى يسبح أو يستغفر، فإذا كان يوم الخميس كتب ما يُجْزَى به من الخير والشر، ويُلقَى ما سوى ذلك، ثم يعرض على أم الكتاب فيجده بجملته فيه.

وأخرج ابن أبي الدنيا في الصمت عن علي رحمته قال: لسان الإنسان قلم الملك وريقه مداده. وأخرج ابن أبي الدنيا وابن المنذر عن الأحنف بن قيس في قوله: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ قال: صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمير على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال أمسك فإن استغفر الله نهاه أن يكتبها، وإن أبى إلا أن يُصِرَّ كتبها.

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة من طريق ابن المبارك عن ابن جريج قال: ملكان أحدهما على يمينه يكتب الحسنات وملك عن يساره يكتب السيئات، فالذي عن يمينه يكتب بغير شهادة من صاحبه. إن قعد فأحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وإن مشى فأحدهما أمامه والآخر خلفه، وإن رقد فأحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه. قال ابن المبارك: وكل به خمسة أملاك ملكان بالليل وملكان بالنهار يجيئان ويذهبان وملك خامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً.

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ قال: رصيد. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن حجاج بن دينار قال: قلت لأبي معشر: الرجل يذكر الله في نفسه كيف تكتبه الملائكة؟ قال: يجدون الريح.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي عمران الجوني قال: بلغنا أن الملائكة تصف بكتبها في السماء الدنيا كل عشية بعد العصر يُنادى الملك أَلْقِ تلك الصحيفة، فيقولون ربنا قالوا خيراً وحفظنا عليهم فيقول: إنهم لم يريدوا به وجهي وإني

لا أقبل إلا ما أريد به وجهي ويُنادى الملك الآخر اكتب لفلان بن فلان كذا وكذا فيقول: يا رب إنه لم يعمله فيقول: إنه نواه، وأخرج ابن المبارك وابن أبي الدنيا في الإخلاص وأبو الشيخ في العظمة عن ضمرة بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الملائكة يصعدون بعمل العبد من عباد الله فيكثرونه ويزكونه حتى ينتهوا به حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليه إنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين، قال: يصعدون بعمل العبد من عباد الله فيستقلونه ويحقرونه حتى ينتهوا حيث شاء الله من سلطانه فيوحي الله إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي، وأنا رقيب على ما في نفسه فضاعفوه له واجعلوه في عليين».

وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد حسنة كتبت له بعشر أمثالها، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال صاحب اليمين: أمسك فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات، فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيئاً، وإن لم يستغفر الله كتب عليه سيئة واحدة».

وأخرج أبو الشيخ في التفسير عن حسان بن عطية قال: تذاكروا مجلساً فيه مكحول وابن أبي زكريا أن العبد إذا عمل خطيئة لم تكتب عليه ثلاث ساعات، فإن استغفر الله وإلا تكتب عليه.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: إن من كان قبلكم كان يكره فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن يقرأه أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، وأن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها. أتذكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين، وأن ﴿عَنِ الِّيمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ١٧ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ؟ أما يستحي أحدكم لو نشر صحيفته التي ملأ صدره نهاره وأكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه؟

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان من طريق الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: بينما رجل راكب على حمار إذ عثر به، فقال: تعست، فقال صاحب اليمين: ما هي بحسنة فأكتبها، وقال صاحب الشمال: ما هي بسيئة فأكتبها، فنودي صاحب الشمال أن ما ترك صاحب اليمين فأكته.

وأخرج ابن أبي شيبة عن بكر بن معز قال: جاءت بنت الربيع بن خيثم وعنده أصحاب له فقالت: يا أبتاه أذهب ألعب. قال: لا. قال له أصحابه: يا أبا يزيد اتركها. قال: لا يوجد في صحيفتي أني قلت لها: اذهبي فالعبي لكن اذهبي فقولي خيراً وافعلي خيراً.

وأخرج البيهقي في الشعب عن حذيفة بن اليمان أن الكلام بسبعة أغلاق إذا أُخرج منها كُتب، وإذا لم يخرج لم يكتب القلب واللهة واللسان والحنكين والشفيتين.

وأخرج الخطيب في رواة مالك وابن عساكر عن مالك أنه بلغه أن كل شيء يكتب حتى أنين المريض.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: يكتب على ابن آدم كل شيء يتكلم به حتى أنينه في مرضه.

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن الفضل بن عيسى قال: إذا احتضر الرجل قيل للملك الذي كان يكتب له كُفَّ قال: لا وما يدريني لعله يقول لا إله إلا الله فأكتبها له.

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال: يكتب من المريض كل شيء حتى أنينه في مرضه.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء بن يسار يبلغ به النبي ﷺ قال: إذا مرض العبد قال الله للكرام الكاتبين: اكتبوا لعبدي مثل الذي كان يعمل حتى أقبضه أو أعافيه.

وأخرج ابن أبي شيبة عن سلمان قال: إذا مرض العبد قال الملك: يا رب ابتليت عبدك بكذا فيقول: ما دام في وثاقي فاكثبوا له مثل عمله الذي كان يعمل.

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ قال: إذا ابتلى الله العبد بالسقم قال لصاحب الشمال ارفع، وقال لصاحب اليمين اكتب لعبدي ما كان يعمل.

وأخرج ابن أبي شيبة عن النضر بن أنس قال: كنا نتحدث منذ خمسين سنة، أنه ما من عبد يمرض إلا قال الله لكاتبه: اكتب لعبدي ما كان يعمل في صحته.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي قلابة قال: إذا مرض الرجل على عمل صالح أُجري له ما كان يعمل في صحته. وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة قال: إذا مرض الرجل رفع له كل يوم ما كان يعمل.

وأخرج ابن أبي شيبة عن ثابت عن مسلم بن يسار قال: إذا مرض العبد كتب له أحسن ما كان يعمل في صحته.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مرض أو سافر كتب الله له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً».

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ابتلى الله المؤمن ببلاء في جسده قال للملك: اكتب له صالح عمله الذي كان يعمل، فإن شفاه غسله وطهره، وإن قبضه غفر له ورحمه».

وأخرج أبو الشيخ في العظمة والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ قال: «إن الله وكل بعبده المؤمن ملكين يكتبان عمله، فإذا مات قال الملكان للذنان وُكِّلا به: قد مات فائذن لنا أن نصعد إلى السماء، فيقول الله: سمائي مملوءة من ملائكتي يسبحونني، فيقولان: أنقيم في الأرض؟ فيقول الله: أرضي مملوءة من خلقي يسبحونني، فيقولان: فأين؟ فيقول: قوما على قبر عبدي فسبحاني واحمداني وكبراني واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة». (قلت: لا يصح هذا الحديث، ولكن رحمة الله واسعة).

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحكيم الترمذي عن عمر بن ذر عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عند لسان كل قائل فليتنق الله عبد ولينظر ما يقول».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿١٩﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٢٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢١﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢٢﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عِتِيدٌ ﴿٢٤﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٥﴾ مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٦﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٧﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوهُ لَدَىٰ وَقَدْ قَدَمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٩﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعِيدِ ﴿٣٠﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣١﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَنِفِّينَ غَيْرِ بَعِيدٍ ﴿٣٢﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٣﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٤﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٥﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (فت: ١٩ - ٣٥).

قال في (الدر المنثور): أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ قال: زينت الجنة.

وأخرج ابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن التميمي قال: سألت ابن عباس عن الأواب الحفيظ قال: حفظ ذنوبه حتى رجع عنها.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد في قوله: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ قال: حفظ ذنوبه فتأب منها ذنباً ذنباً.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن سعيد بن المسيب قال: الأواب الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب حتى يختم الله له بالتوبة.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن أنس بن خباب قال: قال لي مجاهد ألا أنبئك بالأواب الحفيظ؟ هو الرجل يذكر ذنبه إذا خلا فيستغفر له.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن عبيد بن عمير مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عبيد بن عمير قال: كنا نعد الأواب الحفيظ الذي يكون في المجلس، فإذا أراد أن يقوم قال: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ قال: مطيع لله ﴿حَفِيطٍ﴾ قال: لما استودعه الله من حقه ونعمه، وفي قوله: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ قال: منيب إلى الله مقبل إليه، وفي قوله: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ قال: سلموا من عذاب الله وسلم الله عليهم، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ قال: خلدوا والله فلا يموتون. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: يخشى ولا يرى. فائدة أنفس من الذهب في قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ (فت: ٣٣). قال الرازي: في الآية لطائف:

الأولى: الخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة، لكن بينهما فرق وهو أن الخشية من عظمة المخشي. وذلك لأن تركيب حروف «خ ش ي» في تقاليبها معنى يلزمه معنى الهيبة يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن وهما جميعاً مهيبان. والخوف خشية من ضعف الخاشي وذلك لأن تركيب «خ و ف» في تقاليبها يدل على الضعف تدل عليه الخيفة والخفية ولولا قرب معناهما لما ورد في القرآن ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأنعام: ٥٥) و﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ (الأنعام: ٢٠٥) والمخفي فيه ضعف كالحائف. إذا علمت هذا تبين لك اللطيفة، وهي أن الله تعالى في كثير من المواضع ذكر لفظ الخشية حيث كان الخوف من عظمة المخشي. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (طه: ٢٨) وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحج: ٢١) فإن الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه وإنما الله عظيم يخشاه كل قوي ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٧) مع أن الملائكة أقوىاء. وقال تعالى: ﴿وَتَخَشَّى النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الأنعام: ٣٧) أي تخافهم إعظاماً لهم

إذ لا ضعف فيك بالنسبة إليهم. وقال تعالى: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ (العنكبوت: ٣٣) أي لا تخف ضعفاً فإنهم لا عظمة لهم. وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ (التبوة: ٣٧) حيث كان عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله ضعيفة. وقال: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ (فصلت: ٣٠) أي بسبب مكروه يلحقكم من الآخرة فإن المكروهات كلها مدفوعة عنكم. وقال تعالى: ﴿خَافِقًا يَرْقُبُ﴾ (القصص: ١٨)، وقال تعالى: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (الشعراء: ١٤) لو حدثه وضعفه. وقال هارون: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ (طه: ٩٤) لعظمة موسى في عين هارون لا لضعف فيه. وقال: ﴿فَخَشِيتَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (الكهف: ٨٠) حيث لم يكن لضعف فيه.

قلت: بل ليدل على أن فعله «قتل الولد» كان من خشية الله بخلاف ما يظهر في ظاهر الأمر).

وحاصل الكلام أنك إذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشي، وإذا نظرت إلى استعمال الخوف وجدته مستعملاً لخشية من ضعف الخائف. وهذا في الأكثر وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية.

الثانية: قال الله تعالى ههنا: ﴿خَشِيَ الرَّحْمَنُ﴾ مع أن وصف الرحمة غالباً يقابل الخشية، إشارة إلى مدح المتقي حيث لم تمنعه الرحمة من الخوف بسبب العظمة.

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١) إشارة إلى ذم الكافر حيث لم تحمله الألوهية التي تنبئ عنها لفظة الله وفيها العظمة على خوفه سبحانه.



سُورَةُ الدَّارِجَاتِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿۱﴾ وَالَّذِينَ دَرَرُوا ﴿۲﴾ فَالْحَمَلَتِ وَقْرًا ﴿۳﴾ فَأَلْجَرِيَتْ يُسْرًا ﴿۴﴾ فَالْمَقْسَدِ أَمْرًا ﴿۵﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿۶﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُوهُ ﴾ (الدَّارِجَاتِ : ۱ - ۶) .

قال ابن عاشور: ومن رشاقة هذا القسم أن فيه مناسبة بين المقسم به والمقسم عليه وهو قوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ ﴿۵﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُوهُ ﴾ فإن أحوال الرياح المذكورة هنا مبدؤها: نفخ، فتكوين، فإحياء، وكذلك البعث مبدؤه: نفخ في الصور، فالتثام أجساد الناس التي كانت معدومة أو متفرقة، فبث الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿۶﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ (الدَّارِجَاتِ : ۷)، فقال: ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾، وفي ذلك دقة بالغة لأن كلمة ﴿ الْحُبُكِ ﴾ تحتل عدة معاني كلها صحيح وكلها تصدق عليه الآية. قال الشنقيطي: ذهب بعض أهل العلم إلى أن الحبك جمع حبيكة أو حباك وعليه فالمعنى: ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾، أي ذات الطرائق، فما يبدو على سطح الماء الساخن أو الرمل من الطرائق إذا ضربته الريح هو الحبك، وهو جمع حبيكة أو حباك، قالوا: ولبعد السماء لا ترى طرائقها المعبر عنها بالحبك. وقال بعض أهل العلم. ذات الحبك أي ذات الخلق الحسن المحكم، وهذا الوجه يدل عليه قول الله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ ﴿۲﴾ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ (الْمُلْكِ : ۳، ۴)، وعلى هذا القول فالحبك مصدر لأن كل عمل أثنه عامله وأحسن صنعه، تقول فيه العرب: حبكه حبكاً بالفتح على القياس. والحبك بالضمين بمعناه، وقال بعض العلماء: ذات الحبك، ذات الزينة، وعلى هذا القول فالآية كقوله: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ﴾ (الْمُلْكِ : ۵)، وقال بعض العلماء: ﴿ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ أي ذات الشدة، وهذا القول يدل له قوله تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ (النَّبَأِ : ۱۲)، والعرب تسمى شدة الخلق حبكاً، وفيه قيل للفرس الشديد الخلق: محبوبك، والآية تشمل الجميع فكل الأقوال حق اهـ.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَحَفْ ۖ وَبَشِّرْهُمْ بِعَلِيمٍ ۝٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ
أَمْرَأَتُهُ فِي صَرْقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ مَجْزُورٌ عَقِيمٌ ۝٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿ (الذَّارِيَاتُ : ٢٨ - ٣١).

وإنما سألهم بعد أن قراهم جرياً على سنة الضيافة أن لا يسأل الضيف عن الغرض
الذي أورده ذلك المنزل إلا بعد استعداده للرحيل كيلا يتوهم سامة مضيفه من نزوله
به، وليعينه على أمره إن كان مستطيعاً، وهم إن كانوا قد بشروه بأمر عظيم إلا أنه لم
يعلم هل ذلك هو قصارى ما جاءوا لأجله، أفاده ابن عاشور.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿ (الذَّارِيَاتُ : ٣٨).

قال ابن عاشور: وعقبت قصة قوم لوط بقصة موسى وفرعون لما بينهما من تناسب
في أن العذاب الذي عذب به الأمتان عذاب أرضي؛ إذ عذب قوم لوط بالحجارة التي
هي من طين، وعذب قوم فرعون بالغرق في البحر. ثم ذكر عاد وثمود وكان عذابهما
سماوياً؛ إذ عذبت عاد بالريح وثمود بالصاعقة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَنَوَّلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (الذَّارِيَاتُ : ٥٤، ٥٥)

قال ابن عاشور: عَطَفَ ﴿ وَذَكَرَ ﴾ على قوله: ﴿ فَنَوَّلَ عَنْهُمْ ﴾ احتراس كي لا يتوهم
أحد أن الإعراض بإبطال للتذكير بل التذكير باقٍ.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿ (الذَّارِيَاتُ : ٥٦).

قال ابن عاشور: وتقديم الجن في الذكر في قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾
للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن، ليعلموا أن الجن عباد الله
تعالى، فهو نظير قوله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾. اهـ.

قلت: يَحْتَمِلُ كذلك أن وجه تقديم الجن هو كونهم أكثر امتناعاً عن الطاعة من
الإنس في الغالب.

سُورَةُ الطُّورِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝١ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝٢ ۞ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(الطُّورُ: ٩ - ١١)

قال في (الظلال): ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝١ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝٢ ۞. ومشهد السماء الثابتة المبنية بقوة وهي تضطرب وتتقلب كما يضطرب الموج في البحر من هنا إلى هناك بلا قوام. ومشهد الجبال الصلة الراسية تسير خفيفة رقيقة لا ثبات لها ولا استقرار أمر مذهل منزلل يدل ضمناً على الهول الذي تمور فيه السماء وتسير منه الجبال، فكيف بال مخلوق الإنساني الصغير الضعيف في ذلك الهول المذهل المخيف؟

وفي زحمة هذا الهول الذي لا يثبت عليه شيء وفي ظل هذا الرعب المزلزل لكل شيء يعاجل المكذبين بما هو أهول وأرعب؛ يعاجلهم بالدعاء عليهم بالويل من العزيز الجبار ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢. والدعاء بالويل من الله حكم بالويل وقضاء فهو أمر لا محالة واقع ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝١٣ وهو كائن حتماً ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝١٤ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٥ ۞ فيتناسب هذا الهول مع ذلك الويل وينصب كله على المكذبين ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٦. ۞

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(الطُّورُ: ١٦)

قال ابن عاشور: وعدى ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ إلى ﴿ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بدون الباء خلافاً لقوله بعده ﴿ كُلُّوْا وَأَشْرَبُوا هَيْئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ليشمل القصر مفعول الفعل المقصور، أي تجزون مثل عملكم لا أكثر منه فينتفي الظلم عن مقدار الجزاء كما انتفى الظلم عن أصله، وهذه الخصوصية لم يعلق معمول الفعل بالباء إذ جعل الجزاء بمنزلة نفس الفعل.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ

عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (الطُّورُ: ٢١).

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

وفي هذا التعليل كنيان: إحداهما أن أهل الكفر مقرونون بجزاء أعمالهم، وثانيتهما أن ذريات المؤمنين الذين ألحقوا بأبائهم في النعيم ألحقوا بالجنة كرامةً لأبائهم ولولا تلك الكرامة لكانت معاملتهم على حسب أعمالهم. وبهذا كان لهذه الجملة وقع أشد حسناً عما سواه مع أنها صارت من حسن التتميم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (النحل: ٢٢، ٢٣). تَأْتِيهِمْ﴾

قال ابن عاشور: والإمداد: إعطاء المدد وهو الزيادة من نوع نافع فيما تحبه، أي زدناهم على ما ذكر من النعيم والأكل والشرب الهنيء فاكهة ولحماً مما يشتهون من الفواكه واللحوم التي يشتهونها، أي لا يؤتى لهم شيء لا يرغبون فيه فكل من منهم ما اشتهى. وخص الفاكهة واللحم تمهيداً لقوله: ﴿يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾، ومنحهم الله في الآخرة لذة نشوة الخمر والمنادمة على شربها لأنها من أحسن اللذات فيما ألفته نفوسهم، وكان أهل الترف في الدنيا إذا شربوا الخمر في الدنيا كسروا سورة حدتها في البطن بالشواء من اللحم ويدفعون لذع الخمر عن أفواههم بأكل الفواكه ويسمونهم النقل - بضم النون - وفتحها - ويكون من ثمار ومقات. ولذلك جيء بقوله: ﴿يَنْزِعُونَ﴾ حالاً من ضمير الغائب في ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ﴾ إلخ. والتنازع أطلق على التداول والتعاطي. وأصله تفاعل من نزع الدلو من البئر عند الاستقاء فإن الناس كانوا إذا وردوا للاستقاء نزع أحدهم دلوه من الماء ثم ناول الدلو لمن حوله. وربما كان الرجل القوي الشديد ينزع من البئر للمستقين كلهم يكفيهم تعب النزاع، ويسمى الماتح بمثناه فوقية. والمعنى: أن بعضهم يصب لبعض الخمر ويناوله إيثاراً وكرامة. وقيل: تنازعهم الكأس مجازة بعضهم كأس بعض إلى نفسه للمداعبة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ﴾ ﴾ (الطُّور: ۲۴).

قال ابن عاشور: وجيء به في صيغة المضارع للدلالة على التجدد والتكرار، أي ذلك لا ينقطع بخلاف لذات الدنيا فإنها لا بد لها من الانقطاع بنهايات تنتهي إليها فتكره لأصحابها الزيادة منها مثل الغول، والإطباق، ووجع الأمعاء من شرب الخمر ومثل الشبع في تناول الطعام وغير ذلك من كل ما يورث العجز عن الازدياد من اللذة ويجعل الازدياد ألماً. ولم يستثن من ذلك إلا لذات المعارف ولذات المناظر الحسنة والجمال. ولما أشعر فعل ﴿ وَيَطُوفُ ﴾ بأن الغلمان يناولونهم ما فيه لذاتهم كان مشعراً بتجدد المناولة وتجدد الطواف وقد صار كل ذلك لذة لا سامة منها. والطواف: مشي متكرر ذهاباً ورجوعاً وأكثر ما يكون على استدارة، ومنه طواف الكعبة، وطواف أهل الجاهلية بالأصنام ولأجله سمي الصنم دوراً لأنهم يدورون به. وسمي مشي الغلمان بينهم طوافاً لأن شأن مجالس الأحبة والأصدقاء أن تكون حلقة ودوائر يستوي في مرآهم كما أشار إليه في قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿ عَلَى سُرُرٍ مُّقَبَّلِينَ ﴾. ومنه جعلت مجالس الدروس حلقات وكانت مجالس النبي ﷺ حلقاتاً.

﴿ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الطُّور: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ ﴾ (الطُّور: ۲۹)، وقال في سورة القلم: ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ ﴾ (القلم: ۲)، فزاد قوله: ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ على ما في سورة القلم فما سبب ذلك؟ قال د. فاضل: والجواب أن هناك أكثر من سبب دعا إلى هذه الزيادة. منها: أنه ذكر في سورة الطور قوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴾ والاستماع مما تدعيه الكهنة لتابعيهم من الجن فناسب ذلك ذكر الكهنة فيها. ومنها: أنه ذكر السحر في سورة الطور فقال: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ فناسب ذكر السحر ذكر الكهنة.

سُورَةُ النَجْمِ

فائدة : قال أبو حيان عن سورة النجم: هذه السورة مكية ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة لأنه سبحانه قال في الطور: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ ﴾ أي اختلق القرآن ونسبوه إلى الشعر وقالوا: هو كاهن ومجنون فأقسم تعالى أنه ﷺ ما ضل وأن ما يأتي به هو وحي من الله.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِنَا فِي صُحُفٍ مُّوسَى ﴾ (النجم: ٣٦، ٣٧).

قال أبو حيان: وخص هذين النبيين عليهما أفضل الصلاة والسلام، قيل: لأنه ما بين نوح وإبراهيم كانوا يأخذون الرجل بأبيه وابنه وعمه وخاله والزوج بامرأته والعبد بسيده فأول من خالفهم إبراهيم، ومن شريعة إبراهيم إلى شريعة موسى ﷺ عليهما كانوا لا يأخذون الرجل بجريمة غيره.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ (النجم: ٤٥، ٤٦).

قال ابن عاشور: و﴿ تُنثَى ﴾ تدفق وفسروه بمعنى تقذف أيضاً. وبني فعل ﴿ تُنثَى ﴾ إلى المجهول لأن النطفة تدفعها قوة طبيعية في الجسم خفية، فكان فاعل الإماء مجهولاً لعدم ظهوره. والتقيد بـ ﴿ إِذَا تُنثَى ﴾ لما في اسم الزمان من الإيذان بسرعة الخلق عند دفع النطفة في رحم المرأة فإنه عند التقاء النطفتين يبتدئ تخلق النسل فهذه إشارة إلى أن البويضة التي هي نطفة المرأة حاصلة في الرحم فإذا أُمْنِيت عليها نطفة الذكر أخذت في التخلق إذا لم يعقها عائق. ثم لما في فعل ﴿ تُنثَى ﴾ من الإشارة إلى أن النطفة تقطر وتصب على شيء آخر لأن الصب يقتضي مصوباً عليه فيشير إلى أنّ التخلق إنما يحصل من انصباب النطفة على أخرى، فعند اختلاط المائتين يحصل تخلق النسل فهذا سر التقيد بقوله: ﴿ إِذَا تُنثَى ﴾. وكان مقتضى الظاهر من التنظير أن يقدم قوله: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى

وَأَقْنَى ﴿ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾ لما في قوله: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَعْنَى وَأَقْنَى ﴾ من الامتنان وإظهار الاقتدار المناسبين لقوله: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿ (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ ﴾ إلخ. إذ ينتقل من نعمة الخلق إلى نعمة الرزق كما في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ ولكن عدل عن ذلك على طريقة تشبه الاعتراض ليقرن بين البيانين ذكر قدرته على النشاطين. اهـ.

قلت: قوله «البويضة التي هي نطفة المرأة» فيه نظر، إذ نطفتها هي ماؤها.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ﴾ ﴾ (الجنَّة: ٤٧).

قال أبو حيان: وجاء بلفظ ﴿ عَلَيْهِ ﴾ المشعرة بالتحتم لوجود الشيء؛ لَمَّا كانت هذه النشأة ينكرها الكفار بولغ بقوله: ﴿ عَلَيْهِ ﴾ بوجودها لا محالة وكأنه تعالى أوجب ذلك على نفسه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَرَفَتِ الْأَرْفَةَ ﴾ ﴾ (الجنَّة: ٥٧).

قال ابن عاشور: وتأنيث ﴿ الْأَرْفَةَ ﴾ بتأويل الواقعة، أو الحادثة، كما يقال: نزلت به نازلة، أو وقعت الواقعة، وغشيته، فالعرب يستعملون التأنيث دلالة على المبالغة في النوع، ولعلهم راعوا أن الأنثى مصدر كثرة النوع. والتعريف في ﴿ الْأَرْفَةَ ﴾ تعريف الجنس، ومنه زيادة تهويل بتميز هذا الجنس من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبر في المخلص منه نظير التعريف في ﴿ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وقولهم: أرسلها العراك.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ ﴾ (الجنَّة: ٦٢).

قال في (الظلال): لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا السجود. ويخطر لي احتمال أنه لم يقع؛ وإنما هي رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو

شهرين أو ثلاثة. وهو أمر يحتاج إلى التعليل. وبينما أنا كذلك وقعت لي تلك التجربة الشعورية الخاصة التي أشرت إليها من قبل.. كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب، يتلو سورة النجم. فانقطع بيننا الحديث، لنستمع وننصت للقرآن الكريم. وكان صوت القاريء مؤثراً وهو يرتل القرآن ترتيلاً حسناً. وشيئاً فشيئاً عشت معه فيما يتلوه. عشت مع قلب محمد ﷺ في رحلته إلى الملاء الأعلى. عشت معه وهو يشهد جبريل ﷺ في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها. ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله! وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة. عند سدره المنتهى. وجنة المأوى. عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي، وتخلق بي رؤاي، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي.. وتابعته في الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوئتها.. إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة، التي تتهاوى عند اللمسة الأولى. ووقفت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض، وأمام الأجنة في بطون الأمهات. وعلم الله يتابعها ويحيط بها. وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة.. الغيب المحجوب لا يراه إلا الله. والعمل المكتوب لا يند ولا يغيب عن الحساب والجزاء. والمنتهى إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد. والحشود الضاحكة والحشود الباكية. وحشود الموتى. وحشود الأحياء. والنطفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هي ذكر أو أنثى. والنشأة الأخرى. ومصارع الغابرين.

﴿وَأَمُوزِفَكَةَ أَهْوَى ۖ فَغَشَّاهَا مَا عَشَى ۚ﴾! واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهية: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَى ۖ﴾ ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ ۖ﴾ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۖ﴾.. ثم جاءت الصيحة الأخيرة. واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب: ﴿أَفَنُنْزِلُ هَذَا الْخَبِيرَ نَعْجُونَ ۖ﴾ ﴿وَصَحْكُونَ وَلَا نَبُكُونَ ۖ﴾ ﴿وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ ۖ﴾. فلما سمعت: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۖ﴾.. كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقاً إلى أوصالي. واستحالت رجفة عضلية مادية ذات

مظهر مادي، لم أملك مقاومته. فظل جسمي كله يختلج، ولا أتمالك أن أثبته، ولا أن أكفكف دموعاً هاتئة، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة !

وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح، وأن تعليله قريب. إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة. ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها. ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع، وكانت مني هذه الاستجابة.. وذلك سر القرآن.. فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة؛ وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير. فيكون منها ما يكون!

لحظة كهذه مست قلوب الحاضرين يومها جميعاً. ومحمد يقرأ هذه السورة يقرؤها بكيانه كله. ويعيش في صورها التي عاشها من قبل بشخصه. وتنصب كل هذه القوة الكامنة في السورة من خلال صوت محمد ﷺ في أعصاب السامعين. فيرتجفون ويسمعون: ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ ويسجد محمد والمسلمون.. فيسجدون..



سُورَةُ الْقَبَسِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ ﴾ (الْقَبَسِ: ٩).

قال ابن عاشور: و ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ معطوف على ﴿ وَقَالُوا ﴾ وهو افتعل من الزجر. وصيغة الافتعال هنا للمبالغة مثلها: افتقر واضطر.

ونكتة بناء الفعل للمجهول هنا للتوصل إلى حذف ما يسند إليه فعل الازدجار المبني للفاعل وهو ضمير ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ فعدل عن أن يقال: وازدجروه، إلى قوله: ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ محاشاة للدال على ذات نوح وهو ضمير من أن يقع مفعولاً لضميرهم. ومرادهم أنهم ازدجروه، أي نهوه عن ادعاء الرسالة بغلظة قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِتَّكَ لِرَبِّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾، وقالوا: ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ ﴾ (الْقَبَسِ: ١٧).

قال في (الدر المنثور): أخرج آدم بن أبي إياس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ قال: هوّا قراءته.

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ قال: لولا أن الله يسره على لسان آدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله. وأخرج الديلمي عن أنس مرفوعاً مثله.

وأخرج ابن المنذر عن ابن سيرين أنه مر برجل يقول: سورة خفيفة. قال: لا تقل سورة خفيفة، ولكن قل سورة ميسرة لأن الله يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ قال: هل من متذكر. وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب في قوله: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ قال:

هل من منزجر عن المعاصي. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ قال: هل من طالب خير يعان عليه؟

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر عن مطر الوراق في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسْرَنَا الْفُرْءَانُ لِلَّذِ كْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ قال: هل من طالب علم فيعان عليه؟.

- قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ (التَنْكِحُ: ٥٤)، فقال: ﴿وَنَهْرٍ﴾ ولم يقل: «أنهار» كما في الآيات الأخرى: ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، قال د. فاضل مبيناً وجه ذلك: أن النهر اسم جنس بمعنى الأنهار وهو بمعنى الجمع وقد يؤتى بالواحد للدلالة على الجمع والكثرة ومنه قوله ﷺ: «أهلك الناس الدينار والدرهم».. والمراد بالدينار والدرهم الجنس لا الواحد. وجاء في «معاني القرآن» للفراء: ... وَنَهْرٌ معناه أنهار وهو في مذهبه كقوله: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ وزعم الكسائي أنه سمع العرب يقولون: أتينا فلاناً لحمة ونبيزة فوحد ومعناه الكثير.

ومنها أن معاني «النهر» أيضاً السعة. والسعة ههنا عامة تشمل سعة المنازل وسعة الرزق والمعيشة وكل ما يقتضي تمام السعادة والسعة فيه جاء في «البحر المحيط» وَنَهْرٌ: سَعَةٌ في الأرزاق والمنازل. وجاء في «روح المعاني» وعن ابن عباس تفسيره بالسعة ... والمراد بالسعة سعة المنازل على ما هو الظاهر وقيل سعة الرزق والمعيشة وقيل ما يعمهما.

ومنها أن من معاني «النهر» أيضاً الضياء جاء في «لسان العرب» وأما قوله - عز وجل - : ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ فقد يجوز أن يعني به السعة والضياء وأن يعني به النهر الذي هو مجرى الماء على وضع الواحد موضع الجميع. وقيل في قوله: ﴿جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ أي في ضياء وسعة لأن الجنة ليس فيها ليل إنما هو نور يتلأأ.. وجاء في «معاني القرآن» للفراء: .. ويقال: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ في ضياء وسعة وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة.

فائدة: قال أبو حيان: قيل: وفائدة تكرار ﴿وَلَقَدْ يَسْرَنَا الْفُرْءَانُ﴾، وقوله: ﴿فَكَيْفَ

كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ التجرد عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين للاتعاظ واستئناف التيقظ

إذا سمعوا الحث على ذلك لثلا تستولي عليهم الغفلة. وهكذا حكم التكرير لقوله: ﴿ فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن، وقوله: ﴿ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ عند كل آية أوردتها في سورة المرسلات وكذلك تكرير القصص في أنفسها لتكون العبرة حاضرة للقلوب المذكورة في كل أوان.

❁ قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ ثمود: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ ۖ فَادَّوَأُ صَاحِبُهُمْ فَنَعَاطَى فَعَقَرَ ۖ ﴾ (القصص: ٢٨، ٢٩)، فقال: ﴿ فَنَعَاطَى ﴾ للدلالة على اشتراك الجميع في هذه الجريمة بأخصر لفظ وأدق أسلوب، قال أبو حيان: تعاطى هو مطاوع عاطى، وكأن هذه الفعلة تدافعها وعاطاها بعضهم بعضاً فتعاطاها «قدار» وتناول العقر بيده أ.هـ.

قلت: ولذا - والله أعلم - قال في آيات أخر: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ (الأعراف: ٧٧)، وقال: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ (هود: ٦٥)، وقال: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٥٧)، فنسب العقر إليهم جميعاً.



سُورَةُ الرَّحْمَنِ

قال أبو حيان: ومناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه لما ذكر مقر المتقين في جنات ونهر عند مليك مقتدر ذكر في سورة الرحمن شيئاً من آيات الملك وآثار القدرة ثم ذكر مقر الفريقين على جهة الإسهاب إذ كان في آخر السورة ذكره على جهة الاختصار والإيجاز ولما ذكر قوله: ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ فأبرز هاتين الصفتين بصورة التنكير فكأنه قيل: من المتصف بذلك؟ فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ فذكر ما نشأ عن صفة الرحمة وهو تعليم القرآن الذي هو شفاء للقلوب.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (الرَّحْمَنُ: ٤٦).﴾

قال في (الدر المنثور): وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه ذكر ذات يوم وفكر في القيامة والموازين والجنة والنار وصفوف الملائكة وطبى السموات ونسف الجبال وتكوين الشمس وانتشار الكواكب، فقال: وددت أني كنت خضراء من هذا الخضر تأتي عليّ بهيمة فتأكلني وأنا لم أخلق، فنزلت هذه الآية ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ قال: وعد الله المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدوا فرائضه الجنة.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ يقول: خاف ثم اتقى، والخائف من ركب طاعة الله وترك معصيته.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وهناد وابن أبي الدنيا في التوبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ قال: هو الرجل يهتم بالمعصية فيذكر مقامه فينزع عنها.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رحمته الله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ قال: من خاف مقام الله عليه.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد رحمته الله في الآية قال: الرجل يريد الذنب فيذكر الله فيدع الذنب.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رحمته الله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ قال: إن المؤمنين خافوا ذلك المقام فعملوا لله ودأبوا ونصبوا له بالليل والنهار. وأخرج ابن جرير عن إبراهيم رحمته الله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ قال: إذا أراد أن يذنب أمسك مخافة الله.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود رحمته الله ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ قال: لمن خافه في الدنيا.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهَا فَكَّهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾﴾ (التَّحْنُوتُ : ٦٨)، فقال: ﴿وَنَخْلٌ﴾ ولم يقل: «النخيل»، وذلك لأنَّ ﴿وَنَخْلٌ﴾ اسم جنس فهو أعم وأشمل من النخيل، فناسب أن يقول عن نخل الجنة ذلك، ولذا أيضاً قال عن عاد: ﴿تَنْزِعُ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (الْقَصَصُ : ٢٠)، وقال: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (الْحَقْلَةُ : ٧)، فقال: ﴿نَخْلٌ﴾ ليدل على عظم خلقهم ومع ذلك أبادهم الله، وعادٌ معروفةٌ أهلها بعضُ الخلقة حتى قيل للرجل شديد الطول عظيم الخلقة «رجلٌ عادي»، وكذا في قول فرعون للسحرة لما آمنوا: ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ (طَلْحَةُ : ٧١)، فقال: ﴿النَّخْلِ﴾ ولم يقل: «النخيل» ليدل على أنَّ فرعون - لعنه الله - هددهم بأنه سيصلبهم على النخل العظيم مبالغةً في النكاية بهم.

ولما كانت آيات سورة عبس في سياق بيان عظيم كفر الكافر مع عظيم نعم الله عليه ناسب أن يقول سبحانه: ﴿وَنَخْلًا﴾ دون «ونخيلًا»؛ قال تعالى: ﴿قَدْ لَإِإِنْسُنُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ (٧)

مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ، ۱۸) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ، ۱۹) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ، ۲۰) ثُمَّ أَمَانَهُ، فَأَقْبَرَهُ، ۲۱) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ، ۲۲) كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ، ۲۳) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، ۲۴) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ۲۵) ثُمَّ شَقَقْنَاهُ الْأَرْضَ شَقًّا، ۲۶) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، ۲۷) وَعَنْبًا وَقَضْبًا، ۲۸) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿عَبَسَ: ۱۷ - ۲۹﴾.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿نَبِّرْكَ أَتَمُّ رَيْكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾﴾ (التَّحْنُوتُ: ۷۸).

قال أبو حیان: ولما ختم تعالی نعم دنیا بقوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَيْكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ختم نعم الآخرة بقوله: ﴿نَبِّرْكَ أَتَمُّ رَيْكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾. وناسب هنالك ذكر البقاء والديمومة له تعالی إذ ذكر فناء العالم. وناسب هنا ذكر ما اشتق من البركة وهي النمو والزيادة إذ جاء ذلك عقب ما امتن به على المؤمنين وما آتاهم في دار كرامته وزيادته وديمومته وذو الجلال والإكرام من الصفات التي جاء في الحديث أن يُدعى الله بها قال ﷺ: «أَلْظُوا بِيَاذَا الْجَلالَ وَالْإِكْرَامَ».



سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿ ١ ﴾ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ﴿ ٢ ﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ ﴾ (الوَاقِعَةُ: ١ - ٣)،

فقال: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ دون بيان للمخفوض والمرفوع، ليكون أدلّ على أكثر من معنى كلها حقّ وتشمله الآية، وهذا من دقة القرءان.

قال الشنقيطي: قال بعض العلماء: تقديره: هي خافضة أقواماً في دركات النار، رافعة أقواماً إلى الدرجات العلى إلى الجنة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (النَّبَأُ: ١٤٥)، وقال: ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ (٧٥) جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿ (طَلْحُ: ٧٥، ٧٦).

وقال بعض العلماء: تقديره: خافضة أقواماً كانوا مرتفعين في الدنيا رافعة أقواماً كانوا منخفضين في الدنيا. وهذا المعنى يشهد له قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿ ٣٠ ﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿ ٣١ ﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿ ٣٢ ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿ ٣٣ ﴾ فَأَلْوَمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿ ٣٤ ﴾ عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ ﴿ (المُطَفِّفِينَ: ٢٩ - ٣٥).

وقال بعض العلماء: تقديره: خافضة بعض الأجرام التي كانت مرتفعة كالنجوم التي تسقط وتتناثر يوم القيامة، وذلك خفض لها بعد أن كانت مرتفعة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴾ (الانْفِطَارُ: ٢). ورافعة: أي رافعة بعض الأجرام التي كانت منخفضة كالجبال التي ترفع من أماكنها وتسير بين السماء والأرض، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ (الْكَهْفُ: ٤٧). اهـ.

قلت: كلها معانٍ صحيحة وحق، وقد دلّ عليها إيهام قوله: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾، والله أعلم. وقال الزمخشري: قوله تعالى: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾. مرفوع على: هي خافضة رافعة، ترفع أقواماً وتضع آخرين: إما وصفاً لها بالشدة؛ لأن الوقاعات العظام كذلك:

یرتفع فیہا ناس إلى مراتب ویتضع ناس، وإما لأن الأشقیاء یحطون إلى الدركات، والسعداء یرفعون إلى الدرجات؛ وإما لأنها تزلزل الأشياء وتزیلها عن مقارها، فتخفض بعضاً وترفع بعضاً: حیث تسقط السماء کسفاً وتنتثر الکواکب وتنکدر وتسير الجبال فتمرّ فی الجو مرّ السحاب.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا رُحَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴾ (الزَّحْرَفَةُ: ٤، ٥)، فقال: ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴾ للدلالة على عدة معانٍ یحتملها قوله: ﴿ وَبُسَّتِ ﴾ وكلها حق، ولا یدل على هذه المعانی العظيمة مجتمعة غیر قوله: ﴿ وَبُسَّتِ ﴾. قال الشنقيطی: قال أكثر المفسرین: ﴿ وَبُسَّتِ ﴾ أي فتت تفتیتاً حتى صارت کالبسیسة، وهي دقیق ملتوت بسمن، وهذا الوجه یشهد له قرآن کقوله: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ (المزمل: ١٤)، فقوله: ﴿ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ أي رملاً متهايلاً.

والوجه الثاني: أن معنى بسها سیرها بین السماء والأرض، وعلى هذا فالمراد ببسها سوقها وتسیرها من قول العرب: بست الإبل أبسها بضم الباء، وأبستها أبسها بضم الهمزة وكسر الباء، لغتان بمعنی سقتها، ویشهد لهذا الوجه قوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ ﴾ (الكَهْفُ: ٤٧)، وقوله: ﴿ وَتُسِرُّ الْجِبَالَ سِرًّا ﴾ (الطُّورُ: ١٠). الوجه الثالث: أن معنى قوله: ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴾ نزعت من أماكنها وقلعت، وهذا الوجه راجع للوجه الأول. اهـ. باختصار.

فائدة: قال الشنقيطی: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ (الزَّحْرَفَةُ: ٥)، وأصل العهن أخص من مطلق الصوف لأنه الصوف المصبوغ خاصة، قال بعضهم: الجبال منها ﴿ جُدُودٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾، فإذا بست وفتتت يوم القيامة وطيرت فی الجو أشبهت العهن إذا طيرته الريح فی الهواء.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ ﴾ (الزَّحْرَفَةُ: ١٠).

قال ابن عاشور: وقوله: ﴿السَّيِّقُونَ﴾ ثانياً يجوز جعله خبراً عن ﴿السَّيِّقُونَ﴾ الأول كما أخبر عن أصحاب الميمنة بأنهم ﴿مَا أَصْحَبَ الْمَيْمَنَةَ﴾ لأنه يدل على وصفهم بشيء لا يكتنه كنهه بحيث لا يفي به التعبير بعبارة غير تلك الصفة إذ هي أقصى ما يسعه التعبير، فإذا أراد السامع أن يتصور صفاتهم فعليه أن يتدبر حالهم، وهذا على طريقة قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. ويجوز جعله تأكيداً للأول. فمآل جملة ﴿فَأَصْحَبَ الْمَيْمَنَةَ مَا أَصْحَبَ الْمَيْمَنَةَ﴾ ونظيرتها ﴿وَأَصْحَبَ الْمَشْأَمَةَ مَا أَصْحَبَ الْمَشْأَمَةَ﴾ وجملة ﴿وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ﴾ هو التعجب من حالهم وطريقه وهو الكناية ولكن بين الكنيتين فرقاً؟ إحداهما كانت من طريق السؤال عن الوصف، والأخرى من طريق تعذر التعبير بغير ذلك الوصف. والمعنى: أن حالهم بلغت منتهى الفضل والرفعة بحيث لا يجد المتكلم خبراً يخبر به عنهم أدل على مرتبتهم من اسم ﴿السَّيِّقُونَ﴾ فهذا الخبر أبلغ في الدلالة على شرف قدرهم من الإخبار بـ ﴿مَا﴾ الاستفهامية التعجبية في قوله: ﴿مَا أَصْحَبَ الْمَيْمَنَةَ﴾ مع ما في اشتقاق لقبهم من السبق من الدلالة على بلوغهم أقصى ما يطلبه الطالبون. وحذف متعلق ﴿السَّيِّقُونَ﴾ في الآية لقصد جعل وصف ﴿السَّيِّقُونَ﴾ بمنزلة اللقب لهم، وليفيد العموم، أي أنهم سابقون في كل ميدان تتسابق إليه النفوس الزكية كقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (الزَّافَرَةُ: ٦٠).

قال ابن عاشور: فهذا وجه التعبير بـ ﴿قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ﴾ دون: نحن نميتكم، أي أن الموت مجعول على تقدير معلوم مراد، مع ما في مادة ﴿قَدَرْنَا﴾ من التذكير بالعلم والقدرة والإرادة لتوجه أنظار العقول إلى ما في طي ذلك من دقائق وهي كثيرة، وخاصة في تقدير موت الإنسان الذي هو سبيل إلى الحياة الكاملة إن أخذ أهلها أسبابها. وفي كلمة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ معنى آخر، وهو أن الموت يأتي على أحادهم تداولاً

وتناوباً، فلا يفلت واحد منهم ولا يتعين لحلوله صنف ولا عمر فأذن ظرف «بين» بأن الموت كالشيء الموضوع للتوزيع لا يدري أحدهم متى يصيبه قسطه منه، فالناس كمن دعوا إلى قسمة مال أو ثمر أو نعم لا يدري أحد متى ينادى عليه ليأخذ قسمه، أو متى يطير إليه قطه. ولكنه يوقن بأنه نائله لا محالة. وبهذا كان في قوله: ﴿يَبْنِكُمُ الْمَوْتَ﴾ استعارة مكنية إذ شبه الموت بمقسوم ورمز إلى المشبه به بكلمة ﴿يَبْنِكُمُ﴾ الشائع استعمالها في القسمة، قال تعالى: ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾. وفي هذه الاستعارة كناية عن كون الموت فائدة ومصلحة للناس أما في الدنيا فلئلا تضيق بهم الأرض والأرزاق وأما في الآخرة فللجزاء الوفاق.

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة تقوي الحكم وتحقيقه، والتحقيق راجع إلى ما اشتمل عليه التركيب من فعل ﴿قَدَرْنَا﴾ وظرف ﴿يَبْنِكُمُ﴾ في دلالتها على ما في خلق الموت من الحكمة التي أشرنا إليه.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾﴾ (الْغَافِقَةُ: ٧٣).

فيه لطيفة وهي أن الله تعالى قدم كونها ﴿تَذْكِرَةً﴾ على كونها ﴿وَمَتَاعًا﴾ ليعلم العبد أن الفائدة الأخروية أتم وبالذكر أهم. أفاده الرازي.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾﴾ (الْغَافِقَةُ: ٧٧).

وصف القرآن بأنه كريم في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ فيه ميزة وهي أن الكلام إذا قرئ وتردد كثيراً يهون في الأعين والآذان ولهذا ترى من قال شيئاً في مجلس الملوك لا يذكره ثانياً ولا يكرره فقوله تعالى: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي لا يهون بكثرة التلاوة أبد الدهر كاللحلام الغض والحديث الطري. قاله الرازي.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾﴾ (٧٥) ﴿وَلَئِنَّهُ لَفَسَّمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (٧٦)

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (٧٨) ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرَ لَكُمْ ۖ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٥﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٦﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٧﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٨﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٨٩﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الصَّالِينَ ﴿٩١﴾ فَزُلٌّ مِنَ حِمِيمٍ ﴿٩٢﴾ وَنَصْلِيَّةٌ بَجِيمٍ ﴿٩٣﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٤﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿الْوَاقِعَةُ: ٧٥ - ٩٦﴾.

قال في (الظلال): ثم يأتي (المقطع) الأخير في السورة «لحظة الموت» اللمسة التي ترجف لها الأوصال واللحظة التي تنهي كل جدال واللحظة التي يقف فيها الحي بين نهاية طريق وبداية طريق حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص.

﴿ أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرَ لَكُمْ ۖ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٥﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٦﴾. أفأنتم شاكون في هذا الحديث الذي يقال لكم عن النشأة الآخرة مكذبون بالقرآن وما يقصه عليكم من شأن الآخرة وما يقرره لكم من أمور العقيدة. ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ فإذا التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدخرونه لآخرتكم وما أسوأه من رزق فماذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الروح الحلقوم وتقفون في مفرق الطريق المجهول. ثم يصور الموقف التصوير القرآني الوحي الذي يرسم ظلال الموقف كلها في لمسات سريعة ناطقة بكل ما فيه وبكل ما وراءه وبكل ما يوحيه.

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرَ لَكُمْ ۖ. إنا لنكاد نسمع صوت الحشرة ونبصر تقبض الملامح ونحس الكرب والضيق من خلال قوله: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول البأس في ملامح الحاضرين من خلال قوله: ﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴾.

هنا في هذه اللحظة وقد فرغت الروح من أمر الدنيا وخلفت وراءها الأرض ومن فيها وهي تستقبل عالماً لا عهد لها به ولا تملك من أمره شيئاً إلا ما ادخرت من عمل وما كسبت من خير أو شر. وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى وقد انفصلت عمن حولها وما حولها. الجسد هو الذي يراه الناظرون ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئاً. هنا تقف قدرة البشر ويقف علم البشر وينتهي مجال البشر. هنا يعرفون ولا يجادلون أنهم عجزة.. عجزة قاصرون.. قاصرون. هنا يسدل الستار دون الرؤية ودون المعرفة ودون الحركة. هنا تتفرد القدرة الإلهية والعلم الإلهي ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾. وهنا يجلل الموقف جلال الله ورهبة (معيته) سبحانه وتعالى «وهو (معنا) في كل وقت» ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التي يغفل عنها البشر. فإذا مجلس الموت تجلله (الرغبة والجلال) فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع - وفي ظل هذه المشاعر الواجعة الراجعة - الآسية الأسفة يحییء التحدي الذي يقطع كل قول وينهي كل جدال ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ (٨١) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿. فلو كان الأمر كما تقولون إنه لا حساب ولا جزاء فأنتم إذاً طلقاء غير مدینین ولا محاسبین فدونكم إذاً الروح فلترجعونها وقد بلغت الحلقوم لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء وأنتم حولها تنظرون وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون. هنا تسقط كل تعلة وتنقطع كل حجة ويبطل كل محال وينتهي كل جدال ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشري. فلا يصمد له إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل ثم يمضي السياق في بيان مصير هذه الروح الذي يترأى لها من بعيد حين تبلغ الحلقوم وتستدبر الحياة الغائبة وتستقبل الحياة الباقية وتمضي إلى الدينونة التي يكذب بها المكذبون. ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرِينَ ﴾ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ

الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿١٢﴾ فَنُزِّلُ مِنْ حَمِيمٍ ﴿١٣﴾ وَنَصْلِيَّةً بَهِيمٍ ﴿١٤﴾. وقد مرت بنا في أول السورة صور من نعيم المقربين. فالروح هنا ترى علائم هذا النعيم الذي ينتظرها ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٍ﴾ والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة وتلقي ظلال الراحة الحلوة والنعيم اللين والأنس الكريم.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ فإلتفت بالخطاب إليه يبلغه سلام إخوانه من أصحاب اليمين. وما أندى السلام ساعتئذ وما أحبه حين يتلقاه وقد بلغت الحلقة فيطمئن باله. ويشعر بالأنس في الصحبة المقبلة مع أصحاب اليمين. ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿١٢﴾ فَنُزِّلُ مِنْ حَمِيمٍ ﴿١٣﴾ وَنَصْلِيَّةً بَهِيمٍ ﴿١٤﴾. وما أسوأه نزلاً ومثوى ذلك الحميم الساخن وما أشده عذاباً ذلك الجحيم. يترأى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين.



سُورَةُ الْحَادِثِ

قال أبو حيان: ومناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة لأنه تعالى أمر بالتسبيح ثم أخبر أن التسبيح المأمور به قد فعله والتزمه كل من في السموات والأرض وأتى سبح بلفظ الماضي ويسبح بلفظ المضارع وكله يدل على الديمومة والاستمرار وأن ذلك ديدن من في السموات والأرض.

سُورَةُ الْمُجَانِزَةِ

- قَالَ تَعَالَى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (المجانزة: ٦).

قال أبو حامد الغزالي: لو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتألت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والممكن يحفظان عليه ذلك.



سُورَةُ الْحَشْرِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾ ﴾ (الحشر: ٢٠)، فقدم ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ في الذكر لبيان لأول وهلة أنّ النقص جاء من جهتهم كما في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَتُ وَالنُّورُ ﴾ (الرعد: ١٦)، أفاده أبو السعود.

قلت: وجه ذلك أنّ التفاوت الذي يحصل بين شيئين قد يكون لزيادة جانب أحدهما دون أن يكون في الجانب الآخر نقص، فلما قدّم ذكر أهل النار دلّ على وجود النقص من جانبهم.

- قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ (الحشر: ٢٣).

قال ابن عاشور: وعقب بـ ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ وصف ﴿ الْمَلِكُ ﴾ للاحتراس إشارة إلى أنه منزّه عن نقائص الملوك المعروفة من الغرور، والاسترسال في الشهوات ونحو ذلك من نقائص النفوس. و﴿ السَّلَامُ ﴾ مصدر بمعنى المسالة وصف الله تعالى به على طريقة الوصف بالمصدر للمبالغة في الوصف، أي ذو السلام، أي السلامة، وهي أنه تعالى سَلَامَ الخلق من الظلم والجور. وفي الحديث: «إن الله هو السلام ومنه السلام». وبهذا ظهر تعقيب وصف ﴿ الْمَلِكُ ﴾ بوصف ﴿ السَّلَامُ ﴾ فإنه بعد أن عقب بـ ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ للدلالة على نزاهة ذاته، عقب بـ ﴿ السَّلَامُ ﴾ للدلالة على العدل في معاملته الخلق، وهذا احتراس أيضاً. و﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ اسم فاعل من آمن الذي همزته للتعدية، أي جعل غيره آمناً. فالله هو الذي جعل الأمان في غالب أحوال الموجودات، إذ خلق نظام للمخلوقات بعيداً عن الأخطار والمصائب، وإنما تعرض للمخلوقات المصائب بعوارض تتركب من تقارن مصالح، فيرجح أحوالها ويخص أدناها، وقد تأتي من جراء

أفعال الناس. وذكر وصف ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ عقب الأوصاف التي قبله إتمام للاحتراس من توهم وصفه تعالى بـ ﴿الْمَلِكُ﴾. أنه كالمملك المعروفين بالتقاض. فأفيد أولاً نزاهة ذاته بوصف ﴿الْقُدُّوسُ﴾ ونزاهة أفعاله المغيية عن الغدر والكيد بوصف ﴿الْمُؤْمِنُ﴾، ونزاهة أفعاله الظاهرة عن الجور والظلم بوصف ﴿السَّلَامُ﴾ وتعقيب ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ بـ ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ لدفع توهم أن تأمينه عن ضعف أو عن مخافة غيره، فأعلموا أن تأمينه لحكمته مع أنه رقيب مطلع على أحوال خلقه فتأمينه إياهم رحمة بهم. ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث عقب صفة ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ أن جميع ما ذكره آنفاً من الصفات لا يؤذن إلا باطمئنان العباد لعناية ربهم بهم وإصلاح أمورهم وأن صفة ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ تؤذن بأمر مشترك فعقت بصفة ﴿الْعَزِيزُ﴾ ليعلم الناس أن الله غالب لا يعجزه شيء. واتبعت بصفة ﴿الْجَبَّارُ﴾ الدالة على أنه مسخر المخلوقات لإرادته ثم صفة ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الدالة على أنه ذو الكبرياء يصغر كل شيء دون كبريائه؛ فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت قبلها في جانب الإطماع.



سُورَةُ الصَّفِّ

قال أبو حيان: ومناسبتها لآخر السورة قبلها أن في آخر تلك ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ فاقضى ذلك إثبات العداوة بينهم فحضر تعالى على الثبات إذ ألقى المؤمنون في الحرب أعداءهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيُشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصَّفِّ: ١٣)، فقال: ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ ولم يقل: «قريبان» ليدل على أن النصر هاهنا هو هو الفتح وهو النصر الحسي، وإلا فنصر الإسلام - النصر المعنوي - قائم لم ينقطع، فمنهجه منصور أبداً، ولو قال: «قريبان» لربما توهم متوهم أن نصر المنهج غير واقع أيضاً.



سُورَةُ الْجُمُعَةِ

قال أبو حيان: ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ذكر تأييد من آمن على أعدائهم أتبعه بذكر التنزيه لله تعالى وسعة ملكه وتقديسه وذكر ما أنعم به على أمة محمد ﷺ من بعثته إليهم وتلاوته عليهم كتابه وتركيبتهم فصارت أمته غالبية سائر الأمم قاهرة لها منتشرة الدعوة كما انتشرت دعوة الحواريين في زمانهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الْجُمُعَةُ: ٢).

قال البقاعي مبيناً وجه تقديم ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ في سورتي الجمعة وآل عمران: ولما ذكر سبحانه في سورة الجمعة بعثه في الأميين عامة اقتضى المقام تقديم التزكية التي رأسها البراءة من الشرك الأكبر ليقبلوا ما جاءهم من العلم. وأما تقديمها في آل عمران مع ذكر البعث للمؤمنين فلاقتضاء الحال بالمعاتبه على الإقبال على الغنائم الذي كان سبب الهزيمة لكونها إقبالاً على الدنيا التي هي أمّ الأدناس.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا النَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

(الْجُمُعَةُ: ٥)

قال الضحاك: كتباً لا يدري ما فيها ولا يدري ما هي! هذا مثل ضربه الله لهذه الأمة أي وأنتم إن لم تعملوا بهذا الكتاب كان مثلكم كمثلهم.

وقال القرطبي في قوله ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾: قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زبيل فهكذا اليهود. وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه لئلا يلحقه من الدم ما لحق هؤلاء.

فائدة: ضرب الله مثل الذي لا ينتفع بما أوتي بالحمار يحمل أسفاراً ولعل من حكم ذكر هذا المثل في سورة الجمعة ألا يكون حظ الخطيب والمأموم من خطبة الجمعة كحظهما قبلها! أي لئلا يشابه اليهود. «انظر تدبر المجموعة (١)».

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

قال أبو حيان: ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة ربما كان حاصلًا عن المنافقين واتبعهم ناس كثير من المؤمنين في ذلك. وذلك لسرورهم بالعرير التي قدمت بالميرة إذ كان وقت مجاعة جاء ذكر المنافقين وما هم عليه من كراهة أهل الإيمان.

﴿ قَالَ تَعَالَىٰ عَنِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿ كَانَهُمْ خَشَبٌ مُّسْتَدَّةٌ ﴾ (الْمُنَافِقُونَ: ٤).

شبهوا بالخشب لذهاب عقولهم وفراغ قلوبهم من الإيمان ولم يكتف بجعلها خشباً حتى جعلها مسندة إلى الحائط لأن الخشب لا ينتفع بها إلا إذا كانت في سقف أو مكان ينتفع بها وأما إذا كانت مهملة فإنها مسندة إلى الحيطان أو ملقاة على الأرض. أفاده أبو حيان.

﴿ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءُمُورُكُمْ ﴾ (الْمُنَافِقُونَ: ٩).

ولم يقل: «لا تشغلکم» فلماذا؟ الجواب: لأن من الشغل ما هو محمود وهو الشغل في الحق كما في الحديث: «إن في الصلاة لشغلاً». وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فُتْكُهُونَ ﴾ (يَبَر: ٥٥). أما الإلهاء فهو الاشتغال بما لا خير فيه وهو مذموم على وجه العموم فاختر ما هو أحق بالنهي. أفاده د. السامرائي.

﴿ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقْتُ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (الْمُنَافِقُونَ: ١٠)، فقال: ﴿ أَخَّرْتَنِي ﴾ بزيادة الياء بينما ذكر ما قاله إبليس: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الْإِسْرَاء: ٦٢)، فحذف الياء ﴿ أَخَّرْتَنِي ﴾، وفي ذلك دقة بالغة لأن إبليس عزم على إغواء بني آدم بكل ممكن، فكأنه يقول: «لئن أخرتن يا رب أي تأخير ولو قل، سأغوي بني آدم»، فناسب حذف الياء للدلالة على

ذلك، وأمّا الآية الأخرى، فهي تحذر العاصي من طلبه المهلة عند الموت، فلمّا كان الله قد أعذر إلى عباده وأخبرهم ما يكفي لتذكّره، كما في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (قَطَا: ٣٧)، وكان طلب العاصي للمهلة إنّما هو طلب لزيادة التأخير لا لأصل إعطاء الفرصة، ناسب أن يزيد الياء ﴿أَخْرَجْتَ﴾ للدلالة على ذلك.

فوائد:

١- قال د. فاضل: قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِكَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ فجاء بـ ﴿مِّن﴾ ولم يقل: «قبل أن يأتي أحدكم الموت» إشارة إلى قرب الموت من الإنسان وأنه على الإنسان أن يسابق الموت ويبادر بالعمل الصالح فإن ﴿مِّن﴾ هذه تفيد ابتداء الغاية الزمانية ومعناه الزمن القريب من الموت بل المتصل به، فحذفها يفيد الوقت الذي هو قبل الموت سواء كان قريباً أم بعيداً، ويفيد إعطاء المهلة مع أن الأجل إذا جاء لا يمهل؛ فالمجيء بها يفيد طلب التعجيل بالتوبة والإنفاق؛ إذ كل ساعة تمر بالإنسان تحتمل أن تكون هي ساعة الموت وهي التي ذكرها بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِكَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ فانظر حُسْنَ التعبير ودقته قدم المفعول به على الفاعل فقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِكَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ ولم يقل: «يأتي الموت أحدكم» وذلك لأن المفعول به هو المهم هنا إذ هو المعني بالتوبة والصلاح وهو المدعو للإنفاق وهو المتحسر النادم إذا عاجله الموت فالعناية والاهتمام منصبان على المفعول الذي يأتيه الموت وهو كل واحد منا.

٢- وقال د. فاضل أيضاً: جاء بـ ﴿لَوْلَا﴾ فقال: ﴿لَوْلَا أَخْرَجْتَ﴾ ولم يقل: «لو أخرجتني» لأن ﴿لَوْلَا﴾ أشد في الطلب من «لو» وقائلها أكثر إلحاحاً من قائل «لو» فإن «لو» تكون للطلب برفق وأما ﴿لَوْلَا﴾ فتكون للطلب بشدة وحث. ومعنى ذلك أن ما هو فيه يستدعي الإلحاح في الطلب وأن يجأر به وأن يأتي بما هو من أشد أدوات الطلب قوة. كما أنها من أدوات التنديم وفيها تنديم للنفس على ما فرط ولو جاء بـ «لو» لأفاد

العرض الخفيف هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إن «لو» قد تفيد التمني والتمني قد يكون ميؤوساً منه ليس لصاحبه فيه مطمع نحو «لو يعود الميت إلى الحياة فيخبر الناس بها هو فيه» في حين أن هذا القائل ليس متمنياً بل هو طالب للعودة سائل لها فلو جاء بـ «لو» لأفاد أن هذا من باب التمني الذي يتمناه الإنسان ولا يرجو وقوعه كقول القائل: «ألا ليت الشباب يعود يوماً» والتمني قد يكون في حال العافية كما يكون في غيرها في حين أن هذا طالب للتأخير وليس متمنياً. كما أنه جاء بالفعل الماضي بعد ﴿لَوْلَا﴾ فقال: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ ولم يقل: «لولا تؤخرني» ذلك أن المحذور وقع في حين أن الفعل المضارع قد يفيد أن الأمر لم يقع بعد وأن في الأمر سعة. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (الطافئة: ٧٠)، وقوله: ﴿قَالَ يَنْقُومُ لِمَ اسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (البقرة: ٤٦). هذا علاوة على ما يفيد دخول ﴿لَوْلَا﴾ على الماضي من قوة الطلب وشدته وإن كان مستقبل المعنى.

٣- قال د. فاضل: وقد تقول ولم قال ههنا ﴿أَخَّرْتَنِي﴾ بالياء وقال في سورة الإسراء: ﴿أَخَّرْتَنِي﴾ فحذف الياء واجتزأ بالكسرة؟ والجواب: أن المقام يوضح ذلك فقد قال في سورة الإسراء على لسان إبليس: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٢)، وقال ههنا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وهنا نسأل: أي الطالبين يريد المتكلم لنفسه على وجه الحقيقة وأيهما يعود بالنفع عليها ودفع الضرر عنها أهو قوله: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أم قوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾؟ والجواب ظاهر فإن طلب إبليس لا يريده من أجل نفسه ولا لأنه محتاج إليه وإنما يريده ليضل ذرية آدم ثم إن هذا الطلب لا يعود عليه بنفع ولا يدفع عنه ضرراً وليست له مصلحة فيه بل العكس هو الصحيح بخلاف الطلب الآخر فإنه يريده لنفسه حقاً وإنه لا شيء ألزم منه لمصلحته هو ودفع الضرر عنه.

فلما كان طلب التأخير لمصلحة الطالب حقاً وأنه ابتغاء لنفسه على وجه الحقيقة أظهر الضمير ولما كان طلب إبليس ليس من أجل نفسه ولا يعود عليها بالنفع حذف الضمير واجتزأ بالكسرة. ثم في الحقيقة إن كلام إبليس ليس طلباً وإنما هو شرط دخل عليه القسم فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ فهو من باب الطلب الضمني وليس من باب الطلب الصريح، وأما قوله: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ فهو طلب صريح ففرق تبعاً لذلك بين التعبيرين فصرح بالضمير وأظهر نفسه في الطلب الصريح وحذف الضمير واجتزأ بالإشارة إليه في الطلب غير الصريح وهو تناظر جميل، ففي الطلب الصريح صرح بالضمير وفي الطلب غير الصريح لم يصرح بالضمير.

٤- قال د. فاضل: جاء في «معاني النحو»: عطف ﴿وَأَكُنْ﴾ المجزوم على ﴿فَأَصْدَقْ﴾ المنصوب وهو عطف على المعنى. وذلك أن المعطوف عليه يراد به السبب والمعطوف لا يراد به السبب. فإن ﴿فَأَصْدَقْ﴾ منصوب بعد فاء السبب وأما المعطوف فليس على تقدير الفاء ولو أراد السبب لنصب ولكنه جزم لأنه جواب الطلب نظير قولنا: «هل تدلني على بيتك أزرك؟» كأنه قال: إن تدلني على بيتك أزرك. فجمع بين معنيي التعليل والشرط. ومثل ذلك أن أقول لك: «احترم أخاك يحترمك» و«احترم أخاك فيحترمك» فالأول جواب الطلب والثاني سبب وتعليل وتقول في الجمع بين معنيين: «أكرم صاحبك فيكرمك ويعرف لك فضلك» وهو عطف على المعنى. وقد تقول: ولماذا لم يُستَوَّ بينهما فيجعلهما نسقاً واحداً؟ والجواب: أنها ليسا بمرتبة واحدة في الأهمية فالصلاح أهم من الصدقة ذلك أن الذي ينجي من العذاب هو كونه من الصالحين لا كونه متصديقاً فإن المؤمن قد لا يتصدق بصدقة أصلاً ومع ذلك يدخل الجنة بصلاحه فقد يكون ليس معه ما يتصدق به فالذي ينجي من العذاب ويدخله الجنة هو أن يكون من الصالحين، والتصدق إنما يكون من الصلاح. والذي يدل على ذلك قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ﴾

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴿١﴾. فإنه ذكر الصلاح ولم يذكر الصدقة لأن الآية لم تقع في سياق الكلام على الأموال وإنفاقها. وذلك يدل على أن الصلاح هو مناط النجاة وأنه هو الأهم فعبّر عن كونه من الصالحين بأسلوب الشرط لأنه أقوى قي الدلالة على التعهد والتوثيق فقد اشترط على نفسه أن يكون من الصالحين وقطع عهداً على نفسه بذلك. فأعطى الأهم والأولى أسلوب الشرط الدال على القوة في الأخذ على النفس والالتزام، وأعطى ما هو دونه في الأهمية والأولوية أسلوب التعليل ولم يجعلها بمرتبة واحدة.

وقد تقول: إذا كان الأمر كذلك فلم قدّم الصدقة على الصلاح؟ والجواب: أن السياق هو في إنفاق الأموال فقد قال تعالى في هذه الآية: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ فدعا إلى الإنفاق فكان تقديم مناسباً للمقام ثم إنه تردد في السورة ذكر الأموال والاشتغال بها وما إلى ذلك فقد جاء قبل هذه الآية قوله: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾. فنهى عن الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله وجاء قبلها قوله في المنافقين: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾. فأنت ترى أن تقديم الصدقة هو المناسب للسياق الذي وردت فيه الآية وللجو الذي تردد فيه ذكر الأموال والانشغال بها والتوصية من المنافقين بعدم إنفاقها في سبيل الخير.

وقد تقول: ولم قال: ﴿ فَأَصَّدَقَ ﴾ ولم يقل: «فأتصدق» الذي هو الأصل؟ والجواب: أن هناك أكثر من سبب يدعو إلى هذا الاختيار منها أن مقاطع «فأتصدق» أكثر من مقاطع ﴿ فَأَصَّدَقَ ﴾ فإن مقاطع «فأتصدق» ستة ومقاطع ﴿ فَأَصَّدَقَ ﴾ خمسة:

فَ + أ + تَ + صَ + دَ + قَ = ستة مقاطع، فَ + أَص + صَ + دَ + قَ = خمسة مقاطع.

وهو قد طلب التأخير إلى أجل قريب فاختر اللفظة التي هي أقصر لتناسب قصر المدة.

ثم إن في ﴿فَأَصَّدَقَ﴾ تضعيفين أحدهما في الصاد والآخر في الدال في حين أن في «فأتصدق» تضعيفاً واحداً موطنه الدال والتضعيف مما يدل على المبالغة والتكثير، ولذا كان في قوله: ﴿فَأَصَّدَقَ﴾ من المبالغة والتكثير في الصدقة ما ليس في «فأتصدق». فدل بذلك أنه أراد أجلاً قريباً ليكثر من الصدقة ويبالغ فيها فهذا البناء أفاد معنيين الأول: قصر المدة وذلك لأنه طلب التأخير مدة قصيرة. والآخر هو الإكثار من الصدقة في هذه المدة القصيرة فكان ذلك أنسب.



سُورَةُ الطَّلَاقِ

قال أبو حيان: ومناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر الفتنة بالمال والولد أشار إلى الفتنة بالنساء وأتتهنّ قد يعرضن الرجال للفتنة حتى لا يجد مخلصاً منها إلا بالطلاق فذكر أنه ينفصل منهن بالوجه الجميل بأن لا يكون بينهما اتصال لا بطلب ولد ولا حمل.

فائدة: قال الإسكافي في (درة التنزيل): أكد تعالى ذكر التقوى وثمراتها بين آيات الطلاق والعِدِّد في سورة الطلاق لأن أحكام الطلاق وضبط العدة من أحق الأشياء بالمراعاة وتأکید الوصية لكثرة ما فيها من الانتصار للنفس وقصد الإضرار وتعدي حدود الله تعالى.



سُورَةُ التَّحْنِيطِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ (التَّحْنِيطِ: ٣).

قال ابن عاشور: ومعنى ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أطلعه عليه وهو مشتق من الظهور بمعنى التغلب. استعير الإظهار إلى الإطلاع لأن إطلاع الله نبيه ﷺ على السر الذي بين حفصة وعائشة كانت غلبة له عليهما فيما دبرتا فشبّهت الحالة الخاصة من تأمر حفصة وعائشة على معرفة سر النبي ﷺ ومن علمه بذلك بحال من يغالب غيره فيغلبه الغير ويكشف أمره. فالإظهار هنا من الظهور بمعنى الانتصار وليس هو من الظهور ضد الخفاء، لأنه لا يتعدى بحرف «على».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُتِلَ أَنْفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التَّحْنِيطِ: ٦)، وقال أيضاً: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ (النَّبَأِ: ١٢)، فقال: ﴿ شِدَادٌ ﴾، ﴿ شِدَادًا ﴾، بينما قال عن المؤمنين: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (البَنَاتِ: ٢٩)، فقال: ﴿ أَشِدَّاءُ ﴾.

قال د. فاضل: الذي يبدو لي أنّ «فُعلاء» يكاد يختص بالأمر المعنوية، و«فِعَالًا» بالأمر المادية، فقال سبحانه في وصف ملائكة العذاب: ﴿ شِدَادٌ ﴾ ليدل على شدة الأجسام وضخامتها، وقال عن السماء: ﴿ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ ليدل على أنها محكمة قوية، وأمّا آية الفتح، فقال: ﴿ أَشِدَّاءُ ﴾ ليدل على الشدة المعنوية، فقد قابل بين الشدة والرحمة وهما أمران معنويان.

ومثله قوله تعالى: ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ (التَّوْبَةِ: ٤١)، وقوله: ﴿ وَيُسَيِّئُ السَّحَابُ الثِّقَالَ ﴾ (الرَّحْمَةِ: ١٢)، وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ (الْأَنْعَامِ: ٥٧)، فقال: ﴿ ثِقَالًا ﴾ للثقل المادي، بينما يُقال لمن فيهم ثقل الروح «ثقلًا».

ومثله قوله تعالى عما يقوله الأتباع: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴾ (الْأَنْعَامُ : ٦٧)، فقالوا: ولم يقولوا: «كبارنا» لأن المقصود السادة والرؤساء «أي الكبر المعنوي وليس كبر الأجسام».

ومثله قوله تعالى: ﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴾ (الْغُلَافِ : ٤٧)، ولم يقل: «الضعاف» أ.هـ. قلت: قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَافٌ شِدَادٌ ﴾ يحتمل الشدة في الأجرام أو في الأفعال، وكذا قوله: ﴿ غِلَافٌ ﴾، فالأدق حمل أحدهما على قوة الأجرام والآخر على الشدة في الأفعال، وحمل الغلظ على الشدة المعنوية أوفق لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ (التَّغْوِيَّاتُ : ١٥٩).

❖ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الْبَقَرَةُ : ٨).

قال ابن عاشور: وسعي النور: امتداده وانتشاره. شبه ذلك باشتداد مشي الماشي وذلك أنه يحف بهم حيثما انتقلوا تنوياً بشأنهم كما تنتشر الأعلام بين يدي الأمير والقائد وكما تساق الجياد بين يدي الخليفة. وإنما خص بالذكر من الجهات الأمام واليمين لأن النور إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته وشعروا بأنه كرامة لهم، ولأن الأيدي هي التي تمسك بها الأمور النفيسة وبها بايعوا النبي ﷺ على الإيمان والنصر. وهذا النور نور حقيقي يجعله الله للمؤمنين يوم القيامة. والباء للملابسة، ويجوز أن تكون بمعنى عن.

❖ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِّنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ﴾ (الْبَقَرَةُ : ١٠).

قوله سبحانه: ﴿ تَحْتَ ﴾ إعلام بأنه لا سلطان للمرأة على زوجها وإنما السلطان للزوج عليها فالمرأة لا تجعل في مقابل الندية بالرجل فضلاً عن أن تعلو عليه، ففي ذلك خلاف الفطرة والشرع. أفاده الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد.

سُورَةُ الْمَلَكِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الْمَلَك: ٥)، فقال: ﴿السَّعِيرِ﴾ ولم يقل: «جهنم» مثلاً. وكذا قال عن الجن: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (سَبَأ: ١٢)، وقال عن الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (طه: ٦)، تنبيهاً على أن نار جهنم أشد من نار عنصرهم، فإذا أصابتهم صارت لهم عذاباً رغم كونهم من عنصر النار «أي الجن والشياطين»، أفاده ابن عاشور.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقِضْنَ﴾ (الْمَلَك: ١٩).

قال ابن عاشور: قال: ﴿صَفَّتْ﴾ بصيغة الاسم بينما و﴿يَقِضْنَ﴾ بصيغة الفعل المضارع لأن الصف هو أكثر أحوال الطير عند الطيران فناسب الاسم الدال على الثبات وجيء في وصفهن بالقبض بصيغة المضارع لدلالة الفعل على التجدد، أي ويجددون القبض لأجنحتهن في خلال الطيران للاستعانة بقبض الأجنحة على زيادة التحرك عندما يحسسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران، ونظيره قوله تعالى: ﴿الْجِبَالُ مَعَهُ يُسَّخَنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (٨) وَالطَّيْرِ مَحْشُورَةً ﴿ (حَج: ١٨، ١٩)، لأن التسييح في وقتين، والطير محشورة دوماً.

وقال أيضاً: قوله تعالى: ﴿الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ﴾ (الْمَلَك: ١٩). يفيد تصوير حالة الطيران العجيبة، فإن جميع الدواب تمشي على الأرض والطير كذلك، فإذا طار الطائر انتقل إلى حالة عجيبة مخالفة لبقية المخلوقات، وهي السير في الجو بواسطة تحريك جناحين، وذلك سر قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَا طَلِيرٌ﴾ في سورة الأنعام هو تصوير تلك الحالة.

فائدة: قال ابن عاشور: قوله: ﴿صَفَّتْ وَيَقِضْنَ﴾ أي صافات أجنحتها، فالطائر إذا طار بسط جناحيه، أي مدهما فصف ريش الجناح فإذا تمدد الجناح ظهر ريشه

مصطفياً فكان ذلك الاصطفاف من أثر فعل الطير فوصفت به، وبسط الجناحين يمكن الطائر من الطيران فهو كمدّ اليدين للسباح في الماء، ﴿وَيَقِيضَنَّ﴾ أي أجنحتهن حين يديننها من جنوبهنّ للازدیاد من تحريك الهواء للاستمرار في الطيران.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ (المائدة: ٢٩).

فقد أخرج الجار والمجرور ﴿بِهِ﴾ عن الفعل ﴿ءَامَنَّا﴾ وقدم الجار والمجرور ﴿وَعَلَيْهِ﴾ على الفعل ﴿تَوَكَّلْنَا﴾. ذلك أن الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله، بل لا بد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم الأولين الباقيين قَدَّمَ الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره، لأن غيره لا يملك ضرراً ولا نفعاً فيتوكل عليه، أفاده د. فاضل.



سُورَةُ الْقَلَمِ

﴿ قَالَ تَعَالَى لَبِيبِهِ: ﴿ فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ ﴾ (الْقَلَمِ: ٨).

وذلك أبلغ في الإكرام والاحترام فإن قوله: لا تكذب ولا تحلف ولا تشتم ولا تهمز ليس هو مثل قوله: لا تطعم من يكون متلبساً بهذه الأخلاق لما فيه من الدلالة على تشريفه وبراءته من تلك الأخلاق. أفاده شيخ الإسلام ابن تيمية.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ ﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴾ ﴾ (الْقَلَمِ: ٥، ٦)، فقال: ﴿ الْمَفْتُونُ ﴾ ولم يقل: «المجنون» مع أنه ردُّ على اتهامهم له بالجنون كما في قوله تعالى: ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾، وذلك لأنَّ بعض المشركين إن لم يكونوا بمنزلة المجانين الذين يندفعون إلى مقاومة النبي بدون تبصر كانوا في فتنة اضطراب أقوالهم وأفعالهم كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهما الذين أغروا العامة بالطعن في النبي بأقوال مختلفة، فكان إيثار قوله: ﴿ الْمَفْتُونُ ﴾ ليصح فرضه للجانيين، أفاده ابن عاشور.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَغَدَا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴾ ﴾ (الْقَلَمِ: ٢٥).

في قوله: ﴿ حَرٍِّ ﴾ نكتة من نكت الإعجاز المتعلق بشرف اللفظ ورشاقته من حيث المعنى، ومن جهة تعلق المجرور به بما يناسب كل معنى من معانيه، فالحد يطلق على المنع، وعلى القصد القوي أي السرعة، وعلى الغضب، فإذا علّق قوله: ﴿ حَرٍِّ ﴾ بـ ﴿ قَدِيرٍ ﴾ فتقديم المتعلق ﴿ عَلَى حَرٍِّ ﴾ يفيد تخصيصاً أي قادرين على المنع، أي منع الخير أو منع ثمرة جنتهم غير قادرين على النفع، والتعبير بقادرين على الحد دون أن يقول: وغدا حادرين تهكم لأنَّ شأن فعل القدرة أن يذكر في الأفعال التي يشق على الناس إتيانها، قال تعالى: ﴿ بَلَى قَدِيرٍ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾، فقوله: ﴿ عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴾ على هذا الاحتمال من باب قولهم: فلان لا يملك إلا الحرمان أو لا يقدر إلا على الخيبة.

وإذا حمل الحد على معنى السرعة والقصد كان ﴿ عَلَى حَرٍِّ ﴾ متعلقاً بـ ﴿ وَغَدَا ﴾ مبنياً لنوع الغدو، أي غدوا غدو سرعة واعتناء فتكون ﴿ عَلَى ﴾ بمعنى باء المصاحبة والمعنى:

غدوا بسرعة ونشاط ويكون ﴿قَدِيرِينَ﴾ حالاً من ضمير ﴿وَعَدُوا﴾ حالاً مقدرة أي مقدرين أنهم قادرون على تحقيق ما أرادوا. وفي الكلام تعريض بأنهم خابوا، دل عليه قوله بعده: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ﴾ وقوله قبله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ﴾.

وإذا أريد بالحرد الغضب والحنق فإنه يقال: حرد بالتحريك وحرد بسكون الراء ويتعلق المجرور بـ ﴿قَدِيرِينَ﴾ وتقديمه للحصر أي غدوا لا قدرة لهم إلا على الحنق والغضب على المساكين لأنهم يقتحمون عليهم جنتهم كل يوم فتحيلوا عليهم بالتبكير إلى جذاها أي لم يقدروا إلا على الغضب والحنق ولم يقدروا على ما أرادوه من اجتناء ثمر الجنة، أفاده ابن عاشور.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ﴾ (٣٠) قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طُغْيَانٌ﴾ (الْقَلْبَةُ: ٣٠، ٣١).

فيه إجمال بالغ غاية الإيجاز في تصوير حالتهم، فإقبال بعضهم على بعض يصور حالة تشبه المهاجمة والتفريع، وقوله: ﴿يَتَلَوُمُونَ﴾ مع حذف متعلق التلاوم يصور في ذهن السامع صوراً من لوم بعضهم على بعض، وقد تلقى كل واحد منهم لوم غيره بإحقاق نفسه باللامة وإشراك بقيتهم فيها، فقال كل واحد منهم: ﴿يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طُغْيَانٌ﴾ إلى آخره، فأسند هذا القول إلى جميعهم لذلك، وقوله: ﴿فَأَقْبَلَ﴾ أيضاً فيه تمثيل لحال العناية باللوم لأن حقيقة الإقبال المجيء إلى الغير من جهة وجهه وهو مشتق من القبل وهو ما يبدو من الإنسان من جهة وجهه، أفاده ابن عاشور.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الْقَلْبَةُ: ٥١، ٥٢).

فقال: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ مع أنه يردّ على طعنهم في الرسول ﷺ بقولهم: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ وذلك لأنهم إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعون مدخلاً للطعن فيه انصرفوا إلى الطعن في صاحبه ﷺ بأنه مجنون لينتقلوا بذلك إلى أن الكلام الجاري

على لسانه لا يوثق به ليصرفوا دماءهم عن سماعه، كما أنّ قولهم: ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ قد قالوه في سياق تكذيبهم بالقرءان، فإذا ثبت أنّ القرءان ذكرٌ للعالمين بطل أن يكون مبلغه مجنوناً، وهذا من قبيل الاحتباك؛ إذ التقدير: ويقولون إنه لمجنون وإنّ القرءان كلام مجنون، وما القرءان إلّا ذكر وما أنت إلّا مذكر، أفاده ابن عاشور.



سُورَةُ الْحَقْلَةِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ ﴾ (الْحَقْلَةُ: ٤).

قال ابن عاشور: عادة القرآن تقديم ذكر عاد على ثمود إلا في بعض المواضع. ومنها في سورة الحاقة فإنه قال: ﴿ كَذَبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ (الْحَقْلَةُ: ٤). وسبب ذلك والله أعلم أن السورة لما ابتدأت بذكر ﴿ بِالْقَارِعَةِ ﴾ وهي التي تفرع أسماع الناس من شدة صوتها قدم ذكر ﴿ ثُمُودُ ﴾ لأن العذاب أصابهم من قبيل القرع؛ إذ أصابتهم الصواعق المسماة في بعض الآيات بالصيحة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ ﴾ (الْحَقْلَةُ: ٧)، وقال عنهم في سورة القمر: ﴿ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ (القَمَرُ: ٢٠)، قال د. فاضل: العرب قد تؤنث للكثرة وتذكر للقلة وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ (يُونُسُ: ٣٠)، و﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءِامَنَّا ﴾ (الْمُحْجَلَاتِ: ١٤). فذكر ﴿ وَقَالَ ﴾ لأن النسوة قلة وأنث ﴿ قَالَتِ ﴾ لأن الأعراب كثرة وقد تؤنث للمبالغة نحو: راوية وداهية. ويتضح من سياق الآيات ما يأتي:

١ - أنه قال في القمر: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ وقال في الحاقة: ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ فزاد في وصف الريح في الحاقة فقال: ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ فهي أشد مما في القمر. وإذا كانت كذلك كان تدميرها أكبر وأبلغ واقتلاعها أكثر. ولما زادت الريح عتواً وأمداً في الحاقة ذكر أنها استأصلتهم كلهم فلم تُبق منهم أحداً فقال: ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في القمر.

٢ - أن النخل المنقعر معناه المنخلع عن مغارسه الساقط على الأرض. ومعنى ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ خربة وقيل: خَلَّتْ أَعْجَازُهَا بِلَى وَفَسَاداً وَقِيلَ: الخاوية معناها معنى المنقلع وقيل لها إذا انقلعت خاوية لأنها خوت من منبتها التي كانت تنبت فيه وخوى منبتها منه. فالنخل الخاوية تشمل النخل المنقعر وزيادة. فكل نخل منقعر هو خاو وليس كل خاو منقعرًا فأنث الخاوية لأنه أكثر من المنقعر ولأن دماره أبلغ وجعلها في سياق الدمار الشامل.

سُورَةُ الْمَجَلَّةِ

﴿ قَالَ تَعَالَى فِي سُوْرَةِ الْمَعَارِجِ: ﴿ وَتَكُوْنُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ (الْمَجَلَّةِ: ٩) وَقَالَ فِي سُوْرَةِ الْقَارِعَةِ: ﴿ وَتَكُوْنُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوْشِ ﴾ (الْقَارِعَةُ: ٥).

فَزَادَ كَلِمَةً ﴿ الْمَنْفُوْشِ ﴾ فِي سُوْرَةِ الْقَارِعَةِ عَلَى مَا فِي الْمَعَارِجِ فَمَا سَبَبُ ذَلِكَ؟ وَالْجَوَابُ: قَالَ د. فَاضِلُ: ١ - أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْقَارِعَةُ فِي أَوَّلِ السُّوْرَةِ ﴿ أَلْقَارِعَةُ ﴾ مِنْ الْقَرَعِ وَهُوَ الضَّرْبُ بِالْعَصَا نَاسِبَ ذَلِكَ ذَكَرَ النَّفْسَ لِأَنَّ مِنْ طَرَائِقِ نَفْسِ الصُّوْفِ أَنَّ يُقَرَعَ بِالْمَقْرَعَةِ كَمَا نَاسِبَ ذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّ الْجِبَالَ تَهْتَمُّ بِالْمَقْرَعِ «وَهُوَ مِنَ الْقَرَعِ» وَهُوَ فَأْسٌ عَظِيمٌ تُحْطَمُ بِهِ الْحِجَارَةُ فَنَاسِبَ ذَلِكَ ذَكَرَ النَّفْسَ أَيْضاً فَلَفِظَ ﴿ أَلْقَارِعَةُ ﴾ أَنْسَبَ شَيْءٍ لِهَذَا التَّعْبِيرِ كَمَا نَاسِبَ ذَكَرَ ﴿ أَلْقَارِعَةُ ﴾ ذَكَرَ ﴿ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿ يَوْمَ يَكُوْنُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أَيْضاً لِأَنَّكَ إِذَا قَرَعْتَ طَارَ الْفَرَاشُ وَانْتَشَرَ وَلَمْ يَحْسُنْ ذَكَرَ ﴿ كَالْفَرَاشِ ﴾ وَحْدَهُ كَمَا لَمْ يَحْسُنْ ذَكَرَ ﴿ كَالْعِهْنِ ﴾ وَحْدَهُ.

وَأَيْضاً فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي سُوْرَةِ الْمَعَارِجِ أَنَّ الْعَذَابَ ﴿ وَاقِعٌ ﴾ وَأَنَّهُ ﴿ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ ﴿ سَأَلُ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَافِرِيْنَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ وَوُقُوعُ الثَّقَلِ عَلَى الصُّوْفِ مِنْ غَيْرِ دَفْعٍ لَهُ لَا يَنْفُسُهُ بِخِلَافِ مَا فِي الْقَارِعَةِ فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْقَرَعَ وَكَرَرَهُ وَالْقَرَعَ يَنْفُسُهُ وَخَاصَّةً إِذَا تَكَرَّرَ فَنَاسِبَ ذَلِكَ النَّفْسَ فِيهَا أَيْضاً.

نَاسِبَ ذَكَرَ الْعِهْنِ الْمَنْفُوْشِ أَيْضاً قَوْلُهُ فِي آخِرِ السُّوْرَةِ: ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ لِأَنَّ النَّارَ الْحَامِيَةَ هِيَ الَّتِي تَذِيبُ الْجِبَالَ وَتَجْعَلُهَا كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوْشِ وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْحَرَارَةِ فِي حِينِ ذَكَرَ صِفَةَ النَّارِ فِي الْمَعَارِجِ بِقَوْلِهِ: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَنٌ ۝١٥ نَزَاعَةٌ لِّلشُّوْىِ ۝ وَالشُّوْىَ هُوَ جِلْدُ الْإِنْسَانِ وَالْحَرَارَةُ الَّتِي تَسْتَدْعِي نَزْعَ جِلْدِ الْإِنْسَانِ أَقَلُّ مِنَ الَّتِي تَذِيبُ الْجِبَالَ وَتَجْعَلُهَا ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوْشِ ﴾ فَنَاسِبَ زِيَادَةِ ﴿ الْمَنْفُوْشِ ﴾ فِي الْقَارِعَةِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. كَمَا أَنَّ ذَكَرَ النَّارَ الْحَامِيَةَ مَنَاسِبَ لِلْقَارِعَةِ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى ذَلِكَ أَنَّ «الْقَارِعَةَ»

وهي من لفظ القارعة وهي القداحة التي تُقدح بها النار فناسب ذكر القارعة ذكر الصوف المنفوش وذكر النار الحامية فناسب آخر السورة أولها. وبهذا نرى أن ذكر القارعة حسن ذكر ﴿ الْمَبْثُوثِ ﴾ مع الفراش وذكر ﴿ الْمَنْفُوشِ ﴾ مع الصوف وذكر النار الحامية في آخر السورة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ﴿ ١٥ ﴾ نَزَاعَةً لِّلشَّوَى ﴾ ﴾ (الْمَعْلَلَة : ١٥، ١٦)، فقال: ﴿ نَزَاعَةً ﴾ ولم يقل: «نزوعاً»؛ لأنَّ صيغة «فَعَّال» تدل على الاستمرار والتجدد والتكرار، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (النَّبِيَّة : ٥٦)، قال د. فاضل: صيغة «فَعَّال» تدل على الحرفة والصناعة كقولهم: «تمَّار، لبَّان، نجَّار، عطَّار، نقَّاش، بَنَّاء» وهذا يقتضي الاستمرار والتكرار، والإعادة والتجدد، والمعاناة والملازمة.



سُورَةُ نُوحٍ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا

﴿١٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح: ٢٥، ٢٦).

قال ابن عاشور: قَدَّمَ ذكر ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾ على ذكر دعوة نوح عليهم ليعلم أنَّ الله لا يقر عباده على الشرك بعد أن يرسل إليهم رسولا، فليس إهلاكهم لمجرد استجابة دعوة نوح ولكن من أجل مجموع خطيئاتهم، وإنَّما أخرهم إلى ما بعد دعوة نوح لإظهار كرامة نوح عند ربه بين قومه ومسرَّة له وللمؤمنين معه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح: ٢٧).

قال ابن عاشور: في كلام نوح دلالة على أنَّ المصلحين يهتمون بإصلاح جيلهم الحاضر ولا يهتمون تأسيس أسس إصلاح الأجيال الآتية؛ إذ الأجيال كلها سواء في نظرهم الإصلاحية.



سُورَةُ الْحَجِّ

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾﴾ (الحج: ٢١).

قال ابن عاشور: في الآية إحتباك لأن الأصل: لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً ولا ضللاً ولا رشداً. اهـ.

قلت: وذكر الضر والرشد دون النفع والضلal ليدل على أن الضلال ضرر لهم في الدنيا والآخرة، وليدل على أن غاية مراد المؤمن هو الرشد وإن لم يصاحب ذلك نفع دنيوي، فأكرم بحلاوة القرآن.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾﴾ (٢٢) ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ (٢٣) ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾﴾ (الحج: ٢٢ - ٢٤).

قال في (الظلال): ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٢) ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾. وهذه هي القولة الرهيبة، التي تملأ القلب بجدية هذا الأمر.. أمر الرسالة والدعوة. والرسول ﷺ يؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة.. ﴿إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ﴾ ملجأ أو حماية، إلا أن أبلغ هذا الأمر. وأؤدي هذه الأمانة، فهذا هو الملجأ الوحيد، وهذه هي الإجارة المأمونة. إن الأمر ليس أمري، وليس لي فيه شيء إلا التبليغ، ولا مفري من هذا التبليغ. فأنا مطلوب به من الله ولن يجيرني منه أحد، ولن أجِدَ من دونه ملجأ يعصمني، إلا أن أبلغ وأؤدي! يا للرهبة! ويا للروعة! ويا للجد! وإنها ليست اللذة الذاتية في حمل الهدى والخير للناس. إنما هو الأمر العلوي الذي لا يمكن التلفت عنه ولا التردد فيه! وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد.. إنها تكليف وواجب وراءه الهول، ووراءه الجد، ووراءه الكبير المتعال! ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ

وَرَسُولُهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفُ
 نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا .. فهو التهديد الظاهر والملفوف لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصي . بعد
 التلويح بالجد الصارم في التكليف بذلك البلاغ . وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة
 وإلى عدد، ويقيسون إلى قوة محمد ﷺ والمؤمنين القلائل معه، فسيعلمون حين يرون
 ما يوعدون - إما في الدنيا وإما في الآخرة - ﴿مَنْ أَضَعُفُ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا﴾ .. وأي
 الفريقين هو الضعيف المخذول القليل الهزيل!



سُورَةُ الْمُرْمَلِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ﴿١﴾ قُرْ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ (الْمُرْمَلُ: ١ - ٩).

قال في (الظلال): ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ﴿١﴾ قُرْ﴾.. إنها دعوة السماء، وصوت الكبير المتعال.. قم.. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك. قم للجهد والنصب والكد والتعب. قم فقد مضى وقت النوم والراحة.. قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد.. وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزع من دافع الفرائش، في البيت الهادئ والحضن الدافئ. لتدفع به في الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب في ضمائر الناس وفي واقع الحياة سواء. إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً. فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير.. فماله والنوم؟ وماله والراحة؟ وماله والفرائش الدافئ، والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح؟! ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدره، فقال لخديجة رضى الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام: «مضى عهد النوم يا خديجة! أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق! ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ﴿١﴾ قُرْ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾.. إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة.. قيام الليل. أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه. وأقله ثلث الليل.. قيامه للصلاة وترتيل القرآن. وهو مد الصوت به وتجويده. وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذي سينزله الله عليه.. ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.. هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف.. والقرآن في مبناه ليس ثقیلاً فهو ميسر للذكر. ولكنه ثقيل في ميزان الحق،

ثقیل فی أثره فی القلب: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. فأنزله الله علی قلب أثبت من الجبل یتلقاه.. وإن تلقي هذا فیض من النور والمعرفة واستیعابه، لثقیل، یمحتاج إلى استعداد طویل. وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة، لثقیل، یمحتاج إلى استعداد طویل. وإن الاتصال بالملا الأعلى وأرواح الخلائق الحية والجامعة علی النحو الذي تهبأ لرسول الله ﷺ لثقیل، یمحتاج إلى استعداد طویل.

وإن قیام اللیل والناس نيام، والانقطاع عن غش الحياة اليومية وسفاسفها؛ والاتصال بالله، وتلقي (الفیض والنور من عنده)، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه، وترتیل القرآن والكون ساکن، وكأنها هو ینزل من الملا الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود فی لحظة الترتیل؛ واستقبال إشعاعاته وإیحاءاته وإیقاعاته فی اللیل الساجي.. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقیل، والعبء الباهظ والجهد المریر الذي یمتظر الرسول ویمتظر من یدعو بهذه الدعوة فی كل جیل! وینیر القلب فی الطریق الشاق الطویل، وبعصمه من وسوسة الشیطان، ومن التیه فی الظلمات الحافة بهذا الطریق المنیر.

فائدة: قال ابن عاشور فی قوله تعالى: ﴿وَدَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ﴾ (الْمُكَلَّمَا : ١١):

و﴿وَدَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ﴾ هنا بفتح النون باتفاق القراء وهي اسم للترفه وجمعها أنعم بفتح الهمزة وضم العین وأما النعمة بكسر النون فاسم للحالة الملائمة لرغبة الإنسان من عافية وأمن ورزق ونحو ذلك من الغائب وجمعها نعم بكسر النون وفتح العین وتجمع جمع سلامة علی نعمات بكسر النون وفتح العین لجمهور العرب وبكسر العین فی لغة أهل الحجاز كسرة إتباع. والنعمة بضم النون اسم للمسرة فیجوز أن تجمع علی نَعَم علی أنه اسم جمع ویجوز أن تجمع علی نعم بضم ففتح مثل: غرفة غرف وهو مطرد فی الوزن. وجعلهم ذوي النعمة المفتوحة النون للإشارة إلى أن قصارى حظهم فی هذه الحياة هي النعمة أي الانطلاق فی العیش بلا ضیق والاستظلال بالبیوت والجنات والإقبال علی لذیذ الطعوم ولذائذ الانبساط إلى النساء والخمر والمیسر وهم معرضون

عن كمالات النفس ولذة الاهتداء والمعرفة قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾. وتعريف ﴿ النِّعْمَةِ ﴾ للعهد.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ السَّمَاءُ مَنفُطَرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ (الْمُزَلَّكَ : ١٨).

قال ابن عاشور: ووصف السماء بـ ﴿ مَنفُطَرٌ ﴾ بصيغة التذكير مع أن السماء في اللغة من الأسماء المعتبرة مؤنثة في الشائع قال الفراء: السماء تذكر على التأويل بالسقف لأن أصل تسميتها سماء على أصل التشبيه بالسقف. أي والسقف مذكر والسماء مؤنث وتبعه الجوهرى وابن بري. وقيل: إذا كان الاسم غير حقيقي التأنيث جاز إجراء وصفه على التذكير فلا تلحقه هاء التأنيث قياساً على الفعل المسند للمؤنث غير حقيقي التأنيث في جواز اقترانه بتاء التأنيث وتجريده منها إجراءً للوصف مجرى الفعل وهو وجيه. ولعل العدول في الآية عن الاستعمال الشائع في الكلام الفصيح في إجراء السماء على التأنيث إلى التذكير إيثاراً لتخفيف الوصف لأنه لما جيء به بصيغة منفعل بحرفي زيادة وهما الميم والنون كانت الكلمة معرضة للثقل إذا ألحق بها حرف زائد آخر ثالث وهو هاء التأنيث فيحصل فيها ثقل يُجَنَّبُه الكلام البالغ غاية الفصاحة. ألا ترى أنها لم تجر على التذكير في قوله: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴾ إذ ليس في الفعل إلا حرف مزيد واحد وهو النون إذ لا اعتداد بهمزة الوصل لأنها ساقطة في حالة الوصل فجاءت بعدها تاء التأنيث.



سُورَةُ الْمُنَادِّثِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ، تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ (الْمُنَادِّثِ: ١٤، ١٥).

قال ابن عاشور: التمهيد مصدر مهّد، وهي تدل على قوة المهد. والمهد: تسوية الأرض وإزالة ما ينقض جنب المضطجع عليها، والتمهيد هنا مستعار لتيسير أموره ونفاذ كلمته في قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصي عليه أمر. وأكد ﴿ وَمَهَّدْتُ ﴾ بمصدره على المفعولية المطلقة ليفيد بتكثيره تعظيم ذلك التمهيد. وقال: ﴿ أَنْ أَزِيدَ ﴾ ولم يقل: «أن يزداد» مثلاً ولا «يطمع في الزيادة» بل قال: ﴿ أَزِيدَ ﴾ بإسناد الزيادة إلى ضمير الجلالة إدماجاً بتذكيره بأن ما طمع فيه هو من عند الذي كفر هو بنعمته فأشرك به غيره في العبادة.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَيْكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ (الْمُنَادِّثِ: ٢٧ - ٣١).

قال ابن عاشور: ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾.. وفيه معان كثيرة أعلاها أن يكون هذا تنمة لقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عَذَابَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ على أن يكون جارياً على طريقة الأسلوب الحكيم أي أن النافع لكم أن تعلموا أن الخبر عن خزنة النار بأنهم تسعة عشر فائدته أن يكون ذكرى للبشر ليتذكروا دار العقاب بتوصيف بعض صفاتها لأن في ذكر الصفة عوناً على زيادة استحضار الموصوف. فغرض القرآن الذكري وقد اتخذ الضالون ومرضى القلوب لهواً أو سخرية ومرءاً بالسؤال عن جعلهم تسعة عشر ولم لم يكونوا عشرين أو مئات أو آلاف. وضمير ﴿ هِيَ ﴾ على هذا الوجه راجع إلى ﴿ عَذَابَهُمْ ﴾. ويجوز

أن يرجع الضمير إلى الكلام السابق وتأنيث ضميره لتأويله بالقصة أو الصفة أو الآيات القرآنية والمعنى نظير المعنى على الاحتمال الأول. ويحتمل أن يرجع إلى ﴿سَقَرُ﴾ وإنما تكون ﴿ذِكْرِي﴾ باعتبار الوعيد بها وذكر أهوالها والقصر متوجه إلى مضاف محذوف يدل عليه السياق تقديره وما ذكرها أو وصفها أو نحو ذلك ويحتمل أن يرجع ضمير ﴿هِيَ﴾ إلى ﴿جُودَ رَبِّكَ﴾ والمعنى المعنى والتقدير التقدير أي وما ذكرها أو عدة بعضها. وجوز الزجاج أن يكون الضمير راجعاً إلى نار الدنيا أي أنها تذكر الناس بنار الآخرة يريد أنه من قبيل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (٧٦) ﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ (٧٢) ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرَةً﴾. وفيه محسن الاستخدام. وقيل المعنى وما عدتهم إلا ذكرى للناس ليعلموا غنى الله عن الأعوان والجند فلا يظلموا في استقلال تسعة عشر تجاه كثرة أهل النار. وإنما حملت الآية هذه المعاني بحسن موقعها في هذا الموضع وهذا من بلاغة نظم القرآن ولو وقعت إثر قوله: ﴿لَوْ أَلَمْتُ لِلْبَشَرِ﴾ لتمحض ضمير ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرِي﴾ للعود إلى ﴿سَقَرُ﴾ وهذا من الإعجاز بمواقع جمل القرآن.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ (١٩) ﴿كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (المائدة: ٤٩ - ٥١)

قال ابن عاشور: و﴿قَسْوَرَةٍ﴾ قيل هو اسم جمع قسور وهو الرامي أو هو جمع على خلاف القياس إذ ليس قياس فعلل أن يجمع على فعللة وهذا تأويل جمهور المفسرين عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهما فيكون التشبيه جارياً على مراعاة الحالة المشهورة في كلام العرب. وقيل القسورة مفرد وهو الأسد وهذا مروى عن أبي هريرة وزيد بن أسلم وقال ابن عباس إنه الأسد بالحبشية فيكون اختلاف قول ابن عباس اختلافاً لفظياً. وعنه أنه أنكر أن يكون قسور اسم الأسد فلعله أراد أنه ليس في أصل العربية وقد عده ابن السبكي في الألفاظ الواردة في القرآن بغير لغة العرب في أبيات ذكر فيها ذلك. وقال ابن سيده: القسور الأسد والقسورة كذلك أنثوة كما قالوا أسامة

وعلى هذا فهو تشبيه مبتكر لحالة إعراض مخلوط برعب مما تضمنته قوارع القرآن فاجتمع في هذه الجملة تمثيلان وإيثار لفظ ﴿قَسَوْرَمَ﴾ هنا لصلاحيته للتشبيهين.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (الْمُلْكُ: ٥٦).

أعاد كلمة ﴿أَهْلُ﴾ ولم يقل: «هو أهل التقوى والمغفرة» للإشارة إلى اختلاف المعنى بين أهل الأول وأهل الثاني على طريقة إعادة فعل ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (النِّسَاء: ٥٩)، أفاده ابن عاشور.

قلت: يعني أن المعنى: أنا أهل لأن أتقى، فمن اتقاني فأنا أهل أن أعفر له كما ورد في حديث - ضعيف السند - عند الترمذي، ولو قال: «هو أهل التقوى والمغفرة» لربما ظن أن المراد: هو أهل لأن يتقي ولأن يُعفر له، وحاشا لله ذلك.



سُورَةُ الْقِيَامَةِ

قال أبو حيان: ومناسبتها لما قبلها أن في آخر ما قبلها قوله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ
الْآخِرَةَ ۝٥٢﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ۝. وفيها تذكرة من أحوال القيامة فذكر هنا يوم القيامة
وجملاً من أحوالها.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝١﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (الْقِيَامَةِ: ١، ٢).

قال ابن القيم: وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة، ومحل
الكسب، وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاققتها
وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر، ويدلها عليه، ويرشدها إليه، ويلهمها إياه
فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما
تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة، لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يعرفها
ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره، وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن
كانت سعيدة، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لوماً بحق،
قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه، ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق
بالرسالة والقرآن، وأنها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح، ولا فلاح بدونه ألبتة، ولما كان
يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ يُجِبُونَ الْعَجَلَةَ ۝٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ (الْقِيَامَةِ: ٢٠، ٢١).

قال د. فاضل: ثم انظر كيف اختار الفعل ﴿وَتَذَرُونَ﴾ على «تتركون» ذلك أن في
﴿وَتَذَرُونَ﴾ حذفاً وأصله «توذرون» من «وذر» ليدل ذلك على طابع العجلة في الذي
يريد أن ينتهي من الشيء في أقرب وقت فاختيار هذا الفعل المحذوف الواو، مناسب
لجو العجلة. وقد تقول: ولم لم يقل: «تدعون» وهو فيه حذف كما في ﴿وَتَذَرُونَ﴾؟

والجواب - والله أعلم - : أن اختيار ﴿ وَتَذَرُونَ ﴾ على «تدعون» له سببه ذلك أن الفعل «وذر» في عموم معانيه يفيد الذم، ومنه قولهم: امرأة وذرة أي: يكنى به من القذف. وفي الحديث: «شر النساء الذرة المذرة». بخلاف «ودع» فإن من معانيه الراحة والدعة وخفض العيش. وقد يفيد المدح ومنه قولهم: رجل وديع أي: هادئ ساكن في حين أن الموقف موقف ذم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرٌ ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ (الْفَيْلَمَنَةُ : ٢٢، ٢٣)، فقال: ﴿ رَبِّهَا ﴾ ولم يقل: «إلاهها» لأنَّ الإنعام عليهم والإلطف بالنعم يوم القيامة أليق بصفة الرب الذي خلق ورزق ويربي خلقه باللطف والإنعام، واسم الإله ألصق بالتكليف وهو ينقطع في الجنة. كما أنَّ الرب هو الذي خلق القلوب والنفوس، وهو أعلم بقدر الإيمان فيها، وسعادتهم في نظرهم إلى ربهم على قدر إيمانهم، كما أنَّ كثرة مرات هذا النظر وقلته أيضاً على قدر إيمانهم، وهذا الإيمان إنما هو محض فضل ربهم الذي خلق القلوب ورزقها الإيمان.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَنْظُرُونَ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (الْفَيْلَمَنَةُ : ٢٥).

قال د. فاضل: وذكر لاختيار فعل الظن سبب آخر هو أن الظان لا يعلم نوع العقوبة، ولا مقدارها فيبقى وجلاً أشد الوجل، خائفاً أعظم الخوف من هذا الأمر الذي لا يعلم ما هو ولا مداه ولا كيف يتقيه. ألا ترى أن الذي يعلم ما سيحل به يكون موطناً نفسه على ذلك الأمر بخلاف الذي لا يعلم ماذا يتقي، وما مداه. وما نوع تلك الفاقة. جاء في (روح المعاني): «وجيء بفعل الظن ههنا دلالة على أن ما هم فيه وإن كان غايةً في الشر إلا أنَّ ما يتوقع بعده أشد منه وهكذا أبداً.. وإذا كان ظاناً كان أشد عليه مما إذا كان عالماً موطناً نفسه على الأمر».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوَّلَى لَكَ فَأُولَى ﴾ (٣٤) ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى ﴾ (الْفَيْلَمَنَةُ : ٣٤، ٣٥).

بيّن د. فاضل وجه قوله: ﴿فَوَاطِي﴾ دون ﴿لَكَ﴾ كما في الأولى ﴿أَوَّلَكَ﴾، فقال: جاء في «فتح القدير»: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ أي: لم يصدق بالرسالة ولا بالقرآن ولا صلى لربه.. وقيل: فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه. أ. هـ. ولا شك أن عدم الصلاة فهو أخف. ذلك أن المؤمن إذا قصر في الطاعات تكاسلاً فقد يغفر الله له أو يتجاوز عنه، لأنه لا يزال في دائرة الإسلام. وقد قال أكثر الفقهاء: أن المسلم إذا ترك الصلاة تهاوناً تكاسلاً غير جاحدٍ لفرضيتها لا يُخرجُه ذلك عن الإسلام. أما إذا لم يؤمن ولم يصدق فلا ينفعه شيء، وإن ضل مظاهر ولذا كانت قوة التهديد بمقابل قوة الوصف. فقال مقابل: ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ ﴿أَوَّلَكَ لَكَ﴾. فذكر ﴿لَكَ﴾ ومقابل ﴿وَلَا صَلَّى﴾ ﴿فَوَاطِي﴾. بحذف ﴿لَكَ﴾ إشارة إلى عظم الإيمان وأهميته، وإشارة إلى أن الصفتين المذكورتين ليستا بدرجة واحدة في الضلال. فهذا الحذف ليس للفاصلة فقط، وإن كانت الفاصلة تقتضيه أيضاً وإنما هو للمعنى وللفاصلة. أ. هـ.

قلت: لما ذكر صفتين: عدم التصديق وعدم الصلاة، كرر التهديد، فكأنه قال: فلا صدق.. أولى له، ولا صلى... أولى له.

فائدة: قال د. فاضل السامرائي: وجاء في «فتح القدير» في قوله: ﴿أَوَّلَكَ لَكَ فَوَاطِي﴾ (٢٤) ثُمَّ أَوَّلَكَ لَكَ فَوَاطِي ﴿قيل: ومعنى التكرير لهذا اللفظ أربع مرات: الويل لك حياً، والويل لك ميتاً، والويل لك يوم البعث، والويل لك يوم تدخل النار. لذا جاء بالفاء بين الأولين لقربهما وتعجيلهما فقال: ﴿أَوَّلَكَ لَكَ فَوَاطِي﴾ فإن ما بين العذابين قريب، وهو عذاب الدنيا وعذاب القبر.

وكذلك جاء ما بين العذابين الآخرين بالفاء، لقربهما من بعضهما وهو ﴿أَوَّلَكَ لَكَ فَوَاطِي﴾ الثانية فإنهما متصلان بيوم القيامة ودخول النار. فكل عذابين قريبين من بعضهما فصل بينهما بالفاء. وقد فصل بـ ﴿ثُمَّ﴾ للفاصل الزمني البعيد بين كل منهما.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفَعْ مِنْ مَنِيِّ يُمْنَى﴾﴾ (الْقِيَامَةُ : ٣٧).

قال د. فاضل: قوله: ﴿يَكْ﴾ حذف نون «يكن» لسببين والله أعلم:

الأول: مراعاة لجانب العجلة التي طبعت به السورة وتكررت مظاهره في أكثر من موطن، فحذف نون «يكن» للفراغ من الفعل بسرعة وهو الملائم لجو العجلة في السورة. الثاني: أن الإنسان لا يكون إنساناً من المنى وحده حتى يراق في الرحم ويلتقي بالبويضة. فالمنى والبويضة يكتمل الخلق وبهما يتم الإنسان أما المنى وحده، فلا يكون منه إنسان وكذلك البويضة وحدها. فنقص من فعل الكون إشارة إلى أن التطوير المذكور في الآيات هذه لا يكون إلا بهما معاً أما المنى فهو جزء من السبب ولم يتم الفعل إشارة إلى ذلك. ومعنى ﴿يُمْنَى﴾: يراق في الرحم، فإن لم يمن فلا تكوين. وهذا من مواطن الحذف البديعة.



سُورَةُ الْاِنْسَانِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ وَسَعِيرًا ﴾ ﴾ (الْاِنْسَانِ : ٤) .

قال ابن عاشور: وأصل ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ أي أعددنا بدالين أي هيئنا للكافرين؛ يقال: أعتد كما يقال أعد قال تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَثَكًا ﴾ . وقد تردد أئمة اللغة في أن أصل الفعل بدالين أو بقاء ودال فلم يجمعا بأيهما الأصل لكثرة ورود فعل أعد وفعل أعتد في الكلام. والأظهر أنها فعلا نشتا من لغتين غير أن الاستعمال خص الفعل ذا التاء بعدة الحرب فقالوا: عتاد الحرب ولم يقولوا: عداد. وأما العدة بضم العين فتقع على كل ما يعد وهيأ يقال: أعد لكل حال عدة ويطلق العتاد على ما يعد من الأمور. والأكثر أنه إذا أريد الإدغام جيء بالفعل الذي عينه دال وإذا وجد مقتضى فك الإدغام لموجب مثل ضمير المتكلم جيء بالفعل الذي عينه تاء.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ وَسَعِيرًا ﴾ ﴾ (الْاِنْسَانِ : ٤، ٥)، فلما ذكر الكفار ذكر ما أعد لهم فقال: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ ولم يقل: ﴿ إنا أعددنا للأبرار كذا وكذا ﴾ ولا قال: ﴿ إنا الكافرين لهم كذا وكذا ﴾ . وقال مع الأبرار: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ وَسَعِيرًا ﴾ . ويذوقون فيها أشد ألوان العذاب - وإنا أعددنا للأبرار جنات النعيم - يشربون فيها من كأسٍ كان مزاجها كافوراً ﴾ فحذف الجملة الثانية ودل عليها بالجملة الرابعة وحذف الجملة الثالثة ودل عليها بالجملة الأولى.

ويلاحظ أنه قال: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ بناء الفاعلين للدلالة على عظيم ما أعد سبحانه للكفار من السلاسل والأغلال وأنواع العذاب والسعير.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَدَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ (الْأَنْتَكَ : ١١)، فقال: ﴿ وَلَقَّاهُمْ ﴾

ولم يقل: «أعطاهم» ليدل على أن هذه النضرة في الوجوه وهذا السرور في القلب إنما يكون أعظم ما يكون ويزداد بقاءهم ربهم، كما في الحديث أنهم إذا زاروا ربهم ثم عادوا إلى أهلهم يجدون أهلهم قد ازدادوا جمالاً ويجد أهلهم كذلك.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (الْأَنْتَكَ : ١٢)، فقال: ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ بعد

قوله: ﴿ جَنَّةً ﴾ لحكمة عظيمة - وهي والله أعلم - أن مجرد دخول الجنة ولو أن يكون المرء خادماً فيها، فضل عظيم، وهل أعظم من النجاة من النار؟! فإذا كان من ساكني الجنة فهذا فضل زائد، فإذا كان مالكا فهذا فضل زائد، فإذا كان ملكاً فهذا هو الفضل العظيم، وكل أهل الجنة ملوك، فلما قال: ﴿ جَنَّةً ﴾ احتمل أن يكون خادماً أو مجرد ساكن أو مالكا، فلما قال: ﴿ وَحَرِيرًا ﴾ دل على أنهم فيها ملوك. اللهم إنا نرضى بمجرد دخول الجنة ولكن لا تعذبنا بالنار!! ولكن لا غنى بنا عن فضلك ورحمتك في أن تجعلنا من ملوك الجنة بلا عذاب ولا حساب!!

ومن أراد أن يعلم عظيم الفضل في مجرد الزحزحة عن النار ودخول الجنة، فليقرأ ما ورد في حديث آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً فيها، وكيف أنه طلب من ربه مجرد صرف وجهه عن النار ثم مجرد القرب من الجنة ثم مجرد دخول الجنة، ولعل الله قدّر وقوع ذلك قبل دخوله الجنة واستقراره فيها ليعلم أهل الجنة - وهو منهم - عظيم الفضل في دخول الجنة.

فائدة: ذكر نعيم أهل الجنة آية آية دون أن يذكر ذلك في آية واحدة دليل على أن مجرد دخول الجنة نعمة عظيمة، وأن كل نعيم فيها فضل كبير، ولذا ورد بعد ذكر كل مظهر من مظاهر نعيم الجنة في سورة الرحمن قوله: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِغَابِئَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾

(الْأَنْتَكَ : ١٥، ١٦)

قال د. فاضل: فأطلق ﴿فَوَائِدًا﴾ الأولى بالألف وكان حقها ألا تطلق لأنها ممنوعة من الصرف ومن دواعي ذلك - والله أعلم - أنه أطلق الصوت فيها مناسبة لإطلاق جنسها ونوعها فهو لم يبين نوع القوارير ولا من أي جنس هي فأطلقها لذلك. ولما قيد جنسها في الآية التي تليها فقال: ﴿فَوَائِدًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ لم يُطْلَقْهَا.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الْأَنْعَامُ: ٢١).

قال أبو حيان: لما كان قوله: ﴿خُضْرٌ﴾ يدل على الخضرة وهي لون ذلك السندس وكانت الخضرة مما يكون لشدها دهمة وغبش أخبر أن في ذلك اللون بريقاً وحسناً يزيل غبشته ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا نَظْعَ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (الْأَنْعَامُ: ٢٤).

قال ابن عاشور: أمر الله رسوله بالصبر على أعباء الرسالة وما يلقاه فيها من أذى المشركين وشدّ عزمته ألا تخور، وسمى ذلك حكماً لأن الرسالة عند الله لا خيرة للمرسل في قبولها والاضطلاع بأمورها ولأن ما يحف بها من مصاعب إصلاح الأمة وحملها على ما فيه خيرها في العاجل والآجل وملاقة أصناف الأذى في خلال ذلك حتى يتم ما أمر الله به كالحكم على الرسول بقبول ما يبلغه وبذل منتهى الطاقة إلى أجل معين عند الله. وعدّى فعل ﴿فَاصْبِرْ﴾ باللام لتضمنين الصبر معنى الخضوع والطاعة للأمر الشاق.



سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْقِذَ ﴾ (الْمُرْسَلَاتِ: ٨ - ١١).

قال ابن عاشور: كررت كلمة ﴿ وَإِذَا ﴾ في أوائل الجمل المعطوفة على هذه الجملة بعد حروف العطف مع إغناء حرف العطف عن إعادة «إذا» كما في قوله: ﴿ فَإِذَا بَرَقَ أَبْصَرُ ﴾ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَنُ ﴿ (الْقِيَامَةِ: ٧ - ١٠)، لإفادة الاهتمام بمضمون كل جملة من هذه الجمل ليكون مضمونها مستقلاً في جعله علامة على وقوع ما يوعدون. وبناء هذه الأفعال الثلاثة بصيغة المبني للمجهول لأن المقصود الاعتبار بحصول الفعل لا بتعيين فاعله على أنه من المعلوم أن فاعلها هو الله تعالى؛ إذ لا يقدر عليه غيره.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (الْمُرْسَلَاتِ: ٣٥، ٣٦).

قال ابن عاشور: وعطف ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ على جملة ﴿ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أي لا يؤذن إذناً يتفرع عليه اعتذارهم أي لا يؤذن لهم في الاعتذار فالاعتذار هو المقصود بالنفي وجعل نفي الإذن لهم توطئة لنفي اعتذارهم ولذلك جاء ﴿ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ مرفوعاً ولم يجيء منصوباً على جوانب النفي إذ ليس المقصود نفي الإذن وترتب نفي اعتذارهم على نفي الإذن لهم إذ لا محصول لذلك؛ فلذلك لم يكن نصب ﴿ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ مساوياً للرفع بل ولا جائزاً بخلاف نحو ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ فإن نفي القضاء عليهم وهم في العذاب مقصود لذاته لأنه استمرار في عذابهم ثم أجيب بأنه لو قضى عليهم لماتوا أي فقدوا الإحساس فمعنى الجوابية هنالك مما يقصد. ولذا فلا حاجة هنا إلى ما ادعاه أبو البقاء أن ﴿ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ استئناف تقديره فهم يعتذرون ولا إلى ما قاله ابن عطية تبعاً للطبري إنه لم ينصب لأجل تشابه رؤوس الآيات. وبعد فإن مناط النصب في جواب النفي قصد المتكلم جعل الفعل جواباً للنفي لا مجرد وجود فعل مضارع بعد فعل منفي.

سُورَةُ النَّبَاِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ ﴾ (النَّبَا: ٢٧)، فقال ﴿ يَرْجُونَ ﴾ ولم يقل «يتوقعون» ولا «يرقبون» مع أَنَّ الرجاء اشتهر في ترقب الأمر المحبوب، والحساب ليس خيراً لهم حتى يُجعل من قبيل نفي الرجاء، فكان الظاهر أن يعبر عن ترقبه بهادة التوقع الذي هو ترقب الأمر المكروه، ووجه العدول عن ذلك هو التعريض بالمسلمين الذين يرجون يوم الحساب ويتربونه ترقب رجاء، فكان نفي رجاء يوم الحساب عن المشركين جامع بصريحه معنى عدم إيمانهم بوقوعه وبكنايته رجاء المؤمنين وقوعه بطريقة الكناية التعريضية تعريضاً بالمسلمين، وهي أيضاً تلويحية لما في لازم مدلول الكلام من الخفاء. وقال ﴿ كَانُوا ﴾ ليدل على أَنَّ انتفاء رجائهم الحساب وصف متمكن من نفوسهم وهم كائنون عليه، أفاده ابن عاشور.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ جَزَاءُ مَنْ رَزَقَهُ عِطَاءَ حِسَابًا ﴾ ﴾ (النَّبَا: ٣٦)، فقال ﴿ رَزَقَ ﴾ للإيماء إلى أَنَّ جزاء المتقين بذلك يشتمل على إكرام النبي ﷺ لأنَّ إسداء هذه النعم إلى المتقين كان لأجل إيمانهم به وعملهم بها هداهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ ﴾ (النَّبَا: ٤٠)، فقال: ﴿ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ ولم يقل: «ينظر إلى» ليضمنها فعل «يتبين» وهو لا يتعدى، ولم يقل: «يتبين» ليدل على أَنَّ هذا التبين إنما يكون بالنظر إلى عمله مسطوراً مكتوباً، فكانه قال: «ينظر إلى ما كتب من عمله ويتبين حقيقة ما قدمت يده»، فاللهم استرنا في الدنيا والآخرة!! ولا تجعلنا ممن عمل أعمالاً ظنها صالحة، فإذا به يتبين حقيقتها الطالحة الفاسدة يوم القيامة!! ومن منا سلم من الرياء والعجب أو المن والأذى!!

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّزْعَتِ غَرَقًا﴾ (النَّازِعَاتِ : ١).

قال الشيخ عطية سالم: النازعات جمع نازعة، والنزع: جذب الشيء بقوة من مقره، كنزع القوس من كبده، والإغراق المبالغة، والاستغراق الاستيعاب. أ.هـ.

قلتُ: فعلى القول المختار - والله أعلم - وهو أنَّ النازعات: هي الملائكة تنزع أرواح الكافرين بشدة، يكون في الآية الدلالة على المبالغة والقوة في نزع أرواح الكافر، وتدل كذلك على استيعاب النزع والألم والشدة والعذاب لكل مفصل وكل عرق وكل جزء، فياله من عذابٍ!! ويا لها من شدة!! اللهم توفنا على الإسلام!! اللهم آمين!!

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّشِطَتِ دَشَاطًا﴾ (النَّازِعَاتِ : ٢).

قال الشيخ عطية سالم: قيل أصل الكلمة: النشاط والخفة، والأنشطة: العقدة سهلة الحل، ونشطة بمعنى ربطة، وأنشطه حله بسرعة وخفه، ومنه قوله ﷺ: «فكأنها أنشط من عقال». اهـ.

قلتُ: فعلى القول المختار - والله أعلم - وهو أنَّ الناشطات: هي الملائكة تنزع أرواح المؤمنين، يكون في الآية الدلالة على سهولة خروج روح المؤمن وخفة معالجة الملائكة لخروجها، وتدل كذلك على نشاط أرواح المؤمنين عند النزع، وسبب ذلك - والله أعلم - هو ما تُبَشِّرُ به من الروح والرضوان، ولما تعانيه من علامات الرضا والقبول.

﴿ قَالَ تَعَالَى عَنِ الْكَفَّارِ: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ (١٠) ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا خِجْرَةً﴾

(١١) ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (النَّازِعَاتِ : ١٠ - ١٢)، ذكر قولهم الأول بقوله ﴿يَقُولُونَ﴾، وقولهم الثاني بقوله ﴿قَالُوا﴾، وذلك لأنَّ غرض قولهم الأول الإنكار والإبطال، وهو

حجة ناهضة في زعمهم، فكان يتكرر منهم في كل مقام، فكان الفعل المضارع أدلّ على ذلك، وأمّا مقالتهم الثانية فإنّ غرضهم منها الاستهزاء، لأنهم لا يؤمنون بتلك الكرة فوصفهم إياها بـ ﴿خَاسِرَةٌ﴾ من باب الفرض والتقدير، أي لو حصلت كرة لكانت خاسرة، فذكرها بصيغة الماضي للدلالة على أنها لا تتكرر منهم. وكرر ذكر القول فقال ﴿يَقُولُونَ﴾، ﴿قَالُوا﴾ للدلالة على اختلاف الغرض بكل قول، ولدفع توهم أن تكون جملة ﴿تِلْكَ إِذَا كَرَّ خَاسِرَةٌ﴾ استثناءً من جانب الله تعالى، أفاده ابن عاشور.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

(النّازعات: ٤٠، ٤١)

قال في (الظلال): ونهى النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان وكل تجاوز وكل معصية وهو أساس البلوى وينبوع الشر وقُل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى فالجهل سهل علاجه ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها.

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة وقُل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة، فالذي (يتكلم) هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها الخبير بدوائها. وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنياتها ويعلم أين تكمن أهوائها وأدواؤها وكيف تطارد في مكانها ومخابئها. ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها وأن يستعين في هذا بالخوف؛ الخوف من مقام ربه الجليل العظيم. وكتب له بهذا الجهاد الشاق الجنة مثابة ومأوى ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد وقيّمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى.

إن الإنسان إنسان بهذا النّهي وبهذا الجهاد وبهذا الارتفاع، وليس إنساناً بترك نفسه لهواها. وإطاعة جواذبه إلى دركها بحجة أن هذا مركب في طبيعته. فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه ونهي النفس عنه ورفعها عن جاذبيته وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى.

وهناك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان تلك هي حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة والتصرف بها في توازن. وهناك حرية حيوانية: هي هزيمة الإنسان أمام هواه وعبوديته لشهوته وانفلات الزمام من إرادته وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداءاً زائفاً من الحرية!

إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى وتهاياً للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهاياً للحياة في درك الجحيم حيث تهدر إنسانيته ويرتد شيئاً توقد به النار التي وقودها الناس - من هذا الصنف - والحجارة.

وهذه وتلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة الأشياء.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿كَانَ يَوْمَ يَرْوُهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِشِيَّةً أَوْ صُحُوحًا﴾﴾ (التَّائِيَاتُ: ٤٦).

تنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها. أفمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة؟ ألا إنها الحماقة الكبرى التي لا يرتكبها إنسان يسمع ويرى. أفاده في (ظلال القرآن).



سُورَةُ عَبَسَ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿ ١ ﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ (عَبَسَ : ١، ٢)، فقال: ﴿ الْأَعْمَى ﴾ لبيان عذره في تكرار سؤاله لرسول الله مع أنه ﷺ كان مشغولاً بمحادثة غيره، وهو أنه لم ير ذلك، ويحتمل كذلك ذكر وصفه الذي يوجب العطف عليه والرفق به، لأنه قد يقال: إن كان لم ير فإنه كان يسمع محادثة الرسول للمشركين، ويحتمل أن يكون وصفه هكذا من أجل التعريض بغيره من صناديد المشركين، لكفرهم رغم وجود حاسة البصر عندهم، ويحتمل أن يكون وجه التعريض هو أنهم مع كونهم يبصرون رسول الله، فهي هو عبد الله بن أم مكتوم يؤمن بالحق مع كونه لا يرى وجه رسول الله، ذلك الوجه الذي ليس بوجه كذاب ولا مفترٍ، ولذا صدّقه ابن سلام لما رآه.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿ ٣٤ ﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿ ٣٥ ﴾ وَصَجِيئِهِ وَبَنِيهِ ﴿ ٣٦ ﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ ﴾ (عَبَسَ : ٣٤ - ٣٧) بينما قال في سورة المعارج: ﴿ يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ ﴿ ١١ ﴾ وَصَجِيئِهِ وَأَخِيهِ ﴿ ١٢ ﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿ ١٣ ﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ (المعارج : ١١ - ١٤).

قال د. فاضل: بدأ في سورة عبس بذكر الأخ فالأم فالأب فالصاحبة ثم الأبناء في الأخير وفي سورة المعارج على عكس ذلك فقد بدأ بالأبناء فالصاحبة فالأخ فالفصيصة ثم انتهى بأهل الأرض أجمعين. وسبب ذلك - والله أعلم - أن المقام في عبس مقام الفرار والهرب قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ ﴾ والإنسان يفر من الأبعد أولاً ثم ينتهي بالصق الناس به وأقربهم إليه فيكونون آخر من يفر منهم والأخ أبعد المذكورين في الآية من المرء وإن الصقهم به وزوجه وأبنائه. فنحن ملتصقون في حياتنا بأزواجنا وأبنائنا أكثر من التصاقنا بإخواننا وآبائنا وأمهاتنا فقد تمر شهور بل ربما أعوام ونحن لا

نرى إخواننا في حين ناوي كل يوم إلى أزواجنا وأبنائنا. والإنسان قد يترك أمه وأباه ليعيش مع زوجه وأبنائه وهو ألصق بأبنائه من زوجه فقد يفارق زوجه ويسرحها ولكن لا يترك ابنه فالأبناء آخر من يفر منهم المرء ويهرب. وهكذا رتب المذكورين في الفرار بحسب العلائق فأقواهم به علاقة هو آخر من يفر منه فبدأ بالأخ ثم الأم ثم الأب وقدم الأم على الأب ذلك أن الأب أقدر على النصر والمعاونة من الأم وهو أقدر منها على الإعانة في الرأي والمشورة وأقدر منها على النفع والدفع، فالأم في الغالب ضعيفة تحتاج إلى الإعانة بخلاف الأب. والإنسان هنا في موقف خوف وفرار وهرب فهو أكثر التصاقاً في مثل هذه الظروف بالأب لحاجته إليه؛ ولذا قدم الفرار من الأم على الفرار من الأب وقدم الفرار من الأب على الفرار من الزوجة لمكانة الزوجة من قلب الرجل وشدة علاقته بها فهي حافظة سره وشريكته في حياته ثم ذكر الفرار من الأبناء في آخر المطاف ذلك لأنه ألصق بهم وهم مرجوون لنصرته ودفع السوء عنه أكثر من كل المذكورين، أما السياق في سورة المعارج فهو مختلف عما في عبس ذلك أنه مشهد من مشاهد العذاب الذي لا يطاق فقد جيء بالمجرم ليقذف به في هذا الجحيم المستعر وهذا المجرم يود النجاة بكل سبيل ولو أدى ذلك إلى أن يبدأ بابنه فيضعه في درجات لظى فرتب المذكورين ترتيباً آخر يقتضيه السياق وهو البدء بالأقرب إلى القلب والأعلى بالنفس فيفتدي به فضلاً عن الآخرين.

ثم إن اختيار كلمة «مرء» أنسب من كلمة «رجل» أيضاً؛ ذلك أن ﴿الْمَرْءُ﴾ يشمل الصغار والكبار فهي أعم من كلمة «رجل» التي تشمل الكبار من هذا الجنس (كما) أن مشهد الفرار ينتظم الثقلين أجمعين. فانظر كيف اختار كلمة «مرء» بدل «إنسان» و«رجل» لاعتبارات متعددة فهي أعني ﴿الْمَرْءُ﴾ تعني الإنسان وتعني الرجل ثم هي لا تخص رجال الإنس بل تعمهم وتم رجال الجن ولا تختص الكبار بل تشمل الكبار والصغار.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

❖ قَالَ تَعَالَى عَنْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ (التَّكْوِيْنِ: ١٩، ٢٠)، قال ابن عاشور: ذكر ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ بين قوله ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، وقوله ﴿مَكِينٍ﴾ دون أن يقول: «إنه لقول رسول كريم عند ذي العرش ذو قوة ومكين» ليتنازعه كلا الوصفين على وجه الإيجاز، أي هو ذو قوة عند الله، أي جعل الله مقدرة جبريل تخوله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله به مما يحتاج إلى قوة القدرة وقوة التدبير، وهو ذو مكانة عند الله وزلفى.

❖ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ (التَّكْوِيْنِ: ١٩ - ٢١)

قال الشيخ عطية سالم: في قوله: ﴿مَكِينٍ﴾ نصٌّ في تمكينه من حفظ ما أرسل به وصيانيته عن التغيير والتبديل، وفي قوله: ﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾ بيان أنه مطاع لا يؤثر عليه غيره، وفي قوله: ﴿أَمِينٍ﴾ بيان أنه لا يخون ولا يبدل، فكان القراءان مصوناً من أن يتسلط أحدٌ عليه فيغيره، ومن أن يغيره الذي جاء به.



سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١١﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ ﴾ (الانفطار: ١٣، ١٤)، فقال:

﴿ الْأَبْرَارَ ﴾ على جمع القلة وقال: ﴿ الْفُجَّارَ ﴾ على جمع الكثرة، بينما قال: ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿ (عَبَسَ: ١٥، ١٦)، فقال: ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ على جمع الكثرة، قال د. فاضل: لما كان الأبرار قلة إذا قيسوا بالفجار، فقال: ﴿ الْفُجَّارَ ﴾ على جمع الكثرة، و﴿ الْأَبْرَارَ ﴾ على جمع القلة، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿يُؤْتِيكَ: ١٠٣﴾، وقال: ﴿ وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ﴿الانفطار: ١١٦﴾، وأما آية عبس فقال: ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ على جمع الكثرة لأن الملائكة كلهم كذلك بخلاف البشر. أ.هـ.

قلت: ويحتمل كذلك أن يكون وجه قوله: ﴿ الْأَبْرَارَ ﴾ على جمع القلة الدلالة على أن البار قد لا يخلو من ارتكاب من اللمم، ففي برّه نوع قلة بالنسبة إلى ما هو أكمل إلا أنه في نعيم، وأما الملائكة فبرهم غير مشوب بمعصية أصلاً ولا حتى إرادتها، فجاء بجمع الكثرة ﴿بَرَرَةٍ﴾ للدلالة على كثرة هذا البر. ويحتمل كذلك أن تدل كلمة ﴿ الْأَبْرَارَ ﴾ على أن بر المرء وإن كان قليلاً سينفعه ويكون سبباً لتنعمه ولا يشترط كمال البر طالما كان المرء مسلماً.

فائدة: قال د. فاضل: أمثلة جمع القلة «أفعل» كأشهر، و«أفعال» كأشياخ، و«أفعله» كأغربة، و«فعله» كشَيْخَة وَفْتِيَة، وزاد الفراء «فعله» كقوله: «هم أَكَلَة رَأْسِي» وردّه بعضهم بأن القلة مفهومة من قرينة شعبهم بأكل رأس واحد لا من إطلاق فعلة، ونقل التبريزي أنّ منها «أفعلاء» كأصدقاء، غير أنّ الجمهور على الأمثلة الأولى الأربعة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ ﴿التَّحْقُّق: ١٩٧﴾، وقال: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ ﴿التَّحْقُّق: ٢٣٤﴾، وقال: ﴿ فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ ﴿التَّوْحِيد: ٥﴾، فقال: ﴿ أَشْهُرٌ ﴾ وهو جمع قلة بينما قال: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ ﴿التَّوْحِيد: ٣٦﴾، فقال: ﴿ الشُّهُورِ ﴾ لأنّ السياق في هذه الآية الأخيرة عن جميع الشهور بخلاف الآيات السابقة.

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿ ﴾ ﴾ لَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ ﴾ (الْاِنْشِقَاقُ: ١٦ - ١٩).

قال ابن عاشور: مناسبة الأمور المتسم بها هنا للمقسم عليه أنّ الشفق والليل والقمر تخالط أحوالاً بين الظلمة وظهور النور معها أو في خلاها، وذلك مناسب لما في قوله ﴿ لَتَرَكِبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ من تفاوت الأحوال التي يتخبط الناس فيها يوم القيامة أو في حياتهم، أو من ظهور أحوال خير في خلال شر أو انتظار تغير الأحوال إلى ما يرضيهم إن كان الخطاب للمسلمين خاصة. ولعلّ ذكر الشفق إيحاء إلى أنه يشبه حالة انتهاء الدنيا لأنّ غروب الشمس مثل حالة الموت، وذكر الليل إيحاء إلى شدة الهول يوم الحساب وذكر القمر إيحاء إلى حصول الرحمة للمؤمنين.



سُورَةُ الْبُرُوجِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿ ١٤ ﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ ﴾ (الْبُرُوجِ : ١٤، ١٥).

قال في (الظلال): أما الود.. فيتصل بموقف المؤمنين، الذين اختاروا ربهم على كل شيء. وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم. حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحبونه إلى مرتبة ودرجة الود من الله لأودائه وأحبائه المقربين.. فماذا تكون الحياة التي ضحوا بها وهي ذاهبة؟ وماذا يكون العذاب الذي احتملوه وهو موقوت؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب؟

إن عبيداً من رقيق هذه الأرض. عبيد الواحد من البشر، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه، أو لمحة رضاء تبدو في وجهه.. وهو عبد وهم عبيد.. فكيف بعباد الله. الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل، الله ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ العالي المهيمن الماجد الكريم؟ ألا هانت الحياة. وهان الألم. وهان العذاب. وهان كل غال عزيز، في سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد.



سُورَةُ الْأَعْلَى

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيُسِّرُّكَ لِلْيُسْرَى ﴾ ﴾ (الأعلى: ٨)، فقال «يسرك لليسرى» مع أن ظاهر النظم أن يقال «ونيسر اليسرى لك»، ولكن عدل إلى ما جاء النظم عليه تنزيلاً للشيء الميسر له، والعكس للمبالغة في ثبوت فعل التيسير للرسول ﷺ على طريقة القلب المقبول، كقول العرب: عرضت الناقة على الحوض، أفاده ابن عاشور.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ﴾ (الأعلى: ١٦)، ولم يذكر المؤثر عليه وذلك للدلالة على حقارة ودناءة الدنيا، حتى أن مجرد إثارتها مذموم بغض النظر عن ذكر المؤثر عليه، وإن كان المراد معلوماً، وهو إثارتها على الآخرة.

سُورَةُ الْجَاشِيَةِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿ ١١ ﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ ﴾ (الجاشية: ١١، ١٢)، فذكر الصفتين دون واو بينهما، قال ابن عاشور: إنما لم تعطف الجملتان لاختلافهما بالفعلية في الأولى (أي الجملة الأولى فعلية) والاسمية في الثانية، وذلك الاختلاف من محسنات الفصل، ولأن جملة ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴾ مقصود منها التنزه عن النقائص، وجملة ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ مقصود منها إثبات بعض محاسنها.



لأعمالهم. فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط وبفيضه وغمره ... حين يذكر الصب حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد.

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاسٍ رَصَادٍ ﴾. تفيض طمأنينة خاصة. فربك هناك. راصد لا يفوته شيء. مراقب لا يند عنه شيء. فليطمئن بال مؤمن، ولينم ملء جفونه. فإن ربك هناك!! بالمرصاد.. للطغيان والشر والفساد! وهكذا نرى هنا نماذج من قدرة الله في أمر الدعوة، غير النموذج الذي تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود. وقد كان القرآن. ولا يزال يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك وفق الحالات والملايسات. ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء. لتطمئن على الحالتين. وتتوقع الأمرين. وتكل كل شيء لقدر الله يحريه (كيف) يشاء.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ ﴾ (الفتحة: ١٧، ١٨)، فقال ﴿ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ ولم يقل «إطعام» ولا «إعطاء طعام» مثلاً ليشمل المعنيين بلفظة واحدة، فإن كلمة «طعام» تحتمل أن تكون - كما قال ابن عاشور - اسماً بمعنى المطعوم، والتقدير: لا تحضون على إعطاء طعام المسكين، وتحتمل أن تكون اسم مصدر أطعم والمعنى: ولا تحضون على إطعام المساكين، وهذه دقة قرآنية عظيمة.

وها هنا فائدة بليغة أخرى، أفادها ابن عاشور: وهي أن في الآية احتباكاً، لأنه لما نفى إكرام اليتيم وقبول بنفي الحض على طعام المسكين، علم أنهم لا يحضون على إكرام أيتامهم، وعلم أنهم لا يطعمون المساكين من أموالهم، فكأنه قال «بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على ذلك ولا تطعمون المساكين ولا تحضون على ذلك»، فأكرم بحلاوة القرءان العظيم!!!

سُورَةُ الْبَلَدِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿ ﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿ ﴾ ﴾ (البَلَدُ : ١ - ٤) .

قال: ﴿ لَا أَقْسِمُ ﴾ ولم يقل: ﴿ أَقْسِمُ ﴾، فقليل: ﴿ لَا ﴾ زائدة للتأكيد والتعظيم، والمعنى: ﴿ أَقْسِمُ ﴾، وقيل: ﴿ لَا ﴾ نافية، أي: لا أقسم بهذا البلد في حين أنك مستحلُّ قتلِكَ في هذا البلد. أو لا أقسم به وقد جاء أهله بأعمالٍ تستحلُّ حرمتهم وتبيح لك الوقعة بهم. وعلى معنى أن القسم مراد، فإنه يكون قد أقسم بهذا البلد لما جمعت من الشرفين شرفها بإضافتها إلى الله تعالى وشرفها بحضور رسول الله ﷺ وإقامته فيها، والأول نقله ابن عطية والرازي، والثاني ذكره في البحر المحيط.

قال في (الكشاف) في وجه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (البَلَدُ : ٤)؛ قال ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يُستحلُّ بهذا البلد الحرام كما يُستحل الصيد في غير الحرم، وعن شرحبيل: يجرمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة ويستحلُّون إخراجك وقتلك، وذكر مثله في «روح المعاني».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿ ﴾ ﴾ (البَلَدُ : ١ ، ٢) .

وفيه عدة فوائد:

١ - قوله: ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ ﴾ ولم يقل: «وأنت حال» ولا «مقيم»، وفائدة ذلك الدلالة على عدة معانٍ في آنٍ واحدٍ كلها مرادة مطلوبة؛ فإن كلمة ﴿ حِلٌّ ﴾ تأتي بمعنى الحال والمقيم، وتأتي بمعنى المستحل «اسم مفعول»، وتأتي بمعنى الحلال ضد الحرام، وتأتي بمعنى البراءة، وكلها معاني صحيحة، فرسول الله ﷺ حالٌ مقيمٌ بالبلد الحرام وقت نزول هذه الآيات، وهو كذلك بريء من أفعال المشركين وآثامهم «يقال: أنا في حلٍ من هذا أي بريء منه»، وقد كان مستحلَّ الدم والقتل فيها من المشركين - لعنهم الله - وقد

مكَّنه الله بعد من أهل مكة وأحلَّ له ربه يوم الفتح من الأسر والقتل ما لا يحل لغيره، وهذا على الاستقبال وعلى الوعد بنصره، أفاده بمعناه د. فاضل السامرائي.

٢- تكريره قوله: ﴿يَهْدَا أَلْبَدَ﴾ وذلك لفوائد منها: أنَّ العرب إذا عُنيت بلفظٍ كررته كأن يكون ذلك في موطن التشويق أو التحسر أو التعظيم أو التهويل وغير ذلك من مواطن العناية والاهتمام كقول الشاعر:

يا موقد النار بالهندي والغار ... هيَّجت لي حزنًا يا موقد النار

فكرر «يا موقد النار»، ومثله قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝﴾ (الحاقة: ١، ٢)، وقوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝﴾ (القارعة: ١، ٢)، فالتكرير في قوله: ﴿يَهْدَا أَلْبَدَ﴾ لتعظيم بلد الله الحرام.

ومنها: أنَّ المقصود بالثاني ﴿يَهْدَا أَلْبَدَ﴾ غير المقصود بالأول، فالبلد الأول قُصد به وصف لم يحصل في الثاني وهو مكة، فقوله الأول: ﴿يَهْدَا أَلْبَدَ﴾ أي البلد المحرم الذي جبلت على تعظيمه قلوب العرب، فالبلد في الأول محرم، وفي الثاني قال: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ يَهْدَا أَلْبَدَ﴾ أي أحلَّ لك ما لم يُحَلَّ لأحدٍ غيرك وهو القتل والأسر في البلد الحرام، فالبلد في الثاني محلل لرسول الله ﷺ، أفادها د. فاضل السامرائي نقلاً منه لما جاء في درة التنزيل وملاك التأويل.

قال د. فاضل: قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ ولم يقل: «يكابد» أو «مكابداً» ونحوه؛ ذلك أن ﴿فِي﴾ تفيد الظرفية والوعاء. «ومعناه: أن الإنسان خلق مغموراً في المشاق والشدائد والصعاب منغمساً فيها كما ينغمر الشيء في الماء وكما يكون الشيء في الوعاء». فالشدائد والمشاق تحيط بالإنسان لا تنفك عنه إلى أن يموت. وبعد الموت إما أن يجتاز العقبة، فيدخل الجنة فتزول عنه الشدائد والمصائب، وإما أن لا يجتازها فيبقى في المشقات والشدائد أبد الأبدين منغمراً في النار وهو أكبر الشدائد وأعظمهم.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأُ ﴾ (البقرة: ٦).

قال د. فاضل: وقد عبر عن الإنفاق بالإهلاك، فإنه لم يقل: «أنفقت مالا» كما هو الشائع في استعمال القرآن الكريم. واختيار تعبير الإهلاك في هذا الموطن أحسن اختيار وأجمله، فإنه المناسب لجو السورة وذلك أنه مناسب لجو المشاق والشدائد التي تؤدي إلى الهلاك وتفضي إليه. وهو مناسب مع ما يعانیه الرسول وأصحابه في البلد الحرام من الشدائد والمحن التي قد أدت ببعضهم إلى الهلاك كياسر وسمية، ومتناسب مع حسابان الإنسان أن لن يقدر عليه أحد فيهلكه، ومتناسب مع ذكر العقبة التي قد تفضي إلى الهلاك ومتناسب مع ذوي المسبغة من اليتامى والمساكين وهلاكهم من الجوع إن لم يطعموا ومتناسب مع خاتمة أصحاب المشأمة التي هي هلاك مقيم.

وعبر عن الإنفاق بالإهلاك لأسباب أخرى غير هذه جاء في «روح المعاني»: وعبر عن الإنفاق بالإهلاك إظهاراً لعدم الاكتراث وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع فكأنه جعل المال الكثير ضائعاً. وجاء في «التبيان»: ثم أنكر سبحانه على الإنسان قوله: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأُ ﴾ وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه إذ لو أنفق في وجوه التي أمر بإنفاقه فيها ووضع مواضعه لم يكن ذلك إهلاكاً له بل تقرباً إلى الله وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه وذلك ليس بإهلاك له فأنكر سبحانه افتخاره وتبجح به بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه بها إهلاك له. أ. هـ.

وقال د. فاضل أيضاً: واختيار «اللبد» في الآية مكان «الكثير» اختيار دقيق ذلك أن اللبد معناه الكثير المجتمع من تلبد الشيء إذا اجتمع. وهو متناسب مع اجتماع الكفرة لإيذاء الرسول والمسلمين لصدهم عن دعوتهم كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (الحج: ١٩). فاجتماع المال في الإهلاك مناسب لاجتماع

الكفرة على الرسول لإهلاكه وإهلاك دعوته وهو حلٌ بهذا البلد فانظر حُسْنَ هذا الاختيار وعلو هذا التعبير.

ثم انظر جو الاجتماع الذي تفيد كلمة «لبد» وشيوعه في السورة في الوالد وما ولد وفي العينين وفي اللسان والشفيتين في آلة النطق وفي النجدين وليس نجداً واحداً فإنه ذكر نجدين ولم يذكر نجداً واحداً كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾ (عَبَسَ : ٢٠)، وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الْأَنْشَاء : ٣). وفي تفسير العقبة بجملة أمور في ذكر المؤمنين بصيغة الجمع ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ واجتماعهم على التواصي بالصبر والرحمة أي: يوصي بعضهم بعضاً ثم في اجتماع أهل الكفار في جهنم وإيصاد النار عليهم.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾﴾ (الْبَلَد : ١٠).

قال د. فاضل: واختيار كلمة «نجد» للطريق ههنا اختيار لطيف مناسب، فإنه لم يقل كما قال في مواطن أخرى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ (الْأَنْشَاء : ٣)، أو ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾ (عَبَسَ : ٢٠) أو ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الْقَائِمَات : ٦) أو ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (الْمَائِدَة : ١٦) ذلك أن التعبير مناسب لجو السورة فإن سلوك النجد فيه مشقة وصعوبة لما فيه من صعود وارتفاع فهو مناسب للمكابدة والمشقة التي خلق الإنسان فيها، ومناسب لاقتحام العقبة وما فيه من مشقة وشدة.

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعُقَبَةَ﴾﴾ (الْبَلَد : ١١)، فقال: «لا» التي تنفي الاستقبال، ولم يقل: «لم» التي تنفي الماضي، ثم إنه لم يكرر «لا»، مع أن «لا» إذا نفت الفعل الماضي المعنى، وجب تكرارها إلا ما ندر نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (الْقَائِمَات : ٣١)؛ فقال الألوسي: المتيقن عندي أكثرية تكرارها، وأما وجوبه فليس بمتيقن، وذكر العز بن عبد السلام أن اختيار «لا» لأن النفي بها أبلغ؛ إذ يفيد نفي الماضي والمستقبل، قال د. فاضل: والذي يظهر لي - والله أعلم - أن الآية جمعت معاني عدة في آن واحد،

فهي تدل على المضي، وأنّ هذا الإنسان لم يقتحم العقبة، فهو لم يؤمن، كما أن هذا الإنسان فرداً كان أم صنفاً لا يقتحم العقبة في المستقبل لأن من كان هذا وصفه لا يقتحم العقبة، إلا إذا آمن وغير من حاله فهو لم يقتحم العقبة في الماضي ولا يقتحمها في المستقبل، بل هو باق على حاله على وجه الدوام.

ويحتمل أن هذا التعبير دعاء على هذا الصنف أو الشخص بألا يقتحم العقبة كما في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (الهمزة : ١) وقوله: ﴿فَنَلْهُمُ اللَّهَ أَفَّ يُؤَفِّكُونَ﴾ (التوبة : ٣٠) فإن من كان هذه صفته لا يستحق الدعاء له بالخير.

كما يحتمل الاستفهام المراد به التنديم والتوبيخ على ما فرطوا أو الحض على الإنفاق بمعنى «ألا اقتحم العقبة» وقد حذفت منه الهمزة ونحو هذا وارد في القرآن الكريم والفصيح من كلام العرب، فقد جاء فيه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ بدلالة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (١١٤) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٥﴾ (الشعراء : ٤١، ٤٢).

ونحو قول الشاعر:

«قالوا: تحبها؟ قلت: بهراً» أي: أتحبها، وقول الكمي:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ... ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب

أي: أو ذو الشيب يلعب؟

قال د. فاضل: وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة، فقد جمع هذا التعبير عدة معان في آن واحد: المضي والاستقبال والتوبيخ والحض والدعاء فهو أخبر أنه لم يقتحم العقبة فيما مضى من عمره، وأنه لا يقتحمها في المستقبل، وأنه وبخه على ذلك، ودعا عليه بعدم اقتحامها.

وقال ابن القيم في «البيان في أقسام القرآن»: ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه التي لا يصل إليها، حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من

الرق، ليخلصه الله من رق نفسه ورق عدوه، وبإطعام اليتيم والمساكين في يوم المجاعة، وبالإخلاص له سبحانه بالإيمان الذي هو خالص حقه، وهو تصديق خبره وطاعة أمره وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالصبر والرحمة، ويقبل وصية من أوصاه بها فيكون صابراً رحيماً في نفسه معيناً لغيره على الصبر والرحمة.

قال د. فاضل: واختيار هذا التعبير أنسب شيء ها هنا، فاختيار ﴿الْعَقَبَةُ﴾ بعد ﴿الْجَدِّينِ﴾ اختيار بديع، وهو كما قال الألوسي: إنّ ذكرها بعد النجدين جعل الاستعارة في الذروة العليا من البلاغة، وذلك أن النجد: وهو الطريق العالي المرتفع يؤدي إلى العقبة، وهي الطريق الوعر في الجبل فإن العقبة تقع في النجاد غالباً.

واختيار لفظ «الاقترحام» وما فيه من شدة ومخاطرة هو المناسب لبيان وعورة وصعوبة هذه العقبة، فإنه لم يعبر عن ذلك بالاجتياز ونحوه، ومما يدل على شدة هذه العقبة. فانظر كيف أن كلّ لفظة وقعت في مكانها المناسب وأن اختيار كل لفظة اختيار مناسب لجو السورة. فكل من الاقتحام والعقبة مناسب لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾. وذلك أن من معاني «الكبد» المشقة والقوة، وأن اقتحام العقبة فيه مشقة وتعب كما أن هذه الآية تناسب ما بعدها من المشقات والشدائد التي يعانيتها المسكين واليتيم، في اليوم ذي المسغبة.

ثم انظر علاقة هذه الآية بأول السورة وخاتمتها، وهو كيف أن الرسول كان في حال اقتحام للعقبة، وهو حال ببلد الله الحرام، يلقي ما يلقي من العنت والمشقة في تبليغ دعوة ربه. وبخاتمتها وهم الذين لم يقتحموا العقبة فيقعوا في عقبة جهنم أبد الأبد، وكانت عليهم مؤصدة.

﴿قَالَ تَمَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمُئِمَّنَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ (البَنَافِلُ: ١٧ - ٢٠).

قال د. فاضل: ثم انظر من ناحية أخرى كيف قدم التواصي بالصبر على التواصي بالرحمة ذلك لأنه تقدم ما يحتاج إلى الصبر من المكابدة والمشقة وانغمار الإنسان فيها، واقتحام العقبة وذكر النجدين. وآخر الرحمة لما جاء بعد ذلك من فك الرقاب واطعام الأيتام والمساكين فقدم التواصي بالصبر لما تقدم ما يدعو إليه.

وقد تقول: ولم لم يقل كما قال في سورة العصر: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾؟ فقد ذكر التواصي بالحق ثم ذكر بعده التواصي بالصبر. والجواب: أن المقام مختلف ففي سورة العصر كان الكلام على خسارة الإنسان على وجه العموم، فجاء بالتواصي بالحق على وجه العموم. ولما كان الكلام في سورة البلد على جزء من الحق وهو ما يتعلق بالرحمة والإطعام قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾. وقدم الحق في سورة العصر: لأنه الأهم ولأن الصبر إنما يكون صبراً على الحق. إذاً ليس المهم هو الصبر وإنما المهم أن يصبر على ماذا، ثم إن التمسك بالحق والتواصي به يحتاج إلى صبر، فقدم الحق لذلك بخلاف سورة البلد، فإنه قدم الصبر على الرحمة لما ذكرنا.

وقد يقال لم لم يقل أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال كما في مواطن أخرى من القرآن الكريم؟ والجواب: أن اختيار هذين اللفظين له عدة فوائد منها: أن الميمنة والمشأمة جمعت عدة معان، وهي كلها مرادة مطلوبة في آن واحد، ولو قال: أصحاب اليمين أو أصحاب الشمال لأعطى معناً واحداً. فأصحاب الميمنة هم أصحاب جهة اليمين التي فيها السعداء وهم الذين يؤتون صحائفهم بأيامهم، فيذهبون إلى الجنة، وهم أصحاب اليمن والخير والبركة على أنفسهم وعلى غيرهم، فإنهم أفاضوا خيرهم ومالهم على الفقراء والمحتاجين وتواصوا بالرحمة على خلق الله وهم ميامين على أنفسهم بأن رضي الله عنهم وأدخلهم الجنة.

وكذلك أصحاب المشأمة فهم أصحاب جهة الشمال التي فيها الأشقياء وهم الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم، ويساقون إلى النار وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم وعلى غيرهم في الدنيا والآخرة.

سُورَةُ الشُّمُسِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَبْتَ ثُمَّودُ يَطْعُونَهَا ﴾ (الشُّمُسِ: ١١).

قال ابن القيم: لم يذكر سبحانه في هذه السورة تكذيب أمة غير ثمود؛ قال شيخ الإسلام: هذا - والله أعلم - من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد ومدين، وقوم لوط، وغيرهم، ولهذا لما ذكرهم وعادا قال: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُنذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ (فُضِّلَتْ: ١٥ - ١٧). وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر، والأعمال السيئة كاللواط وبخس المكيال والميزان والفساد في الأرض كما في سورة هود والشعراء وغيرهما فكان في قوم لوط - مع الشرك - إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها، وفي قوم عاد - مع الشرك - التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا وشدة البطش وقولهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾. وفي أصحاب مدين - مع الشرك - الظلم في الأموال وفي قوم فرعون - مع الشرك - الفساد في الأرض والعلو.

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم. فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية، والتي لا يقوم لها شيء. وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم. فجمع لهم من الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم، بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان. وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال. أ. هـ.

قال ابن القيم: وقد يظهر في تخصيص ثمود هنا بالذكر، دون غيرهم معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (فُضِّلَتْ: ١٧)، وقال: ﴿وَأَيْنَا ثَمُودُ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ (الْأَنْعَامُ: ٥٩). أي موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم. فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيد، ولهذا لما قام قرنهم بقوم عاد قال: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾. ثم قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾. ولهذا أمكن عاد المكابرة وأن يقولوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ (هُود: ٥٣). ولم يمكن ذلك ثمود وقد رأوا البينة عياناً، وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة، فكان تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه. وهذا داء أكثر الهالكين، وهو أعم الأدوية وأغلبها على أهل الأرض والله أعلم.



سُورَةُ اللَّيْلِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ ﴾ (اللَّيْلِ : ٤) .

قال ابن القيم: فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار، ليس هو مرادفاً للفظ العمل، كما ظنه طائفة بل هو عمل مخصوص يهتم به صاحبه ويجتهد فيه. ولهذا قال في الجمعة: ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وهذه أحسن من قراءة من قرأ «فامضوا إلى ذكر الله» وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون، وعليكم السكينة. فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا» (رواه البخاري ومسلم).

فلم ينه عن السعي إلى الصلاة فإن الله أمر بالسعي إليها، بل نهاهم أن يأتوا إليها يسعون، فنهاهم عن الإتيان المتصف بسعي صاحبه، والإتيان فعل البدن وسعيه عدو البدن، وهو منهي عنه. وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام بها والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة، من بيع وغيره، والإقبال بالقلب على السعي إليها، وكذلك قوله في قصة فرعون لما قال له موسى: ﴿ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرَكَّنِي ﴾ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخْشِي ﴿١٩﴾ فَأَرْبُهُ الْكِبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾. فهذا اهتمام واجتهاد في حشر رعيته ومناداته فيهم. وكذلك قوله: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ (التَّوْحَةِ : ٢٠٥). فهو عمل بهمة واجتهاد ومنه سُمِّي الساعي على الصدقة، والساعي على الأرملة واليتيم. ومنه قوله: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾. وهو العمل الذي يقصده صاحبه ويعتني به ليرتب عليه ثواب أو عقاب، بخلاف المباحات المعتادة، فإنها لم تدخل في هذا السعي. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَّى ﴾ (٥) وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ يَحِلْ وَأَسْتَفْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ (اللَّيْلِ : ٥ - ١٠). ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ (الْآخِرَةِ : ١٩). وقوله: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ (الْمَائِدَةِ : ٣٣).

سُورَةُ الشَّرْحِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ ٧ ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ ﴾ (الشَّرْحُ : ٧، ٨)، فقال ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ عداه بحرف «إلى» لتضمينه معنى الإقبال والتوجه تشبيهاً بسير السائر إلى من عنده حاجته كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾ (الصَّافَّاتُ : ٩٩)، أفاده ابن عاشور.

سُورَةُ التِّينِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَاللَّيْلِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ ١ ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ٢ ﴿ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ ٣ ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ٤ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ﴾ (التِّينُ : ١ - ٥).

قال ابن القيم: فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة، فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما: وهو أرض بيت المقدس. فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً، وقد قال جماعة من المفسرين: أنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيها. فإن التين فاكهة مخلصه من شوائب التنغيص لا عجم له وهو على مقدار اللقم وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم ويدخل في الأدوية ومزاجه من أعدل الأمزجة وطبعه طبع الحياة الحرارة، والرطوبة، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة، ويوافق الباءة وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطباً ويابساً. وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر، فإن عوده يخرج ثمراً، يعصر منه هذا الدهن الذي هو مادة النور وصبغ للأكلين، وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يحصى. وشجره باق عبر السنين المتطاولة. وورقه لا يسقط وهذا الذي قالوا حق، ولا ينافي أن يكون منبته مراداً. فإن

منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة. فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتها، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين: وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل. فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم. ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى «جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران». فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع. ثم ثنى بنبوة المسيح ثم ختمه بنبوة محمد ﷺ. وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها ونبوة محمد ﷺ بعدهما بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم، ولما كان الغالب على بني إسرائيل حكم الحسّ ذكر ذلك عندهم مطابقاً للواقع. ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي.

سُورَةُ الْقَدَرِ

﴿ قَالَ تَعَالَىٰ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدَرِ: ﴿ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (الْقَدَرُ : ٥)، فقال ﴿ حَتَّىٰ ﴾ ولم يقل «إلى» لإدخال الغاية لبيان أنّ ليلة القدر تمتد بعد مطلع الفجر بحيث إنّ صلاة الفجر تعتبر واقعة في تلك الليلة لئلا يتوهم أنّ نهايتها كنهاية الفطر بآخر جزء من الليل، وهذا توسعة من الله في امتداد الليلة إلى ما بعد طلوع الفجر، أفاده ابن عاشور.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ (الزَّلْزَلَةُ: ١)، قال ابن عاشور: إضافة كلمة ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ إلى ضمير الأرض يفيد تمكنه منها وتكرره حتى كأنه عرف بنسبته إليها لكثرة اتصاله بها، أفاده ابن عاشور.

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالْعَادِيَّاتِ صَبْحًا ﴾ ١ ﴿ فَالْمُورِبَاتِ قَدْحًا ﴾ ٢ ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ ٣ ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ ٤ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ (الْعَادِيَّاتِ: ١ - ٥)، فقال ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ ٤ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ ٥ فعلين ماضيين ولم يأتيا على نسق الأوصاف قبلهما بصيغة اسم الفاعل للإشارة إلى أنَّ الكلام انتقل من القسم إلى الحكاية عن حصول ما ترتب على تلك الأوصاف الثلاثة مما قصد منها. فالفاء في قوله ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ عاطفة على وصف المغيرات والمعطوف بها من آثار وصف المغيرات وليست عاطفة على صفة مستقلة مثل الصفات الثلاث التي قبلها لأنَّ إثارة النقع وتوسط الجمع من آثار الإغارة صباحاً، وليس مقسماً بها أصالةً وإنما القسم بالأوصاف الثلاثة الأولى، أفاده ابن عاشور.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالْعَادِيَّاتِ صَبْحًا ﴾ ١ ﴿ فَالْمُورِبَاتِ قَدْحًا ﴾ ٢ ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ ٣ ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ ٤ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ ٥ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ (الْعَادِيَّاتِ: ١ - ٦).

قال د. الخضير: أقسم الله على شدة جحود الإنسان بالعاديات صباحاً. ومناسبة ذلك تذكير الجاحد بأن الخيل لا ينسى فضل مالكة عليه فيورد نفسه المهالك لأجله تقديراً لنعمة المنعم فلا تكن البهيمة خيراً وأوفى منك أيها الإنسان. «تدبر مجموعة (١)».

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (الجن: ٦ - ٨) .

قال في (الظلال): ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .. فهو شديد الحب لنفسه، ومن ثمَّ يحب الخير. ولكن كما يتمثله مالا وسلطة ومتاعاً بأعراض الحياة الدنيا. هذه فطرته. وهذا طبعه. ما لم يخالط الإيمان قلبه. فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته. ويحيل كنوده وجحوده اعترافاً بفضل الله وشكراً. كما يبدل أثرته وشحّه إثارة ورحة. ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح. وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا.

إن الإنسان - بغير إيمان - حقير صغير. حقير المطامع، صغير الاهتمامات. ومهما كبرت أطماعه. واشتد طموحه، وتعال أهدافه، فإنه يظل مرتكساً في حمأة الأرض، مقيداً بحدود العمر، سجيناً في سجن الذات. لا يطلقه ولا يرفعه إلا الإتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا، وأعظم من الذات.. عالم (خلقه) الله (الأول)، ويعود إلى الله (الباقي)، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء.



سُورَةُ الْقَارِعَةِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴾ (الْقَارِعَةُ: ١ - ٣)، فقال: ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ بالتأنيث، وكذا نجد الأغلب على أسماء الحشر التأنيث مثل: ﴿ الطَّامَّةُ ﴾ و﴿ الصَّاحَّةُ ﴾، قال د. فاضل: قد تزداد التاء للمبالغة في الوصف كقولهم: راوية لكثير الرواية، وإنما أنشأ المذكر لأنهم أرادوا أنه غاية في ذلك الوصف، وكذا كان الأغلب على أسماء الحشر التأنيث لما فيها من معنى المبالغة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن ما ختم بالتاء على وزن «فاعلة» كالداهية والقارعة والنازلة والقاصمة مما لم يرد به تأنيث «فاعل» يدل على العموم والشمول والشدة والمبالغة، فليس كل ما ينزل يسمى نازلة حتى يكون عاماً مستطيراً وشديداً قاهراً؛ تقول: حلت بهم نازلة أو جائحة: إذا عمَّتْهم بالبلاء، ولذا كانت أغلب أسماء الحشر مؤنثة لما فيها من العموم والشمول والشدة والقهر. أ.هـ.

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلْهَكُمُ التَّكْوِيْنُ ١ ﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢ ﴾ (التَّكْوِيْنُ: ١، ٢). عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ أَلْهَكُمُ التَّكْوِيْنُ ١ ﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢ ﴾ (التكوير: ١، ٢) فبكى ثم قال: يا ميمون ما أرى المقابر إلا زيارة ولا بد للزائر أن يرجع إلى منزله في الجنة أو النار. وقال د. ناصر: في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ٢ ﴾ (التَّكْوِيْنُ: ٢). إذا كانت الإقامة في القبر مجرد زيارة مع أنها قد تمتد آلاف السنين فبم نصف إقامتنا في الدنيا التي لا تتجاوز عدد سنين؟ تأمل ﴿ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلَّ الْعَادِينَ ﴾ (الْمُؤْتَفِكُونَ: ١١٣) فيا طول حسرة المفرطين. «تدبر مجموعة (١)».

سُورَةُ الْغَصْرِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالْعَصْرِ ١ ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿ ٢ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (الغَصْر: ١ - ٣).

قال في الظلال: والتواصي بالحق ضرورة. فالنهوض بالحق عسير. والمعوقات عن الحق كثيرة: هوى النفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة، وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين.. والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة. فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معاً فتضاعف. تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه وينجحه ويقف معه ويحبه ولا يخذله.. وهذا الدين - وهو الحق - لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال.

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة. فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة. ولا بد من الصبر. لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير. والصبر على الأذى والمشقة. والصبر على تبجح الباطل و(تسلط) الشر. والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماش المعالم، وبعد النهاية! والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتساند الجميع وتزودهم بالحب والعزم والإصرار.. إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها، ولا تبرز إلا من خلالها.. وإلا فهو الخسران والضياع.



سُورَةُ الْهُمَزَةِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ (الهُمَزَةُ: ٤، ٥) .

قال د. فاضل: لماذا لم يقل كما قال في سورة الهمزة: ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ فذلك له

أكثر من سبب، وكل تعبير هو أليق بمكانه من نواحٍ عدة منها:

١- إنه توسع في سورة الهمزة في ذكر صفات المعذب وتوسع في ذكر العذاب،

فقال: ﴿ وَيَلَّ لِكُلِّ هُمْزٍ لُحْمَةٌ ۝ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝ يُحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝

﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ۝ الَّتِي تَطْلُعُ

عَلَى الْأَفْعِدَةِ ۝ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ .

فقال في ذكر صفات المعذب، أنه ﴿ هُمْزٍ لُحْمَةٌ ﴾، وأنه ﴿ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، يُحْسَبُ

أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾، في حين لم يزد في سورة البلد على قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ولما

توسع في صفات المعذب توسع في ذكر عذابه فقال: ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝ وَمَا

أَدْرَاكَ ﴾ . فناسب ذلك ذكر الزيادة في سورة الهمزة دون سورة البلد.

٢- إنه ذكر في أول الهمزة ﴿ وَيَلَّ لِكُلِّ هُمْزٍ لُحْمَةٌ ﴾ فدعا عليهم بالهلاك الدائم

الذي لا ينقطع. ورفع ﴿ وَيَلَّ ﴾ يفيد الثبوت، فناسب الدلالة على الدوام، أن يقول:

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ للدلالة على الاستيثاق من غلق الأبواب عليهم.

٣- ذكر في سورة الهمزة أن هذا الكافر يجمع المال ويعدده ويحفظه فكلما حفظ المال

وجمعه وأغلق عليه الأبواب، واستوثق من حفظه أغلقت عليه أبواب جهنم واستوثق

منها بأنها مدت عليهم الأعمدة. فناسب الاستيثاق من حفظ المال وإيصاد الأبواب عليه

الاستيثاق وإطباق الأبواب عليه في النار. في حين أنه ذكر في سورة البلد أنه أهلك مالا

لبداً. فذلك أهلك المال وأنفقه، وهذا جمع المال وحفظه، فناسب ذكر الحفظ وشدة الاستيثاق

في سورة الهمزة ذكر الاستيثاق من غلق باب النار عليه، والجزاء من جنس العمل.

كما أنه ذكر في سورة الهمزة أن هذا الكافر ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ في الدنيا وأبقاه، وأنه لا يفارق المال، فعوقب بذلك بالخلود في النار، وإطباق أبوابها عليه والاستيثاق بالعمد الممدة عليها، للدلالة على خلوده في النار أبد الآبدين فحسبانه الخلود في الدنيا مقابل حقيقة الخلود في النار. فهناك ظن وهنا يقين. وهناك خلود مظنون في الدنيا وهنا خلود واقع حقيقة في النار. كما أنه ذكر في سورة الهمزة أن هذا الكافر يتعدى على الآخرين، فهو لم يكف آذاه عنهم، ولم ينلهم من خيره شيء، فهو يهمزهم ويلمزهم ويمنع خيره عنهم، فلم ينفق من ماله شيئاً. فلما اعتدى على الآخرين وآذاهم انبغى له الحبس لتخليص الناس من شره وعدوانه.



سُورَةُ الْفَيْثِكِ

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَبِ الْفَيْثِكِ ﴾ ﴾ (الْفَيْثِكِ : ١) ، قال ابن عاشور: إيثار ﴿ كَيْفَ ﴾ دون غيره من أسماء الاستفهام أو الموصول، فلم يقول: ألم تر ما فعل ربك، أو غيرها، للدلالة على حالة عجيبة يستحضرها من يعلم تفصيل القصة - وأوثر لفظ ﴿ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ دون غيره لأن مدلول هذا الفعل يعم أعمالاً كثيرة لا يدل عليها غيره وقال ﴿ رَبُّكَ ﴾ مضافاً إلى ضمير النبي ﷺ إيماءً إلى أن المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبي ﷺ إرهاباً لنبوته إذ كان ذلك عام مولده.

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

فائدة: ولما ذكر قبلها في سورة الماعون وصف المنافق بالبخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة قابل في هذه السورة البخل بـ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴾ . والسهو في الصلاة بقوله: ﴿ فَصَّلِ ﴾ والرياء بقوله: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ ومنع الزكاة بقوله: ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾ أراد به التصديق بلحم الأضاحي فقابل أربعاً بأربع.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ﴾ (الْكَوْثَرِ : ٣) .

فوصفه بكونه شائناً كأنه تعالى يقول هذا الذي يبغضك لا يقدر على شيء آخر سوى أنه يبغضك. والمبغض إذا عجز عن الإيذاء فحينئذ يحترق قلبه غيظاً وحسداً فتصير العداوة من أعظم أسباب حصول المحنة لذلك العدو. أفاده الرازي.

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَصَّلِ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ ﴾ (الْكَوْثَرِ : ٢) .

ولم يقل: «فصل لنا» لما في لفظ الرب من الإيحاء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلاً عن فرط إنعامه. أفاده ابن عاشور.

سُورَةُ النَّاسِ

فائدة : قال أبو حيان: ولما كانت مضرة الدين وهي آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت جاء في سورة الناس الاستعاذة منها بصفات ثلاث: «الرب والملك والإله» وإن اتحد المطلوب. وفي سورة الفلق الاستعاذة من ثلاث: «الغاسق والنفاثات والحاسد» بصفة واحدة وهي الرب وإن كثر الذي يستعاذ منه.



« الفهرس »

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مقدمة الكاتب	٣	سورة «الفرقان»	٢٥٧
سورة «الفاتحة»	٥	سورة «الشعراء»	٢٦٥
سورة «البقرة»	٢٣	سورة «النمل»	٢٦٩
سورة «آل عمران»	٦٦	سورة «القصص»	٢٨٠
سورة «النساء»	٨١	سورة «العنكبوت»	٢٨٧
سورة «المائدة»	٩٧	سورة «الروم»	٢٨٨
سورة «الأنعام»	١٠٤	سورة «لقمان»	٢٩٠
سورة «الأعراف»	١٢٠	سورة «السجدة»	٢٩٢
سورة «الأنفال»	١٤٧	سورة «الأحزاب»	٢٩٣
سورة «التوبة»	١٥٨	سورة «سبأ»	٢٩٧
سورة «يونس»	١٨٠	سورة «فاطر»	٣٠٠
سورة «هود»	١٨٤	سورة «يس»	٣١٠
سورة «يوسف»	١٨٩	سورة «الصفات»	٣١١
سورة «الرعد»	١٩٥	سورة «ص»	٣١٣
سورة «إبراهيم»	٢٠٠	سورة «الزمر»	٣١٧
سورة «الحجر»	٢٠٨	سورة «غافر»	٣٢٦
سورة «النحل»	٢١٦	سورة «فصلت»	٣٢٨
سورة «الإسراء»	٢٢٣	سورة «الشورى»	٣٣١
سورة «الكهف»	٢٢٥	سورة «الزخرف»	٣٣٥
سورة «مريم»	٢٣٠	سورة «الدخان»	٣٣٦
سورة «طه»	٢٣٣	سورة «الجنات»	٣٣٩
سورة «الأنبياء»	٢٣٦	سورة «الأحقاف»	٣٤٠
سورة «الحج»	٢٣٨	سورة «محمد»	٣٤١
سورة «المؤمنون»	٢٣٩	سورة «الفتح»	٣٤٣
سورة «النور»	٢٤٩	سورة «الحجرات»	٣٤٤

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
سورة «ق»	٣٤٥	سورة «النبأ»	٤١٤
سورة «الذاريات»	٣٥٣	سورة «النازعات»	٤١٥
سورة «الطور»	٣٥٥	سورة «عبس»	٤١٨
سورة «النجم»	٣٥٨	سورة «التكوير»	٤٢٠
سورة «القمر»	٣٦٢	سورة «الانفطار»	٤٢١
سورة «الرحمن»	٣٦٥	سورة «الانشقاق»	٤٢٢
سورة «الواقعة»	٣٦٨	سورة «البروج»	٤٢٣
سورة «الحديد»	٣٧٥	سورة «الأعلى»	٤٢٤
سورة «المجادلة»	٣٧٥	سورة «الغاشية»	٤٢٤
سورة «الحشر»	٣٧٦	سورة «الفجر»	٤٢٥
سورة «الصف»	٣٧٨	سورة «البلد»	٤٢٧
سورة «الجمعة»	٣٧٩	سورة «الشمس»	٤٣٤
سورة «المنافقون»	٣٨٠	سورة «الليل»	٤٣٦
سورة «الطلاق»	٣٨٦	سورة «الشرح»	٤٣٧
سورة «التحريم»	٣٨٧	سورة «التين»	٤٣٧
سورة «الملك»	٣٨٩	سورة «القدر»	٤٣٨
سورة «القلم»	٣٩١	سورة «الزلزلة»	٤٣٩
سورة «الحاقة»	٣٩٤	سورة «العاديات»	٤٣٩
سورة «المعارج»	٣٩٥	سورة «القارعة»	٤٤١
سورة «نوح»	٣٩٧	سورة «التكاثر»	٤٤١
سورة «الجن»	٣٩٨	سورة «العصر»	٤٤٢
سورة «المزمل»	٤٠٠	سورة «الهمزة»	٤٤٣
سورة «المدثر»	٤٠٣	سورة «الفيل»	٤٤٥
سورة «القيامة»	٤٠٦	سورة «الكوثر»	٤٤٥
سورة «الإنسان»	٤١٠	سورة «الناس»	٤٤٦
سورة «المرسلات»	٤١٣	الفهرس	٤٤٧